المركز القومي للترجمة

هـ.ج.ويلز

القصص القصيرة الكاملة

(1)

ترجمة: رؤوف وصفى

1816



سلسلة الإبداع القصصي





القصص القصيرة الكاملة

(١)

المركز القومي للترجمة
إشراف: جابر عصفور

سلسلة الإبداع القصصي
المشرف على السلسلة: خيري دومة

- العدد: 1816
- القصص القصيرة الكاملة (١)
- هـ . ج. ويلز
- رؤوف وصفي
- الطبعة الأولى 2011

هذه ترجمة:

The Complete Short Stories of H.G. Wells

شارع الجبلاية بالأوبرا- الجزيرة- القاهرة. ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤- ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.
E-mail: egyptcouncil@yahoo.com Tel: 27354524- 27354526 Fax: 27354554

ه . ج . ويلز

القصص القصيرة الكاملة

(١)

ترجمة : رؤوف وصفى



2011

ويلز، هربرت جورج، ١٨١٦ ـ ١٩٤٦ .
القصص القصيرة الكاملة/ تأليف: هـ. ج. ويلز؛
ترجمة: رؤوف وصفى. ـ القاهرة : الهيئة المصرية
العامة للكتاب، ٢٠١١.
مج ١ ؛ ٢٠سم. ـ (سلسلة ترجمة)
تدمك ٣ ٩٦٤ ٤٢١ ٩٧٧ ٩٧٨
١ ـ القصص الإنجليزية.
٢ ـ القصص القصيرة.
أ ـ وصفى، رؤوف. (مترجم)
رقم الإيداع بدار الكتب ١٥٥٤٦/ ٢٠١١
I. S. B. N 978 - 977 - 421 - 964 - 3
ديوى ٨٢٣

المحتـويات

مقدمة المترجم

كتب هـ. ج. ويلز (١٨٦٦ ـ ١٩٤٦) الكاتب البريطانى ذائع الصيت، جُلّ قصصه القصيرة فى السنين العشر الأولى من حياته المهنية الأدبية. آخذًا فى اعتباره أن يكون هدفها الأساسى، أن تتضمن أحداثًا مسلية وممتعة. وعجائب العلم ـ التى اعتمد (ويلز) عليها ـ باتت فى الوقت الحاضر متقادمة وغير مثيرة، ومع هذا فإنه من المدهش حقًا كيف أن الكثير من هذه القصص القصيرة، ما زال يحتفظ بجاذبيته ووقعه على النفس حتى الآن.

وبين القصص المشهورة لـ (ويلز)، الخمس التالية: "بلد العميان" و"باب فى الجدار" و"النجم" و"أثناء العملية الجراحية" و"الرجل الذى يمكنه عمل المعجزات" . وليس من قبيل الصدفة أن كل تلك القصص تعبر بشكل واضح عن الموضوعات والأفكار، التى يوليها ويلز جل اهتمامه وفكره.

ففى قصة "أثناء العملية الجراحية"، نرى التوتر يتصاعد بين وجهات نظر العلم والمسيحية، فيما يتعلق بشئون عالمنا ـ الذى نعيش

فيه ـ إلى أقصى مدى له. ومنذ بداية القصة نرى بوضوح النظرة "البيولوجية"، فالعواطف السامية والأحاسيس الأخلاقية، وحتى الإيثار اللطيف فى الحب، تنبثق كلها من الرغبات والمخاوف الأولية للحيوان البسيط، إنها الإطار الذى تتبدد من خلاله الحرية العقلية للإنسان. وفى تلك القصة نرى الراوى المجهول الذى يطرح علينا تلك الأفكار، وهو ينتظر إجراء عملية جراحية له. وخلال مرضه نجد أن عواطفه قد نضبت، وهو يعزو هذه الحالة ـ بشكل قاطع ـ إلى حالته البدنية الحرجة. ويتصور أن حتى ميله طوال حياته لكى يكون بارد العواطف، ربما يكون له سبب مماثل. وبينما نرى أن كل شىء حوله فى الحياة الطبيعية ينبض بالحياة، وينشط مع نسمات الربيع الرقيقة، نجد أن حالة الحزن والاكتئاب لا تفارقه أبدًا.

وبينما كان الراوى ينام فى إحدى الحدائق، تراءى له حلم مرعب لأهوال البعث فى يوم القيامة، أجساد ملطخة بالدماء تفجر الأرض وتخرج منها، مثلما تشق البذورُ التربةَ ليخرج النبات إلى الحياة، ويشير ذلك مسبقًا إلى أحداث الولادة الجديدة، التى تتضمنها هذه القصة.

وضمن أحداث قصة "أثناء العملية الجراحية"، تخدير الراوى بالكلوروفورم، ولكنه ـ لدهشته ـ يجد نفسه واعيًا لما حوله، وأنه يمكنه معرفة ما يدور فى أذهان الأطباء، الذين يجرون له العملية الجراحية. وبدون قصد يقطع الأطباء وريدًا فى جسمه، وعندها يتحرر المريض من العالم المادى الأرضى، ويدخل فى حالة يسميها الباحثون الماديون "الحياة خارج الجسد".

وقد تمكن (ويلز) من إقناعنا بإمكان وجود عقل أو فكر خارج أنسجة الدماغ، بطريقتين بارعتين للغاية: "الوصف المفصل تمامًا، والتطابق المعقول والمبرر بين الأحداث الغريبة ومعلوماتنا عن العالم المعاصر الذى نعيشه فى الوقت الحاضر. ويبدو منطقيًا إلى حد كبير أن يبقى الراوى - والحال هذه - قابعًا فى مكانه، فى حين يبتعد الجسم بل والغرفة والمبنى والمدينة والدولة وكوكب الأرض برمته والمجموعة الشمسية والنجوم ذاتها، عنه باستمرار. وهكذا يستحيل إلى نقطة وعى وإدراك مستقلة عن أى شىء مادى، وتظل تراقب عالم البشر. وهذا موقف يرفع وجهة نظر (ويلز) العلمية الجافة عن الحياة، إلى أقصى أفق ممكن لها.

فى البداية يشعر الراوى فى قصة "أثناء العملية الجراحية" بالهدوء والصفاء، ولكنه - أخيرًا - بعد أن يسيطر عليه إحساسه بالوحدة وفقد الإحساس بالمكان والزمان بسبب وجوده بمعزل عن الكون - يشعر بتولد أحاسيس متقدة مفعمة بالتعاطف مع الناس، والرغبة فى مشاركتهم والاختلاط بهم.

إن قصة "أثناء العملية الجراحية" تطرح علينا صورًا مؤثرة جدًا من الأسطورة والخيال داخل الصورة الواقعية المفضلة للعالم الحقيقى ببراعة لا تقل عن جرأتها. كما أن القضايا الغيبية تعزز من تأثير القصة ووقعها؛ لأنها تظهر بشكل محكم مدروس فى سياق القصة ولا تترك شيئًا للصدفة. وتتميز هذه القصة بأنها تخلق تداعيات للأحداث، وليس مجرد خاتمة لها، فهى تطرح رموزًا عميقة المغزى وليس مجرد أقوال وحجج يمكن الرد عليها. وهذه

القصة ـ بل وكثير غيرها ـ تمثل النمط العام المميز لقصص (ويلز) القصيرة.

ففى معظم قصص (ويلز) نرى صراعًا بين عالمنا اليومى وعالم آخر أكثر غرابة. وتفاجئنا أحداث غير متوقعة توحى بسطحية الأحداث التى تمر بنا فى حياتنا، وتعرضنا للمخاطر وتشعرنا بعدم الأمان. ويقدم لنا (ويلز) عادة هذا الظهور المفاجئ للأحداث بشكل مؤثر وبطرق متعددة، ويختار لها ببراعة أماكن وأجواء واقعية تمامًا. كما يتتبع أصولها إلى إحدى المواطن التى لم يسبر العلم غورها، حيث لا تنطبق القواعد المعروفة عادة، مثل الفضاء (فى قصتَى "النجم" و"بيضة من البللور") والمحيط (فى قصتَى: "الهاوية" و"غزاة البحر") والغابة (فى قصتى: "زهرة الأوركيد العجيبة" و"إمبراطورية النمل") وعالم الأرواح (فى قصتَى: "المتجر المسحور" و"الشبح قليل الخبرة") ومجال الاكتشافات أو الاختراعات العلمية الجديدة الثورية (فى قصتَى: "المعجل الجديد" و"المدرعات الأرضية") وحالات الخضوع لتأثير المخدر (القلنسوة الحمراء" و"قصة المرحوم السيد القشام") وحتى أعماق الذهن أو الفكر (فى قصتَى: "أثناء العملية الجراحية" و"باب فى الجدار").

وفى اللحظة التى يصطدم فيها العالمان بعضهما ببعض، عادة ما نرى شخصًا غريبًا يتلقى آثار هذا الاصطدام. شخص ما يشبه (ويلز) نفسه، من حيث إنه يكون فعلاً مختلفًا مع إجماع أفراد المجتمع، على حقيقة أمر ما، فعلى سبيل المثال، هناك (نوينز) فى قصة "بلد العميان"، وهو قارئ للكتب بشكل غير عادى، وقد سافر

كثيرًا إلى أماكن نائية للغاية عن موطنه الأصلى. وكذلك الراوى فى قصة "أثناء العملية الجراحية"، فيما يتعلق بالعالم المنعزل أو المستقل علميًا.

وفى أفضل قصص (ويلز) نجد أن الأحداث الغريبة المدهشة، التى تقترن بظهور مجموعة من الناس، تصور وجودهم بشكل مسرحى غريب، وتأخذنا معهم إلى آفاق جديدة توحى بالكثير. فعلى سبيل المثال، نجد (نونيز) - فى "بلد العميان" - منفصلاً تمامًا عن مواطنيه المحليين، وأن إمكانية شعور أولئك الناس بالسعادة تتم من خلال درايته ومعرفته هو بالعالم المحيط بهم. ويكون المراقب العلمى منفصلاً تمامًا عن العالم الواقعى، ومن ثم نرى أنه يستحيل عليهم أن يقبلوا الحياة الطبيعية أو أن يجدوا السعادة فى أى مكان آخر خارجها.

وعلى حين غرة، نرى بعض الغرباء أو الدخلاء يطلون علينا على نحو مدهش ورائع، ولكن يتسم بالعذاب والألم. ففى قصتى "التفاحة" و"حلم بمعركة (أرمجدون)"، يضطر راوٍ تعس قليل الحظ، أن يشارك نفس مقصورته فى القطار مع شخص يقوم بترديد نبوءته ويجر السامع - دون رحمة - إلى حالة يتأثر فيها بالهاجس المروّع المسيطر عليه. وفى قصة "بيضة من البللور"، نرى عالمًا شابًا يتأثر كثيرًا بقضية صاحب متجر، يدعى السيد (كيف)، يهرب من ضغوط اقتصادية تثقل كاهله - وكذلك من أسرته العنيفة - عن طريق التحديق خلسة فى بللورة عجيبة، يمكنه أن يرى فيها المشاهد الطبيعية لسطح كوكب المريخ! وبعد موت (كيف)، نرى

العالم الشاب يبحث ـ دون أن تفتر عزيمته ـ عن تلك البيضة البللورية المفقودة.

إن الرؤى والمفاجآت التى تكشف عنها قصص (ويلز) القصيرة، تترك للقارئ مدى واسعًا فى تفسيرها؛ إذ يستطيع أن ينسرها بشكل أسطورى أو نفسى أو اجتماعى أو غير ذلك. ولكننا نلاحظ أن (ويلز)، فى أواخر مسيرته الأدبية، يترك لنا لهذا التفسير مساحة أقل والحقيقة أنه رغم كل ذلك، يستخدم (ويلز) ـ بوضوح ـ رموزًا وإشارات تختلف تمامًا عن تلك التى شاعت فى الأدب الغربى طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حيث يتحدى بخلق معانٍ غير عقلانية بالمرة للعالم الآلى الذى تفرضه علينا النظريات العلمية وفى حين يبدو لنا فى البداية أن (ويلز) يعرض علينا تضاربًا بين الواقع والرمز، فإن الخيالات والتصورات الغريبة، التى يفاجئنا بها ليس المقصود أن تكون بديلاً للواقع، وإنما امتدادًا خياليًا له. ولعله يُفهم ضمنًا من ذلك، أنه فى آخر الأمر سوف يتمكن العلم من استيعاب الأشياء الخيالية الحالية، داخل نسيج عالمه المبنى من الحقائق.

وقصص (ويلز) قوية فى كشفها عن العجائب والغرائب، فهى لا تطرح علينا سوى إحساس رمزى وغامض بالأمور الغيبية أو التى فوق طاقة البشر. فعلى سبيل المثال، نرى فى قصتين تعبيرًا عن التجديف أو الكفر، وفيها أشياء صنعها بشر، ولكن يحسبها الناس من فعل الآلهة، كما فى قصة "منظار جيمى وآلهة الأساطير" و"فى الهاوية". كما أن بهما شخصيات تفسر ـ على نحو خاطئ ـ كل

الأشياء الغريبة وغير المألوفة على أنها أشياء سماوية أو مقدسة، غير أن الشخوص الأخرى تسخر منها وتستهزئ بها بشكل ضمنى غير صريح. والرأى عند (ويلز)، أن الدين ينبثق من العقل البدائى المفتون بالأساطير والخيال، والذى يخفق فى فهم العالم المادى الواقعى الذى نعيش فيه.

ويرتبط ـ بشكل مهم ـ بالرموز التى نلاحظها بكثرة فى قصص (ويلز) موضوع "الصور أو الأفكار المتداخلة"، وهى عبارة عن مقارنة نراها ـ على سبيل المثال ـ فى قصتى "الحالة المثيرة لعينى (ديفيد سون)" و"قصة المرحوم السيد (الفشام)". وتعبير "الصور أو الأفكار المتداخلة" ثم ابتكاره فى القرن التاسع عشر، حيث بدأ عرض شرائح زجاجية مصورة ومنزلقة، فى جهاز عرض على شاشة كبيرة. وكان يتم وقتئذٍ إنارة هذه الشرائح وإعتامها ـ عن طريق تحريك شموع مضاءة خلفها ـ على التوالى؛ وذلك بهدف الإخفاء التدريجى للصورة الأولى فى الثانية. ويكمن مغزى تعبير "الصور أو الأفكار المتداخلة"، فى أن كل تغيير صورة إلى أخرى، يُوجد لحظة تكون فيها كلتا الصورتين القديمة والجديدة، واضحتين، بيد أن الجديدة لا تغطى القديمة، لأنها ما زالت غير مألوفة.

وبينما يوحى لنا هذا الابتكار، بأن ثمة شيئًا ما غامضًا أو محيرًا فى المجهول الذى لا نعلمه، فإن مقارنة الصورتين القديمة والجديدة المتداخلتين، تحمل ضمنًا فكرة التطور التاريخى، من ماض نعرفه تمامًا إلى مستقبل مجهول، ولكن يمكن توقعه والتنبؤ به. إن حيرتنا هذه ربما تكون رد فعل أوليًا لشىء ما مخطط له أن يصبح أكثر وضوحًا لنا فيما بعد.

كان (ويلز) يعادى الخرافات بكل ما أوتى من قوة، ونلاحظ أن الأرواح أو الأشباح التى تتجلى فى بعض قصصه، هى مجرد كيانات ضعيفة أقل مرتبة من البشر، وتبدو كصورة هزلية، وتفسر لنا - عادة - عقلانيًا، على أنها جزء من بُعد رابع، وسوف يتمكن العلم فى يوم ما من سبر غوره.

غير أن (ويلز) اكتشف فى قصصه القصيرة الأخيرة، أنه يبحث عن شىء مثل ديانة يوتوبية مثالية، تنبثق من عقول الجنس البشرى. وإن حالة "الحيوانية" المروعة والمثيرة للشفقة التى أصابت الضحايا، فى بعض قصص (ويلز)، وكذا الابتهاج الوحشى الذى شعر به الجناة، يكشف لنا الحقيقة المؤلمة والخبيثة، التى تتوارى تحت سطح الحضارة. ففى قصتى "إمبراطورية النمل" و"غزاة البحر"، يجد الجنس البشرى نفسه مدفوعًا إلى تنافس وحيد الهدف، مع أجناس أخرى تسعى إلى إزاحة الإنسان عن عرشه أو مكانته بصفته سيدًا بلا منازع للكون، وهذه الفكرة يوسعها (ويلز) إلى أقصى مدى مدمر فى روايته "حرب العوالم".

وتتجسد كل تلك النزاعات والأهداف بشكل رائع فى قصة "النجم" التى ترك فيها (ويلز) لخياله العنان، لكى يصل إلى أبعد مدى له، ويرتفع إلى مستوى أحداث القصة تمامًا. وفى تلك القصة يأتى التحدى للرضا عن النفس، من اصطدام كوكب شارد بكوكب "نبتون"، ويتم رؤية أول دليل على ذلك الاضطراب الكونى، بالتلسكوب فقط على كوكب الأرض. لكن لم يمر وقت طويل، قبل أن تبدأ كتلة متوهجة فى الازدياد، حتى انتشرت فى السماء بشكل جلىّ للجميع.

وبينما يدنو "النجم" من كوكب الأرض، ويؤثر فى كل الأحداث اليومية، أخذ الرعب يدب فى قلوب الناس، وأدركوا أن الظروف والأحوال التى كانت مستقرة فيما مضى لم تعد كذلك، وأن التاريخ الجيولوجى للأرض يتسارع بشكل مذهل.

"وفوق كل جبال الأرض، بدأ الثلج والجليد فى الذوبان فى تلك الليلة، وتدفقت كل الأنهار القادمة من أعالى البلاد، وهى كثيفة وعكرة، ثم لا تلبث - فى آخر مسار لها - أن تحمل أشجارًا محطمة وأجسادًا لبشر وحيوانات لاقت حتفها".

فيلاحظ - بما لا يدع مجالاً للشك - ذلك الدمج بين البشر والحيوانات، بسبب تساويهما فى الضعف وقلة الحيلة فى مواجهة الظروف الكارثية المروّعة، وانتهاء أمرهما فى شكل أجساد طافية على المياه، إثر وقوع كارثة حقيقية مفاجئة. والجدير بالملاحظة أيضًا أن (ويلز) يعبر بوضوح عن التسلسل المنطقى لنتائج الكارثة - إذا ارتفعت درجة الحرارة، فسوف يذوب الجليد ويبدأ الفيضان فى الحدوث - مما يزيد من مصداقية القصة وقوة تأثيرها.

ومن خلال سلسلة أحداث كثيرة متعاقبة لتلك الكارثة الكونية، يتمكن (ويلز) من بناء صورة عامة مثيرة، تتناسب مع حجم الحدث المروع، والقطع السريع من مشهد إلى آخر، يحول دون ظهور شكل بشرى دخيل فى قلب القصة. إلا أن عالمًا رياضيًا بارزًا - وهو أول شخص يدرك حقيقة ما يحدث - يجد فى تفهم الهلاك الوشيك للبشرية إثباتًا لهويته البارعة الاستثنائية.

ويمكن القول : إن قصة "النجم" تحاكى ـ بشكل ساخر ـ قصة "الإنجيل" عن نجم يسطع لأول مرة، إيذانًا بميلاد السيد المسيح (عيسى بن مريم). ولكن بدلاً من الإشارة إلى رضا الله عن الإنسان، فإن (ويلز) يلمح إلى لا مبالاة الطبيعة. وإلى حد ما، فإن هذه القصة ليست تصورًا خياليًا وإنما هجائيًا، فهى أضحوكة تهدف إلى معاداة المعتقدات الدينية المسيحية، وتتسم بما أطلق عليه "الوحشية الهازئة الباردة" فى أدب (ويلز). ومن المعتاد أن ينطوى الهجاء على جانب إيجابى معين، وبالفعل يورد (ويلز) هذا عندما يقول: إنه بعد توقف الكارثة، تجمع الناجون بعضهم مع بعض فى "اتحاد جديد". والمقصود هنا أنهم وجدوا فى الكارثة الكونية تجربة فريدة مشتركة، تكفى لربطهم جميعًا فى مجتمع عالمى حقيقى. وهكذا نرى أن تحدى الطبيعة لهم نجح فى الوقت الذى فشل فيه الوعظ والإرشاد الدينى. ومما يدعو إلى السخرية هنا، أن "النجم" يبشر ببدء قدوم عصر من الحب والسلام.

ولكن فى إحدى المفاجآت بارعة التصوير؛ لـ (ويلز)، نراه فى قصته "النجم"، يطرح علينا حدثًا ممتعًا وفى نفس الوقت، لا يمكن التنبؤ به؛ إذ تجد الفقرة الأخيرة تسحب القصة ـ ونحن معها بالطبع ـ إلى زمن سابق للأحداث ، مما يضع القصة فى إطار آخر تمامًا؛ إذ يقال لنا: إن الفلكيين المريخيين يعلمون أن التحول الذى حدث لكوكب "الأرض"، كان بالغ الضعف بحيث لا يذكر. "ويدل ذلك فقط على مدى ضعف الكارثة التى ألمت بالبشر، كما يبدو لنا من على مسافة مئات الملايين من الأميال".

وتنتهى قصة "النجم"، كما بدأت، بمشاهد من المراصد الفلكية. وهنا نرى أن رمز عدسة التلسكوب، يُدخل فى أذهاننا ـ بطريقة غير مباشرة ـ ضيق الأفق الذى تتميز به كل وجهات النظر المتباينة، ويجدر ألا يغيب عنا أن الإشارة إلى "اتحاد جديد" فى هذه القصة، هى لفتة مثالية يوتوبية، ولكن بشكل غير واضح، ونجد أن أكثر قصص (ويلز)القصيرة تنطوى على مغزى أكبر، ولكن يُطرح بكيفية حاذقة من خلال التداعيات الرمزية لها، والتى تتسم عادة بالهدم وزعزعة شىء ما بداخلنا.. أما القيم الإيجابية فنجد أن التعبير عنها فى قصص (ويلز) أقل، ويحدث ذلك من خلال كلمات الراوى، أكثر مما نراه فى أحداث القصة ذاتها.

وفى قصص (ويلز) ينجح الراوى فى التحديق بنظرة ثاقبة مطمئنة إلى عالم يعج بحقائق متغيرة أو متلاشية، وذلك بتركيزه الشديد على التفاصيل الواقعية، واحترامه الواضح لقدرات العلم وإمكاناته، وشجبه لأولئك الذين يطلقون ـ بعدم تحمل للمسئولية ـ هذه القدرات من عقالها. إن رد فعله العاطفى لإفساد العالم الطبيعى الذى نعيش فيه، أمر ممتع حقًا؛ لأن الخيال يحوّل حتى الأحداث المروّعة، إلى حكايات يمكن تلقيها بسرور واطمئنان. بينما نجد أن تكرار أسلوب الحكاية عن بعد ـ مثل الرجوع إلى حدث مشكوك فيه أو إلى شهادة شخصية خيالية ـ يضعف من مصداقية القصة وارتباط القارئ بها.

ويزيد (ويلز) من سهولة استيعاب القارئ للقصة بعرض شخصياته وأحداثه بأسلوب متمكن نابض بالحياة، وهو أسلوب

طوره (ويلز) فى مقالاته وكتاباته، ويتسم بالارتجال المرح والمبهج المتواصل، الذى لا يكاد يتوقف لحظة، مما يجعل قراءة قصص (ويلز) متعة لا تنسى.

وربما يكون من المفيد هنا، أن نتكلم قليلاً عن استخدام (ويلز) للغة، وهذا الجانب غالبًا لا يلقى اهتمامًا كبيرًا من النقاد الأدبيين، ونحن لدينا مبرر معقول للقول بأن (ويلز) دليل رئيسى على صحة القول المأثور بأن الكلام النثرى الجيد؛ يشبه لوح زجاج النافذة الشفاف، أى كلما كان الكلام جميلاً وواضحًا أتاح للقارئ الرؤية من خلاله.

والقول بأن (ويلز) كان يكتب بسرعة كيفما اتفق ليس صحيحًا بالضرورة؛ إذ إن بعض العبارات والفقرات التى وردت فى قصصه يمكن الاستمتاع بها فى حد ذاتها. وكتابات (ويلز) أيضًا بها ابتكارات لفظية متواصلة، ومن ثم تتسم قصصه بالبهجة والحيوية نتيجة استخدام اللغة. وأحيانًا يلجأ (ويلز) إلى الصيغة الشعرية المكتوبة بكلام نثرى عادى.

وبمراعاة أن أسلوبه الأدبى تشكل فى تسعينيات القرن التاسع عشر، فإننا نرى (ويلز) متحررًا تمامًا من الاستخدامات "الفيكتورية"، وإنما يستخدم كلماته الخاصة المبتكرة. والحقيقة أن (ويلز) كان يتهرب دائمًا من الملل، الذى كثر فى أدب القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ليس باتباع الأنماط والأساليب التجريبية - غير الواثقة من نفسها - التى طرحها المجددون والمحدثون، وإنما بإحياء جوانب الوضوح والصفاء والتجرد والتحرر القصصى.

وإذا كانت بعض قصص (ويلز) تتضمن إعادة منهجية للواقع القديم، مع وجود تهديد بالخطر يمكن ملاحظته من حاضر مستقر وملائم، فإن محاولة السيطرة على أكثر قوى الطبيعة عمقًا أمر خطير للغاية، ولكن حيث إننا معرضون دائمًا لحدوث اضطرابات وكوارث طبيعية، فلعلنا نسلك طريقًا علميًا بإصرار واهتمام بحثًا عن مخرج. وكما نرى فإن هذه التناقضات الظاهرية، تكون دائمًا ذات دور محورى فى قصص (هـ . ج. ويلز)، التى تعد قراءتها متعة لا تنسى.

وعندما اقتربت الحرب العالمية الثانية (١٩٣٩ ـ ١٩٤٥) أعلن (ويلز) عن خوفه من أن الحضارة الإنسانية أصبحت على شفا حافة تدمير نفسها. وفى بعض قصصه القصيرة المبدعة الأخيرة ذات المغزى، عاد إلى التشاؤم الملازم له، مثلما كان حاله عندما كتب رواياته الرومانسية العلمية الأولى.

وفى قصة "شكل الأشياء القادمة"، عاد (ويلز) إلى أسلوب كتابة تاريخ المستقبل، وصوّر البشرية وهى تتعافى بعد حرب طاحنة مدمرة فى منتصف القرن العشرين. وهذا ما تخيله منذ عشرين عامًا مضت فى قصته "العالم يتحرر" التى يتنبأ فيها باستخدام ما يشبه الأسلحة النووية.

كان (ويلز) يؤمن بفكرة المدينة المثالية الفاضلة (اليوتوبيا)، ويعمل من أجلها، تلك الفكرة التى يمكن الوصول إليها من خلال ما أسماه "التفكير العام"، أى اجتماع العقول المتعلمة بعضها مع بعض على طاولة البحث. وعندئذ ينشأ بسلام نظام اجتماعى جديد

تعززه "عمليات الوراثة"، ويتم الحفاظ على هذا العالم المثالى بواسطة ـ ونقتبس هنا كلمات (ويلز) الأخيرة فى "شكل الأشياء القادمة" ـ نظام اجتماعى صارم من رجال ونساء مكرِّسين أنفسَهم للدين، يبذلون كل جهدهم فى طرح نظام جديد من المعيشة وتطبيقه على جنسنا كله".

كان تعبير "رومانسية علمية" مؤشر جيد لمحتوى الروايات والقصص القصيرة التى أبدعها (ويلز) ـ ومثله مثل التعبير الحديث "خيال علمى" —وكان يربط فيه بين نقيضين واضحين: العلم والفن، أو المعرفة والخيال. وفى رومانسيات (ويلز) العلمية، نجد أن الإنسان يجمع بين روح هائمة تسعى لكى تخترق حواجز الواقع المادى، وحيوان ذكى بشكل غير كامل تشكِّله قوى الطبيعة.

وتسيطر الروح المغامرة على سلاح العلم كوسيلة لتحرير نفسها، لكن عندماً تتضح نتائج "الفرضيات المستحيلة" لـ (ويلز)، يصيبها اليأس والإحباط، بل ربما تتحول إلى وحش مروع. و"آلة الزمن" نموذج لأبطال قصص (ويلز)، حيث يتحدى فيها الحقائق والأفكار الواقعية المعروفة بحقائق وأفكار أخرى، يبتدعها من خلال العلم.

ونجده فى الصفحات الأولى من قصة "آلة الزمن"، يحتال على مجموعة من الضيوف بمنزله ويصيبهم بالقلق والإرباك ومنهم الراوى ـ وذلك بتحديه لأفكارهم عن الزمان والمكان (الزمكان). ومن خلال افتخارنا بأنفسنا، بسبب استطاعتنا فهم أفكاره أفضل من كل تلك الشخصيات الثانوية، فإننا نصبح ـ دون أن ندرك ذلك ـ الضحايا الحقيقيين لـ (ويلز)؛ إذ يكون قد نجح فى إغرائنا

بالاستثمار الخيالى لفكرته عن السفر عبر الزمن. ونجد أنفسنا مسحوبين - بلا رحمة - إلى داخل الرؤية المروعة التى يقودنا إليها!

إن حاجة (ويلز) إلى تفريغ أحاسيسه وخبراته المؤثرة والمحركة فى مضمون رواياته وقصصه القصيرة، بما يكسبها معنى مؤثرًا، جعل (ويلز) متعجلاً بالنسبة لحدود الفن وقيوده. وفى نفس الوقت فإن الحاجة إلى إنصاف تلك الخبرات من داخلها دفعه باستمرار لكتابة القصص الخيالية التى اشتهر بها. وواقع الأمر أنه كان من الضرورى لنجاح كتاباته أن يحقق بعض التفاعل الخلاّق، بين هاتين الرغبتين وتداعياتهما المتناقضة. وهذا التحرك أو الدوران المستمر حول العالم الداخلى للفن والعالم الخارجى للعلم والسياسة، يجعل قصص (ويلز) متفردة وذات مذاق خاص.

إن تحديد متى ينتهى وصف الآلات والمخططات المبتكرة العجيبة، ومتى يبدأ التشويش والتفكك والملل مهمة صعبة لأى قارئ لـ (ويلز). ولفهم أعماله وتقييمها، يجب أن نستعد لقبول وجود ارتباطات حقيقية مهمة بين المعانى، التى نطلقها عند اختيار المعلومات وصياغتها فى شكل أخبار أو سياسات أو تاريخ أو أساطير، وتلك المعانى التى نخلقها عندما نؤلف قصصًا للتسلية والإمتاع. ولكن علينا أن نحتفظ بدرجة متساوية من الفهم الصحيح لكيفية اختلاف حقائقها المتعددة فى الحياة.

إن مجرد فهمنا لأفكار (ويلز) لا يؤهلنا لمهمة سبر غوره وتحليل رواياته وقصصه القصيرة بدقة وتميز كافيين. إذ إن المسميات أو التصنيفات تفشل فى الانطباق عليه، ومن ثم فإن البيانات الجزافية

عن أفكاره، تتسم بميل مربك أو محبط بحيث تصح عند عكسها.
وكان (ويلز) يوتوبيًا - أى محبًا للحياة المثالية - ومتفائلاً فى معظم الأحيان وعلى نطاق واسع، وكان مؤمنًا بالفردية أو الاستقلالية، وكان ملحدًا وفى نفس الوقت متنبئًا دينيًا!

رؤوف وصفى

إمبراطورية النمل

(١)

عندما صدرت التعليمات للقبطان (جيريللو)، بأن يبحر فى سفينة المدفعية الجديدة (بنيامين كونستانت)، إلى (بادامـا) على ذراع (باتيمو) من نهر (جوارامـاديما)[١] ليساعد السكان هناك على مقاومة وباء النمل، ساورته الشكوك بأن السلطات تتهكم عليه. لقد كانت ترقيته مخالفة للقواعد والقوانين، ومرتبطة بالمشاعر العاطفية، ومعتمدة على نفو ـ سيدة برازيلية ذات شأن وقعت أسيرة عينيه الأخّاذتين. وقد أبدى أشخاص مثل (دياريو) و(أوفوتوريو) تعليقات وقحة باعثة على الأسى، بخصوص هذا الأمر، وشعر بأنه على وشك التعرض للمزيد من عدم احترام الآخرين له.

لقد كان "كريبوليا"،[٢] ومن ثم كانت مفاهيمه عن آداب السلوك والانضباط برتغالية خالصة، ولم يفض بمكنون قلبه إلا لـ

(١) تدور أحداث القصة فى البرازيل (المترجم).

(٢) أحد مواليد جزر الهند الغربية أو أمريكا اللاتينية المنحدرين من أصل أوروبى (إسبانى أو برتغالى خاصة) (المترجم).

(هولرويد) المهندس الإنجليزى القادم من (لانكشاير)، والذى جاء مع سفينة المدفعية، وعلى الرغم من أن القبطان كان ما يزال يتدرب على اللغة الإنجليزية[٣]، وأنه لم يستطع نطق حرفى th أى (أل)، بطريقة صحيحة، فإنه فتح قلبه للمهندس.

وقال له: "واضح أنها محاولة غير مجدية منهم لجعلى موضعًا للسخرية، إذ ما يمكن أن يفعله الإنسان بالنمل؟ إنها تجىء ثم تذهب".

قال (هولرويد): "يقولون: إن هذا النمل لا يذهب. هذا الشاب الذى ذكرت أنه (سامبو)[٤]...".

"(زامبو).. إنه نوع من اختلاط الدماء والنسب".

"قال (سامبو): إن الناس هناك يرحلون عن ديارهم".

دخّن الكابتن سيجارته لبعض الوقت، وقد ارتسمت على وجهه أمارات القلق ثم قال أخيرًا: "يجب أن تقع مثل هذه الأحداث. ما أهميتها؟ أوبئة النمل وما على شاكلتها، إنها إرادة الله. كان ثمة وباء من النمل الصغير ـ الذى يحمل أوراق الأشجار ـ فى (ترينداد)، أتلف أشجار البرتقال والمانجو هناك. وماذا فى ذلك؟ أحيانًا تأتى جيوش النمل إلى منزلك. نمل محارب، مختلف عن الأنواع الأخرى! فتترك لهم المنزل لكى: "ينظفوه". وعندما تعود من جديد، يكون المنزل نظيفًا كالجديد! لا صراصير ولا براغيث على الأرضية، ولا بعوض".

---

(٣) اللغة الرسمية فى البرازيل هى البرتغالية (المترجم).

(٤) مولّد أحد أبويه زنجى والآخر هندى أحمر (المترجم).

"يقول هذا الشاب (سامبو): إن هذا النمل من نوع مختلف".

هز القبطان كتفيه، وأخ - يدخن، ملقيًا كل اهتمامه على السيجارة ثم قال: "عزيزى (هولرويد)، ماذا عساى أن أفعل مع هذا النمل اللعين؟".

وراح القبطان يفكر مليًا وبعد هنيهة قال: "إنه أمر يدعو للسخرية".

ولكنه عند العصر ارتدى زيه العسكرى كاملاً وذهب إلى الشاطئ، ثم حمِّلت صناديق وأوانٍ ضخمة ومرطبانات كبيرة، على متن سفينة المدفعية، وعاد القبطان فيما بعد.

جلس (هولرويد) على ظهر السفينة مستمتعًا بالمساء البارد باعتدال، وأخ - يدخن بشراهة ويتطلع إلى جمال (البرازيل) الأخاذ. كانوا قد ساروا لمدة ستة أيام فى نهر (الأمازون)، على بعد عدة مئات من الأميال عن المحيط، وفى الشرق والغرب يمتد أفق متماوج كالبحر، أما إلى الجنوب فلا شىء، إلا جزيرة تمتلئ بركام الرمل وتتخللها شجيرات خفيضة عليها أوراق وزهرات نامية. وتنساب المياه دائمًا وكأنها مَسْرَب الفيضان، مكتظة بالقاذورات، ويضفى عليها الحيوية والإثارة، تماسيح وطيور حوامة، ويندفع إلى النهر معين لا ينضب من جذوع الأشجار.

وفى المساء جلس (هولرويد) يشاهد مدينة (المكوير) وكنيستها الصغيرة وبيوتها الضئيلة المسقوفة بسيقان النباتات، وأطلالها الكئيبة، التى تنبئ عن مجد تليد. تبدو المدينة كأنها شىء صغير

مفقود فى بيداء الطبيعة، مجرد قطعة نقود معدنية ملقاة فى الصحراء!

كان شابًا قليل الخبرة، وتلك هى أول مرة يشاهد فيها المنطقة الاستوائية، لقد جاء مباشرة من (إنجلترا)، حيث قيِّدت الطبيعة وطوِّقت واستُنزفت إلى أن أصبحت خاضعة تمامًا، ولكن اكتشف هنا ـ على نحو مفاجئ ـ مدى تفاهة الإنسان.

لمدة ستة أيام أبحروا فى نهر (الأمازون)، عبر قنوات شبه مهجورة، حيث الإنسان قليل الوجود كفراشة نادرة. ربما ترى فى يوم ما قارب (كانو)، وفى يوم آخر ـ على البعد ـ محطة لإعادة التزود بالوقود أو موقف تحميل ركاب، وأحيانًا لا تشاهد أى إنسان على الإطلاق. وبدأ (هولرويد) يدرك أن الإنسان بالفعل حيوان نادر، لا يحكم السيطرة تمامًا على هذا البلد.

وبمرور الأيام، اتضحت له حقيقة الأمور بشكل أوضح، وكان يتجه إلى (باتيمو) عبر قنوات متعرجة، بصحبة قائده الفذ، الذى يسيطر على مدفع واحد ضخم، وكانت لديه تعليمات بألا يسرف فى استخدام الذخيرة.

كان (هولرويد) مثابرًا على تعلم الإسبانية، ولكنه كان فى المراحل الأولى من دراسة قواعد اللغة والمحادثة، وكان الشخص الوحيد الذى يعرف بعض الإنجليزية بحارًا زنجيًا يعمل موقدًا للفرن بالسفينة، ولكنه كان ينطقها بكثير من الأخطاء. وكان مساعد القبطان برتغاليًا يدعى (داكونها)، يتحدث اللغة الفرنسية، ولكنها مختلفة عن تلك التى تعلمها (هولرويد) فى (ثاوث بورت)، ومن ثم

اقتصرت محادثاتهما، على التحيات المهذبة وأحاديث عن أحوال الطقس المتوقعة. ولم يكن الطقس ـ مثل كل شىء آخر فى العالم الجديد العجيب ـ يأبه بالإنسان، كان حارًا فى النهار وحارًا فى الليل، وكان الهواء يصدر بخارًا، وحتى الريح كانت عبارة عن بخار ساخن، وتحمل رائحة النباتات المتحللة والمتعفنة والتماسيح والطيور الغريبة والحشرات الطائرة ذات الأنواع والأحجام المتعددة، والخنافس والنمل والثعابين، والقرود التى بدت وكأنها تتساءل عما يفعله الإنسان فى هذا الطقس الذى لا تحمل أشعة شمسه أى بهاء، ولا يوفر ليله أى نسائم منعشة. وكان ارتداء الملابس فى هذا الجو، أمرًا لا يحتمل، وانتزاعها وإلقاؤها جانبًا معناه حرق الجلد سطحيًا فى النهار، وتعريض مساحة كبيرة من جسمك للدغ البعوض فى الليل. وإذا ذهبت إلى سطح السفينة فى النهار فسوف يغشى عينيك وهج الشمس، أما إذا فضلت البقاء فى الداخل فهذا يعنى إصابتك بالاختناق. وفى وقت النهار ـ ما بين الشروق والغروب ـ تأتى حشرات طائرة معينة، بارعة إلى حد كبير فى اللدغ، وتسبب آلامًا لمعصم الإنسان وكعب قدمه.

وتحول القبطان (جيريللو) ـ الذى كان وسيلة التسلية الوحيدة لـ (هولرويد) فى معاناته الجسمانية ـ إلى شخص مضجر للغاية، حيث كان يحكى عن غرامياته يومًا بعد آخر، سلسلة من النساء المجهولات، وكأنه ينظم مجموعة من الخرز فى عقد. أحيانًا كانا يمارسان الرياضة، أو يطلقان الرصاص على التماسيح. وفى أحيان نادرة، كانا يتركان السفينة إلى الحفلات الصاخبة بين الأشجار،

ويمكثان ليوم أو نحوه، ويشربان الخمر ويتسامران، وفى إحدى الليالى، رقصا مع فتيات (الكريبولى)، اللاتى وجدن فى لغة (هولرويد) الإسبانية الضعيفة - التى لا يستعمل فيها صيغة الفعل الماضى أو المستقبل - ما يفى بأغراضهن إلى حد كبير، ولكن هذه لم تكن إلا لحظات مشرقة فى رحلة سفينة المدافع المضنية عبر النهر المتدفق الذى يلفه الضباب، وحيث تنبض المحركات بإيقاع واضح ثابت.

بيد أن القبطان (جيريللو) تعلم الكثير عن النمل. فى كل يوم كان يحصل على معلومات أكثر فأكثر، من كل ميناء ترسو فيه السفينة، وفى النهاية أصبح معنيًا بالمهمة.

قال لصديقه (هولرويد) ذات يوم: "إنه نوع جديد من النمل. يجب أن نكون - ماذا تطلقون عليهم؟ أجل. علماء حشرات. إن النملة الواحدة من ذلك النوع، كبيرة يبلغ طولها خمسة سنتيمترات، والبعض منها أكبر. إنه أمر مثير للسخرية! إننا مثل قردة أرسلت لتلتقط حشرات. ولكن هذا النمل يأكل البلد كلها". ثم اندفع يصيح ساخطًا: "لنفرض أنه حدث نزاع مفاجئ مع أوروبا، وأنا أبحر هنا بسفينتى الحربية ومعى مدفع، لا أفعل شيئًا!".

أمسك بركبته ثم استغرق فى التفكير والتأمل وبعد هنيهة قال: "أولئك الناس فى المرقص. لقد فروا من هناك. فقدوا كل ممتلكاتهم. جاء النمل إلى بيوتهم بعد الظهر. الكل ركض. أنت تعرف أنه بمجرد قدوم النمل، فإن كل شخص عليه أن يغادر، ومن ثم يسيطر النمل على البيت. وإذا بقيت فسوف يأكلك النمل. أتدرك

هذا؟ حسن، بعد فترة سوف يعودون، ويقولون لقد رحل النمل. لكن النمل لم يكن قد ذهب بعد. حاول أحدهم الدخول إلى بيته، فحاربه النمل".

"احتشد فوقه .

"بل عضه. وسرعان ما خرج من بيته، وهو يركض صارخًا، حتى وصل إلى النهر، وألقى بنفسه فيه. حقًا لقد غرق النمل..". وصمت (جيريللو) واقترب بعينيه من وجه (هولرويد) وربت على ركبته بأصابعه ثم استطرد قائلاً: "... ومات فى هذه الليلة، وكأنما لدغه ثعبان!".

"هل تعنى أن النمل كان سامًا؟".

هز القبطان كتفيه وقال: "من يدرى؟ ربما لسعه أو عضه النمل بقوة.. عندما التحقت بالخدمة العسكرية، دخلتها لأحارب رجالاً.. لا هذه الحشرات.. النمل.. إنه يأتى ويذهب. لا شأن للرجال بهذا".

بعد هذا، اعتاد أن يتحدث عن النمل مع (هولرويد) كلما أتيحت له الظروف.

تمكن (هولرويد) - بعد أن تحسنت معرفته باللغة الإسبانية نوعًا - أن يتعرف على هذه اللفظة الشائعة "سويبا". وعرف أن معناها "النمل" وأيضًا "المسيطر على العالم".

وأدرك أن النمل أصبح يلقى اهتمامًا، وكلما تعرف عليه أكثر زاد هذا الاهتمام. وتوقف القبطان (جيريللو) عن حكايته المملة عن النساء، على نحو مفاجئ أمام الملازم البرتغالى، فقد أصبح

شخصًا بارعًا فى المحادثة، واتضح أن لديه بعض المعلومات عن النمل قاطع أوراق النباتات، ولكنه استطاع توسيع معلوماته. وأحيانًا كان (جيريللو) يوفر له المعلومات، لكى يبلغها للمهندس (هولرويد).

حكى الملازم البرتغالى عن الشغالاتُ الصغيرات اللاتى يحتشدن ويحاربن، والشغالات الكبيرات اللاتى يسيطرن ويحكمن، ويزحفن دائمًا إلى العنق حيث تؤدى عضاتهن إلى نزف الدماء.

وروى له كيف يقطع النمل أوراق النباتات ويصنع من الفطر مضاجع له. وكيف أنه شاهد أعشاشًا له فى (كاراكاس) يبلغ عرضها أحيانًا مائة ياردة. ثم جرت مناقشة حامية بين الرجال الثلاثة حول ما إذا كان للنمل عيون. وفى عصر اليوم التالى زادت حرارة المناقشة إلى حد كبير، حتى إن (هولرويد) ـ رغبة منه فى إنقا ـ الموقف ـ ذهب إلى الشاطئ فى قارب، لاصطياد نمل وليتحقق من الأمر. واستطاع الإمساك بعدة عينات متباينة منها وعاد إلى السفينة، وكان لبعضها عيون دون البعض الآخر. عندئذ ـ دارت المناقشة حول: هل النمل يعض أو يلدغ؟

قال (جيريللو) بعد أن جمع معلومات من العاملين فى مزرعة لتربية الماشية: "هذا النمل له عيون كبيرة، وهو لا يتحرك دون تفكير أو ترتيب مسبق، بل يكمن فى الأركان ويراقب ما تفعله".

وسأل (هولرويد): "وهل يلدغ؟".

أجابه (القبطان) متأملاً: "نعم. إنه يلدغ، ولدغته سامة".

تمهل لهنيهة وهو يفكر ويتأمل ثم استطرد قائلاً: "هذا النمل يأتى ويذهب".

"لكن هذا النمل يأتى، ولكنه لا يذهب".

قال (جيريللو): "سوف يذهب لا تقلق".

بعد (تاماندو) يمتد ساحل طويل منخفض لمسافة ثمانين ميلاً، ليس به مناطق سكنية، ويلى هذا نقطة التقاء النهر الرئيسى وفرع (باتيمو)، حيث يكونان معًا ما يشبه البحيرة العظيمة، ثم تصبح الغابة أكثر قربًا. وهنا تتغير طبيعة مجرى النهر، حيث تكثر النتوءات الحادة وتفيض مياهه. ورست فى هذه الليلة سفينة المدفعية (بنيامين كونستانت) - بواسطة سلسلة معدنية تستعمل كمرساة - تحت ظلال أشجار قاتمة اللون.

وجلس على ظهرها (هولرويد) و(جيريللو) يدخنان السيجار حتى ساعة متأخرة من الليل. ويستمتعان بتلك النسمات المعتدلة المنعشة، التى تهب لأول مرة من - أيام طويلة، وينعمان بهذا الإحساس المبهج.

كان مخ (جيريللو) يعج بالنمل الأسود، وما يمكن أن يفعله! وقرر - فى نهاية الأمر - أن ينام، ورقد على حشية من القطن فوق سطح سفينته، كان رجلاً تنتابه حيرة لا أمل فيها، وكانت كلماته قبل أن يغمض عينيه ويخلد للنوم، أن تساءل وهو يهز رأسه فى يأس: "ماذا يمكن للإنسان أن يفعل مع النمل؟ إن الأمر كله لا منطقى".

بقى (هولرويد) وحيدًا يحك معصمه الملدوغ، ويفكر متأملاً. كان يجلس على الجزء الذى يقع فوق ظهر السفينة العلوى، وأخ - يستمع

للتغيرات فى تنفس (جيريللو) حتى راح فى سبات عميق. ثم تحول بعينيه إلى تماوج النهر وسرعان ما استغرق فى النظر إليه، واستعاد فى ذاكرته ذلك الإحساس بالرحابة التى أصبحت تتعاظم داخله، من - أن ترك (بارا) وأبحر فى هذا النهر. ولم يظهر أمامه سوى ضوء واحد صغير، ثم حديث قصير بين اثنين وبعد هذا ساد الصمت. وتحول نظره من الشكل الخارجى المعتم للآلية الداخلية لسفينة المدفعية وضفة النهر، إلى تلك الأسرار السوداء المروعة للغابة، تضيئها من وقت لآخر إحدى اليراعات[٥]، وهى لا تخلو أبدًا من غمغمة نشاطات غامضة وغريبة فى داخلها..

لقد كان اتساع هذه الأرض - التى لا يوجد بها بشر - هو ما أدهشه وسبب له ضيقًا. كان يعرف أن السماوات خالية من البشر، وأن النجوم مجرد بقع مضيئة فى ذلك الفضاء الشاسع الذى يمتد بلا نهاية وأن المحيط هائل ولا يمكن ترويضه، ولكن فى (إنجلترا)، تعلم أن الأرض ملك للإنسان. إن إنجلترا بالتأكيد ملك للإنسان. أما الأشياء غير المأهولة فإنها تعيش فى معاناة وتخضع لعقود إيجار، وفى كل مكان يسود الأمن التام فى الطرق والأسيجة والمنازل. وحتى فى الأطلس الجغرافى، هناك تأكيد بأن الأرض ملك للإنسان، وتدل الألوان على أحقية الإنسان فى الأرض، على النقيض من اللون الأزرق العالمى للبحر. كان واثقًا - دون أدنى شك - بأنه سيأتى اليوم الذى تتوفر فيه محاريث الأرض وتسود الثقافة ويسير الترام الكهربائى وتنشأ الطرق الممهدة وتطبق

---

(٥) نوع من الحشرات له أعضاء مضيئة (المترجم).

التدابير الأمنية، فى كل مكان بالعالم. أما الآن فالأمر مشكوك فيه.

إن هذه الغابة طويلة حتى السأم والملل، وكأن لا نهاية لها، ويبدو عليها أنها لا تقهر. ويبدو الإنسان متقلقلاً ومحفوفًا بالمخاطر، مجرد دخيل متباعد. وإذا سافر الإنسان لأميال، فى وسط هذا السكون، والصراع الهادئ للأشجار العملاقة، والنباتات المعترشة الجبارة والزهور العجيبة وفى كل مكان توجد التماسيح والسلاحف وأعداد لا حصر لها من الطيور المتنوعة، والحشرات، تبدو كلها وكأنها فى موطنها، تعيش فى مساكنها لا تستبدلها. أما الإنسان فما إن يستقر فى مكان، حتى يجتث الأعشاب ويحارب الحيوانات والحشرات، ثم يقع ضحية للثعابين والوحوش والحشرات المؤذية والحمى، وسرعان ما يذهب بعيداً.

وفى أماكن عديدة أثناء إبحاره فى النهر، منع من التوجه إلى أماكن معينة يطلق عليها (كازا)، عبارة عن أطلال جدران بيضاء وبرج مدمر، وهذا يؤكد وجهة نظره. وكان "الجاكوار"[٦] و"البوما"[٧] هما سيدا الغابة الظاهران هنا.

ولكن أين الأسياد الحقيقيون؟

وعلى بعد عدة أميال من هذه الغابة، هناك أعداد هائلة من النمل الأسود، يفوق عدد البشر فى كل العالم. وبدا هذا للمهندس

---

(٦) نمر أمريكى (المترجم).

(٧) من اللواحم الأمريكية (المترجم).

(هولرويد) كفكرة مبتكرة تمامًا. وخلال عدة آلاف من السنين استطاع الإنسان أن يرتقى من الهمجية إلى مرحلة من الحضارة، جعلت البشر يعتقدون أنهم أسياد المستقبل وحكام الأرض! إذن ما الذى يمنع النمل من أن يتطور أيضًا؟ إن النمل ـ كما هو معروف ـ يعيش فى مجتمعات صغيرة، يتكون كل مجتمع من عدة آلاف من الأفراد، ولا يبذلون أية محاولة للاتصال والتفاهم مع العالم الأكبر. بيد أن للنمل لغة وذكاء! فلماذا يتوقف عند مرحلة الهمجية، إذا كان الإنسان قد استمر فى التطور؟ تخيل أن النمل قد بدأ فى تخزين المعرفة، كما فعل الإنسان، بواسطة كتب وسجلات، واستخدم الأسلحة، وكوّن إمبراطوريات عظيمة، وشن حربًا منظمة ومخططًا لها جيدًا؟ أفاق (هولرويد) من تأملاته عندما عاد (جيريللو) ولديه معلومات جمعها عن هذا النمل الذى يقترب حثيثًا منهم. إن النمل ينفث سمًا يماثل سم الثعابين. وأفراد هذا النمل يتبعون تعليمات رؤسائهم الكبار، كما يفعل النمل قاطع أوراق الشجر، وهذا النمل الأسود آكل اللحوم، وعندما يحتل مكانًا ما فإنه لا يغادره. كانت الغابة ساكنة تمامًا، وكانت الأمواج تضرب جانبها على نحو متواصل، وحول المصباح المعلق عاليًا فى السفينة، تدور بسرعة أطياف من فراشات الليل، دون أن تصدر صوتًا.

حدق (جيريللو) فى دياجير الظلام وتنهد وغمغم: "ما عسى الإنسان أن يفعل؟".

ثم استدار وبقى صامتًا.

استثير (هولرويد) من تأملاته، التى أصبحت مشؤومة ومنذرة بسوء، على صوت طنين بعوضة.

(٢)

فى صباح اليوم التالى، عرف (هولرويد) أنهم على بعد أربعين كيلو مترًا من (باداما)، واشتد اهتمامه بضفتى النهر. وكان يصعد إلى سطح السفينة كلما سنحت له الفرصة، ليتفقد البيئة المحيطة به. لم يشاهد مظاهر - أيًا كانت - توحى بوجود بشر، إلا أطلال منزل تنمو عليه الأعشاب الكثيفة والواجهة الملطخة باللون الأخضر لدير (موجو) المهجور من - زمن طويل، وكانت تنمو إحدى أشجار الغابة عبر نافذته الفارغة، ونباتات معترشة ضخمة تكوّن شبكة عبر بواباتها المفتوحة. وعبرت النهر فى ذلك الصباح عدة أسراب من أنواع غريبة من الفراش الأصفر، لها أجنحة شبه شفافة، وحط بعضها فوق جهاز مراقبة على متن السفينة، فقتلها البحارة. وحوالى عصر ذلك اليوم، عثروا على السفينة المهجورة (كوبرتا).

فى أول الأمر، لم تبدُ كسفينة مهجورة، كان شراعاها متدليين ومحلولين فى سكون بعد الظهيرة، وشبح رجل يجلس على ألواح خشبية بجانب مجاديف طويلة.

وثمة رجل آخر يبدو أنه كان نائمًا - ووجهه إلى أسفل - على طول منتصف قارب (كانو) كبير. وسرعان ما ظهر من ميل دفتها، والطريقة التى انجرفت بها فى طريق سفينة المدفعية، أن شيئًا ما ليس علي ما يرام. استخدم (جريللو) منظار ميدان لكى يفحصها

بدقة، وأصبح مهتمًا بتلك الظلمة الغريبة التى كانت تكسو وجه الرجل الجالس، يبدو أنه كان رجلاً أحمر الوجه دون أنف.. منحنيًا أكثر منه جالسًا، كلما نظر إليه القبطان أكثر، تمنى ألا يراه، ولكنه لم يستطع إبعاد المنظار عنه.

بيد أنه تمكن من إبعاد المنظار أخيرًا عن هذا المشهد الغريب، وسار قليلاً ليستدعى (هولرويد)، ثم عاد ليرسل تحية للسفينة (كوبرتا)، حياها مرتين، لكنها تجاوزته مبتعدة، ووقفت (سانتا روزا) فى مكانها. وعندما أصبحت فى مدى رؤية جهاز المراقبة لسفينته، شاهد جسم الرجل المنحنى ينكفىء، وكأنما تهاوت مفاصله فجأة، وسقطت قبعته عن رأسه التى لم تكن رؤيتها تسر المشاهدين، وارتمى جسده الرخو بتثاقل محدثًا جلبة، ثم تدحرج بعيدًا عن الأنظار، خلف جانب السفينة الممتد فوق سطحها العلوى.

صاح (جيريللو): "ما هذا بحق السماء؟" وطلب مساعدة (هولرويد) على الفور، الذى كان فى منتصف الدرج الذى يصل ظهر السفينة بالحجرات التى تحته.

صرخ القبطان: "هل رأيت هذا؟".

قال (هولرويد): "ميت! نعم. عليك أن ترسل من يصعد للسطح. هناك شىء ما خطأ".

"هل رأيت وجهه؟".

"كيف يبدو؟".

"لقد كان.. آه.. لا أجد الكلمات المناسبة. ثم أدار ظهره وأخذ يصدر أوامر صارمة وسريعة للرجال، وتحركت سفينة المدفعية حتى أصبحت موازية لقارب (الكانو)، وعلى الفور تم إنزال قارب به الملازم (داكونها) وثلاثة بحارة، ليصعدوا إلى سطح السفينة "سانتا روزا" لكن فضول القبضان جعله يقترب أكثر من جانب السفينة بمجرد صعود الملازم والبحارة إليها وهكذا أصبح كل سطح السفينة "سانتا روزا" والجزء السفلى منها حيث تخزن البضائع، مرئيًا للمهندس (هولرويد).

واستطاع أن يدرك بوضوح أن طاقم السفينة "سانتا روزا" لم يكن سوى هذين الرجلين القتيلين فحسب. وعلى الرغم من أنه لم ير وجهيهما، فإنه رأى أيديهما الممدودة. والتى كانت عبارة عن لحم متآكل، وكأنها تعرضت لعملية تحلل غير عادية.

وعندما دقق النظر أكثر، تعجب من تلك الحزمتين الغامضتين من الملابس القذرة، والأعضاء اللينة الملقاة على الأرضية، وعندما تجول بعينيه إلى الأمام، اكتشف أن عنبر السفينة مفتوح ومكدس بجذوع الشجر والصناديق وكذلك باتجاه مؤخر السفينة، حيث القمرة الصغيرة منفرجة وخالية، بشكل يتعذر تفسيره. وبعد هنيهة لاحظ أن الألواح الخشبية فى الأرضية الوسطى لسطح السفينة، منقطة ببقع سوداء متحركة!

ثبت نظره بإحكام على هذه البقع السوداء. كانت كلها تتحرك فى اتجاهات متباينة مبتعدة عن الرجل الميت كأنها ـ ولمعت الصورة فى ذهنه ـ جماهير تتشتت بعد مشاهدة مصارعة الثيران.

ثم أدرك أن القبطان (جيريللو) يقف إلى جانبه، ويقول: "يا قبطان. أرجو توجيه منظارك الميدانى إلى الألواح الخشبية هناك".

غمغم (جيريللو) وأصدر صوتًا حلقيًا عميقًا يعبر عن الاشمئزاز وناوله المنظار. أعقب هذا دقائق من المراقبة والتفحص الدقيق، قال الرجل الإنجليزى: "إنه نمل" ثم أعاد المنظار الميدانى للقبطان.

كان انطباعه عن النمل، بأنه حشد من النمل الأسود، يشبه إلى حد كبير النمل العادى إلا أنه أكبر حجمًا، وعليه ما يشبه الرداء الرمادى. بيد أن مراقبته كانت لمدة قصيرة للغاية، حتى إنه لم يستطع رؤية التفاصيل. عندئذٍ ـ ظهرت رأس الملازم (داكونها) على جانب السفينة، ودارت مناقشة سريعة بعد هذا. قال (جيريللو): "كان يجب أن تصعد إلى سطح السفينة" اعترض الملازم قائلاً بأن المكان يعج بالنمل.

قال (جيريللو): "ولكنك ترتدى حذاء ذا رقبة".

حاول الملازم تغيير الموضوع وقال: "كيف مات هذان الرجلان؟".

انطلق القبطان يقدم تفسيرات، لم يستطع (هولرويد) متابعتها، وثار نزاع منفعل بين الرجلين، أخذ يتصاعد. فى حين أخذ (هولرويد) المنظار الميدانى وعاود تفحصه الدقيق للنمل أولاً ثم للرجل الميت الذى يرقد فى وسط السفينة أو نحو وسطها. وقد وصفه لى بدقة بالغة فيما بعد، وقال: إن هذا النمل كان أكبر من أى نمل رآه من قبل، وكان أسود اللون، ويتحرك بتصميم ثابت، وهو بهذا يختلف تمامًا عن العشوائية النمطية للنمل العادى. كما لاحظ

أن هناك نملة واحدة من بين عشرين كان لها رأس أكبر - بشكل استثنائى - من رفيقاتها، وذكّره هذا - على الفور - بالشغالات المسيطرة، التى يقال: إنها تحكم النمل قاطع أوراق النباتات، ومثلها كانت شغالات النمل الأسود ذات الرؤوس الكبيرة، توجه وتنسق التحركات العامة لباقى النمل. وكانت تميل بأجسامها إلى الخلف، بطريقة جد متفردة، وكأنها تستخدم أقدامها الأمامية بطريقة ما. ثار لديه تفكير خيالى مثير للاهتمام، وهو أنه بعيد جدًا ليتحقق من أن معظم هذا النمل - الذكور والإناث - يرتدى "تجهيزات" من نوع ما، وأن ثمة أشياء مثبتة بأشرطة بيضاء براقة حول جسمه، وكأنها خيوط معدنية بيضاء!

وضع (هولرويد) المنظار الميدانى على نحو مفاجىء بجانبه، وكان قد تحقق من أن مسألة الانضباط بين القبطان ومرءوسه، قد أصبحت حرجة!

قال القبطان: "إن واجبك أن تصعد إلى سطح السفينة. هذه هى تعليماتى".

بدا أن الملازم على وشك أن يرفض، وظهر رأس أحد البحارة ذوى البشرة الداكنة، بالقرب منه.

قال (هولرويد) على نحو مفاجىء باللغة الإنجليزية: "أعتقد أن النمل قتل هذين الشخصين".

لم يرد القبطان على (هولرويد) بل اندفع فى ثورة غضب وصرخ فى مرؤوسه باللغة البرتغالية: "لقد أمرتك أن تصعد إلى سطح

السفينة. ولو لم تنف ـ أوامرى على الفور فسوف أعتبر هذا تمردًا .. تمردًا عسكريًا .. تمردًا وجبنًا! أين هى الشجاعة التى يجب أن نتحلى بها؟ سأقيدك بالأصفاد. وسيطلق عليه الرصاص ككلب!".

وراح يطلق طوفانًا من السباب واللعنات، ويثب من الاهتياج والانفعال ـ هنا وهناك ـ ثم أخذ يلوح بقبضته فى الهواء، وبدا أنه خارج عن طوره ومحتدم غيظًا. وكان الملازم شاحب الوجه يرمقه صامتًا. وتقدم أفراد طاقم السفينة إلى الأمام، والذهول مرتسم على وجوههم.

ومن غير إنذار ـ وخلال فترة توقف من هذا الهيجان المفاجئ ـ اتخذ الملازم قرارًا شجاعًا، ثم رفع يده بالتحية للقبطان، وتمالك نفسه، وتسلق السلم الجانبى وصعد إلى سطح السفينة.

قال (جيريللو): "آه!" وأغلق فاه كما تغلق المصيدة.

وشاهد (هولرويد) حشود النمل وهى تتراجع أمام الحذاء ذى الرقبة، الذى يرتديه (داكونها). اتجه الملازم البرتغالى نحو الرجل الممدد على وجهه، وأحنى جسمه، وتردد ثم أمسك بسترته وقلبه على ظهره. عندئذ اندفع حشد من النمل الأسود من ملابس الرجل، ورجع (داكونها) إلى الوراء بسرعة، نحو خطوتين أو ثلاث خطوات على سطح السفينة.

وضع (هولرويد) المنظار الميدانى على عينيه. وشاهد النمل الذى أخ ـ ينتشر باتجاهات عشوائية مختلفة، من حولى قدمى "الغازى" وقام بما لم ير نملاً يفعله من قبل. فلم يتحرك دون تفكير أو ترتيبا

مسبق، بل كان - النمل - ينظر إلى الملازم البرتغالى. كما قد ينظر حشد من الناس إلى وحش عملاق، كان السبب فى تشتتهم. صاح القبطان : "كيف مات؟".

وفهم (هولرويد) آن الملازم يقول: إن جسد الرجل يبلغ حدًا من التشويه، بحيث لا يمكن التعرف على سبب موته.

سأله (جيريللو): "ما الذى عندك غير ذلك؟".

خطا الملازم بضع خطوات، وبدأ يشرح بالبرتغالية، ثم توقف على نحو مباغت، وضرب شيئًا ما على رجله. وأخذ يتحرك بطريقة غريبة، كأنه يحاول أن يسحق شيئًا ما غير مرئى، وذهب مسرعًا إلى جانب. ثم تحكم فى حركاته، واستدار وتحرك عن قصد إلى الأمام حيث عنبر المركب، وصعد إلى سطح مقدمها حيث تعمل فرش التنظيف، وانحنى لهنيهة فوق الرجل الثانى، وتأوه بصوت مسموع، ثم تحرك إلى القمرة فى مؤخر المركب، وكان يتحرك بطريقة متصلبة للغاية.

استدار وأخذ يتحدث مع القبطان، وكان كلا الرجلين مهذبًا ومتحكمًا فى أعصابه، على النقيض تمامًا من الحنق والإهانة، التى جرت منذ عدة دقائق فقط.

ولم يفهم (هولرويد) إلا القليل من فحوى الكلام.

عاد إلى استعمال المنظار الميدانى، وفوجىء بأن النمل اختفى من كل سطح السفينة، الذى يتراءى له، واتجه بنظره إلى تلك الظلال الممتدة تحت السطح، وخيل إليه أنها زاخرة بالعيون الراصدة.

واتفق على أن المركب (كوبرتا)، مهجورة، ولكنها تعج تمامًا بالنمل الأسود، ومن ثم من المستحيل وضع بحارة على متنها ليجلسوا وينامو، لهذا يجب قطرها. ذهب الملازم إلى الأمام، ليعدل السلسلة المعدنية التى تستعمل كمرساة للسفينة، حتى يمكن سحبها. ووقف البحارة فى القارب على تأهب لمساعدته، وبمنظاره الميدانى أخذ (هولرويد) يبحث فى قارب (الكانو)، ونما لديه إحساس بأن ثمة شيئًا كبيرًا أو نشاطًا مراوغًا يحدث هناك. وأدرك أن عددًا من النمل العملاق الذى يبدو أن طول الواحدة ما يقرب من بوصتين. تنقل أحمالاً ذات أشكال غريبة، ولم يتخيل ما يمكن أن تستخدم فيه، كان النمل يتحرك بلهفة فى الوصول أو مغادرة المكان، من بقعة مظلمة إلى أخرى، وكأنه يتخفى بعيدًا عن مجال الرؤية. ولم يكن النمل يتحرك فى صفوف متوازية عبر سطح السفينة، ولكن فى خطوط مفتوحة، كما تندفع كتيبة المشاة فى الجيوش الحديثة، عندما تتعرض لنيران العدو. وكان بعض النمل يأخ ـ ملاذًا تحت ملابس الرجل الميت. واحتشد البعض الآخر على هيئة سرب على جانب السفينة، التى سوف يسير عليه (داكونها) بالتأكيد بعد قليل.

لم ير (هولرويد) النمل يندفع إلى الملازم وينقض عليه، بشكل منظم ومخطط له.

فجأة، راح الملازم يصرخ ويلعن ويضرب شيئًا ما فوق رجليه، صاح: "لقد لدغت!"، بينما كان ينظر فى اتجاه (جيريللو)، بوجه تكتنفه الكراهية والاتهام.

ثم اختفى خلف جانب المركب، وهوى إلى قاربه ثم سقط فى الماء. وسمع (هولرويد) صوت ارتطامه به. جذبه البحارة الثلاثة إلى القارب، وفى تلك الليلة مات.

(٣)

خرج (هولرويد) والقبطان من القمرة التى رقد فيها الجسد المنتفخ للملازم الميت ووجهه الذى ترتسم عليه الآلام المبرحة. وقفا عند مؤخر السفينة، يحدقان فى المركب التى تقطرها سفينتهم، كانت ليلة مدلهمة، لا يضيئها إلا ضوء البرق المتقطع. وكانت المركب (كوبرتا)، تبدو كمثلث أسود غامض، تتأرجح فى الأثر الذى تتركه السفينة فى الماء، وشراعاها يهتزان ويتمايلان برفق. والدخان الأسود المنطلق من مداخنها، يطلق شررًا بين حين وآخر، وينساب فوق صواريها المتأرجحة.

كان ذهن القبطان مهمومًا بالكلمات القاسية التى تفوه بها الملازم فى لحظاته الأخيرة عندما كان يعانى من حمى شديدة. قال القبطان محتجًا: "لقد قال بأننى قتلته. هذا هراء. كان يجب أن يصعد شخص ما إلى ظهر المركب. هل كان علينا أن نهرب أمام هذا النمل اللعين، كلما تراءى لنا؟".

لم يتفوه (هولرويد) ببنت شفة؛ إذ كان يفكر فى ذلك الانقضاض المنظم لهذه الأشياء السوداء الصغيرة، على طول سطح المركب المغمور بأشعة الشمس، قال القبطان مؤكدًا: "لقد مات وهو يؤدى واجبه. فلماذا يشكو إذن؟ قتل! إن المسكين قد جن. لم يكن بكامل عقله. لقد تورم بسبب سم النمل!".

وساد صمت طويل.

"سوف نحرق هذا الكانو.. ونغرقه".

"وماذا بعد؟".

انزعج (جريللو) من هذا التساؤل. فارتفع كتفاه ولوح بذراعي
بزوايا مناسبة من جسمه وصاح بحدة وحنق: "ماذا عسى الإنسا
أن يفعل؟" . ثم استطرد بصوت ينم عن الرغبة في الانتقام: "على أي
حال. فإننى سوف أحرق كل نملة فى المركب (كوبرتا). سأحرقه
حية".

لم يكن (هولرويد) راغبًا فى المنافسة، بل كان ينصت للعوي
العالى للقرود، الذى يأتى من بعيد، ولكنه يملأ الليل متقد الحرار
بأصوات منذرة بشرّ، وعندما كانت سفينة المدفعية تدنو من ضفاف
النهر الغامضة، وعزز من تأثير هذه الأصوات ذلك الصخب الكثي
لنقيق الضفادع.

وبعد صمت طويل، كرر القبطان ما قاله من قبل: "ما عسى
الإنسان أن يفعل؟" وفجأة أصبح نشيطًا وهمجيًا وكافرًا، وقرر أ
يحرق السفينة "سانتا روزا" دون أى إبطاء. وكان كل شخص عل
ظهر سفينته سعيداً بهذا القرار، وساعد بحماس، فقد جذ
البحارة السلسلة المعدنية التى تستعمل كمرساة للسفينة وقطعوه
وأسقطوا السفينة "سانتا روزا" ثم سكبوا عليها الكيروسين المشتع
المبلل فى ألياف كتانية. وسرعان ما طقطقت وتوهجت فى وسد
الليل الاستوائى اللانهائى. وراقب (هولرويد) التوهج الأصفر ف

مواجهة الظلمة المدلهمة والبرق المتقطع، الذى يضىء ثم ينطفىء. فوق قمم أشجار الغابة، ومن ثم تبدو ـ لحظيًا ـ كصور ظلية، وكان موقد الفرن الزنجى يقف خلفه، يراقب المشهد أيضًا، ويحاول أن يبحث ـ فى قاموسه اللغوى المحدود ـ عن الكلمات التى يعبر بها عن شعوره، قال: "(ساووبا)! تحترق. بب بب. واهاو" وضحك من أعماق قلبه".

ولكن (هولرويد) كان يفكر فى أن هذه الكائنات الصغيرة التى كانت على سطح السفينة، كانت لها أيضًا عيون وعقول! وكان من رأيه أن ما حدث شىء غير معقول ويدل على غباء وخطأ. ولكن ما عسى الإنسان أن يفعل؟".

أصبح السؤال أكثر قوة وفاعلية فى اليوم التالى، عندما وصلت سفينة المدفعية أخيرًا إلى (باداما). وكان المكان يعج بالمنازل المسقوفة بأوراق النباتات وسيقانها، وأحواض الصرف ومعصرة القصب التى تزحف عليها النباتات المعترشة، ورصيف الميناء الممتلىء بالأخشاب التى تستخدم كمادة بناء وقصب السكر. كان كل شىء ساكنًا فى حرارة الصباح، وليس ثمة أثر على وجود بشر أحياء وحتى لو كان هناك نمل فى هذه المنطقة، فإنه صغير الحجم جدًا ولا يمكن رؤيته.

قال (جيريللو): "لقد رحل السكان جميعًا.. لكننا سوف نفعل شيئًا واحدًا.. سنحدث ضجة وضوضاء!".

وهكذا أخذ (هولرويد) يصفر ويطلق صوتًا كنعيب البوم!

ثم انتابت القبطان حالة شك من أسوأ نوع، وسرعان ما قال: "ثمة شىء واحد يمكننا عمله".

قال (هولرويد): "وما هو؟".

رد عليه (جيريللو) قائلاً: "سوف نصدر ضجة وضوضاء من جديد".

وهذا ما فعلاه تمامًا.

ثم أخذ القبطان يسير فوق سطح سفينته، وهو يومىء لنفسه ويشير بيديه. وبدا أن ثمة أشياء كثيرة تشغل ذهنه. وتلفظ ببعض العبارات المبتورة وظهر وكأنه يخاطب محكمة عامة تخيلية، إما باللغة الإسبانية أو البرتغالية. واستطاع (هولرويد) أن يميز بعض الكلمات فى حديثه وكان من بينها كلمة "ذخيرة"، وبعد قليل أفاق من استغراق ذهنه، وعاد إلى اللغة الإنجليزية على نحو مفاجئ، وصاح: "عزيزى (هولرويد)" ثم بتر حديثه ليقول: "ما عسى الإنسان أن يفعل؟".

استقلا قاربًا ومعهما منظاراهما الميدانيان، واقتربا من المكان ليفحصاه عن كثب، شاهدا أعدادًا من النمل الكبير الأسود، ثابتة على وضع واحد لا يتغير وكأنما ترصدهما. كانت تبدو مثل نقاط حول حافة رصيف التحميل والتفريغ فى الميناء. حاول (جيريللو) أن يطلق الرصاص عليها ولكن دون جدوى. وخيل للمهندس (هولرويد) أنه ميز متاريس ترابية، تمتد بين البيوت القريبة. ربما كانت من عمل هذه الحشرات الغازية لهذه المواقع السكنية، تخطى

المستكشفان رصيف الميناء، وأدركا وجود هيكل عظمى بشرى، يرتدى ثيابًا حول خصره، وبدت عظامه نظيفة ولامعة للغاية، وهو ملقى هناك. ساد الصمت لفترة قصيرة، بينما كانا يلاحظان هذا المشهد المروع قال (جيريللو) فجأة: "يجب أن أضع كل هؤلاء البشر فى اعتبارى".

استدار (هولرويد) وحدق فى وجه القبطان، وأخ - يدرك ببطء، بأنه يقصد ذلك الخليط من الأجناس المتنافرة، الذين يكونون طاقم سفينته.

"إن إرسال حملة للبر، يبدو أمرًا مستحيلاً سوف يتسممون، وتنتفخ أجسادهم.. ثم يسبوننى.. ويموتون. إنه أمر مستحيل تمامًا.. إننى سوف أنزل وحدى إلى البر، مرتديًا حذاء سميكًا برقبة، وسوف أجازف بحياتى. ربما أبقى على قيد الحياة. ولعلى أفضل ألا أنزل إلى البر. لا أدرى، لا أدرى".

واعتقد (هولرويد) أنه يدرى، ولكنه لم يتكلم!

وعلى نحو مفاجئ قال (جيريللو): "إن الأمر كله مثير للسخرية!".

واستمرا فى التجديف وهما يرمقان الهيكل العظمى الأبيض النظيف، من زوايا مختلفة. ثم عادا إلى سفينة المدفعية. وأصبح تردد (جيريللو) مروعًا. وتصاعد البخار من النهر، راح القبطان أحد القوارب وأبحر به قليلاً فى النهر، كأنه يريد أن يكتشف شيئًا ما، وعند غروب الشمس عاد من جديد. ضربت المنطقة عاصفة رعدية

جبارة، ثم أصبح الليل رائعًا وباردًا باعتدال وساكنًا. ونام الجميع فوق سطح سفينة المدفعية، ما عدا (جيريللو)، الذى راح يتحرك هنا وهناك ويتكلم مع نفسه بصوت غير واضح وبنبرة متخشنة. وعند انبلاج الفجر أيقظ (هولرويد).

صاح (هولرويد) بفزع: "يا إلهى! ما الذى حدث؟".

قال القبطان: "لقد قررت".

قال (هولرويد) وهو يستوى جالسًا فى فراشه وقد استيقظ تمامًا: "ماذا؟ أن تنزل إلى البر!".

رد عليه القبطان قائلاً، وكأنه لا يريد البوح بما انتوى: "لا" ثم كرر عبارته، وعندئذ بدت دلالات نفاد الصبر على وجه (هولرويد): "لقد قررت" واستطرد بسرعة: "حسن. نعم. سوف أطلق المدفع الكبير".

وهذا ما فعله تمامًا. الله وحده يعلم ما الذى فكر فيه النمل وقتئذ. لقد أطلق الرجل ـ وكان وجهه متجهمًا عابسًا ـ المدفع مرتين وكأنه فى احتفالية رسمية. وشعر كل أفراد الطاقم بآلام فى آذانهم بسبب صوت الطلقتين المدوى.. ولكن ساد إحساس بين الجميع، بأنهم فعلوا أخيرًا شيئًا ما. دمرت طلقة المدفع أولاً معصرة القصب القديمة، أما الثانية فقد هدمت المتجر المهجور خلف رصيف الميناء.

حينئذ أدرك (جيريللو) مدى حماقة فكرته، بعد أن شاهد رد الفعل الذى يتعذر اجتنابه، وقال للمهندس (هولرويد): "هذا لا

يصلح! لا يصلح على الإطلاق. يجب أن نعود لتلقى التعليمات. سوف ألقى الكثير من اللوم والإدانة على هذه الذخيرة المهدرة. الكثير من التوبيخ. إنك لا تعرف هذا يا (هولرويد)!".

وأخذ يتطلع إلى العالم من حوله فى حيرة لا حدود لها.

وصاح قائلاً: "ماذا كان يمكننى أن أفعل غير هذا؟!".

وفى مساء ذلك اليوم هبطت مجموعة من البحارة إلى البر فى قارب، لدفن جسد الملازم فى مثواه الأخير، عند ضفة النهر، حيث لم يظهر النمل الجديد بعد!

(٤)

سمعت هذه القصة على دفعات من فم (هولرويد) نفسه، من - نحو ثلاثة أسابيع مضت. وكان هذا النمل الأسود قد استحو - على ذهنه تمامًا، وعاد إلى (إنجلترا). بفكرة - كما قال لى - "ينبه الناس" قبل "فوات الأوان". وقال لى بأن النمل يهدد (غيانا البريطانية) التى لا تبعد إلا نحو ألف ميل من مركز نشاط النمل، ويجب على مكتب المستعمرات أن يتحرك سريعًا لمقاومته. وتحدث بحماس وبعاطفة قوية قائلاً: "هذا النمل يتمتع بالذكاء. فكر فيما يعنيه هذا!".

ليس ثمة شك فى أن ذلك النمل حشرات ضارة ومؤذية، لقد أعلنت الحكومة البرازيلية عن مكافأة تبلغ خمسمائة جنيه مكافأة لمن يتوصل إلى طريقة لإبادة هذا النمل الأسود. ومن المؤكد أيضًا،

أنه من ـ ظهور النمل أولاً فوق التلال الواقعة خلف (باداما)، من ـ حوالى ثلاث سنوات، قام بغزوات هائلة.

وأصبحت كل الضفة الجنوبية لنهر (باتيمو) ـ بطول حوالى ستين ميلاً ـ تحت سيطرته، لقد طرد السكان كلهم، واحتل الأراضى الزراعية بما فيها من أشجار ونباتات، وكذلك المشروعات واستولى على سفينة واحدة على الأقل! ويقال: إن النمل وصل إلى الامتداد العظيم لفرع (كابوارانا)، واتخ ـ طريقه لأميال كثيرة فى اتجاه نهر (الأمازون) نفسه.

ومن المؤكد أن هذا النمل الأسود الضخم يتمتع بعقلانية وتنسيق اجتماعى فريد، يفوق النمل العادى، وبدلاً من الوجود فى شكل مجتمعات متناثرة، فإنه ينتظم فيما يمكن أن يطلق عليه "أمة واحدة". بيد أن أكثر ما يثير الرعب فى هذا النمل هو استخدامه الذكى للسم ضد أعدائه الأكبر حجمًا منه. والرأى عندى أن سم ذلك النمل، يضاهى سم الثعابين فى خطورته. وهناك احتمال كبير أنه ـ فى واقع الأمر ـ يصنعه. وأن الأفراد الأكبر حجمًا منه، يحملون البللورات التى تشبه الإبر على ظهورهم، ليهاجموا بها بنى البشر.

وبالطبع، هناك صعوبة بالغة، فى الحصول على معلومات مفصلة عن هؤلاء المنافسين للسيطرة على العالم. إذ لم ينجُ أى شخص شاهد نشاطه ـ ما عدا ما لمحه (هولرويد) ـ من المواجهة والصدام معه.

إن أكثر الأساطير الغريبة عن قدرات هذا النمل وإمكانياته يتداولها السكان فى منطقة الأمازون العليا، وتتعاظم يومًا بعد آخر،

إذ إن التقدم موطد العزم لهؤلاء الغزاة، يثير خيال الإنسان عبر مخاوفه.

ويعتقد بأن هذه المخلوقات الصغيرة، لديها وسائل معينة تستخدم فى التجهيز والتزويد ومعرفة بالنار والمعادن وبراعة هندسية، التى ربما تذهل عقولنا نحن الذين نعيش فى شمال الكرة الأرضية، لأننا لم نأخذ درسًا فيما حدث فى (ريودى جانيرو) عندما حفر النمل ـ فى عام ١٨٤١ ـ نفقًا فى (باراهيبا)، عرضه كعرض نهر (التايمز) عند (برج لندن)، ولكن بوسيلة منظمة ومفصلة للتسجيل والاتصال مشابه لسجلاتنا.

وحتى الوقت الحاضر كان نشاط النمل الأسود وطيدًا ومتواصلاً، يتضمن طرد كل إنسان أو قتله، فى المنطقة التى يغزوها. وتزداد أعداد هذا النمل باستمرار وبشكل سريع، وعلى الأقل بأن (هولرويد)، يعتقد اعتقادًا راسخًا، بأن النمل فى نهاية الأمر سوف يطرد كل سكان أمريكا الجنوبية الاستوائية.

ولكن لماذا يتوقف عند أمريكا الجنوبية الاستوائية؟

ويقول (هولرويد): "حسن. إنه هناك الآن. ولكن بحلول عام ١٩١١ أو نحو ذلك ـ إذا استمر فى التقدم بنفس هذا المعدل ـ فسوف يصل إلى امتداد محطة سكة حديد (كابورانا)، ويندفع بعد ذلك ليعلن عن نفسه للأوروبيين.

وفى عام١٩٢٠ سيكون النمل قد وصل إلى منتصف نهر (الأمازون). ويمكننى تحديد عام ١٩٥٠ أو الستينيات من القرن العشرين على الأكثر، لغزو أوروبا.

رؤيا يوم الحساب

"برو أ-أ-أ-أ" ..

استمعت ولكنى لم أفهم..

"وأرأ - رأ" ..

وقلت: "يا إلهى!" وأنا نصف مستيقظ يا لها من فوضى جهنمية!

"رأ - رأ - رأ - رأ - رأ - رأ - رأ - رأ - ت أ - رأ - رأ - رأ" ..

فقلت: "هذا يكفى لأن أستيقظ". ثم توقفت - أين كنت؟

"ترأ - رأ - رأ" أعلى - فأعلى..

"قد يكون اختراعًا جديدًا أو....".

"تورا - تورا - تورا!" "إنه يصم الآذان".

فقلت: "لا - تحدثت بصوت عال حتى أسمع نفسى - إنه البوق الأخير".

توووو - ررأأ!

(٢)

لقد هزتنى النغمة الأخيرة من مقبرتى كسمكة فى صنارة..

رأيت شاهد قبرى (شىء صغير وضيع وكم تمنيت أن أعرف من صنعه) ولكن شجرة الدردار ومنظر البحر اختفيا مثل نفخة من البخار ثم صار كل ما حولى جمهورًا لا يمكن لأحد أن يحصيه عددًا، أمم، ألسنة، ممالك، شعوب، أطفال من كل الأعمار فى فراغ مدرج واسع مثل السماء، وفوقنا جلس على عرشه من السحب البيضاء اللامعة، جلس السيد الرب وكل ملائكته فعرفته (عزرائيل) من سواده و(ميخائيل) بسيفه والملاك العظيم الذى نفخ فى البوق وبوقه لا يزال مرفوعًا.

(٣)

فقال الرجل الذى بجانبى: "حالاً - حالاً - هل ترى الملاك الذى معه الكتاب؟".

كان ينزل الرأس ويرفعه لكى يرى ما فوق وما تحت وما بين الأرواح التى أحاطت بنا "كل شخص هنا - كل شخص وسوف نعرف الآن...".

فقال: "هناك داروين" وجرى نحو المماس "سيمسكها وهناك.. هل ترى؟ ذلك الرجل الطويل عظيم المظهر يحاول أن يحصل على نظر السيد الرب - هو الدوق ولكن يوجد كثير من الناس الذين لا أعرفهم.

"هناك (بريجلز) الناشر، وأنا كثيرًا ما تعجبت مما يطبعه الناشرون فى الخلف.. (بريجلز) كان رجلاً ماهرًا ولكننا سنعلم الآن كل شىء عنه".

"أنا سأسمع كل هذا وسأحصل على المتعة قبل ... إن الحرف الأول الخاص بـ هو (س).

وسحب الهواء بين أسنانه: "شخصيات تاريخية أيضًا ـ هل ترى؟ هذا هو (هنرى الثامن) وسيوجد جزء من الأدلة. آه.. ياللعنة!.. إنه (تيودور)".

ثم خفض صوته: "لاحظ هذا الشخص ـ أمامنا ـ كل مغطى بالشعر ـ العصر الحجرى ـ وهناك أيضًا.." ولكنى لم أعبأ به لأننى كنت أنظر إلى السيد الرب.

(٤)

سأل السيد الرب: "هل هذا كل شىء؟".

فنظر الملاك القائم عند الكتاب ـ إنه كان أحد المجلدات مثل كتالوج حجرة القراءة فى المتحف الإنجليزى ـ وبدا كأنه يقوم بإحصائنا فى التو واللحظة. وقال: "إنه كل شىء". وأضاف: "إنـــه، يا رب، كوكب صغير جدًا". وقام الرب بفصحنا؟ وقال: "دعنا نبدأ".

(٥)

ففتح الملاك الكتاب وقرأ اسمها، وكان اسمًا مملوءًا بحرف (أ)

وجاء صداه خارج الأجزاء البعيدة من الفضاء، ولكنى لم أستطع الاستماع جيدًا للاسم، لأن الرجل الصغير بجانبى قال بنبرة حادة: "ما هذا؟" وقد رن هذا الصوت مثل "أهاب" بالنسبة لى. ولكنه لا يمكن أن يكون "أهاب" الكتاب المقدس. وفى الحال رُفع شكل أسود لسحابة كبيرة عند قدمى الرب، وكان شكلاً جامدًا مرتديًا ثيابًا غريبة ومتوجًا طاويًا ذراعيه عابس الوجه. فقال الرب: "حسنٌ؟" ونظر إليه.

وكان لنا امتياز أن نسمع الرد. وفعلاً، فإن الخواص الصوتية للمكان كانت رائعة، فقال الشكل الصغير: "أنا مذنب". فقال السيد الرب: "قل لهم ماذا فعلت". فقال: "كنت ملكًا.. ملكًا عظيمًا، وكنت شهوانيًا ومتكبرًا وقاسيًا، فأثرت حروبًا ودمرت بلادًا، وشيدت قصورًا، وكان الملاط هو دماء الرجال. استمع يا إلهى، فإن الشهود الذين ضدى ينشدون منك أن تنتقم ـ مئات وآلاف من الشهود". وأشار بيده نحونا وقال: "الأسوأ أنى أخذت نبيًا.. أحد أنبيائك"..

فقال السيد الرب: "أحد أنبيائى؟" وقال: "لأنه لم يرض أن ينحنى أمامى فقد عذبته لأربعة أيام وأربع ليال، وفى النهاية مات ـ وعملت أكثر.. فقد جدفت.. وسلبتك أمجادك..".

فقال السيد الرب: "سلبت أمجادى؟" فقال: "طلبت أن أُعبد فى مكانك ولم يكن هناك شر، ولكنى مارست الشر.. لم تكن قسوة.. لم تدنس روحى. وأخيرًا ضربتنى أيها الرب!".

فرفع الرب حاجبيه قليلاً، وقال الرجل "لقد ذُبحت فى معركة، وهكذا أقف أمامك أقابل النار السفلى، ومن عظمتك لا أجسر أن

أكذب أو أدافع وإنما أقول الصدق عن جرائمى أمام البشرية جمعاء". ثم توقف وقد رأيت وجهه بوضوح وبدا لى أنه أبيض وفظيع ومتكبر ونبيل بطريقة غريبة.. فذكرنى بشيطان "مليتون"!

فقال الملاك المسجل وإصبعه على الصفحة: "معظم هذا مدوّن فوق المسلة". فقال الرجل الطاغية فى شىء من الدهشة: "إنه هكذا". ثم انحنى الرب فجأة إلى الأمام وأخ ـ هذا الرجل فى يده وأمسكه على كفه كما لو كان يريد أن يراه جيدًا، فكان خطًا غامقًا صغيرًا فى وسط كف الرب.

فقال الرب: "هل فعل كل ذلك؟" فساوى الملاك المسجل كتابه بيده، وقال بقلة إهمال: "إلى حد ما".

والآن عندما نظرت ثانية للرجل الصغير تغير وجهه بطريقة عجيبة فكان ينظر إلى الملاك المسجل بفهم غريب من عينيه، فى حين اهتزت إحدى يديه عند فمه تمامًا مثل حركة عضلة أو ما شابه ذلك وقد اختفت كل مظاهر كرامة التحدى. فقال السيد الرب: "اقرأ". فقرأ الملاك شارحًا بكل عناية وبكل تفصيل كل شرور ذلك الرجل الطاغية، فكانت رسالة فكرية.. فيها تحد أحيانًا.. ولكنى أعتقد أنه من الطبيعى أن للسماء مزاياها.

(٦)

كان كل شخص يضحك حتى نبى الرب الذى عذّبه الرجل الشرير غطت ابتسامة وجهه، وكان الرجل الشرير حقًا منافيًا للطبيعة ثم قرأ الملاك المسجل وعلى شفتيه ابتسامة والتى جعلتنا

كلنا متشوقين: "يومًا ما عندما كان غضوبًا إلى حد ما من الأكل الزائد قام..".

فقال الرجل الشرير: "ليس هذا لأنه لم يعرف أى شخص عن هذا، فهذا لم يحدث فكنت سيئًا.. كنت سيئًا حقًا.. كثيرًا ما كنت سيئًا ولم يكن هناك شىء أحمق.. أحمق تمامًا..".

فاستمر الملاك فى قراءته.. فصرخ الرجل الشرير: "لا تجعلهم يعرفون ذلك! إننى سأتوب.. إننى سأعتذر..." فالرجل الشرير الذى على كف الرب بدأ يرقص ويبكى وفجأة غطاه الخزى فاندفع محاولاً أن يفلت الكرة التى فى الإصبع الصغير للرب ولكن الرب منعه بلفه الرسغ بمهارة ثم اندفع فى الفجوة بين اليد وإصبع الإبهام ولكن الإبهام أغلق واستمر الملاك يقرأ.. يقرأ، فاندفع الرجل الشرير إلى الأمام وإلى الخلف عبر كف الرب ثم استدار فجأة وهرب على كم الرب.

وأنا توقعت أن الرب سيطرده ولكن رحمة الله غير محدودة. فتوقف الملاك المسجل وقال: "ماذا بعد؟" ثم قال الرب: "التالى". وقبل أن ينطق الملاك المسجل بالاسم وقف شخص مشعر فى خرق قذرة فى كف الرب.

(٧)

فقال الرجل الصغير بجانبى: "هل جهنم فى يد الرب إذن؟". فسألت: "وهل توجد حقًا جهنم؟" فقال: "إذا لاحظت". ونظر بين أقدام الملائكة العظام: "ولكن لا توجد أية إشارة إلى المدينة

السماوية". فقالت المرأة الصغيرة بجانبنا: "استمع لهذا القديس المبارك".

(٨)

فقال القديس: "إنه سيد الأرض ولكنى كنت نبى الله فى السماء وكل الناس تعجبت من العلامة لأننى يا رب عرفت أمجاد جنتك.. لا ألم.. لا مشقات.. ولا جرح بالسكاكين.. الشظايا تندفع تحت أظافرى.. أشرطة من اللحم وقد شُرحت، والكل للمجد والإكرام للرب".

فابتسم الرب.. وأخيرًا ذهبت أنا فى خرقى، وجروحى تبعث منى رائحة متاعبى المقدسة.

وضحك (جبرائيل) فجأة.. ورقد خارج البوابة كعلامة للتعجب.. فقال الملاك المسجل: "كمضايقة كاملة". ثم بدأ يقرأ دون الالتفات لحقيقة أن القديس كان لا يزال يتكلم عن الأشياء السارة المجيدة التى عملها حتى يمتلك الجنة. وكان فى نفس هذا الكتاب سجل القديس رؤية، أعجوبة، ولم تمض عشر ثوان قبل أن يندفع القديس أمامًا وخلفًا فى كف الرب.. وأخيرًا صرخ تحت التعرض الشرير والساخر.. وهرب الرجل الشرير فى كم الرب وسمح لنا أن نرى فى ظل الكم. وجلس الاثنان جنبًا إلى جنب متحابين من كل خداع فى ظل ثياب خيرات الرب كالإخوة.. كذلك هربت أنا بدورى.

(٩)

فقال الرب، وقد هزنا بعيدًا عن كمه على الكوكب الذى أعطانا

لنعيش عليه.. الكوكب الذى يلف حول (سيرس) الأخضر، كشمس:
"وهكذا الآن حيث إنك تفهمنى ويفهم بعضكم بعضًا إلى حد ما..
حاولوا ثانية".

ثم استدار هو وملائكته العظام واختفوا فجأة.

وكل ما كان حولى كان أرضًا جميلة أجمل من أى أرض رأيتها من قبل.. قفر.. تقشف وروعة وكل ما حولى كانت الأرواح المستنيرة للرجال فى أجساد نظيفة..

المدرعات الأرضية

(١)

قبع الملازم الشاب بجوار المراسل العسكرى، وأبدى إعجابه بالهدوء الشامل الذى يسود خطوط الإعداد بشكل مريح للأعصاب، وهو يضع منظار الميدان فوق عينه، ويحركه يمنة ويسرة.

وقال أخيرًا: "بقدر ما أعرف.. رجل واحد".

سأل المراسل العسكرى: "وما الذى يفعله؟".

قال الملازم الشاب: "ينظر إلينا هو الآخر بمنظاره الميدانى".

- "لا عجب فى ذلك.. إنها الحرب!".

قال الملازم الشاب: "لا يا عزيزى.. إنه (بلوش)"[١].

- "على أية حال إننا متعادلان".

---

(١) إيفان بلوش كاتب بولندى تنبأ بالحرب العالمية الأولى (١٩١٤ - ١٩١٩) قبل نشوبها بسنوات وحذر من ويلاتها (المترجم).

ـ "لا!.. ليس أمامهم سوى النصر أو الخسارة.. التعادل مكسب لنا".

ناقش الرجلان قبل ذلك الموقف السياسى خمسين مرة أو نحو ذلك، وشعر المراسل العسكرى بالضجر منه.. مدد ذراعيه وساقيه.. وقال وهو يتثاءب "أظن ذلك يا (صاح)!".

بوم!

ـ " ماذا كان ذلك؟".

ـ "طلقة صوبت نحونا".

خفض المراسل العسكرى من وضع جسمه قليلاً وقال: "لم يطلق أحد النار علينا من قبل".

ـ "إننى أتساءل هل يعتقدون حقًا أننا سئمنا كل هذا وسوف نعود أدراجنا إلى بلادنا؟".

ـ "لكن بالطبع هناك حصاد سوف نجنيه".

لقد مر عليهم شهر فى هذا المكان.. منذ أول تحركات نشيطة بعد إعلان الحرب، سار كل شىء بشكل أبطأ فأبطأ.. حتى بدا أن كل آليات الأحداث كادت تتوقف تمامًا. وفى البداية اضطروا إلى الفرار، حيث اقتحم الغزاة الجبهة فى وقت إعلان الحرب فى ستة طوابير عسكرية متوازية خلف سحابة من راكبى الدراجات والفرسان محاولين الوصول إلى العاصمة.. وسرعان ما أحدق بهم الفرسان المدافعون وأمطروهم بوابل من النيران، واضطروهم إلى الانتشار ومحاولة الخداع.. ثم اندفعوا إلى الموقع التالى بالشكل

المخطط له تمامًا لمدة يومين.. حتى وقت ما بعد الظهيرة.. ثم حدث صدام!.. حيث دفعوا المهاجمين تجاه خطوطهم الدفاعية المجهزة تمامًا.

لم يتعرض الغزاة لأية معاناة، كما كان مأمولاً ومتوقعًا، وكان يبدو أنهم يتقدمون وعيونهم مفتوحة.. وجنود استكشافهم يعبئون بنادقهم.. وقد جثموا هناك على الفور، دون أية نية واضحة للهجوم.. وبدأوا يحفرون خنادق لأنفسهم، كما لو كانوا يخططون للمكوث هناك حتى آخر الزمان.. كانت كل تحركاتهم وأعمالهم تتسم بالبطء الشديد وأيضًا بالحذر البالغ أكثر مما يتوقع الناس.. وحافظوا على إخفاء قواتهم وتدريع مشاتهم بطيئى الحركة، بما يكفى للحيلولة دون نجاح أى هجوم معاكس مباغت عليهم.

قال الملازم الشاب بثقة: "لكنهم لا بد أن يهاجمونا".

- "سوف يهاجموننا فى الفجر.. من مكان ما من بين خطوطهم الأمامية.. سوف نُفاجأ بحراب بنادقهم وهى تندفع داخل خنادقنا فى الوقت الذى يمكنك أن ترى فيه أول ضوء"، وكان هذا رأى المراسل العسكرى حتى أسبوع مضى، وغمز الملازم الشاب بعينه فور أن قال هذا.

وذات صباح مبكر عندما أرسل المدافعون بعض الرجال، لكى يتحركوا مسافة ٥٠٠ متر قبل الخنادق، بهدف تفريغ خزائن طلقاتهم فجأة فى أى هجوم ليلى، إلا أنهم استسلموا للخوف وأخذوا يطلقون النيران بشكل عشوائى متواصل على لا شىء لمدة عشر دقائق، فهم المراسل العسكرى معنى هذه "الغمزة".

وقال المراسل العسكرى فجأة: "تُرى ماذا تفعل لو كنت مكان العدو؟".

- "تقصد لو كان معى جنود مثل جنودى هؤلاء؟".

- "نعم، هذا بالضبط ما أعنيه".

- "إذن أستولى على تلك الخنادق".

- "وكيف تحقق ذلك؟".

- "آه - بالحيلة طبعًا.. أزحف إلى الخارج لنصف المسافة ليلاً قبل ضوء القمر.. ثم أتصل بالرجال الذين نرسلهم إلى الخارج.. وأنفجر منهم غضبًا إذا حاولوا التحايل، ومن ثم أقتلهم فى ضوء النهار.. وأدرس رقعة الأرض هذه بدقة فائقة.. أكمن طيلة النهار مقرفصًا فى حفرة.. ثم أدنو أكثر فى الليل التالى.. هناك أرض وعرة حيث يمكنهم عبورها حتى مسافة الاقتحام.. وكل ذلك سهل.. ويمكن أن يتم ليلاً أو نحو ذلك.. إنها ستكون مجرد نزهة لجنودنا.. إنهم جاهزون دائمًا لمثل ذلك... مدافع؟.. إن الطلقات والشظايا لا توقف تقدم الرجال الأشداء أو تمنعهم من تحقيق هدفهم".

- "ولكن لماذا لا يفعلون ذلك؟".

- "إن رجالهم ليسوا أشداء بما يكفى.. هذه هى مشكلتهم.. إنهم حشد من القرويين المنهكين الذين لا حول لهم ولا قوة.. هذه هى حقيقة الأمر.. إنهم كتبة وموظفون.. وعمال مصانع وطلاب علم.. إنهم رجال متخصصون أيضًا.. وهم يكتبون ويتكلمون وبمقدورهم عمل كل الأشياء.. لكنهم هواة ومبتدئون فى شئون الحرب.. ليست

لديهم قدرة بدنية ومادية على الصمود.. هذا كل ما هنالك.. أحدهم لم ينم ليلة واحدة فى العراء من قبل طوال حياته، ولم يشرب مسكرًا قط وإنما المياه النقية التى تندفع فى مواسير المنازل فقط.. لم يقل عدد وجبات أى منهم عن ثلاث وجبات يوميًا منذ أن تم فطامه من الرضاعة.. نصف سلاح فرسانهم لم يمتط جوادًا قط حتى تم تجنيده فى الجيش لديهم منذ ستة شهور.. وهم يمتطون جيادهم كما لو كانوا يركبون دراجات.. لاحظهم بنفسك!.. إنهم حمقى حقًا فى لعبة الحرب.. وهم أنفسهم يعرفون ذلك.. فتياتنا فى الرابعة عشرة من عمرهن يستطعن هزيمة رجالهم البالغين بجدارة...".

استغرق المراسل العسكرى فى تفكير عميق واضعًا أنفه بين مفصلات أصابعه.. ثم قال: "إذا كانت أى حضارة متطورة لا تستطيع إنتاج رجال مقاتلين أفضل من...".

توقف بشىء من الأدب الذى تأخر لبعض الوقت وأردف: "أقصد من....".

أكمل الملازم الشاب: "من حياتنا فى الهواء الطلق".

قال المراسل العسكرى: "بالضبط.. إذن فعلى تلك الحضارة أن تتوقف".

أقر الملازم الشاب الفكرة قائلاً: "نعم يبدو أن الأمر كذلك".

قال المراسل العسكرى: "وكما تعرف، الحضارة تنتج العلم.. والعلم اخترع وصنع البنادق والمدافع والأشياء التى نستخدمها".

- "والتى يمكن أن يستخدمها صيادونا ومربو ماشيتنا الأشداء الأصحاء وهكذا.. ورعاة البقر الصاخبون.. وقاهرو الزنوج.. عشرة أمثال أفضل من...".

قال المراسل العسكرى: "ما هذا؟".. ووجد رفيقه مشغولاً فى البحث بمنظاره الميدانى.. وأخرج منظاره هو وقال: "أين؟" وأخذ بدوره يمسح بنظره خطوط العدو.

قال الملازم الشاب وهو مازال يمسح الميدان بمنظاره "لا.. إنه لا شىء".

- "ما هو اللاشىء هذا؟.. بربك أخبرنى يا رجل؟".

أنزل الملام الشاب منظاره من على عينيه وأشار بيده: "أعتقد أننى رأيت شيئًا هناك.. وراء جذوع تلك الأشجار.. شىء أسود اللون.. لكن ما هو هذا الذى لا أعرفه".

حاول المراسل العسكرى أن يثبت وجوده بمسح الميدان بدقة بمنظاره.

قال الملازم الشاب وهو يلتفت لكى يرى سماء الليل البهيم: "ليس هناك شىء.. لن يكون هناك أى شئ آخر لنا.. بالطبع ما لم....".

نظر إليه المراسل العسكرى متسائلاً ومترقبًا:

- "تضطرب معداتهم أو بطونهم أو شىء من هذا القبيل.. فهم يعيشون بدون تصريف".

انبعثت أصوات أبواق من الخيام وراءهم. وانزلق المراسل العسكرى إلى الخلف فى الرمل ثم انتصب واقفًا.. وهدر صوت

"بوووم!" من مكان ما إلى اليسار عن بعد.. وقال: "مرحى!".. ثم تردد قليلاً وزحف عائدًا لكى يحدق مرة أخرى.. وأردف: "إن إطلاق النار فى مثل هذا الوقت أمر سيىء جدًا".

ظل الملازم الشاب صامتًا برهة من الوقت.. ثم أومأ إلى مجموعة بعيدة من الأشجار مرة أخرى.. وقال: "أحد مدافعنا الكبيرة إنهم كانوا يحاولون إطلاق النار على هذا الشئ".

- "إذن هذا هو الشىء الذى كان لا شىء.. أليس كذلك؟".

- "نعم.. هناك بشكل ما شىء ما هناك".

كان كلا الرجلين صامتًا وهو يحدق بنظارة ميدانه لفترة من الوقت.. ثم قال الملازم "بمجرد أن يبدأ أول ضوء فى الصباح الباكر".. ثم نهض واقفًا.

قال المراسل العسكرى: "لعلنى أبقى هنا لبعض الوقت".

هز الملازم رأسه وقال: "ليس هناك شىء يمكنك أن تراه".. وبذلك عبّر عن اعتذاره ثم انصرف إلى جماعة الجنود المسترخين الذين اسمًرت بشرتهم من لفح الشمس.. وكانوا يتحدثون فى اطمئنان فى الخندق.

وقف أيضًا المراسل العسكرى وحدق للحظة فى الصخب الهادر أسفل منه.. ونظر لمدة عشرين ثانية تقريبًا إلى تلك الأشجار الغامضة.. ثم استدار متجهًا إلى المعسكر.

وجد نفسه يفكر فى رئيس التحرير الذى أرسله، وهل سيهتم بقضية مفادها أن شخصًا ما ظن أنه رأى شيئًا ما وسط مجموعة

من الأشجار.. وكيف أن أحد المدافع أطلق نيرانه على هذا الوهم بمعرفة شخص ما آخر.. لا ريب أن كل ذلك أمور تافهة لن يهتم بها أو يصدقها أحد.

وقال المراسل العسكرى: "لكن لعل هذا هو بارقة الأمل الوحيدة فى ذكر شىء ذى أهمية على الإطلاق طوال عشرة أيام كاملة". وأردف بسرعة: "لا.. سوف أكتب تلك المقالة الأخرى بعنوان "هل انتهت الحرب؟".

حدق فى الخطوط المظلمة التى أمامه.. شبكة خنادق كل واحد منها خلف الآخر.. وهذه الخنادق جهزها المدافعون.. إلا أن الظلال والضباب أخفَتْ معالمها المبتعدة.. وكان أحد المصابيح يضيئ فجأة هنا أو هناك.. وهنا وهناك جثمت مجموعات من الرجال حول نيران صغيرة تستدفئ وتستفيد بها.. وقال:"لا توجد قوات على سطح الأرض بإمكانها أن تفعل ذلك".

أحس بالاكتئاب.. واعتقد فى تلك اللحظة أن هناك فى الحياة أشياء أهم وأفضل للإنسان من المهارة فى القتال وفنون الحرب.. اعتقد أنه فى قلب الحضارة ووسط كل توتراتها وتركيزها الشديد على القوى ومظالمها ومعاناتها يكمن شىء ما لعله يكون أملاً للعالم. وخطرت له فكرة أن أى أناس يعيشون فى العراء ويصطادون للغذاء ويفقدون كل اتصال بالكتب والفنون وكل الأشياء التى تجمِّل الحياة وتقويها، قد يأملون فى مقاومة الحضارة الضخمة وتحطيمها حتى آخر الزمان.. وقد أزعجت تلك الفكرة روحه المتحضرة وآلمتها.

وبينما تدور تلك الأفكار فى رأسه، مر بجواره طابور من الجنود المدافعين على ضوء مصباح يعلّم لهم الطريق.. ونظر إلى وجوههم المضاءة بنور أحمر.. ولمعت للحظة صورة أحد تلك الوجوه.. إنه وجه مألوف فى صفوف المدافعين. يتسم بأنف دميمة وشفتين حساسيتين وعينين لامعتين تمتلآن مكرًا وخداعًا وقبعة مترهلة ذات حافة عالية من أحد الأجناب وتزينها ريشة طاووس.. مثل أى جندى أخرق يتشبه بدون جوان ساحر النساء.. وبشرة سمراء خشنة.. وجسم قوى.. وخطوة واسعة نشطة.. وقبضة شديدة على البندقية.

رد المراسل العسكرى تحياتهم العسكرية ثم مضى فى طريقه.. ولم يلبث أن همس قائلاً: "مغفلون.. نعم مغفلون وسذج.. وماكرون.. وهم سيغلبون القرويين فى لعبة الحرب!".

من الضوء الأحمر المنبعث عن الخيمات القريبة جاء الأول.. ثم تبعه ستة أصوات حماسية تصيح أو تصرخ فى إنشاد جماعى لأغنية حماسية عاطفية.. وغمغم المراسل العسكرى بمرارة: "ما أعظمكم يا أبطال".

(٢)

بدأت المعركة فى مواجهة الخنادق المسماة باسم (كوخ هاكبون).. وهناك الأرض واسعة ومستوية فيما بين الخطوط.. حيث لا مخبأ حتى لسحلية.. وبدا للرجال المروَّعين الذين أوقظوا لتوهم المتدافعين إلى داخل الخنادق أن هذا كان دليلاً آخر على عدم خبرة عدوهم التى سمعوا عنها كثيرًا.. ولم يستطع المراسل الحربى أن

يصدق أذنيه فى البداية.. وأقسم أنه هو والملازم الشاب الذى لم يكن قد استيقظ تمامًا ويحاول لبس حذائه ذى الرقبة على ضوء عود ثقاب يمسكه بيده كانا ضحيتين لوهم شائع. ولكن بعد أن أدخل رأسه فى دلو به ماء بارد، عاد إليه ذكاؤه وهو يجفف وجهه.. وأصغى جيدًا ثم قال: "عجبًا!.. هذا شىء أكثر من مجرد إطلاق نيران هذه المرة.. إن الأمر يشبه مرور قافلة تضم عشرة آلاف عربة يجرها حصان على جسر من القصدير".

ثم دوى هدير يقوى من شدة تلك الجلبة.. فهتف: "مدافع رشاشة!".. ثم قال: "مدافع!". الملازم الشاب الذى كان لابسًا فردة واحدة من حذائه ذى الرقبة فكر فى أن ينظر إلى ساعته ثم ذهب إليها وهو يحجل على قدم واحدة.. وقال: "مرت نصف ساعة من الفجر.. لقد كنت محقًا فى تقدير وقت هجومهم".

خرج المراسل العسكرى من خيمته، وتأكد من وجود قطع الشيكولاته فى جيبه كما يفعل دائمًا.. كان عليه أن يقف للحظة أو نحو ذلك حتى تعتاد عيناه على الظلام إلى حد ما.. ثم قال: "ظلام حالك!".. وتوقف برهة حتى تتأقلم عيناه أكثر.. وعندها لم يجد ما يمنعه من الاندفاع تجاه فجوة سوداء بين خيمتين متجاورتين.. وتعثر الملازم الذى يسير وراءه فى حبل إحدى الخيمات.. كانت الساعة الثانية والنصف صباحًا فى أكثر الليالى ظلمة وتحت سماء سوداء كئيبة.. وجنود العدو يحملون كشافات قوية.

قال المراسل العسكرى: "إنهم يحاولون إعماء أبصار حملة البنادق" وكاد ينفجر من الغضب.. وانتظر الفنان لكى يلحق به..

ثم واصل سيره على عجل.. وقال: "اللعنة!.. الخنادق!" وتوقفا.

قال المراسل العسكرى: "إنها الكشافات المربكة اللعينة!".

شاهدوا مصابيح تلوح جيئة وذهابًا فى الجوار، ورجالاً يصطفون لكى يتجهوا إلى الخنادق.. وكانا يتبعانهم، ثم بدأت عينا الملازم تعتادان على الظلام. وقال "لو استطعنا تسلق هذا.. وهو مجرد جهد معقول، وبعد ذلك يمكننا الصعود إلى القمة".. وهذا هو ما شرعا فى تنفيذه. وأضاءت الأنوار ثم انطفأت فى الخيام بالخلف، فى حين خرج منها الرجال.. ثم اتجهوا مرة أخرى صوب الأرض الوعرة وهناك تعثروا أو ترنحوا فيها.. لكن بعد قليل دنوا من القمة.. وفجأة سمعوا فوقهم فى الهواء دويًا يشبه وقوع حادثة هائلة لقطار مسرع.. وتطايرت حولهم الطلقات والشظايا كسيل منهمر.. وقال المراسل العسكرى: "ياللهول!".. وبسرعة قدروا أنهم وصلوا إلى القمة ووقفوا وسط عالم من الظلام الدامس والأضواء الهائجة.. التى تعبر عن حقيقة مؤكدة!

عن يمينهم ويسارهم وفى كل مكان حولهم ينتشر الصخب والضجيج.. كمّ هائل من نيران الطلقات.. كانت فى البداية مشوشة وهمجية ثم ازدادت عليها ومضات صغيرة وإشارات على وشك التشكل.. وبدا للمراسل العسكرى كما لو أن العدو هاجم بكل خطوطه وقواته.. وفى تلك الحالة إما أنه أبيد أو كان فى طريقه للإبادة.

قال بغريزة العناوين الرئيسية للصحفى: "الفجر والموت".. قال

ذلك لنفسه، لكن بعد ذلك نقل نفس تلك الفكرة إلى الملازم بالصياح.. حيث قال: "لا شك أنهم يقصدون عمل مفاجأة لنا".

ومن الغريب أن إطلاق النيران استمر.. وبعد فترة بدأ يدرك نوعًا من التناغم فى هذا الجحيم من الضوضاء.. ثم بدأ يخفت رويدًا حتى وصل إلى ما يشبه التوقف.. التوقف عن السؤال.. فقد بدا أن هذا التوقف يسأل: "ألم تموتوا بعد؟".. وقلّت ومضات البنادق ثم توقفت.. وهنا بدأ دوى المدافع الضخمة للعدو من على مسافة ثلاثة كيلو مترات فى الظهور من الأعماق.. وفجأة حدث شىء فى الشرق أو الغرب أثار مرة أخرى موجة جنونية من إطلاق نيران البنادق..

أخذ المراسل العسكرى يقدح زناد فكره فى بعض نظريات الصراع التى قد تفسر الوضع الحالى، عندما أدرك فجأة أن هناك ضوءًا قويًا مركزًا عليه وعلى الملازم.. ورأى الحافة التى يقفان عليها.. وأمامهما صف من حملة البنادق يرتدون زيًا أسود ويسرعون باتجاه الخنادق القريبة.. وكان واضحًا أن بعض المطر الخفيف يتساقط.. وبعيدًا باتجاه العدو كانت هناك بقعة خالية بها بعض الرجال - "رجالنا؟" - يعبرونها جريًا فى اضطراب وقلق.. ورأى واحدًا من أولئك الرجال يفرد يديه أمامه ويقفز.. ولمع شىء أسود آخر عاليًا على حافة الومضات المتلألئة.. وبعيدًا خلف ذلك عين بيضاء هادئة تنظر إلى العالم.

انطلقت ترنيمة من مكان ما من الهواء: "ويت.. ويت.. ويت".. وعندئذ سارع الملازم يعدو بحثًا عن ساتر يحتمى تحته، وخلفه

مباشرة المراسل العسكرى.. ومرت رصاصة مدوية بالقرب منهما.. وسرعان ما تمدد الرجلان فى حفرة منحدرة فى الأرض.. وما لبث الضوء وكل شىء أن اختفى مرة أخرى.. ولم يعد هناك سوى سؤال كبير عن ذلك الضوء الذى اختفى.

اقترب المراسل العسكرى من حد الصراخ وهو يقول: "ماذا كان هذا بحق الشيطان؟.. وهل يقتلون رجالنا بالنيران؟".

قال الملازم: "إنه الشىء الأسود.. يشبه الحصن.. ويبعد بمسافة تقل ٢٠٠ متر عن أول خندق لنا".

وفكر فى بعض المقارنات فى ذهنه ثم أردف "إنه شئ ما بين متراس أو حصن صغير وطبق هائل الحجم".

قال المراسل العسكرى: "وكانوا يجرون أيضًا".

"إنك بلا شك سوف تعدو لو واجهك شىء كهذا ومعه كشاف باهر ثم اتضح لك أنه كابوس أو روح شريرة تجوس ليلاً وسط الظلام لتؤذى من تقابله".

زحف الرجلان حتى وصلا إلى ما يعتقدان أنه حافة المنحدر السحيق.. ثم طفقا ينظران إلى الهوة المظلمة التى لا يمكن سبر غورها.. لفترة من الوقت لم يتمكنا من تمييز شىء.. وفجأة عاد الشىء الغريب ثانيةً من خلال ظهور الأضواء الكاشفة مرة أخرى من الجانبين فى نفس الوقت.

فى ظل هذا الاصفرار الومَّاض.. كان ثمة شىء يشبه تأثير حشرة سوداء خرقاء عملاقة.. حشرة فى حجم سفينة أو طرَّاد

مدرع.. تزحف فى مسار ملتو إلى أول خط من الخنادق، ثم تطلق النيران من فتحات موجودة فى جانبها. وعلى بدنها ترتطم الرصاصات بقوة وابل المطر وعنفه على سطح من الصفيح.

ثم فى لمح البصر أسدل الظلام أستاره مرة أخرى.. ولم يلبث الوحش أن اختفى.. لكن تعاظم النيران المنطلقة دل على اقترابه من الخنادق.

كانا على وشك التحدث عن هذا الشىء بعضهما لبعض، عندما دفعت طلقة طائرة بعض الطين على وجه الملازم.. وعندها قررا أن يزحفا ببطء لكى يحتميا بغطاء الخنادق.. وتمكنا من النزول بإصرار لا يلين إلى خنادق الصف الثانى قبل سفور الضوء بعد الفجر بما يكفى لرؤية أى شىء. وجدا نفسيهما وسط حشد من حملة البنادق المتحفزين الذين يتناقشون بحدة عما سيفعلونه لاحقًا. إن آلة العدو الغامضة ألحقت الهلاك بالرجال البعيدين.. ولم يصدقا أنها يمكن أن تسبب دمارًا أكثر من ذلك. وقال جندى ضخم الجثة: "عندما يجىء النهار.. فسوف نأسر عددًا كبيرًا منهم".

قال المراسل العسكرى: "منهم.. اللعنة ماذا تقصد بالضبط؟".

- "إنهم يقولون: إن هناك مجموعة نظامية منهم يزحفون بطول جبهة خطوطنا الأمامية.. ولكن من الذى يهتم؟".

تبددت خيوط الظلام تمامًا حتى إنه لم تعد هناك إطلاقًا أى حاجة لكى يقول أحد: إنه يستطيع أن يرى جيدًا.. وتوقفت الأضواء

الكاشفة عن الاستكشاف هنا وهناك.. وكانت وحوش العدو عبارة عن رقصات غامضة فى الظلام.. وبعد ذلك لم تعد غامضة وبدأت تتضح معالمها. ولاحظ المراسل العسكرى وهو يمضغ الشيكولاته بينما كان سارحًا مع أفكاره، صورة جلية للمعركة تحت سماء كئيبة.. تتركز بؤرتها حول مجموعة من ١٤ ـ ١٥ شكلاً أخرق ممددة بالتتابع بالضبط عند حافة أول خط من الخنادق.. بفاصل بين كل واحد والآخر حوالى ٣٠٠ متر.. ومن الواضح أنها تطلق نيرانها على الجنود حملة البنادق. وكانوا قريبين جدًا لدرجة أن مدافع المدافعين توقفت عن الرمى، ولم يكن يشتبك معها سوى الصف الأول من الخنادق.

كان الصف الثانى من الخنادق يسيطر على الصف الأول.. وعندما ازداد الضوء، ميز المراسل العسكرى الرماة حملة البنادق الذين يقاتلون تلك الوحوش الجاثمة فى مجموعات خلف الركام المستعرض ما بين الخنادق للتخلص من أى احتمال للرمى النظامى من الخنادق عليها.. والخنادق القريبة من الآلات الضخمة كانت خالية إلا من أكوام من الموتى والمصابين.. والمدافعون فروا مذعورين يمينًا ويسارًا بمجرد أن لاحت فوقهم مقدمة المدرعة الأرضية فوق مقدمة الخندق.. ووضع المراسل العسكرى نظارته الميدانية على عينيه.. وسرعان ما أصبح مركزًا لاستفسارات الجنود المحيطين به وأسئلتهم.

أراد كل منهم أن يرى، وطرحوا عليه أسئلة كثيرة.. وبعد أن أعلن لهم أن الرجال الموجودين فى العراء يبدو أنهم غير قادرين على

التقدم أو التقهقر.. وأنهم جاثمين داخل الخنادق أكثر من كونهم يقاتلون.. ووجد أنه يستحسن أن يعطى نظارته الميدانية لعريف ضخم متشكك فى كل شئ.. وسمع صوتًا حادًا، فالتفت ليجد جنديًا هزيلاً وممتقع الوجه يقف وراءه ويتحدث إلى الملازم.

قال الجندى: "هناك رجال بالأمام تم الإيقاع بهم.. فإذا تقهقروا كشفوا أنفسهم.. والنيران كما ترى فوقهم تمامًا".

- "إنهم لا يطلقون نيرانًا كافية.. وأنت تعلم أن كل طلقة تصيب".

- "تصيب من؟".

- "الرجال الموجودين فى هذا الشىء.. الرجال الذين يركبون على.... ".

- "يركبون على ماذا؟".

- "إننا سنخلى تلك الخنادق بقدر إمكاننا.. سيتقهقر رجالنا فى خطوط متعرجة.. ولن يصاب منهم أحد.. كن مطمئنًا.. ولكن عندما نبتعد عنهم، فسوف يأتى دورنا!.. فتلك الأشياء لن تستطيع عبور أى خندق أو النزول فيه.. وقبل أن تعود من حيث أتت، سوف تسحقها مدافعنا الضخمة وتحولها إلى تراب!.. انظر".. ولمعت عيناه ببريق غامض وأردف: "ثم سنعمل القتل فى الملاعين الموجودين بداخلها". عندئذ فكر المراسل العسكرى للحظة محاولاً فهم حقيقة الموقف.. ثم أخذ فى استعارة نظارة الميدان من العريف الضخم. بدأ النهار يصفو الآن وأخذت السحب ترتفع.. والوهج الأصفر الليمونى وسط كتل السحب المستوية بالشرق يؤذن بشروق الشمس.. ونظر مرة

أخرى إلى المدرعة الأرضية.. رآها فى ضوء الفجر الرمادى البارد جاثمة بميل فوق المنحدر، وبالضبط عند حافة الخندق الأمامى.. وهناك إيحاء قوى بأن تلك السفينة جنحت وتعطلت.. لعل طولها يبلغ حوالى ثلاثين مترًا.. وتبعد حوالى ٢٥٠ مترًا.. جانبها الرأسى يصل ارتفاعه إلى حوالى ثلاثة أمتار.. وشكلها معقد تحت الطرف البارز من غطائها المسطح الذى يشبه درع السلحفاة.

هذا الشكل المعقد كان عبارة عن شبكة متقاربة من الفتحات وماسورات البنادق وأنابيب تلسكوبية ـ مزيفة وحقيقية ـ يصعب التفريق بين بعضها والبعض الآخر. وقد وصل هذا الشىء إلى هذا الموضع لكى يطلق النيران على الخندق بكامل طوله.. وأصبح الخندق الآن خاليًا حسبما يرى هو.. باستثناء مجموعتين أو ثلاث من الرجال المقرفصين الجاثمين بداخله وبعض جثث القتلى.. وخلفه عبر السهل المنبسط علّم وحزّ فى الأعشاب بسلسلة من الآثار المتصلة، مثل الآثار التى تتركها الكائنات البحرية على البر.. وعلى يمين هذا الأثر ويساره تناثرت جثث القتلى والمصابين.. رجال أرداهم جميعًا قتلى خلال فرارهم للرجوع من مواقعهم المتقدمة فى الأضواء الباهرة للكشافات المنبعثة من خطوط المهاجمين.. والآن يجثم هذا الشىء ومقدمته تبرز قليلاً فوق الخندق الذى اكتسحه.. كما لو كان كائنًا واعيًا وحيدًا يخطط للمرحلة التالية من الهجوم بعد أن كسب الجولة الأولى..

أنزل الملازم منظاره الميدانى وبدأ ينظر نظرة شاملة إلى الموقف.. الواضح أن تلك المخلوقات الليلية تغلبت على الخط الأول

من الخنادق، وأن القتال توقف لفترة من الوقت.. وفى الضوء المتزايد أمكنه أن يتبين من طلقة شاردة أو تعرض مفاجئ لها، أن الرماة المدافعين كانوا جاثمين فى الصفين الثانى والثالث من الخنادق إلى أعلى باتجاه القمة المنخفضة للمدفع.. وفى خطوط متعرجة تعطيهم الفرصة فى إطلاق نيران متجمعة على الهدف.. وكان الرجال المحيطون به يتحدثون عن المدافع.. فيقول أحدهم: "إننا فى خط المدافع الكبيرة فى القمة.. لكنهم سرعان ما يحركون أحدها لكى يمطروهم بوابل من النيران".. وكان رجلاً نحيلاً يتحدث بثقة تامة.

بوم! بوم! بوم!.. كانت وثبة مذعورة، وسرعان ما انطلقت نيران البنادق من تلقاء ذاتها.. ووجد المراسل العسكرى نفسه هو والملازم.. رجلين عاطلين جاثمين خلف صف من ظهور رجال مشغولين تمامًا بإطلاق طلقات أسلحتهم.. وتحرك الوحش.. واستمر يتحرك بالرغم من وابل النيران التى تضرب جسده بعدد هائل من الطلقات الرصاصية اللامعة.. وكان يترنم بترنيمة ميكانيكية قصيرة لنفسه عبارة عن "توف توف.. توف توف.. توف توف" ويطلق خلفه نافورات صغيرة من البخار.. ثم رفع نفسه بصعوبة إلى أعلى .. مثلما يفعل حيوان (البطلينوس)[٢] قبل أن يزحف.. رفع جذعه الذى يمتد بطول قدميه!.. نعم. قدمان سميكتان وقصيرتان وبدينتان.. بين بعض المقابض والأزرار.. شيئان عريضان مسطحان.. يذكران المرء بقدَمى الفيل.. ثم صعد الجذع

(٢) حيوان من الرخويات يلتصق بالصخور التى تغمرها المياه (المترجم).

إلى أعلى.. وهنا تفحص المراسل العسكرى بدقة هذا الشىء بنظارته الميدانية من جديد.. ورأى أن هاتين القدمين مثبتتان بحواف مجموعة من العجلات.. وبسرعة اتجه تفكيره إلى شارع "فيكتوريا" بمنطقة "وستمينستر".. ورأى نفسه فى أوقات السلم الهادئة يبحث عن موضوع لعمل مقابلة مع شخص مهم لنشرها فى الجريدة.

وقال "السيد (ديبلوك)".. وتريث ثم أردف: "وهو يسميها العجلات ذات القباقيب البارزة.. تخيل مقابلتهم هنا!" رفع الرامى المجاور له رأسه وكتفيه بشكل ينم عن الإصرار على إطلاق النيران.. وبدا من الطبيعى افتراض أن انتباه الوحش سوف يتشتت عند الخندق الذى أمامه.. وعندئذ صدمته فجأة من الخلف طلقة فى رقبته.. وفى الحال رفع قدميه من الأرض واختفى عن مجال رؤية مراقبه. انبطح المراسل العسكرى بقوة على الأرض.. ولكن بعد أن استرق النظر خلفه فى كرب شديد، استأنف مراقبته بمنظاره الميدانى.. وكان هذا الشىء يضع قدميه واحدة وراء الأخرى ويرفع نفسه إلى أبعد عبر الخندق.. وكانت رصاصة واحدة فى رأسه تكفى لوقف كل حركاته المريبة.

أوقف الرجل النحيل ذو الصوت الحاد إطلاق النار، والتفت مكررًا وجهة نظره: "لا يمكن لهم أن يعبروا" ثم صاح صيحة عالية وقال: "إنهم .....".

"بانج! بانج! بانج!".. غطى الصوت الرهيب على كل شىء.. وواصل الرجل الهزيل كلامه بكلمة أو نحو ذلك.. ثم صرف نظره

وهز رأسه تعبيرًا عن استحالة عبور أى شىء للخندق مثل ذلك الموجود بأسفل.. ثم واصل عمله الذى كان منهمكًا فيه.

وطوال الوقت كان هذا الكائن الضخم يعبر.. وعندما حرك المراسل العسكرى منظاره الميدانى صوبه مرة أخرى. كان قد عبر الخندق وقدماه العجيبتان تحدثان صريرًا خشنًا عند الضفة البعيدة.. فى محاولة منه للتشبث بموقعه هذا.. ونجح فى الإستيلاء على هذا الموقع.. واستمر فى زحفه حتى أصبح جسمه الهائل فوق الخندق تمامًا.. ثم تريث برهة وخفض من جانبه السفلى قليلاً تجاه الأرض.. وأصدر صوتًا مثيرًا للأعصاب "توت... توت".. وبدأ يتحرك بسرعة تصل إلى حوالى ١٠ كم/ساعة صاعدًا إلى أعلى المنحدر الخفيف باتجاه مراقبنا.

ورفع المراسل العسكرى نفسه على مرفقه ونظر إلى الملازم بشكل تلقائى متسائلاً.. وللحظة تشبث الرجل المجاور له بموقفه وأخذ يطلق النار كالمجنون.. وعندئذ انسل الرجل النحيل متقهقرًا بتهور إلى الخلف. وقال المراسل العسكرى للملازم: "أقبل يا رجل".. وأشار إلى الحركة بطول الخندق.

بينما هما ينبطحان إلى أسفل، اختفى للحظة مشهد جانب التل المجاور للخندق بعد أن اجتاحته ستة من "الصراصير" الآلية العملاقة.. وبدلاً منه ظهر ممر ضيق مكتظ بالرجال الذين يتراجع معظمهم، رغم أن واحدًا أو اثنين منهم استدارا أو توقفا مترنحين. لكنه لم يستدر إلى الخلف ليرى أنف الوحش وهو يزحف فوق حافة الخندق.. بل إنه لم يأبه بإجراء أى اتصال مع الملازم.. وسمع صوت

"ويث" المعبر عن انطلاق الرصاصات من كل مكان حوله.. ورأى رجلاً أمامه يتعثر ويقع.. وعندئذ وجد نفسه واحداً ضمن حشد مذعور يندفع فى محاولة للنزول فى أى خندق متعرج عرضى يمكّن المدافعين من الاحتماء بساتر أعلى التل وأسفله.. كان المشهد أشبه بمشهد مسرحى يعبر عن الذعر.. وفهم من الإشارات والكلمات المتناثرة المقتضبة أنه فى الأمام تمكّن أحد تلك الوحوش الأخرى من اكتساح الخندق الثانى.

فقد للحظة كل اهتمام بالحالة العامة لسير القتال، وأصبح فجأة مجرد شخص يهتم بسلامته أولاً.. فى حالة من الحرص المتعجل.. باحثًا عن المؤخرة البعيدة، وسط حشد منتشر من رماة البنادق المحبطين القلقين.. واندفع مذعوراً فى الخندق.. واستجمع كل شجاعته وركض عبر الأرض المكشوفة.. وشعر بالخوف فى بعض الأوقات عندما بدا أنه من الجنون ألا تكون رباعىّ الأقدام!.. كما شعر بالخجل عندما وقف منتصباً واستدار بنصف لفة ليرى كيف يسير القتال.. وكان مجرد واحد من عدة آلاف من الرجال المتشابهين فى ذلك الصباح.. وتوقف على حافة التل وسط مجموعة من الشجيرات.. وفى تلك الدقائق قدح زناد فكره لكى يعى معنى كل تلك الأحداث.

فى ذلك الوقت انتصف النهار.. وتغير لون السماء الرمادية الكئيبة إلى اللون الأزرق.. ومن بين كل تلك السحب الكثيفة وقت الفجر لم يتبق سوى بضع رقعات متناثرة من السحب البيضاء المتلاشية.. وكان العالم بأسفل ساطعًا وصافيًا بشكل رائع.. ولعل

حافة التل لم تكن ترتفع بأكثر من ٣٠ مترًا أو نحو ذلك عن السهل الواسع. ولكن فى تلك المنطقة المسطحة كان يكفيك أن تحصل على هذا المشهد الممتد أمام ناظريك.. وبعيدًا فى الجانب الشمالى من الحافة ظهرت المعسكرات صغيرة وبعيدة، والعربات النظامية وجميع معدات جيش كبير، والضباط يجرون بالجياد هنا وهناك، وبعض الرجال يقومون بأشياء لا معنى لها.. ولكن الرجال كانوا يصطفون هنا وهناك.. والفرسان يتخذون تشكيلاتهم على السهل الموجود بعد الخيام.. وكل الرجال الذين كانوا فى الخنادق ما زالوا متجهين إلى الوراء فى مجموعات متناثرة ـ كأغنام بلا راعى يوجهها ـ فوق المنحدرات البعيدة.

هنا وهناك كانت تتم بعض تجمعات لحشد القوى ومحاولات للانتظار ثم الهجوم.. وهى محاولات غامضة ومتواضعة.. لكن الموقف العام لم يكن ليوفر أى تركيز، وعلى الجانب الجنوبى من الحافة كانت هناك شبكة متقنة من الخنادق والمواقع الدفاعية المتداخلة.. وعبرها تنتشر أربع عشرة من تلك السلاحف الحديدية فوق خط يبلغ طوله خمسة كيلو مترات، وتتقدم الآن بأسرع ما يمكن للمرء أن يهرول به.. وتطلق نيرانها بشكل منتظم محطمة أى موقع للمقاومة تصادفها.. وهنا وهناك وقفت مجموعات صغيرة من الرجال حائرة ومحاصرة وغير قادرة على الفرار وترفع الراية البيضاء.. والآن أخذ راكبوا الدراجات من الغزاة المشاة يتقدمون عبر الأرض المكشوفة فى تشكيلات مفتوحة ولكن تتقدم دون أن يعترضها شئ لاستكمال العمل الذى بدأته الآلات.

وبالنظر إلى المدافعين فى مجموعهم، فقد كانوا يبدون كجيش مهزوم.. فالآلة المدرعة تعمل بكفاءة ضد الطلقات، والتى يمكنها أن تعبر عند الضرورة خندقًا عرضه عشرة أقدام والتى يبدو أنه بمقدورها إطلاق سيل من رصاصات البنادق بدقة لا تخطئ، كان جليًا أنها الظافر الذى لا يقهر إلا بالأنهار والهوات السحيقة والمدافع الضخمة.

نظر إلى ساعته وهتف: "الساعة الرابعة والنصف! يا إلهى! ما أكثر الأشياء التى يمكن أن تحدث فى ساعتين.. ها هو الجيش العظيم بأكمله قد سحق.. وفى الساعة الثانية والنصف....".

- "وحتى الآن فإن مغفلينا الملعونين لم يفعلوا أى شىء بمدافعهم!".

مسح بمنظاره الميدانى حافة التل من اليمين واليسار.. ثم التفت مرة أخرى إلى أقرب مدرعة أرضية تتقدم الآن بميل تجاهه ولا تبعد سوى ٣٠٠ متر.. ثم مسح الأرض التى عليه أن يتقهقر خلالها إذا كان لا يريد أن يقع أسيرًا أو يموت.

وقال: "إنهم لن يفعلوا شيئًا".. ثم حدق فى العدو من جديد.. وعندئذ انطلق من بعيد إلى اليسار صوت مكتوم لطلقة مدفع.. تبعته بسرعة نيران مدفعية متواصلة.. وتردد برهة، ثم قرر أن يبقى.

(٣)

اعتمد المدافعون فى الأساس على بنادقهم فى حال حدوث هجوم عليهم.. أما مدافعهم فقد خبئوها فى مواقع متباينة فوق

حافة التل وخلفه، وقد كانت جاهزة للرد على أى تحضيرات من مدفعية العدو قبل هجومه، إن الموقف كله فاجأ المدافعين وقت الفجر، وفى الوقت الذى تمكن فيه المدفعيون من تجهيز مدافعهم للتحرك، كانت المدرعات الأرضية جاثمة بالفعل بين الخنادق الأمامية، وهناك بالطبع ممانعة طبيعية لإطلاق الجيش نيرانًا على رجاله المهزومين أنفسهم.. وكثير من المدافع التى يُقصد منها مقاومة تقدم مدفعية العدو، لم تكن موجودة فى مواقع تمكنها من ضرب أى شىء فى الخط الثانى من الخنادق.. بعد ذلك كان تقدم المدرعات الأرضية سريعًا.. ووجد قائد المدافعين نفسه فجأة مطالبًا باختراع نوع جديد من الحروب تقاتل فيه المدافع فقط وسط مشاة محطمة ومتقهقرة.. وكان أمامه ثلاثون دقيقة لكى يتوصل إلى حل لهذا اللغز.. وبالطبع لم يستجب لهذا النداء.. والذى حدث فى هذا الصباح أن تقدم المدرعات الأرضية أشعل القتال وقامت بطاريات المدفعية بأداء كل ما هو مطلوب منها.. وللأسف كان أكثر ذلك لا قيمة حقيقية له.

بعض المدافع كان لديها دانتان أو ثلاث وبعضها الآخر واحدة أو اثنتان، وبلغت نسبة الطلقات الفاشلة رقمًا عاليًا جدًا.. أما مدافع (الهويتزر)[٢] فلم تفعل شيئًا بالطبع.. واتبعت المدرعات الأرضية فى كل حالة نفس تكتيكاتها القتالية تقريبًا.. فبمجرد إعلان المدفع عن نفسه.. يقوم الوحش بلف جسمه كله بحيث يقلل فرصة اصطدام الدانة به مباشرة.. ثم يتجه مندفعًا ليس إلى المدفع وإنما إلى أقرب

---

(٢) مدفع قصير يقذف القنابل بسرعة متوسطة على مسار عال (المترجم).

نقطة من الجانب الذى يستطيع إطلاق النار منه على الرماة وقتلهم.. وبعض الدانات التى أصابت الوحوش لم تكن مؤثرة جدًا.. فإحداها فقط تعطلت.. وكان هذا هو الذى قاتل البطاريات الثلاث الملحقة باللواء فى الجناح الأيسر. كما أن ثلاثًا منها أصيبت عندما أحدقت بالمدافع بضربات مباشرة، رغم أن أحدًا منها لم يتعطل من جراء ذلك.. ولم ير مراسلنا العسكرى لحظة واحدة تم فيها إيقاف انتصار العدو على اليسار.. وإنما رأى فقط القتال غير الناجح لنصف البطارية (٦٩ ب) على مسافة غير بعيدة ناحية يمينه.. وقد لاحظ ذلك عندما كانت الأمور تسير على غير ما يرام.

وبعد ذلك مباشرة سمع البطاريات الثلاث تبدأ إطلاق النار جهة يساره.. وعندها أدرك الصوت المكتوم وقع حوافر الجياد وهى قادمة من الجانب المغطى للمنحدر.. والآن رأى أول ثم ثانى مدفع يتجه بسرعة إلى موقعه بامتداد الجانب الشمالى من سلسلة الجبال.. بعيدًا عن مرمى بصر الوحوش الضخمة التى تزحف الآن فى اتجاه مائل متجهة إلى قمة الجبل، وهى تمزق قوات المشاة البطيئة خلفها وأسفل منها وهى تتقدم حثيثًا.

لفت نصف البطارية حول نفسها فى خط مستقيم، بحيث تحرك كل مدفع فى خط منحن، ثم توقفت وفصلت المدافع عن مركباتها واستعدت للإطلاق.. ثم "بانج!".

أصبحت المدرعة الأرضية ظاهرة الآن فوق حافة التل. كظهر أسود طويل أمام الرماة.. إلا أنها توقفت، كما لو كانت حائرة أو مترددة. وأطلق المدفعان الباقيان طلقاتهما.. وعندئذ استدار

خصمهما الضخم وأصبح واضحًا بأكمله فى مواجهة السماء.. وبدأ يتقدم بسرعة.

أصاب رجال المدفعية الذعر وأسرعوا بإطلاق النار مرة أخرى.. وكانوا قريبين جدًا من المراسل العسكرى لدرجة أنه تمكن من رؤية التعبير المرتسم على وجوههم القلقة بواسطة منظاره المكبر الميدانى.. وبينما هو ينظر رأى رجلاً يسقط، وعندها أدرك لأول مرة أن المدرعة تطلق نيرانها!

للحظة تقدم الوحش الأسود الضخم زاحفًا بسرعة متزايدة تجاه رجال المدفعية المتحمسين الهائجين.. ثم لف جانبه العريض بالكامل لمهاجمتهم، كما لو كانت هناك قوة دافعة خفية تحركه.. وهو على مسافة لا تبعد عنهم بأكثر من ٤٠ مترًا.. وأعاد المراسل العسكرى منظاره الميدانى مرة أخرى إلى المدفعية وأدرك أنه الآن يطلق النيران على الرجال المجاورين للمدافع بسرعة رهيبة.

ورغم أنه للحظة بدا كل شىء رائعًا، فإنه بعد ذلك بدا رهيبًا.. كان المدفعيّون يتساقطون فى أكوام حول مدافعهم.. وأى فرد منهم يضع يده على المدفع يلقى حتفه على الفور. "بانج!".. استمر المدفع الأيسر فى إطلاق قذائفه التى فشلت فى ضرب الهدف.. وكانت تلك القذيفة هى الثانية التى أطلقتها نصف البطارية. وبعد لحظة أخرى كان ستة من رجال المدفعية الأحياء رافعين أيديهم فى استسلام وسط أكوام مبعثرة من القتلى والجرحى.. وهنا انتهت الحرب بالفعل.

تردد المراسل العسكرى بين التوقف فى المكمن الذى كان مختبئًا فيه وانتظار فرصة للاستسلام بهدوء واحترام، أو الهرب فى خندق

مجاور اكتشفه. فإذا استسلم، كان من المحتم أنه سيتعرض للأذى، ولكن إذا هرب فهناك أمامه احتمالات عدة. وبسرعة قرر أن يهرب إلى الخندق ويقبل أول هدية تعرض عليه خلف المعسكر، وسط هذا الاضطراب والهرج والمرج، وبخاصة امتطاء أحد الجياد والفرار به.

(٤)

بعد ذلك وجدت السلطات أخطاء كثيرة وقعت فيها أول المدرعات الأرضية من نواح كثيرة، لكن المؤكد أنها نجحت فى تحقيق هدفها فى اليوم الذى ظهرت فيه إلى الوجود. كانت فى الأساس عبارة عن هياكل فولاذية طويلة وضيقة ومتينة جدًا وتحمل على متنها المحركات وتحملها ثمانية أزواج من عجلات كبيرة ذات قباقيب، يبلغ قطر كل منها حوالى عشرة أقدام[٤]، وكل منها عجلة محركة ومثبتة على محاور تدور حول محور مشترك. وهذا التصميم يتيح لها أقصى قدرة على التكيف مع التضاريس الأرضية.. وهى تزحف على الأرض مستوية بحيث ترتفع بمسافة قدم فوق أى كومة عالية من الرمال وتنخفض بمسافة قدم آخر فى المنخفضات والحفر.. وهى تستطيع أن تحتفظ بانتصابها واتزانها جانبيًا فوق أى جانب منحدر أو وعر للتلال.. وصمم المهندسون المحركات بحيث تكون تحت سيطرة قائد المدرعة الذى لديه نقاط مراقبة من فتحات صغيرة حول الحافة العليا لأغطية مدرعة

---

(٤) القدم يساوى حوالى ٣٠ سم.

جانبية انضباطية ذات دروع حديدية سمكها اثنتا عشرة بوصة[٥]، تحمى المدرعة بالكامل، والذى بمقدوره أيضًا أن يرفع أو يخفض برجًا للقيادة والمراقبة ويدور حول فتحات نافذة حتى مركز الغلاف العلوى الحديدى. ويوجد عدد من الرماة بالبنادق يقبع كل منهم داخل مقصورة صغيرة ذات تصميم خاص.. وتلك المقصورات موجودة على طول الجانبين أمام الإنشاء الرئيسى الضخم وخلفه.. على نحو يشبه توزيع مقاعد عربة (الجونتنج الأيرلندية)[٦].. لكن بنادقهم كانت مختلفة تمامًا عن البنادق البدائية الموجودة فى أيدى خصومهم.

تلك البنادق كانت أساسًا آلية، بمعنى أنها تطلق طلقاتها وتحمِّل غيرها من خزانة الطلقات تلقائيًا فى كل مرة يتم فيها إطلاق النار.. وذلك حتى يتم إفراغ ذخيرتها بأكملها.. كانت لتلك البنادق مُصَوِّبات[٧] رائعة يصعب تصورها.. حيث ترسل صورة واضحة من حجرة عرض مظلمة على صندوق ضوئى محكم يجلس الرامى بالبندقية تحته، وتعلَّم صورة الحجرة المظلمة بخطين متقاطعين هكذا (+)، وكل ما هو موجود فى تقاطع هذين الخطين تصيبه البندقية.. إن تلك المُصَوِّبة تم تصميمها بعبقرية نادرة. ويقف الرامى عند الصينية، وهو ممسك بشىء يشبه فرجار الرسام، وبمقدوره أن يفتح هذا الفرجار ويقفله بحيث يكون لهما دائمًا نفس

---

(٥) البوصة تساوى حوالى 2.5سم.

(٦) عربة ذات عجلتين ومقعدين طوليين جانبيين (المترجم).

(٧) أداة تستخدم لدقة التصويب فى البنادق (المترجم).

الطول الظاهرى للرجل المراد قتله، إذا كان فى حجم الإنسان العادى.. ويسير من هذه الأداة جديلة سلكية ملفوفة صغيرة تشبه سلك اللمبة الكهربائية حتى المدفع.. وفى أثناء فتح الفرجار وقفله تتحرك المُصَوِّبة إلى أعلى وأسفل. وتم التغلب على تغيرات درجة وضوح الهواء الجوى بسبب تغيرات الرطوبة، بالاستخدام العبقرى لمادة حساسة لحالة الجو عبارة عن وتر يصنع من أمعاء الحيوانات.. وعندما تتحرك المدرعة الأرضية إلى الأمام يحدث انحراف تعويضى للمُصَوِّبة فى اتجاه حركتها. ويقف الرامى فى حجرته المعتمة تمامًا فيراقب الصورة التى أمامه.. إحدى يديه تمسك بالفرجار لتقدير مسافة الهدف، ويده الأخرى تمسك بمقبض كبير يشبه مقبض الباب.. وعندما يرفع هذا المقبض، تدور البندقية العليا بما يتمشى مع حركة المقبض، ويتم تحريك الصورة جيئة وذهابًا مثل عرض مثير لصورة متواصلة. وعندما يرى رجلاً يريد أن يطلق النار عليه، فإنه يحركه حتى المُصَوِّبة (الخطان المتقاطعان).. ثم يضغط بإصبعه على مفتاح صغير (مثل مفتاح تشغيل المصباح الكهربائى) موجود بشكل مناسب فى مركز المقبض. وعندئذ يصاب الرجل بطلق نارى! وإذا حدث لأى سبب أن أخطأ الرامى إصابة الهدف، فإنه يحرك المقبض قليلاً أو يعيد ضبط الفرجار ثم يضغط على المفتاح ويُردى الرجل قتيلاً فى هذه المرة.

هذه البندقية ومُصَوِّبتها تبرزان إلى الخارج من فتحة أو كوة جانبية، مثلها مثل عدد كبير من الفتحات الأخرى بامتداد صف ثلاثى أسفل إفريز غطاء المدرعة الأرضية.. وكل فتحة تظهر منها بندقية و مُصَوِّبة تسديد زائفتان، بحيث لا تصاب البندقية والمُصَوِّبة

الحقيقيتان إلا صدفة.. وإذا حدث ذلك فإن الشاب الموجود بأسفل يقول "تبًا!" ثم يضىء لمبة كهربائية ويخفض الأداة المصابة فى حجرته حيث يستبدل الأجزاء التالفة أو يثبت بندقية جديدة إذا كانت الإصابة بالغة.

ويمكنك أن تتصور تلك المقصورات كما لو كانت معلقة عاليًا فوق تأرجح المحاور وداخل العجلات الضخمة التى تثبت بها الأقدام الكبيرة التى تشبه أقدام الفيلة.. وخلف تلك المقصورات وبامتداد محور الوحش الآلى يمتد ممر مركزى تفتح فيه المقصورات وتعمل بطول محركات مدمجة ضخمة. إنه يشبه ممرًا تُحشد فيه تلك الآلات النابضة بالحركة ويقبع قائد المدرعة فى منتصفه بالقرب من السلم الذى يفضى إلى برج مراقبته، والذى يوجه المهندسين الصامتين اليقظين، وذلك أساسًا بالإشارات دون كلام.

وتختلط ضوضاء المحركات الدوّارة وخفقانها مع دوى البنادق والقعقعة المتقطعة للطلقات المنهمرة على الدروع.. وبين وقت وآخر يلمس قائد المدرعة العجلة التى ترفع برج مراقبته، ثم يصعد على السلم حتى لا يرى المهندسون شيئًا منه فوق وسطه.. ثم يهبط ومعه التعليمات المطلوب تنفيذها. وتوجد لمبتان كهربائيتان هما كل مصدر إضاءة هذا الحيز، وهما موجودتان فقط لكى يراه مساعدوه بوضوح تام. ويكون الهواء عادة مشبعًا برائحة الزيت والبنزين.. فإذا كان المراسل العسكرى قد انتقل فجأة من جو الفجر العليل فى الهواء الطلق إلى داخل "أمعاء" تلك الآلية العجيبة لشعر وكأنه موجود بكوكب آخر!

وبالطبع فإن قائد المدرعة كان يرصد كلا جانبى المعركة.. وعندما رفع رأسه إلى داخل برج المراقبة رأى هناك شروق الشمس الندىّ الرطب، والخنادق المدهشة وغير المنظمة، والجنود الطائرين والساقطين قتلى، ومجموعات الأسرى البائسين، والمدافع المحطمة.. وعندئذ انحنى مرة أخرى وأصدر إشارة "نصف السرعة" و"ربع السرعة" و"دوران نصف لفة جهة اليمين".. وكل ذلك وهو فى حجرة المحركات سيئة الإضاءة والمعبأة برائحة الزيت، وبالقرب منه على كلا الجانبين يوجد فم أنبوب للحديث، ومرارًا وتكرارًا يمكنه توجيه أحد جانبى مركبته العجيبة لكى "يركز النيران إلى الأمام على المدفعية" أو "لإخلاء الخندق حتى مسافة ١٠٠ ياردة[٨] فى جبهتنا اليمنى".

كان شابًا فتيًا فى أتم صحة وعافية ولم تكن الشمس قد لفحت بشرته، وصفاته وتعبيراته تمثل تلك الشائعة فى جنود بحرية جلالة الملكة وضباطها.. فقد كان يقظًا ذكيًا هادئًا.. وانهمك هو ومهندسوه ورماته جميعهم فى عملهم كرجال مخلصين وهادئين.. لم يكن لديهم أى من الحماس أو المثابرة الجريئة التى يتسم بها الحمقى المتسرعون أو الجهد الشاق على الأوعية الدموية أو الهستيريا المرتبطة ببذل جهد خارق والتى ينظر إليها غالبًا باعتبارها الحالة العقلية الصحيحة للأعمال البطولية الخارقة!

بالنسبة للعدو كان أولئك المهندسون الشباب هم المنتصرين.. وشعروا بخيبة أمل حقيقية وباحتقار مفرط لأنفسهم.. واعتبروا أن

---

(٨) الياردة تساوى نحو ٩١ سنتيمترًا (المترجم).

أولئك الرجال الأشداء الأصحاء يطلقون النار ببراعة ودقة، مثلما يعتبر هؤلاء الرجال الأشداء الأصحاء بعض الزنوج أدنى مرتبة منهم.. احتقروهم لأنهم شنوا الحرب عليهم.. احتقروا وطنيتهم الصاخبة وعاطفيتهم الجامحة.. وقبل كل شئ احتقروهم بسبب مكرهم وخداعهم وبسبب اقتراب طرق قتالهم الوحشية إلى الخيال والإبداع.

وتساءل أولئك الشباب: "إذا كان لابد من أن يشنوا حربًا.. فلماذا بحق السماء لا يفعلون ذلك مثل الرجال العاقلين الواعين؟".. كانوا يمقتون فكرة أو تصور أن جانبهم هم كان شديد الحماقة لدرجة أنهم لم يفعلوا شيئًا أكثر من تسهيل مهمة عدوهم، وأنهم ارتكبوا هذه الحماقة الغالية طبقًا لقواعد وأساليب تقليدية خامدة. ووفقًا لتصورات رجال جامدين غير مبدعين.. كانوا يمقتون فكرة اضطرارهم لصنع آلات لقتل الإنسان.. يمقتون التصور البديل وهو الاضطرار إلى إبادة هؤلاء الناس أو تحمل لغوهم اللاذع المشاكس.. يمقتون كل بلاهة الحرب التى يتعذر فهمها.

وفي غضون ذلك وبشئ من الدقة الميكانيكية لكاتب جيد فى إدراج القيود المحاسبية فى دفتر الأستاذ، حرك رماة البنادق مقابضهم وضغطوا على أزرارها..

توقف قائد المدرعة الأرضية رقم 3 على القمة بالقرب من نصف البطارية التى تم أسرها.. ووقف الأسرى المصطفون بشكل متخشب منتظرين قدوم راكبى الدراجات إليهم.. وتفحص صباح النصر هذا من برج مراقبته. ثم قرأ إشارة القائد العام التالية "المدرعتان ٤، ٥ تبقيان مع المدافع اليسرى للحيلولة دون أى محاولة لاستعادتها..

٧، ١١، ١٢ تتمسك بالمدافع التى حصلتم عليها .. ٧ تأخذ موقعها للسيطرة على المدافع التى استولت عليها ٣ .. ثم علينا أن نقوم بشىء آخر.. أليس كذلك؟ ١، ٦ تنطلقان بسرعة عشرة أميال فى الساعة تلفان حول هذا المعسكر حيث المستويات القريبة من النهر.. قاطع الشاب الأوامر قائلاً: "سوف نصطاد كل هذا الحشد".. واستمرت التعليمات: "آه، هذا ما سوف نفعله! ٢، ٩، ٨، ٣، ١٣، ١٤ تنتشر إلى مسافة ١٠٠٠ ياردة وتنتظر أوامرى.. ثم تتحرك ببطء لتغطيه تقدم المشاة راكبى الدراجات ضد أى هجوم من القوات الراكبة.. وهذا حسن جدًا.. ولكن أين ١٠؟ لا بأس!.. ١٠ يجرى إصلاحها حاليًا وسوف تتحرك فى أقرب وقت ممكن.. إن الملاعين حطموا المدرعة ١٠!».

كان أسلوب عمل قيادة آلات الحرب الجديدة منظمًا ومخططًا له وليس متحذلقًا.. وسرعان ما انخفضت رأس قائد المدرعة من برج مراقبته لإبلاغ رجاله بالتعليمات: "انتبهوا إلىّ أيها الرجال.. لقد حطموا رقم ١٠.. وليس ذلك سيئًا على ما أعتقد.. على أية حال يجرى إصلاحها حاليًا".

لكن المدرعة ١٣ من ضمن الوحوش المدرعة كانت لا تزال تعمل للإجهاز على الجيش المدمر.

الآن يواصل المراسل العسكرى فراره من الخندق.. ونظر وراءه ليرى الجميع ممددين على القمة. وهم يتحدثون ويلوحون برايات التهنئة بعضهم لبعض.. ولمعت أجنابهم الحديدية بلون ذهبى مضاء من ضوء الشمس المشرقة.

(٥)

انتهت مغامرات الحرب للمراسل العسكرى باستسلامه فى الساعة الواحدة بعد الظهر.. وفى ذلك الوقت كان قد سرق جوادًا ووقع من على ظهره ونجا بأعجوبة من انقلابه عنيه.. ثم وجد أن رجل الجواد كسرت، فقتله بمسدسه ليريحه.

كان قد قضى بضع ساعات فى سرية تضم جماعة من رماة البنادق المكتئبين، وتعارك معهم بخصوص المعالم السطحية للأرض، ثم غادرهم بنفسه فى اتجاه كان مفروضًا أن يصل من خلاله إلى ضفتى النهر، لكنه لم ينجح فى ذلك.. كما أنه أكل كل قطع الشيكولاتة التى بحوزته، ولم يجد شيئًا فى العالم بأسره ليشربه. كذلك أصبح الجو لافحًا.. ومن خلف جدار حجرى متهدم ولكن جذاب رأى على بعد جياد المدافعين وهى تحاول أن تهاجم راكبى الدراجات بشكل تلقائى حر.. والمدرعات البرية تحاصرها من الجانبين . واكتشف أن راكبى الدراجات يمكنهم التقهقر فوق الأعشاب المنتشرة قبل الفرسان بسرعة كافية للسماح بالترجل وذلك لإمكان إطلاق النيران ببراعة وكفاءة.. وكان لديه اقتناع كاف بأن أولئك الفرسان دب اليأس فى قلوبهم فتوقفوا أبعد من مدى الرؤية واستسلموا.. ووجد نفسه مدفوعًا إلى التحرك السريع من جراء الحركة الأمامية لإحدى تلك الآلات اللعينة التى توشك أن تطلق النار على الجدار الذى يحتمى خلفه.. وفى نفس الوقت اكتشف وجود كدمة شديدة فى كعب قدمه.

الآن هو جالس فى مكان ممتلئ بالحصى والأحجار وتكتنفه الشجيرات، يتأمل فى منديل جيبه الذى أصبح لونه ـ لسبب غير عادى فى الأربع والعشرين ساعة الأخيرة ـ مقززًا حقًا.. وقال لنفسه: "إنه أشدُّ شىء بياضًا فى حوزتى حتى الآن!".

عندئذ كان يعرف أن العدو موجود شرقًا وغربًا وشمالاً بالنسبة له.. لكن عندما سمع المدرعتين الأرضيتين تتخاطبان بعضهما مع بعض بأسلوبهما المحدد المرعب على مسافة لا تزيد على نصف ميل إلى الشمال، قرر أن يعرض استسلامه غير المشروط دون الإقدام على أية مخاطرة غير محسوبة.. وعلى الفور بدأ يعلق رايته البيضاء على فرع شجرة ثم اتخذ له موقعًا مظلمًا إلى حد ما إلى أن يأتى بعضهم.. وسرعان ما بدأ يسمع أصواتًا وقعقعة ثم الأصوات المميزة لجسم حصان قريب جدًا.. وعندئذ وضع منديله فى جيبه مرة أخرى وانطلق ليعرف ماذا يجرى. توقف صوت إطلاق النار، وعندما اقترب أكثر سمع أصواتًا مكتومة لعدد كبير من الجنود البسطاء الأفظاظ ولكن الشجعان وكريمى الأخلاق من المدرسة القديمة يتحركون بحماس.

خرج من وسط الشجيرات التى يختبئ بينها فوق سهل مستوٍ فسيح.. وعلى بُعد توجد مجموعة من الأشجار تعلّم ضفتى النهر.. وفى منتصف المشهد ما زالت واضحة معالم جسر مار فوق طريق وجسر آخر مار فوق خط سكة حديدية إلى اليمين.. وعلى يمين الصورة ويسارها جثمت مدرعتان أرضيتان فى وداعة وسكون وترقب، تسيطران على مسافة تزيد على ميلين من ضفتى النهر.

وكان كل من تبقى من الفرسان المدافعين قد تحركوا وتوقفوا على مسافة بضعة ياردات من الشجيرات.. وهم فى حالة من الاضطراب والقلق والإحباط.. ولكنهم رجال ومتماسكون حتى آخر لحظة.. ومن منتصف المسافة كان ثلاثة أو أربعة رجال يتلقون إسعافات طبية.. وعلى قرب مجموعة من الضباط يرمقون الآلات الحديثة البعيدة بمقت شديد.. الجميع يدركون الآن بوضوح الاثنتى عشرة المدرعة الأخرى وحشد الجنود القرويين من راكبى الدراجات أو المشاة المثقلة كواهلهم الآن بالأسرى والمعدات الحربية المستولى عليها.. ولكنهم مع ذلك نشطون وهم يسحبون وراءهم ذلك الصيد الثمين!

قال المراسل العسكرى وهو يسير إلى العراء: "يا لها من هزيمة كاملة!".. لكننى أستسلم مع أفضل صحبة.. ومنذ ٢٤ ساعة فقط كنت أظن الحرب مستحيلة.. لأن النصر مضمون لصالحنا!.. لكن الذى حدث أن هؤلاء "المتسولين" أسروا كل جيشنا العظيم!.. حسنًا، حسنًا.. ثم تذكر حديثه مع الملازم الشاب وقال لنفسه: "لو لم تكن هناك نهاية لمفاجآت العلم.. لتمكن الرجال المتحضرون من حسم هذه المعركة، بالطبع.. لكنه طالما استمرت عجلة العلم تدور وتستحدث الجديد، فإنهم سوف يتقدمون بالضرورة على القرويين والفلاحين...". وتساءل للحظة عن مصير الملازم الشاب وما عسى أن يكون قد حدث له.

المراسل العسكرى هذا أحد أولئك الناس المتقلبين المتناقضين مع أنفسهم، والذين يريدون دائمًا للجانب المهزوم أن ينتصر.. وعندما

رأى كل هؤلاء الفرسان الأشداء خمريى اللون وقد ترجلوا ونُزع سلاحهم واصطفوا فى صفوف.. وعندما رأى جيادهم يقودها بشكل غريب راكبو الدراجات، وليس الفرسان، الذين استسلموا لهم.. وعندما رأى الأبطال المقيدين، وهم ينظرون إلى هذا المشهد المخزى المشين، نسى تمامًا أنه كان يطلق عليهم اسم "الخاضعين الماكرين".. وتمنى لهم الهزيمة منذ ٢٤ ساعة فقط. ومنذ شهر مضى رأى تلك الفرقة العسكرية فى مجدها وهى ذاهبة إلى الحرب، وقيل له الكثير عن قوتها المرعبة وكيف أنه بوسعها الهجوم فى تشكيل مفتوح.. ويطلق كل رجل النار وهو ممتط جواده.. وكيف أنها تدفع أمامها أى شىء آخر يدخل فى المعركة بأى شكل كان، سواء كان راكبًا أو راجلاً.. ثم بعد ذلك واجهت بضعة عشرات من الشباب الجاثمين داخل آلات لعينة شريرة ظالمة!

خطر فى ذهنه كعنوان رئيسى فى الصحيفة "البشر ضد الآلات". إن الصحافة تحول كل أفكار الناس إلى جمل وعبارات!.. ثم خطا مسرعًا بالقرب من الأسرى المصطفين إلى الحد الذى سمح به حراسهم.. وتفحصهم جيدًا وقارن أجسامهم القوية بأجسام آسريهم الضعيفة الهزيلة.. تعجب وغمغم قائلاً: "المسخوطون الأذكياء".. أو "اللندنيون فاقدو الحيوية".

اقترب منه الضباط المستسلمون.. وسمع صوت العقيد الصادح عالى الطبقة.. لقد قضى هذا الرجل البائس ثلاث سنوات فى جهد ومشقة حول أفضل مادة فى العالم تجعل الرماية للفارس الراكب مثالية وفعالة للغاية.. ولكنه كان يتكلم الآن أو يتساءل بعبارات من

التجديف على الله، تعتبر طبيعية فى مثل تلك الظروف. عما عساهم كانوا يفعلون فى مواجهة تلك الآلات الحديدية المجهزة تمامًا للقتال.

قال أحدهم: "المدافع.. أين هى؟".

أجابه آخر: "إنهم يحاصرون المدافع الكبيرة.. وأنت لا تستطيع تحريك المدافع الكبيرة لكى تساير تحركاتهم.. أما المدافع الصغيرة فإنهم يهاجمونها.. ولكن عليك أن تباغتهم من وقت لآخر.. مثلاً يمكنك قتل هؤلاء الوحوش ؟.. ربما...".

"يمكنك أن تصنع أشياء مثل التى لديهم".

"ماذا؟ ماذا تعنى؟.. المزيد من الآلات الحديدية.. ياللعجب!".

قال المراسل العسكرى: "سوف أسمى مقالتى هكذا: "الشر ضد الآلات الحديدية".. نعم هذا أفضل.. مقتبسًا ما قاله الرجل العجوز".

كان المراسل العسكرى صحفيًا بارعًا لدرجة أنه لا يفسد هذه المقارنة بذكر أن ستة من الشباب هزيلى الجسم الذين يرتدون بيجامات زرقاء ويقفون بجوار مدرعاتهم الأرضية المنتصرة يحتسون القهوة ويأكلون البسكويت تتسم عيونهم وشجاعتهم بشىء لا يقل بحال من الأحوال عن المستوى البشرى.

الحُلّة الجميلة

عاش ذات مرة رجل قصير القامة صنعت له أمه حُلّة جميلة ليرتديها.. كان لونها أخضر ذهبيًا وحيكت ببراعة بحيث إنه يتعذر عليّ وصف مدى جمالها ورقتها.. وكانت مزدانة بربطة عنق من مخمل برتقالى تحت الذقن.. والأزرار الجديدة تلمع كالنجوم.. وشعر بفخر وسعادة لا حدود لهما بحلته هذه.. ووقف أمام المرآة الطويلة عندما ارتداها أول مرة.. وكان مسرورًا ومشدوهًا من جمالها لدرجة أنه أبعد نفسه عنها بصعوبة..

أراد أن يلبسها فى كل مكان ويريها لكل من يقابلهم من الناس.. وفكر فى الأماكن التى زارها من قبل والمناظر الخلابة التى سمع وصفها، وحاول أن يتخيل مدى إحساسه بهذه الأماكن والمزارات لو ذهب إليها الآن مرتديًا حلته الزاهية.. وشعر برغبة جارفة فى الذهاب فورًا إلى الأعشاب الطويلة والمروج التى تلفحها أشعة الشمس الساخنة وهو مرتديها.. فقط لكى يرتديها!.. لكن أمه قالت له: "لا".. وأفهمته أن عليه أن يعتنى عناية كبيرة بحلته، لأنه لن يحصل قط على حلة أخرى بنفس جمالها ورقتها.. وأنه يجب أن

يدخرها ويحافظ عليها ولا يلبسها إلا نادرًا فى المناسبات المهمة أو النادرة.. وقالت له: إن هذه حلة زواجه التى سيرتديها يوم أن يتزوج.. ولذلك أخذت أزرارها ولفتها فى ورق الحمام، خوفًا من انطفاء بريقها.. كما أنها سرّجت واقيات حول أساور الأكمام والمرفقين وفى كل الأماكن التى يحتمل أن تتعرض عندها الحلة للتلف.. ورغم أنه كره تلك الأشياء فإنه لم يكن بوسعه أن يعمل لها شيئًا.. وفى النهاية بدا أثر تحذيراتها وإقناعها له، ووافق على خلع حلته وطيها عند طياتها الصحيحة ثم تخزينها فى الدولاب.. وبدا كما لو أنه أقلع عن لبسها مرة أخرى.. لكنه أخذ يفكر دائمًا فى لبسها.. وفى المناسبات العظيمة التى يمكنه أن يلبسها فيها ذات يوم دون تلك الواقيات ودون ورق الحمام المغلف للأزرار حتى يبرز جمالها الأخاذ.

وذات ليلة حلم بها كعادته.. ونزع ورق الحمام من حول أحد الأزرار.. ووجد أن لمعته أو بريقه خفت قليلاً.. وضايقه ذلك كثيرًا فى الحلم.. ثم صقل الزر المطفى مرة بعد أخرى.. لكن إذا كان هناك فرق، فقد زاد انطفاء لون الزر، استيقظ من سباته ومكث يقظًا يفكر فى سر انطفاء لون الزر اللامع.. وتساءل عما سوف يشعر به عندما يحين وقت الفرصة العظيمة "أيًا كانت" ويجد أن أحد الأزرار أصبح ذا لون باهت وفقد لمعانه الأصلى.. ولازمته تلك الفكرة أيامًا وراء أيام بشكل سبب له ضيقًا واكتئابًا.. وعندما سمعت أمه بعد ذلك بارتداء الحلة، شعر بدافع قوى ورغبة ملحة فى أن يكشف قطعة من الورق لكى يرى ما إذا كانت الأزرار لا تزال لامعة كسابق عهدها أو لا.

عندما ذهب إلى الكنيسة كان آنيقًا ومفعمًا بتلك الرغبة الملحّة.. والحقيقة أن آمه سمحت له بلبس حلته الأنيقة بين كل وقت وآخر، مثلاً أيام الأحد ذهابًا وعودة من الكنيسة.. حينما لا يكون فى الأفق أى مخاطر محتملة مثل سقوط الأمطار أو هبوب الأتربة أو أى شىء يمكن أن يضيرها.. ولكن مع تغطية آزرارها وسراجة البطانات عليها.. على أن يمسك بيده حاجبًا من الشمس لكى يحمى القماش من بَهتِ لونه إذا كانت أشعة الشمس قوية جدًا.. وعادة بعد تلك المناسبات القليلة كان ينظفها بالفرشاة ويطويها باهتمام كما علمته ثم يضعها فى الخزانة مرة أخرى. وحتى الآن فقد أطاع كل التعليمات والقيود التى وضعتها أمه لارتداء الحلة.. دائمًا كان ينفذها بدقة.. حتى استيقظ ذات ليلة ورأى ضوء القمر ساطعًا خارج نافذة حجرته.. لكن بدا له أن ضوء القمر ليس كعادته، بل إن تلك الليلة لم تبد له كأى ليلة أخرى. وظل لفترة من الوقت نعسان والدافع أو الهاجس القديم يلح فى رأسه.. وتتابعت الأفكار وراء بعضها كهمسة دافئة وسط الليل الهادئ.. ثم اعتدل جالسًا على سريره الصغير وهو نشط ومتحفز، وقلبه يدق بقوة وسرعة، وجسده كله يرتعد من قمة رأسه إلى أخمص قدميه.. لقد قرر ما سوف يفعله بالضبط.. عرف أنه الآن سوف يرتدى حلته كما ينبغى أن يفعل.. لم يكن لديه شك فى ذلك.. كان خائفًا.. خائفًا جدًا.. لكنه فى نفس الوقت شعر بسعادة طاغية..

نزل من سريره ووقف برهة بجوار النافذة ينظر إلى الحديقة وقد اكتست بضوء القمر الرقيق.. وارتعد جسده مما نوى أن يفعله.. الهواء ممتلئ بأزيز خفيف للحشرات الليلية.. وهمهمات

وحفيفات الكائنات الصغيرة.. وسار بخفة عبر الألواح الصريرة، خوفًا من أن يوقظ النائمين بالمنزل.. متجهًا إلى خزانة الملابس "الدولاب" الكبيرة حيث توجد الحلة مطوية. أخرج الحلة ببطء وهدوء.. وبسرعة مزق غلافها الورقى وبطانتها المسرجة بها حتى أصبحت الحلة أمامه كاملة رائعة، تمامًا مثلما رآها عندما صنعتها له أمه أول مرة، منذ وقت طويل مضى.. كل الأزرار كانت تتلألأ ولم يبهت لون أحدها.. كذلك لم يتغير لون خيط واحد من حلته الغالية.. كان سعيدًا جدًا لدرجة أنه بكى فرحًا.. وفى هدوء بدأ يرتدى الحلة دون إبطاء.. ثم رجع بسرعة وبهدوء إلى النافذة ونظر منها إلى الحديقة، ووقف هناك لدقيقة فى ضوء القمر المنساب برقة.. وأزراره تتلألأ كالنجوم.. ثم وقف على قاعدة النافذة، وبأقل صوت ممكن هبط إلى ممر الحديقة بأسفل.. ووقف أمام منزل أمه.. ووجده أبيض وبسيطًا مثلما يراه فى النهار.. وكل مصاريع النوافذ مغلقة، باستثناء نافذة حجرته، كالعيون النائمة. وألقت الأشجار ظلاً يشبه شريطًا أسود غريبًا على حائط المنزل.

الحديقة فى ضوء القمر ليلاً شكلها يختلف كثيرًا عن شكلها بالنهار.. إذ إن ضوء القمر يتداخل مع السياج الشجرى للحديقة ويمتد فى خيوط تشبه نسيج العنكبوت الوهمى من غصن إلى آخر.. كل زهرة تتلألأ بلون أبيض أو قرمزى أسود.. والهواء يرسل رجفة فى أوصال المرء من جراء صرير الحشرات الليلية الصغيرة وشدو العنادل المختفية فى أغصان الشجر.

لم يكن هناك ظلام فى العالم.. فقط ظلال دافئة غامضة.. وأوراق الأشجار وعناقيد الزهور مغطاة بأكملها بنقط متلألئة من الندى تتخذ ألوان قوس قزح.. هذه الليلة كانت أدفأ من أى ليلة عاشها من قبل. ولا شك أن معجزة ما جعلت السماء أكثر اتساعًا وقربًا.. وبالرغم من القمر الكبير ذى اللون العاجى القابع فى السماء والذى يضىء العالم كله، فإن السماء كانت مزدانة بنجوم كثيرة جدًا.

بيد أن الرجل الصغير لم يصرخ أو يغنى رغم سعادته التى لا توصف. وإنما وقف لبعض الوقت مثل رجل مذعور.. ثم فجأة صرخ صرخة غريبة ومد ذراعيه إلى الأمام وجرى كما لو كان يحتضن بذراعيه الصغيرتين ذلك العالم الفسيح بأكمله.. لم يسر فى الممرات المجهزة الأنيقة التى تفصل بين أجزاء الحديقة، وإنما اندفع يعدو عبر أحواض النباتات والأعشاب الطويلة المبتلة العطرة.. وعبر حشرات الليل ومجموعات زهور نبات الخبازة شبه البيضاء.. وعبر أيك أشجار "الجنوب" و"اللافندر" - الخزام - ثم زاحفًا على ركبتيه عبر مساحة أشجار "البليماء" العطرية.. حتى وصل إلى سور شجرى ضخم، وشق طريقه خلاله وخلال أشواك نباتات "العليق" التى خدشت ملابسه الرائعة وقطعت خيوطًا منها.. ثم عبر نباتات ثمارها شائكة وأعشاب "الأوزة"، وعلقت الأغصان والأشواك به وبملابسه.. لكنه لم يعبأ بذلك.. لم يهتم بذلك قط، لأنه كان يعرف أن ذلك كله جزء من الارتداء الحقيقى للحلة الذى تاقت إليه نفسه طويلاً.. وحدث نفسه قائلاً: "إننى سعيد لأننى ارتديت حلتى كما أريد.. وأحب أن أرتديها دائمًا هكذا!".

وبعد السور الشجرى وصل إلى بركة البط، أو على الأقل ما كان بركة للبط فى الصباح، لكن فى المساء تحولت البركة إلى حوض واسع من أضواء القمر الفضية الساحرة.. يعج بأصوات نقيق الضفادع.. حيث يتخذ ضوء القمر أشكالاً ملتوية ومتداخلة غريبة.. وجرى الرجل الصغير ودلف إلى المياه بين نباتات "الأسل" السوداء الرفيعة حتى وصل الماء إلى ركبتيه ثم إلى وسطه ثم إلى كتفيه.. وبصق الماء الداخل إلى فمه على المُوَيجات المرتعدة المتأرجحة.. التى تتناثر بينها النجوم فى انعكاسات متداخلة من الأشجار التى تلتف حول البحيرة وتحتضنها.. وخاض فى مياه البحيرة حتى اضطر فى النهاية للسباحة حتى عبر البحيرة وخرج على الشاطئ الآخر المنتشر على غير انتظام كما بدا له.. ولم يجد أى طحالب طافية.. بل كتلاً فضية طويلة عالقة يتقاطر منها الماء.. ثم مضى يشق طريقه خلال نباتات "الصفصاف" الكثيفة المتداخلة بأشكال غريبة.. وخلال أعشاب البذور البرية غير المقصوصة بالضفة البعيدة للبحيرة.. ثم وصل إلى الطريق الرئيسى وهو سعيد ولكن مقطوع الأنفاس.. وحدث نفسه قائلاً: "إننى سعيد بشكل لا يمكن وصفه لأننى ارتديت ملابسى الجميلة التى تتماشى مع هذه المناسبة فائقة الروعة".

الطريق الرئيسى ينساب فى خط مستقيم مثل سهم منطلق إلى داخل سماء زرقاء قاتمة تحت القمر الساطع.. فى شكل مسار أبيض لامع بين البلابل والعنادل الصداحة.. وسار فى هذا الطريق وهو يجرى الآن ويقفز بين حين وآخر.. ثم لا يلبث أن يسير فى

ابتهاج وسرور.. وهو مرتد الملابس التى صنعتها له أمه الحبيبة بيديها المعطاءتين اللتين لا تتعبان أبدًا.. وكان التراب يغطى الطريق تمامًا.. لكن ذلك كان لا شىء بالنسبة له، بل مجرد لون أبيض رقيق..

وبينما هو يسير فى سكينة ونشوة.. أخذت فراشة كبيرة داكنة تحوم حول جسمه المبتل المسرع والمتلألئ تحت ضوء القمر.. فى البداية لم يأبه كثيرًا لتلك الفراشة، بل إنه لوّح لها بيديه، وأخذ يرقص معها وهى تحلق فى دوائر حول رأسه، وصاح قائلاً لها: "أيتها الفراشة الرقيقة.. عزيزتى الفراشة!.. هل تظنين أن ملابسى جميلة حقًا؟.. جميلة مثل أجنحتك وقشورك الرائعة وكل هذا المنظر الفضى الساحر للأرض والسماء؟".

دنت الفراشة الجميلة منه أكثر فأكثر.. حتى لامست فى النهاية أجنحتها المخملية شفتيه الصغيرتين.. وفى الصباح التالى عثروا عليه ممددًا وقد فارقته الحياة.. وربطة عنقه ممزقة.. فى قاع حفرة حجرية.. وقد تلطخت ملابسه بدمائه، وتشرَّبت وتلوثت بالأعشاب الطافية على البحيرة.. لكن وجهه كان رمزًا للسعادة والفرحة والحب.. ولو نظرت إلى وجهه هذا لفهمت حقًا كيف لفظ أنفاسه الرقيقة وهو فى قمة السعادة.. ولا يعرف قط هذا اللون الفضى الفاتر المناسب للأعشاب التى تعيش على سطح البحيرة.

الباب الذى فى الجدار

(١)

فى إحدى الأمسيات من ـ حوالى ثلاثة شهور مضت، أخبرنى (ليونيل والاس) هذه القصة "الباب الذى بالجدار".. وفى ذلك الوقت اعتقدت أنها قصة حقيقية، بالقدر الذى يعنيه أمرها.. وقد رواها لى ببساطة مقنعة مباشرة لدرجة أنه لم يكن بوسعى سوى أن أصدقه. لكن فى الصباح وفى شقتى استيقظت على جو مختلف.. وبينما كنت أرقد فى السرير وأتذكر الأشياء التى حكاها لى.. عارية من روعة صوته البطىء الجذاب، ومن مصباح المنضدة المركز، ومن الجو الخيالى الذى أحاط بى وبه، ومن كل الأشياء الزاهية الجميلة.. الحلوى والأكواب وبياضات المائدة التى صاحبت العشاء الذى اشتركنا فى تناوله.. التى جعلت العالم الصغير المحيط بنا منقطعًا تمامًا عن حقائق الحياة اليومية.. رأيت كل شىء بوضوح على نحو لا يمكن تصديقه.

قلت: "يا له من مخادع ماهر!.. ما أبرعه فى كل ما قاله!.. إن هذا ليس الشىء الذى توقعت منه هو بالذات أن يؤديه على ما

يـرام". ثم اعـتـدلت جـالسـًا فـى سـريـرى وتـنـاولت شـاى الصـبـاح.. وحاولت أن أفسر نكهة الحقيقة التى حيرتنى فى ذكرياته وأخباره المستحيلة. بافتراض أنها تطرح أو تحمل أو توحى على نحو ما - هذا لأننى لا أعرف بالضبط أى كلمة منها أدق - خبرات يستحيل إبلاغها بطريقة أخرى.

على أية حال لن ألجأ إلى هذا التفسير الآن.. لأننى تغلبت فعلاً على شكوكى التى حيرتنى.. وأنا أعتقد الآن، مثلما اعتقدت وقت رواية القصة، أن (والاس) فعل كل شىء بمقدوره لكشف حقيقة سره الدفين لى.. غير أننى لا أدّعى معرفة ما إذا كان رأى، أو ظن فقط أنه رأى، ما إذا كان هو نفسه المالك لميزة لا تقدر بثمن أو أنه ضحية لحلم خيالى.. وحتى حقيقة موته، التى أنهت شكوكى إلى الأبد، لا تلقى أى ضوء على ذلك.. ويجب على القارئ أن يحكم على كل ذلك بنفسه.

نسيت الآن الملاحظة العابرة أو النقد الذى أبديته الذى دفع رجلاً كتومًا وملازمًا للصمت لكى يثق بى.. وأظن أنه كان يدافع عن نفسه ضد تهمة التراخى وعدم إمكان الاعتماد عليه التى أثرتها فيما يتعلق بأحد الاهتمامات الجماهيرية الكبرى التى خذلنى فيها.. غير أنه بادرنى فجأة قائلاً: "هناك أمر يشغلنى جدًا..". وصمت برهة وأردف.. "اعرف أننى لم أكن ذا قيمة.. والحقيقة هى أن هذه القضية ليست عن الأشباح أو الأطياف.. ولكن - كما يقولون من - القدم يا (ريموند): إننى مطارد بروح أو شىء ما.. يسحب النور عادة من الأشياء، ويملأنى بالشوق والرغبات".

تريث برهة وقد سيطر عليه الخجل الإنجليزى الذى غالبًا ما يتغلب علينا عندما نتحدث عن أشياء مؤثرة أو وقورة أو جميلة.. ثم قال "لقد كنت أنت فى (سانت آثلستان) طوال الوقت".. ثم بدا لى للحظة غير ملائم بالمرة.. وقال: "حسنٌ" ثم توقف. وبدأ بعد ذلك، ببطء شديد فى البداية ثم بسهولة أكثر فيما بعد. يخبرنى بالشىء الخفىّ فى حياته.. الذكريات التى تطارده والمفعمة بالجمال والسعادة التى ملأت قلبه بأشواق لا تشبع قط وجعلت كل اهتمامات الحياة المادية ومشاهدها أشياء جافة وكئيبة وبلا جدوى بالنسبة إليه.

والآن بعد أن عرفت سر ذلك كله، فإننى أرى الحقيقة مكتوبة بوضوح فى وجهه.. إن معى صورة فوتوغرافية تسجل بتركيز شديد تلك النظرة التى تنم عن الانعزال والتباعد عن الناس.. ويذكرنى ذلك بما قالته امرأة عنه ذات مرة، وهى امرأة أحبته حبًا عظيمًا: "فجأة تبدد اهتمامه بكل شىء.. إنه ينساك مهما كنت ولا يأبه لك قط.. حتى لو كنت واقفًا أمامه مباشرة".

ومع ذلك فإن اهتماماته بالأشياء لم تَخْبُ طوال الوقت.. وعندما تجد (والاس) مهتمًا بشىء ما، فإنه يدبر أموره بحيث يصبح ناجحًا جدًا فيه.. والحقيقة أن سجله المهنى مفعم بالنجاحات.. لكنه تركنى وراء ظهره من ـ وقت طويل جدًا.. وحلق عاليًا فوق رأسى.. وحقق نجاحًا باهرًا وترك انطباعًا جيدًا لدى الناس.. وهذا ما لم أستطع تحقيقه على أى حال.

كان فى التاسعة والثلاثين من العمر، ويقولون الآن: إنه كان يجب أن يتقلد مركزًا مرموقًا.. بل لعله كان سيشارك فى الوزراة الجديدة

لو طال عمره. وفى المدرسة كان يتفوق علىّ دائمًا دون مجهود.. كما لو كان ذلك أمرًا طبيعيًا!.. كنا فى الدراسة معًا بكلية (سانت أثلستان) بغرب (كنسينجتون) طوال فترة دراستنا كلها تقريبًا. وكان قد التحق بالمدرسة كنظير لى.. إلا أنه سرعان ما تخطانى من خلال سلسلة من المنح الدراسية والإنجازات الرائعة. مع ذلك أعتقد أننى بذلت جهدًا لا يستهان به.

وفى المدرسة سمعت لأول مرة التعبير: "الباب الذى فى الجدار"، وبعد ذلك سمعته مرة ثانية قبل وفاته بشهر. بالنسبة إليه كان الباب الذى فى الجدار بابًا حقيقيًا من خلال الجدار الحقيقى إلى دنيا خالدة لا تفنى.. وها أنا متأكد منه الآن تمامًا.

ظهر ذلك الأمر فى حياته مبكرًا جدًا.. حين كان صبيًا بين الخامسة والسادسة من العمر. وأتذكر كيف أنه - وهو جالس يُدلى باعترافه إلىّ ببطء شديد - أخ - يشرح ويشير إلى هذا التاريخ.. وقال: "كانت هناك نباتات متسلقة قرمزية اللون.. كلها زاهية بنفس اللون القرمزى فى ضوء الشمس الأصفر الكهرمانى الرائع.. معترشة على جدار أبيض.. على أى حال أنا أتذكر هذا بشكل ما.. رغم أننى لا أتذكر بوضوح كيف.. كذلك كانت هناك أوراق شجر "قسطل الفرس" على الرصيف النظيف خارج الباب الأخضر.. وبها بقع صفراء وخضراء، كما تعلم، وليست بنية اللون أو متسخة.. ومعنى ذلك أنها نبتت حديثًا.. وأستنتج من ذلك أن الوقت كان شهر أكتوبر.. فأنا أبحث كل عام عن أوراق "قسطل الفرس" ويتعين علىّ أن أعرف ذلك.. وإذا كان تقديرى هذا صحيحًا.. فلابد أن عمرى وقتئ - كان خمس سنوات وأربعة أشهر بالضبط".

وكما قال كان صبيًا صغيرًا مبكر النضج.. فقد تعلم الكلام فى سن مبكرة للغاية بشكل غير عادى، وكان عاقلاً جدًا وتقليديًا للغاية ـ كما يقولون: دقة قديمة ـ لذا مُنح بعض المزايا التى نادرًا ما تتيسر لأكثر الأطفال فى السابعة أو الثامنة من عمرهم. وماتت أمه وهو فى الثانية، وبعد ذلك وُضع فى دار حضانة كانت أقل يقظة ورعاية للصغير. وكان أبوه محاميًا فظًا عابس الوجه ومنهمكًا فى عمله.. وكان قليل الاهتمام بالصغير، ويتوقع منه دائمًا تحقيق المستحيل، وبالرغم من كل ذكائه الفائق فإننى أعتقد أنه وجد الحياة كئيبة ومحبطة.. وفى أحد الأيام ضل الطريق وهام على وجهه.

لم يكن يتذكر الإهمال الشديد الذى جعله يهرب، ولا الطريق الذى سار فيه ضمن طرق (وست كينسينجتون).. كل هذه التفاصيل انطمست مع غيرها فى ذاكرته.. غير أن الجدار الأبيض والباب الأخضر ظلا على الدوام واضحين ومميزين فى ذاكرته.

ووفقًا لذكرياته عن تلك الأحداث والأمور الطفولية، فإنه عندما رأى ذلك الباب للمرة الأولى أحس بشعور خاص.. جاذبية أو رغبة للذهاب إلى الباب وفتحه والسير خلاله.. وفى نفس الوقت كان لديه اعتقاد واضح بأن خضوعه لتلك الرغبة الشديدة إما أنه تصرف غير حكيم أو سلوك خاطئ منه، وهو لا يدرى بالضبط أيهما أصح.

أصر على شىء باعتباره شيئًا عجيبًا عرفه من البداية ـ ما لم تخنه أو تخدعه ذاكرته ـ هو أن الباب غير مقفل وأن بإمكانه أن يمر منه إذا شاء.

يبدو أننى أرى جسم الصبى الصغير وشىء ما يجذبه ثم يطرده.. وكان واضحًا جدًا فى ذهنه، بالرغم من عدم وجود تفسير لذلك، أن والده سوف يغضب غضبًا شديدًا إذا مرَّ من ذلك الباب.. وصف (والاس) كل لحظات التردد هذه لى بمنتهى التفصيل. لقد ذهب مباشرة مجاوزًا الباب، واضعًا يده فى جيبه ومحاولاً أن يصفر بدون جدوى، ثم انطلق فى طريقه بعد نهاية الجدار. ويتذكر أن هناك عددًا من المتاجر المتدنية القذرة، وخصوصًا محل سباك ومهندس ديكور به مجموعة من الأنابيب الفخارية المتربة، موضوعة بلا نظام وألواح من الصاج وصنابير كروية وكتالوج لأنواع أوراق الحائط وعلب ميناء الطلاء. ووقف متظاهرًا بفحص كل تلك الأشياء، وهو يتوق إلى ويتمنى بكل قوته أن يدخل من الباب الأخضر.

ثم قال: إنه أحس بثورة عاطفية، وأسرع بالاستجابة لها خشية أن يكبحه التردد عنها مرة أخرى.. وذهب فى الحال، ويداه ممددتان أمامه من خلال الباب الأخضر ثم تركه ينصفق وراءه.. وفى لحظة وجد نفسه داخل الحديقة التى أسرته طوال حياته.

كان من الصعب جدًا على (والاس) أن يوضح لى إحساسه الكامل بتلك الحديقة التى ولجها.. ولكن كان هناك شىء ما فى جوها يبهج ويعطى المرء إحساسًا بالخفة والرشاقة والسعادة.. كان هناك شىء فى منظرها يجعل كل ألوانها صافية ورائعة ومشرقة للغاية.. وفى اللحظة التى يدخل فيها يشعر بسرور هائل.. فى حين أن المرء لا يكون مسرورًا فى عالمنا هذا إلا فى أوقات نادرة

خصوصًا عندما يكون شابًا ومرحًا.. والحقيقة أن كل شىء هناك كان رائعًا وجميلاً.

سرح (والاس) قليلاً مع أفكاره قبل أن يواصل حديثه معى: "وكما تعلم" وقالها بلهجة تنم عن شك الإنسان عندما يتوقف عند أشياء غير معقولة.. "كان هناك نمران عظيمان.. نعم نمران أرقطان، لكننى لم أكن خائفًا.. كما كان هناك ممر عريض طويل على كلا جانبيه أحواض من الزهور مكسُوَّة بالرخام.. أما هذان الوحشان المخمليان الهائلان فكانا يلعبان بكرة!" نظر أحدهما إلى أعلى وأقبل تجاهى كما لو كان محبًا للاستطلاع.

"وصل الوحش إلى تمامًا ومسح أذنه المدورة الناعمة بلطف فى يدى التى مددتها ناحيته ثم خرخر وهر.. وأنا أقول لك: إن تلك الحديقة كانت ساحرة وتفتن الألباب: هل تريد أن تعرف حجمها؟ إنها تمتد طولاً وعرضًا فى هذا الاتجاه وذاك.. وأظن أن هناك تلالاً بعيدًا جدًا.. لا يعلم إلا الله إلى أى مدى اتسعت منطقة (وست كيسينجتون).. وكان الأمر بالنسبة لى أشبه بعودة المرء إلى منزله.

"وهكذا فى لحظة واحدة انقفل فيها الباب ورائى نسيت الطريق المفروش بأوراق أشجار الكستناء المتساقطة عليه وعربات التجار والمهنيين.. ونسيت قوة الجذب إلى الخلف إلى النظام والطاعة المنزلية.. نسيت كل الترددات والمخاوف.. نسيت التعقل والحذر.. نسيت كل الحقائق الهامة والحميمة فى هذه الحياة.. وأصبحت فى لحظة صبيًا صغيرًا فى غاية السعادة والمرح وفى عالم مختلف.

"كان عالمًا ذا خصائص مختلفة.. أكثر دفئًا، أكثر حدة ونفاذًا، وأكثر رقة ولطفًا.. يسرى فيه جو صاف ومؤكد من السعادة.. وتنتشر فى زرقة سمائه شرائح رفيعة من السحب المضاءة قليلاً بنور الشمس.. وأمامى يمتد هذا الممر الواسع الطويل الذى يدعو المرء لكى يسير فيه.. وعلى جانبيه أحواض الزهور عديمة الحشائش.. زهور كثيفة لا يعنى بها أحد.. وهذان النمران الضخمان.

"وضعت يدىّ الصغيرتين بلا خوف على فرائهما الناعم ومسحت على أذنيهما المدورتين والأركان الحساسة تحتهما.. ولاعبتهما.. ويبدو أنهما رحبا بى فى منزلى. واضطرم فى ذهنى إحساس قوى بالعودة إلى الوطن أو المنزل بعد غياب طويل، والآن عندما ظهرت فتاة شقراء طويلة فى الممر وأقبلت علىّ مبتسمة وقالت لى: "حسنٌ؟" .. ورفعتنى إلى أعلى وقبلتنى، ثم أنزلتنى أرضًا وأمسكت بيدى وقادتنى.. لم أشعر بأى دهشة أو وحدة وإنما فقط انطباع بالسعادة والارتياح.. وجعلنى ذلك أتذكر الأشياء والأحداث السعيدة التى غفلت عنها ونسيتها بشكل غريب.

"ثم رأيت درجات سلم حمراء عريضة، على ما أتذكر بين عناقيد زهور (رجل اليمامة)[١]، وصعدنا عليها إلى طريق ضخم تكتنفه من الجانبين أشجار ضخمة قاتمة ظليلة.. وطوال هذا الطريق بين جذوع الأشجار الحمراء المتشققة توجد مقاعد رخامية رائعة وتماثيل.. فى حين تحلق أسراب الحمام الأبيض الودود المروَّض.

---

(١) نبات له أوراق بشكل الكف ذات الأصابع الممدودة (المترجم).

"طوال هذا الطريق الهادئ قادتنى صديقتى وهى تنظر إلى أسفل - أتذكر الآن ملامح وجهها الجميلة وذقنها رائع التكوين - وتسألنى بصوت رقيق جميل، وفى نفس الوقت تخبرنى بأشياء سارة أعرفها، وإن كنت أجهل أو لا أتذكر ما هى.. والآن هبط من على إحدى الأشجار قرد كبوشى (ذو قبعة من الشعر) نظيف جدًا، وذو فراء أسمر ضارب إلى الحمرة، وأخذ يجرى بجوارى وينظر إلىّ ويبتسم.. ثم قفز الآن على كتفى.. وهكذا مضينا نحن الاثنان فى طريقنا تحفُّنا سعادة غامرة.

توقف (والاس) برهة فقلت أستحثه: "وماذا بعد؟".. فقال: "الآن لا أتذكر سوى القليل.. مررنا بجوار رجل عجوز مستغرق فى التفكير بين شجر (الغار)[٢].. وهو مكان يعج بالمرح والببغاوات الصدّاحة.. ثم مررنا خلال صف من الأشجار الضخمة الظليلة إلى قصر رائع ممتلئ بالنافورات السارة والأشياء الجميلة وبكل ما يتمناه المرء ويهفو إليه قلبه.. وكان هناك أشياء كثيرة وأناس كثيرون.. بعضهم من الواضح أنه ما زال واقفًا، وبعضهم غير واضح المعالم.. غير أنهم جميعًا كانوا يتميزون بالجمال والطيبة.

"وبطريقة ما - لا أدرى كيف - نُقل إلىّ إحساس بأنهم يرحبون بى، وسعداء لوجودى بينهم.. وملأتنى إيماءاتهم بالسعادة والسرور، بمجرد لمس أيديهم، وشعرت بترحيبهم بى، والحب الذى يطل من أعينهم.. نعم....".

---

(٢) شجر دائم الخضرة ذو أوراق عطرية وثمار سوداء اللون (المترجم).

توقف الرجل قليلاً لكى يسبح مع أفكاره وتأملاته.. ثم استطرد: "وجدت هناك رفقاء لى فى اللعب.. وكان ذلك رائعًا جدًا بالنسبة إلى، حيث كنت صبيًا صغيرًا وحيدًا.. أخذوا يلعبون ألعابًا جميلة فى ساحة تكسوها الأعشاب حيث توجد مظلة شمسية مزدانة بالزهور.وبينما يلعب أحدهم، يقوم آخر بالحب!.

"لكن ـ وهذا عجب فعلاً ـ هناك ثغرة فى ذاكرتى.. أنا لا أتذكر الألعاب التى لعبناها.. والحقيقة أننى لم أتذكرها قط.. وبعد ذلك ولكونى طفلاً من الأطفال قضيت ساعات طويلة أحاول، حتى بالبكاء، أن أتذكر شكل هذه السعادة أو نوعها، حاولت أن ألعبها مرة أخرى فى دار حضانتى بنفسى.. لكن لا!.. كل ما أتذكره هو السعادة وزميلَى لعب ظلا معى معظم الوقت.. والآن جاءت امراة قاتمة كئيبة وجهها شاحب ومتجهم وعيناها حالمتان.. وترتدى ثوبًا طويلاً رقيقًا ذا لون أرجوانى خفيف، وتحمل فى يدها كتابًا.. وأومأت إلىّ وأخذتنى جانبًا معها إلى داخل رواق فوق القاعة.. رغم أن رفيقىَّ فى اللعب كرها ابتعادى عنهما.. وتوقفا عن اللعب ووقفا يراقباننى وأنا أبتعد عنهما..

"صاحا: (ارجع إلينا!.. ارجع إلينا بسرعة!).. ونظرت إلى وجهها، لكنها لم تُعِرهما انتباهًا.. كان وجهها رقيقًا جدًا ووقورًا.. أخذتنى إلى مقعد فى الرواق ووقفت بجوارها مستعدًا لقراءة كتابها وهى تفتحه على ركبتها.. وسقطت الصفحات مفتوحة!.. وأشارت.. ونظرت أنا متعجبًا إلى الصفحات الحية للكتاب وأنا أرى فيها نفسى!.. نعم كان الكتاب عبارة عن قصة عن نفسى، وفيه تسجيل لكل الأحداث التى وقعت لى منذ ولادتى!

"كان ذلك شيئًا رائعًا ومذهلاً بالنسبة إلىّ، لأن صفحات ذلك الكتاب لم تكن صورًا، كما ترى، وإنما وقائع وأحداث" .. وتوقف (والاس) بجد شديد ونظر إلىّ فى ارتياب.. فقلت له: "استمر يا عزيزى.. إننى أفهمك".

واصل حديثه: "كما قلت لك كانت حقائق ووقائع.. لابد أنهم كانوا كذلك.. أناس يتحركون وأشياء تأتى وتذهب داخلهم.. أمى الحبيبة التى نسيتها تقريبًا.. ثم أبى الصارم والمستقيم أخلاقيًا.. والخدم والمشتل وكل الأشياء المألوفة فى المنزل.. ثم الباب الأمامى والشوارع المزدحمة بالمرور المتجه يمينًا ويسارًا، نظرت وتعجبت.. ثم نظرت مرة أخرى وأنا نصف متشكك فى وجه المرأة.. وقلّبت الصفحات متخطيًا هذه وتلك لكى أرى المزيد من الكتاب.. وهكذا وصلت أخيرًا إلى نفسى وأنا أقبل وأُدبر وأتردد خارج الباب الأخضر فى الجدار الأبيض الطويل.. وشعرت مرة أخرى بالصراع والخوف يتأججان فى نفسى".

"صحت قائلاً: "أرينى الصفحة التالية".. وكان يمكنها أن تقلب الصفحة.. إلا أن اليد الهادئة للمرأة الوقور أوقفتنى.. فأصررت قائلاً: "الصفحة التالية".. وقبضت بلطف على يدها وجذبت أصابعها بكل قوتى الطفولية.. وعندما أرخت أصابعها وجاءت الصفحة التى أريدها.. لكنها انحنت فوقى كالظل وقبلت حاجبى..

"إلا أن الصفحة لم تُظهر الحديقة الساحرة التى تخلب الألباب.. ولا النمرين.. ولا الفتاة التى اقتادتنى وهى ممسكة بيدى.. ولا رفيقَىَّ اللذين تضايقا من فراقى لهما.. وإنما أظهرت شارعًا معتمًا

طويلاً فى (وست كيسينجتون) فى الوقت الأخير البارد من العصر قبل أن تضاء مصابيح الشوارع.. وكنت هناك عبارة عن شخص صغير بائس يبكى بحرقة ولا يستطيع أن يسيطر على عواطفه لأنه لا يستطيع العودة إلى زميليه العزيزين فى اللعب، اللذين ناديا عليه قائلين "ارجع إلينا.. ارجع إلينا بسرعة".

"نعم كنت هناك.. لكن هذه لم تكن إحدى صفحات الكتاب.. وإنما حقيقة مؤلمة.. ذلك المكان الفاتن واليد الحاجزة للأم الوقور التى وقفت بجوار ركبتها، كل ذلك اختفى.. لكن إلى أين ذهب؟".

توقف مرة أخرى، وقبع واقفًا بعض الوقت يحدق فى نار المدفأة.. وغمغم قائلاً: "أوه!.. ما أنجع تلك العودة!".

وبعد دقيقة من الصمت قلت: "حسنٌ، وماذا بعد ذلك؟".

قال "ما أتعسنى صبيًا صغيرًا فى ذلك الوقت!.. بعد أن عدت مرة أخرى إلى هذا العالم الكئيب.. بعد أن أدركت كل ما حدث لى، وجدت نفسى فى حالة من الحزن الشديد الذى لا يمكن السيطرة عليه.. ولا زلت أشعر بالعار والمهانة بسبب هذا البكاء العلنى ورجوعى المشين إلى منزلى.. وأرى مرة أخرى الرجل العجوز ذا النظرة العطوف مرتديًا نظارته الذهبية وهو ينحنى ويتحدث إلىّ وينخسنى أولاً بمظلته.. ويقول لى: "أيها الطفل الصغير، هل تهت عن ذويك".. وأنا طفل لندنى صغير فى الخامسة أو أكثر! لابد أنه يفكر فى إحضار رجل شرطة شاب ورقيق ويجمع بعض الناس لكى يسيروا معى إلى المنزل.. وهكذا عدت وأنا أشهق وأبكى، وأنا مضطرب وخائف من الحديقة الساحرة إلى درجات سلم منزل أبى.

"إننى ما زلت أتذكر رؤيتى لهذه الحديقة، التى تستحوذ على فكرى حتى الآن. وبالطبع لا أستطيع أن أعبر عن تلك السمات الفائقة الوصف التى تميزها عن أى تجربة أخرى، ولكن هذا هو ما حدث فى واقع الأمر.

ولو كان ما تراءى لى حلمًا، فإننى على ثقة أنه كان حلم يقظة وغير عادى بالمرة. ولا يضاهيه أى حلم.. ومن الطبيعى أن يُطرح علىّ العديد من الأسئلة المرعبة، من عمتى وأبى والممرضة والمربية، كل شخص يلقى الأسئلة.

"حاولت أن أخبرهم بما حدث لى، وضربنى أبى ضربًا مبرحًا لا لشىء إلا لأننى أكذب، ثم حاولت أن أبلغ عمتى، فعاقبتنى من جديد، لإصرارى على الكذب. بعد ذلك، كان محرمًا على أى شخص أن يستمع إلى كلمة واحدة عن هذا الموضوع. حتى كتاب الحكايات الخرافية الخاص بى، أخذوه لبعض الوقت، بحجة أننى شخص ميال إلى التخيل والادعاء. أجل، لقد فعلوا ذلك! فأبى ينتمى إلى مدرسة القدامى، وحكايتى لم تتوافق مع فكره وما هو معتاد عليه. فآثرت أن أحتفظ بالحكاية لنفسى، وأخبرتها همسًا إلى وسادتى، التى دومًا تبلل من دموع عينىّ المالحة وكأننى ما زلت طفلاً صغيرًا. ودعوت الله فى صلواتى بدعاء صادر من أعماق قلبى قائلاً: "إلهى! اجعلنى أحلم بالحديقة. أعدنى إلى حديقتى" كنت أحلم دائمًا بالحديقة.. ربما أكون قد أضفت إليها، أو غيرت من معالمها، لا أدرى.

".. وكان كل هذا - كما أدركت أنت بالطبع - هى محاولة لإعادة بناء ذكرياتى المتناثرة، فتلك تجربة أتت إلىّ مبكرًا، فبين أحداثها

وذكرياتى الأخرى المتتابعة الخاصة بفقرة الطفولة، ثمة هوّة. وجاء الوقت الذى أصبح فيه من المستحيل أن أتحدث عن هذه اللمحة العجيبة مرة أخرى".

طرحت عليه سؤالاً واضحًا، فأجاب بقوله: "لا أتذكر أننى حاولت ذات مرة، أن أشق طريقى ثانية إلى الحديقة. فى تلك السنين المبكرة. إن هذا الأمر يبدو غريبًا لى الآن، لكنى أعتقد أنه من المحتمل أن تكون فرضت رقابة على تحركاتى بعد هذه البليّة، وذلك لمنعى من الضلال والشرود. كلا لم أذهب إلى الحديقة، حتى تعرفت عليك، وعندئذ ـ ذهبت إلى الحديقة من جديد. وأعتقد أنه كانت هناك فترة من الوقت ـ تبدو الآن شيئًا غير معقول. عندما نسيت الحديقة تمامًا. وربما كنت فى نحو الثامنة أو التاسعة من عمرى. هل تتذكرنى عندما كنت صبيًا فى مدرسة "سانت أثلستان؟".

"إلى حد ما".

"لم تظهر علىّ أية علامات فى تلك الأيام، على أنه كان يراودنى حلم سرىّ!".

(٢)

رفع بصره وافتر ثغره عن ابتسامة مفاجئة: "هل لعبت معى فى يوم ما لعبة "الممر الشمالى الغربى".. كلا.. إنك لم تلعبها معى!".

ثم استطرد قائلاً: "إنها لعبة يمارسها كل طفل ميّال إلى الخيال، طوال اليوم. وتكمن فكرة اللعبة فى اكتشاف ممر شمالى غربى،

يؤدى إلى المدرسة. كان الطريق إلى المدرسة منبسطًا ومستويًا، إلى حد ما.. وكانت اللعبة عبارة عن إيجاد طريق ما ليس منبسطًا ولا مستويًا، على أن يبدأ المتسابق مبكرًا بعشر دقائق، فى اتجاه غريب لا أمل فيه. بدأت السير فى شوارع غير مألوفة لى، بغية تحقيق ما أهدف إليه، وهو الوصول إلى المدرسة، وذات يوم ضل بى السبيل، حتى وجدت نفسى أسير فى شوارع متشابكة تقطنها الطبقات الفقيرة، على الجانب الآخر من منطقة "كامبدن هيل". وبدأت أعتقد أننى سوف أخسر فى اللعبة، وأننى سوف أصل إلى المدرسة فى وقت متأخر، فحاولت أن أسلك طريقًا آخر ـ وأنا ملىء باليأس ـ كان يبدو لى مسدودًا، وفى نهايته وجدت الممر، فهرعت إليه إذ جدد لى الأمل ثانية، وقلت لنفسى: "سوف أحقق هدفى". ومررت على عدد من المتاجر الصغيرة الكريهة المنظر، والتى لم تكن مألوفة لى على الإطلاق، وفجأة ظهر لى الجدار الأبيض الطويل والباب الأخضر، الذى يؤدى إلى الحديقة الساحرة!

"وقفت هناك معقود اللسان، ونزل علىّ المشهد كالصاعقة فجأة وبشكل غير عادى. إذن ـ بعد وزن الأمر من جميع نواحيه ـ إن هذه الحديقة الرائعة الفاتنة، لم تكن مجرد أضغاث أحلام!". ثم توقف عن الكلام.

"أعتقد أن تجربتى الثانية مع الباب الأخضر كان علامة فارقة بين الحياة المشحونة لصبى فى المدرسة والراحة الدائمة لطفل صغير. وعلى أى حال ففى هذه المرة الثانية، لم أفكر لحظة واحدة فى الذهاب إلى طريق مستو مباشر، وذلك لسبب واحد، إذ كان جل

اهتمامى ينحصر فى الوصول إلى المدرسة فى الوقت المحدد دون أى تأخير. عندئذ - شعرت برغبة فى محاولة فتح الباب. ولكن أتذكر الآن أننى فكرت بأن هذا الباب، كان بمنزلة عقبة كَأْداء، تقف أمام إصرارى الجارف على الوصول إلى المدرسة فى الوقت المحدد. كنت فى غاية الاهتمام والتشوق بهذا الكشف الذى توصلت إليه، فاستمررت مصرًا عليه، ولكن يبدو أنى لم أفكر مليًا فى الأمر. لهذا ركضت بعيدًا عن الباب عندما نظرت إلى ساعتى، ووجدت أنه ليس أمامى سوى عشر دقائق فقط، لأصل إلى منحدر التل، ثم إلى الأماكن المألوفة لى.

"وصلت إلى المدرسة، وأنا ألتقط أنفاسى بصعوبة، وجسمى ينضح بالعرق، ولكن فى الوقت المناسب. وأتذكر أننى علقت معطفى وقبعتى. ذهبت بهما وعدت خاليًا منهما. أمر غريب أليس كذلك؟ ولا أدرى ما الذى دهانى!

حدق فىّ بإمعان ثم قال: "فى ذلك الوقت، لم أعتقد أن الباب الأخضر كان دائمًا فى ذلك المكان، إذ إن صبية المدارس خيالهم محدود. وربما فكرت أنه من البهيج، أن يكون فى مكانه هذا، حتى أجد طريقى له، عندما أرغب فى العودة إليه من جديد. ولكن كان علىّ أن أذهب إلى المدرسة. وفكرت أنه كان من الأفضل لى أن أتجاهل هذا الصباح، وأن أستعيد إلى ذهنى - بقدر الإمكان - هؤلاء الناس الغرباء الوسماء، الذين ربما أراهم لاحقًا من جديد. وبشكل عجيب، لم أكن أشك لحظة واحدة، فى أنهم سوف يكونون سعداء برؤيتى.. أجل، كان ينبغى لى أن أفكر فى الحديقة فى ذلك

الصباح، بوصفه مكانًا مُبهجًا يلجأ إليه الإنسان فى فترات الراحة، بين الواجبات المدرسية المجهدة.

"لم أذهب إلى الباب الأخضر طوال ذلك اليوم، وكان اليوم الذى يليه إجازة، وربما كان هذا مناسبًا لى. ولعل حالة عدم الاكتراث التى أصابتنى، هى التى منعتنى من العودة إليه. فى الواقع أنا لا أدرى. ولكن الشىء المؤكد، أن الحديقة الرائعة، كانت تأتى إلى ذهنى كثيرًا، حتى إننى لم أستطع أن أكتم السر فى نفسى.

"أبلغت أحد زملائى بالأمر. ماذا كان اسمه؟ كانت عيناه مثل عينى (ابن مقرض)[٢] ولهذا كنا ننعته (الثمل)!

قلت له: "هل هو (هوبكنز)؟".

"تمامًا. فى بادئ الأمر لم أشأ أن أبلغه بالأمر؛ إذ شعرت أنه ليس من الصواب بأى حال من الأحوال، أن أخبره. ولكننى أخبرته. كان يسير معى بعض الطريق المؤدى إلى منزلى. كان ثرثارًا، ولو لم نتحدث عن الحديقة الساحرة، لتحدثنا عن موضوع آخر. ولم يخطر ببالى أن أتحدث فى أمر آخر، لذلك ثرثرت وأبلغته كل ما بداخلى من أسرار.

"أفشى (هوبكنز) أسرارى بين صبية المدرسة. وفى اليوم التالى، بينما كنت ألعب خلال فترة الاستراحة بين الفصول الدراسية، وجدت نفسى محاطًا بنصف دستة من الطلبة الأكبر منى، كانوا يحدقون فىّ بنظرات ساخرة، وكان يملأهم الفضول، لسماع المزيد عن الحديقة الساحرة الخلابة.

---

(٢) حيوان من اللواحم أشبه بابن عرس (المترجم).

"كان من بينهم (فاوست) الضخم - أتتذكره؟ وكذلك (كارنابى) و(مورلى رينولدز). ألم تكن أنت معهم؟ بالطبع لا. وإلا كنت قد تذكرت وجودك هناك.

"إن أى صبى عبارة عن مخلوق غريب المشاعر والأحاسيس. واعتقدت بالفعل - على الرغم من ازدرائى لنفسى لأننى أفشيت السر - بأنه قد أشبع غرورى وأرضى كبريائى، أننى تمكنت من شد انتباه هؤلاء الرفاق الأكبر منى.. وبالتحديد تذكرت لحظات السعادة التى منحها لى (كروشو) - هل تتذكر (كروشو) ابن المؤلف الموسيقى؟ الذى قال بأنها أفضل كذبة سمعها فى حياته. ولكن فى نفسى كانت ثمة آلام حقيقية وخزى شعرت بهما، وعندما أخبرتهم بأن هذا السر جدير بالتوقير والتبجيل، حين أكد ذلك الصبى الوضيع (فاوست)، بأن ما رأيته مجرد فتاة ترتدى ثوبًا أخضر!

وبينما كنت أشعر بذلك الخجل، قال (والاس) شيئًا ما، ولكن تظاهرت أننى لم أسمعه. ثم قال لى (كارنابى) فجأة بأننى كاذب صغير، وتشاجر معى عندما قلت: إن هذا الشىء حقيقى وحدث بالفعل. واستطردت بأننى أعرف أين أجد الباب الأخضر، وأنه يمكننى أن أقودهم جميعًا إليه، فى غضون عشر دقائق. فهدأ روع (كارنابى)، وقال لى بأننى يجب أن أريهم الباب الأخضر، وإلا فإنه سوف ينتقم منى. هل سبق أن لوى (كارنابى) ذراعك؟ إذن ربما سوف تدرك ما الذى حدث لى. أقسمت أن حكايتى صادقة، وأننى لا أكذب. عندئذ لم يكن هناك شخص واحد فى المدرسة، يمكنه أن

ينقذنى من المفترى (كارنابى). حينئذ احمرت أذناى واجتاحنى الغضب حتى عصف بى وأصابنى بعض الخوف، فتصرفت كغلام صغير سخيف وساذج، وكانت النتيجة بعد كل هذا، أنه بدلاً من التوجه بمفردى لحديقتى الساحرة، أخذت معى ستة من رفاقى فى المدرسة، الهازئين والفضوليين والمهددين لى. وكنت أسير معهم وأنا أحمر الخدين، محترق الفؤاد، ساخن الأذنين، جاحظ العينين، تمتلئ روحى بالبؤس والخزى.

"ولم نجد قط الجدار الأبيض والباب الأخضر...!

قلت له: "هل تعنى...؟".

"أعنى أننى لم أستطع العثور عليهما. ربما لو كنت قد ذهبت بمفردى لأمكننى إيجادهما. ولكننى ذهبت إلى هناك وحيدًا فيما بعد، ولم أجدهما قط. ثم أتذكر أننى حاولت - طوال سنوات الدراسة - أن أعثر على الباب الأخضر ولكن دون جدوى.

قلت له: "هل أساء إليك رفقاؤك الذين ذهبوا معك للبحث عن الحديقة الساحرة؟".

"بطريقة وحشية! عقد (كارنابى) مجلسًا لمحاكمتى باعتبارى مسرفًا فى الكذب. وأتذكر كيف كان حالى، وأنا أتسلل إلى منزلى، وشعور بالخجل يجتاحنى، وصعدت إلى الدور العلوى، أريد أن أنفرد بنفسى وأخفى آثار الانتحاب. ولكن عندما حاولت جاهدًا أن أنام، لم يكن الدافع رغبتى فى نسيان ما فعله (كارنابى) بى، ولكن كان من أجل الحديقة الساحرة، وبعد الظهيرة البالغ الروعة الذى تمنيته من أعماق قلبى، والنساء الأنيقات الودودات، والرفقاء الحميمين

الذين ينتظروننى ليلعبوا معى. وتلك اللعبة التى كنت آمل أن أتعلمها من جديد، هذه اللعبة الرائعة التى لم أعد أتذكرها.

"كنت على اعتقاد راسخ، بأننى لو لم أخبرهم بأمر الباب الأخضر..

وقضيت بعد ذلك أوقاتًا بالغة السوء، من بكاء بالليل والانشغال بأحلام اليقظة فى النهار. ولفصلين دراسيين، أهملت دروسى وحصلت على نتائج سيئة.

هل تتذكر هذا الأمر؟ فمن المؤكد أنك تتذكر! كان هذا عندما تفوقت علىّ فى الرياضيات عندئ ـ اجتهدت مرة ثانية فى تحصيل الدروس.

(٣)

لفترة من الوقت، ظل صديقى يحملق صامتًا فى وسط النيران الحمراء بالمدفأة، وبعد هذا قال: "لم أر الباب الأخضر مرة أخرى، حتى بلغ عمرى السابعة عشر. خطر ببالى للمرة الثالثة، حين كنت أقود سيارتى إلى (بادنجتون) فى طريقى إلى (أوكسفورد) حيث حصلت من جامعتها على منحة دراسية. كانت مجرد لمحة خاطفة. وذات يوم كنت أستقل عربة أجرة، وأدخن سيجارة، وفجأة فكرت من جديد فى الباب الأخضر والجدار الأبيض.

داخلنى إحساسٌ حميمىٌّ، لأمر لا يمكن لى نسيانه. أخذت العربة تتحرك بسرعة محدثة قرقعة وضجة، ولم يخطر ببالى أن أطلب من السائق أن يوقفها عند مكان الحديقة الساحرة، بل بعد

أن تجاوزناها بمسافة كبيرة. مررت بلحظات غريبة، لم أستطع أن أتعرف على ما أريد. فقرعت سقف عربة الأجرة، حتى فتح السائق، ثم أنزلت يدى ثانية حتى أنظر فى ساعتى. قال لى السائق بأسلوب مهذب: "ما الأمر يا سيدى؟"، قلت له: "لم يحدث شىء" ثم صحت رغمًا عنى: "إنها غلطتى. ليس لدينا وقت. أسرع بالعربة!" ومضى فى طريقه لا يلوى على شىء.

"حصلت على المنحة الدراسية. وفى الليلة التالية لإبلاغى بهذا، كنت أجلس أمام المدفأة لآخذ قسطًا من الدفء، فى غرفتى الصغيرة العلوية، التى أعددتها كمكتب للدراسة والكتابة، فى منزل أبى، الذى أثنى علىّ - وهو نادرًا ما يفعل هذا - وظلت نصائحه ترن فى أذنى، وأخذت أدخن غليونى المفضل، وكان هذا محرمًا على المراهقين. وعندئذ أخذت أفكر من جديد، فى الباب الأخضر الذى يوجد فى الجدار الأبيض الطويل. قائلاً لنفسى: لو كنت قد توقفت بعربة الأجرة فى مكان الحديقة الساحرة، لفقدت المنحة الدراسية من جامعة (أوكسفورد)، وربما كل مستقبلى الوظيفى الرفيع. وبدأت أرى الأمور بشكل أفضل! واستغرقت فى التفكير العميق. وتوصلت إلى أن مستقبلى الوظيفى يستحق أن أبذل التضحيات من أجله.

"كان أصدقائى الأعزاء وذلك الجو الصافى، قريبين جدًا لنفسى، ولكنهم كانوا بعيدين عنى. عندئذ بدأت أشعر بمدى حبى للدنيا وتمسكى بها. ورأيت بابًا آخر يُفتح.. باب مستقبلى المهنى والوظيفى" .

حملق من جديد فى النيران المشتعلة بالمدفأة، وأوضح وهجها الأحمر ما بقسمات وجهه من قوة وعناد، ولم يستغرق هذا سوى لحظات خاطفة، ثم سرعان ما تلاشت مرة أخرى، ولم تترك أثرًا.

قال "حسنٌ" ثم تنهد واستطرد قائلاً: "كنت حريصًا على مستقبلى الوظيفى، وأديت كثيرًا من الأعمال الشاقة. ولكنى حلمت بالحديقة الساحرة لآلاف المرات، ورأيت بابها الأخضر ـ أو حتى على الأقل لمحته ـ أربع مرات منذ ذلك الوقت. أجل، أربع مرات. ولبعض الوقت كانت الدنيا رائعة الجمال وممتعة، بدت وكأنها مليئة بالمعانى والفرص، حتى إن السحر المتلاشى جزئيًا للحديقة، كان ـ مقارنًا بها ـ رقيقًا ولكنه بعيد فى الزمن.

من لا يرغب فى تناول العشاء مع نساء فاتنات ورجال ذوى حيثية؟. جئت إلى "لندن" من "أوكسفورد"، كنت رجلاً متحمسًا يريد أن يحقق أهدافه، ولكن كانت هناك بعض الإحباطات..

"وقعت فى الحب مرتين، ولم أكرر المحاولة، وذات يوم ذهبت لزيارة صديق، واتخذت طريقًا بالقرب من "إيرل كورت"، وهناك حدث أن رأيت جدارًا أبيض" وبابًا أخضر مألوفًا. قلت لنفسى: "يا إلهى! هذا أمر عجيب" إذ تذكرت أن الحديقة الساحرة والجدار الأبيض والباب الأخضر كانوا فى "كامبدن هيل"! ولم أجد هذا المكان أبدًا، على الرغم من محاولاتى المتكررة، إنه المكان الذى كان يتراءى لى على الدوام فى أحلام يقظتى.

"ذهبت إلى الباب الأخضر، وظللت لفترة أحاول أن أفتحه. كان لدىّ إحساس داخلى، بأن ذلك الباب سوف يُفتح فى النهاية، ولكنى

فكرت بأن الدخول من الباب الأخضر، سوف يؤدى إلى تأخيرى عن الموعد الذى ربما يحدد مستقبلى الوظيفى وندمت فيما بعد على التزامى بالمواعيد. على الأقل كنت قد اختلست نظرة من خلال الباب الأخضر، ولوّحت لأولئك النمور، وهكذا انتابنى أسى شديد.

"وبعد هذا قمت بالعديد من الأعمال الشاقة، ولم أشاهد - خلال تلك الفترة - الباب الأخضر قط. وحدث مؤخرًا أن فكرت فيه من جديد. عندئذ - شعرت كما لو أن خطًا رفيعًا من ضوء باهت، ينتشر فوق عالمى. وبدأت أفكر فى الباب الأخضر، كشىء مرير ومحزن يجب ألا أراه ثانية. وربما كنت فى ذلك الوقت أعانى من العمل بإفراط، أو من التقدم فى السن حيث كنت فى الأربعين من عمرى. لا أدرى حقيقة الأمر، ولكن الشىء المؤكد أننى بدأت أشعر بأن الحياة أصبحت مرهقة وأن الأعمال التى أقوم بها لا تؤتى ثمارها. ومؤخرًا عدت للتفكير بعمق فى الحديقة، أجل لقد رأيتها ثلاث مرات!".

قلت له: "الحديقة!".

"كلا.. الباب الأخضر، ولم أدخل منه!".

اتكأ على المنضدة التى أمامنا، وصوته ملىء بالحسرات حين كان يتحدث إلىّ "لثلاث مرات أتت الفرصة لى.. ثلاث مرات! وأقسمت بأننى لو شاهدت ذلك الباب مرة أخرى. فإننى سوف أفتحه وأدخل منه، غير ملتفت إلى ذلك الغبار الذى يغطيه أو صهد الحرارة التى تشع منه، وبغض النظر عن تلك الخيلاء الكاذبة أو ما بى من تعب وإرهاق. سوف أدخل ولن أعود أبدًا. هذه المرة سوف أبقى

هناك، وأقسمت على ذلك، ولكن عندما جاء الوقت المناسب.. لم أذهب!

"ثلاث مرات فى عام واحد، كنت أمر بالقرب من الباب الأخضر، ولكنى لم أدخل منه. ثلاث مرات فى العام الماضى. كانت المرة الأولى فى الليلة التى تمت فيها مناقشة "مشروع قانون مستحقات المؤجرين" والذى فاز بأغلبية ثلاثة أصوات فقط. أتتذكر هذا؟ ولم يتوقع أحد من جانبنا، ومن المحتمل أن عددًا قليلاً للغاية من المعارضة، توقع نهاية الأمر فى تلك الليلة. وبعد ذلك انهارت المناقشة، وتحطمت كأنها قشرة بيض! كنت أنا و(هوتشكيس) نتناول العشاء مع ابن عمه فى (برنتفورد)، واستدعينا لأمر هام بالهاتف، فذهبنا على الفور فى سيارة ابن عمه، ووصلنا بصعوبة فى الموعد المحدد. وفى طريقنا مررنا بالجدار الأبيض والباب الأخضر، وكانا يبدوان شاحبين فى ضوء القمر، وملطخين باللون الأصفر عندما وجهنا إليهما مصباحينا. صحت رغمًا عنى: "يا إلهى!".

سألنى (هوتشكيس): "ما الذى حدث؟" أجبته "لا شىء. ومرت تلك اللحظة. عندما وصلنا إلى موعدنا، قلت لعضو الهيئة التشريعية: "لقد قمت بتضحية كبرى".

قال وهو يسرع إلى الداخل: "كلهم يقولون هذا".

"لا أعلم ماذا فعلت فى ذلك اليوم، بسبب تفكيرى الدائم فى الباب الأخضر. وجاءت الفرصة الثانية، عندما كنت أُهرع إلى جانب سرير أبى، لأودعه للمرة الأخيرة. عندئذ كانت مطالب الحياة حقيقية وملحة ولا سبيل إلى تجاهلها.

وكانت المرة الثالثة مختلفة، وحدثت من ـ أسبوع واحد فقط. وكلما تذكرتها يقشعر بدنى ويمتلئ قلبى بندم شديد. كنت مع (جوركر) و(رالفز) ولم يعد سرًا الآن، أننى كنت أتناقش ـ بين فترة وأخرى ـ مع (جوركر). كنا نتناول العشاء فى مطعم (فروبيشر)، وصار الحديث حميميًا بيننا، كان الموضوع يتعلق بإعادة هيكلة الوزارة ومكانى المتوقع فيها. إننى لا أخفى عليك أى أسرار. والآن أرجو أن تستمع إلى باقى قصتى.

"حينئذ كانت كل الأمور على ما يرام، وكان موقفى السياسى جيدًا للغاية، كنت حريصًا أشد الحرص على أن أحصل على موافقة (جوركر)، ولكن كان وجود (رالفز) يعرقل هذا الأمر. وحاولت ـ باستخدام كل ما أملكه من ذكاء ـ أن أجعل النقاش عامًا، حتى لا يبدو أنه موجه لخدمة أهدافى. وكنت مضطرًا لهذا. وكان سلوك (رالفز) دافعًا ومبررًا لحرصى هذا، وكنت أعلن أن (رالفز) سوف يغادرنا خلف شارع "كينسينجتون هاى"، ومن ثم أدهش (جوركر) بحديث صريح مفاجئ. فالواحد منا أحيانًا يلجأ إلى مثل هذه الوسائل البسيطة.

عندئذ أدركت ـ أنه فى مجال رؤيتى ـ يوجد الجدار الأبيض والباب الأخضر، أمامنا فى منتصف الطريق.

"مررنا بهما ونحن منهمكان فى الحديث. وما زلتُ أتذكر ظل (جوركر) وصورته الجانبية وقبعته السوداء الحريرية العالية، التى كانت تميل قليلاً نحو أنفه البارز، وطيات الجلد العديد فى رقبته. وكنا نمشى الهوينى.

"مررت على بعد نحو عشرين بوصة من الباب الأخضر. وأخذت أفكر، فإذا قلت لهما: طابت ليلتكما ودخلت من الباب. فما الذى سوف يحدث؟ إذ كنت حريصًا على إكمال المناقشة مع (جوركر). ولم أستطع الإجابة على هذا السؤال، الذى كان متشابكًا مع مشكلات أخرى، وكان ذهنى مشوشًا. لا شك أنهم سوف يظنوننى مجنونًا، وإذا اختفيت الآن! فسوف تصدر الصحف وبها عناوين فى الصفحات الأولى عن الاختفاء العجيب لسياسى بارز! فكرت مليًا فى الأمر، هذه الأزمة التى أرهقتنى كثيرًا. استدار إلىّ (جوركر) وقال بتؤدة: "أنا هنا" ثم كررها مرة أخرى. وهكذا ضاعت منى الفرصة، لثلاث مرات فى عام واحد. لقد عرض الباب الأخضر نفسه، ودعانى للدخول إلى حيث السلام والمتعة والجمال الذى يفوق الأحلام. ذلك الباب الذى يوجد خلفه حنان وعطف وكرم لا يعرفها أى إنسان فوق الأرض. ورفضت دعوة الباب الأخضر - يا (ردموند) - وهكذا ضاعت الفرصة إلى الأبد!

قلت له: "كيف عرفت هذا الأمر؟".

"أنا أعلم. أنا أعلم. لقد تفرغت للاهتمام بعملى والمهام التى تشبثت بى بقوة، وذلك رغبة منى فى الترقى إلى الوظائف العليا، عندما تسنح الفرصة لذلك. قلت لى إننى حققت نجاحًا. ولكن حدث هذا بالحسد والإزعاج والحقد" كان يمسك بيده الضخمة ثمرة جوز. وقال "إذا كان هذا نجاحى" وهشمها وأظهرها بيده حتى يجعلنى أراها.

"دعنى أخبرك شيئًا ما يا (ردموند): إن هذه الحيرة تدمرنى؛ **إذ** خلال شهرين، وبالتحديد لمدة عشرة أسابيع، لم أنجز أى عمل، **ما**

عدا الأمور الضرورية والمهام العاجلة. إن روحى تعج بالكثير من الآلام، غير القابلة للتهدئة أو الاسترضاء.

وفى الليل ـ عندما يكون من الصعب التعرف على شخصى ـ أذهب للخارج. وأتساءل عما قد يفكر فيه الناس، إذا علموا أن وزيرًا من مجلس الوزراء، والمسؤول الأول عن أكثر الإدارات حيوية وأهمية، يتجول وحيدًا يعتصره الحزن والأسى، بسبب باب وحديقة!

(٤)

يمكننى أن أتذكر الآن وجهه الشاحب، وذلك التوهج الغريب الذى أصبح يتألق فى عينيه، كان فى تلك الليلة مفعمًا بالحيوية. وجلست أستدعى كلماته ونبرات صوته. ونسخة الأمس من جريدة "وستمينسز جازيت" مازالت ملقاة على الأريكة، والتى تتضمن خبر وفاته. وظهر ذلك اليوم عندما كنا نتناول وجبة الغداء بالنادى، انشغل الجميع بموته، ولم نتكلم عن أى شىء آخر.

"لقد وجدوا جثته فى الصباح الباكر أمس، فى حفرة عميقة بالقرب من محطة سكة حديد "إيست كنسينجتون"، حيث كانت هناك بعض الإصلاحات فى الطرق، توطئة لتوسيع المحطة فى الاتجاه الجنوبى. وتم حماية المعدات من اقتحام الجماهير، بواسطة سياج خشبى حول الطريق، يحتوى على باب صغير من أجل دخول العمال وخروجهم. وكان الباب مفتوحًا نتيجة لسوء تفاهم نشب بين اثنين من رؤساء العمال، ولاشك أن صديقى الذى وافته المنية، شق طريقه من خلال هذا الباب.

"جالت فى خاطرى كثير من الأسئلة والألغاز. يبدو أنه سار فى تلك الليلة، كل المسافة من المجلس التشريعى إلى منزله. إذ كان من عادته، أن يمشى على قدميه إلى منزله، بعد انتهاء جلسات الهيئة التشريعية، تخيلت جسمه الذى تغلّفه ظلمة الليل، وهو يسير فى الشوارع الخالية متدثرًا فى ملابسه وربما خدعته الأنوار الكهربائية الشاحبة القريبة من محطة السكة الحديدية، وأوحت إليه بأن الألواح الخشبية الممتدة، هى عبارة عن جدار أبيض! وهل أثار الباب المفتوح فى السور الخشبى - الذى أدى إلى وفاته - بعض الذكريات لديه عن الباب الأخضر؟

وفى نهاية الأمر، هل كان ثمة باب أخضر على الإطلاق؟ لا أدرى. لقد رويت قصته كما حكاها لى. وهناك أوقات أشعر فيها أن (والاس)، لم يكن سوى ضحية لنوع نادر وغير مسبوق من الهلوسة والهذيان. ولكن - فى حقيقة الأمر - لم يكن هذا هو اعتقادى الداخلى. وربما تعتقد أننى مؤمن بالخرافات وأحمق، ولكننى أكاد أجزم أن (والاس) كان يمتلك منحة غير عادية، تتمثل فى جدار أبيض وباب أخضر، منحاه مخرجًا وممرًا غريبين للهروب إلى عالم آخر أكثر جمالاً وبهاء. على أية حال، ربما نقول: إن الباب الأخضر خدعة فى نهاية الأمر. ولكن هل هى خدعة حقًا؟ وتكون - برأيك هذا - قد أوغلت فى سر هؤلاء الحالمين، ذوى البصر والبصيرة والرؤى والخيال، الذين يرون عالمنا مليئًا بالحب والعدالة. أما عن السياج الخشبى والحفرة، فإنه بمقاييسنا الدنيوية القاصرة، فإن (والاس) لم يراع قواعد الأمن، ومن ثم سار إلى الظلمة والخطورة والموت.

ولكنه هل رأى الأشياء على هذا النحو، أو بشكل آخر؟

لؤلؤة الحب

إن اللؤلؤة أروع وأرق من معظم الأحجار الكريمة المتبلرة الشديدة التألق، حسبما يقول الباحثون فى علم الأخلاق، ذلك أنه يتم صنعها من خلال معاناة كائن حى.. أما أنا فلا أستطيع التعليق على ذلك، لأننى ببساطة لا أشعر بأى انبهار تجاه اللآلئ.. فبريقها الغامض لا يحرك عواطفى على الإطلاق.. كما أننى لا أستطيع أن أقرر لنفسى شيئًا بخصوص الخلاف المستمر منذ القدم، حول ما إذا كانت "لؤلؤة الحب" هى أكثر القصص قسوة أو أنها مجرد قصة خرافية لطيفة عن خلود الجمال.

إن القصة والجدل الذى أثير حولها معروفان للطلبة الذين يدرسون الشعر الفارسى فى العصور الوسطى.. والقصة فى حد ذاتها قصيرة على الرغم من أن التعقيب عليها وتفسيرها جزء لا يستهان به من أدب تلك الحقبة من الزمن.. لقد تعامل معها المفكرون والكتاب والنقاد باعتبارها إبداعية شعرية وتناولوها كرمز يعنى أمورًا متباينة منها المغزى الأخلاقى أما اللاهوتيون فقد نظروا إليها بطرقهم المستفيضة فى التفكير والكلام، باعتبارها تتناول

بشكل خاص "الإصلاح والتجديد". والحقيقة أن قصة "لؤلؤة الحب" استخدمت بكثرة كحكاية رمزية أخلاقية لأولئك الذين يكتبون ويؤلفون كتبًا فى علم الجمال وظواهره.. كما أن الكثيرين نظروا إليها كمجرد حقيقة بسيطة وواقعية..

تجرى أحداث قصة "لؤلؤة الحب" فى شمال الهند.. وهو موطن خصب لقصص الحب الرفيع المتسامى أكثر من أى دولة أخرى فى العالم.. ووقعت أحداثها فى هذه الدولة ذات الشمس المشرقة والبحيرات الجميلة والغابات التى تعج بالكثير من أنواع الحياة والتلال الكثيرة والوديان الخصبة.. وعلى البعد ترتفع جبال عملاقة إلى عنان السماء، لها قمم وحواف يجثم عليها جليد أبدى لا سبيل للوصول إليه.

كان يحكم تلك البلاد أمير شاب.. ثم عثر على فتاة ذات جمال أخاذ لا يوصف، وروح مرحة ومبهجة، فتزوجها وجعلها ملكته ووضع قلبه تحت قدميها.. ورشفا من الحب والمرح والسعادة ما قدره الله لهما.. واتسم حبهما العنيف بالأمل والروعة والشجاعة والسمو.. أرقى من أى شىء تتخيله عن الحب.. واستمر هذا الحب الفائق لمدة عام وبعض العام.. ثم فجأة أصيبت الملكة فى الغابة - بين شجيرات ملتفة - بلدغة سامة وماتت لتوها..

بعد أن ماتت الملكة ظل الأمير لبعض الوقت مغمومًا وخائر القوى تمامًا.. وكان يجلس صامتًا وساكنًا والحزن يعتصر قلبه.. وخشى من حوله أن يقتل نفسه لو استمر هكذا، ولم يكن له أبناء أو إخوة يخلفونه من بعده.. ولمدة يومين وليلتين قبع منبطحًا على

وجهه، وصائمًا عن الطعام عند أقدام الأريكة التى تحمل جسدها الساكن الحبيب.. ثم قاوم وتناول طعامًا وانصرف مسرعًا كشخص اتخذ قرارًا بتنفيذ شىء عظيم وبعزم لا يلين، وأمر بوضع رفات الملكة فى تابوت مصنوع من الرصاص المخلوط بالفضة.. ثم وضع هذا التابوت داخل تابوت خارجى مصنوع من أروع الأخشاب النفسية العطرة والموشاة بالذهب.. وحول هذا التابوت "ناووس"[(١)] من المرمر المرصع بالأحجار الكريمة. وأثناء تنفيذ تلك الأعمال، قضى الأمير كل وقته بجوار المسابح وفى المنازل المشيدة بالحديقة وفى المقصورات والسرادقات الموجودة هناك وتحت خمائل البساتين وفى حجرات القصر التى كانا هما الاثنان يقضيان فيها أكثر أوقاتهما معًا، مفكرًا ومتأملاً فى حبهما المفقود ومدى فتنتها وروعتها، ولم يشأ أن يمزق ملابسه ولا أن يدنس نفسه بالرماد ولبس المِسْح [(٢)] كما كانت العادة وقتئذ.. فقد كان حبه أعظم من مثل تلك المبالغات التى لا قيمة لها.. وأخيرًا خرج من جديد وجلس مع مستشاريه وأمام أفراد شعبه وأخبرهم بما عزم عليه. قال: إنه لن يقرب النساء بعد ذلك، إذ لا يستطيع قط أن يفكر فى أى امرأة أخرى ولذلك فإنه سوف يبحث عن شاب لائق حسن المظهر يجعله وريثًا له ويعلمه لكى يكون جاهزًا لتحمل المسؤولية.. وأنه سوف يمارس واجبات الإمارة عندما يصبح بمقدوره ذلك.. وفيما عدا هذا، فإنه سينذر نفسه شخصيًا هو وكل سلطته وقوته وثروته وما

---

(١) تابوت حجرى توضع فيه جثة الميت (المترجم).

(٢) ثوب خشن يلبس عند الحزن حسب التقاليد الهندية القديمة (المترجم).

يسيطر عليه.. لعمل نصب تذكارى يليق بالمرأة المعشوقة الفقيدة التى لا نظير لها.. ويجب أن يكون ذلك المبنى مثاليًا و رائع الجمال والحسن وأكثر فخامة وعظمة من أى مبنى آخر شيده أو يمكن أن يشيده بشر.. بحيث يكون ـ وإلى الأبد ـ أحد العجائب. يوقره الناس ويتكلمون عن جماله الأخاذ ويودون رؤيته، ويجيئون من كل بلاد الأرض لزيارته وتذكر اسم صاحبته الملكة الراحلة وتاريخها.. وقال: إن اسم هذا المبنى سيكون "لؤلؤة الحب".. وسرعان ما سمح له مستشاروه والشعب كله بتنفيذ ذلك المخطط، ومن ثم بدأ بالفعل فى ذلك.

مر عام وراء عام وهو مكرس نفسه لإكمال هذا البناء "لؤلؤة الحب".. وزخرفته بما يليق به.. ثم وضع أساسًا عظيمًا له فى الصخور القوية بعد نحتها فى مكان يمكن منه للمرء أن ينظر إلى القفار الجليدية للجبل الهائل فى الجانب الآخر، من أكبر واد فى العالم.. حيث توجد قرى وتلال كثيرة.. ونهر متعرج المسار.. وعلى البعد ثلاث مدن كبيرة.. وهنا وضعوا الناووس المرمرى أسفل مقصورة رائعة التصميم.. وأقيمت حوله أعمدة من حجر غريب أنيق وجذاب ويثير الإعجاب.. وجدران مشغولة ومزخرفة بنقوش رائعة..وتابوت ضخم من الأحجار يحمل فوقه قبة وأبراجًا عالية رفيعة مستدقة الرأس وقبابًا أنيقة الصنع تبدو كالمجوهرات.

فى البداية كان تصميم لؤلؤة الحب أقل فتنة وبهرًا عما صار عليه بعد ذلك.. فقد كان فى البداية أصغر حجمًا وأكثر زخرفة وترصيعًا.. وكانت هناك أعداد كبيرة من الستر المثقوبة ومجموعات

أنيقة من الأعمدة وردية اللون، والتابوت الحجرى يرقد فى سكينة كطفل نائم وسط الزهور. وكانت أول قبة مغطاة ببلاط أخضر محوط وملصق بعضه ببعض بالفضة، بيد أن تلك القبة بدت قصيرة وغير مرتفعة بشموخ لتتناغم مع خيال الأمير..

وفى ذلك الوقت لم يعد الأمير ذلك الشاب الجميل الرشيق الذى أحب الفتاة الساحرة التى أصبحت ملكة.. إنه أصبح الآن رجلاً وقورًا وعليه أمارات الجد والاهتمام.. ومنصرفًا بكليته إلى تشييد لؤلؤة الحب.

ومع مرور كل عام من الجهد والعرق، كان يكتسب خبرات وقدرات جديدة لبناء الممرات المقنطرة وتشييد الجدران ودعائم إسنادها.. لقد تعلم كيف يستخدم مواد البناء بكفاءة واقتدار وكذلك مئات الأنواع من الأحجار والألوان والمؤثرات التى لم يكن بمقدوره ـ قط ـ أن يتعلمها فى البداية، كما اكتسب براعة متزايدة فى تمييز الألوان والإحساس بها.. ولم يعد يهتم كثيرًا بالألوان الباهرة المزخرفة والمبطنة بالذهب التى كانت تروق له فى البداية.. أو الألوان الزاهية لكتاب الصلوات ذو المخطوطات المزخرفة.. لقد بات يبحث الآن عن الألوان الزرقاء مثل لون السماء والألوان الجميلة الرقيقة التى يمكن رؤيتها من مسافات بعيدة.. وعن الظلال الغامضة والتدفق الواسع المفاجئ للون البراق والوماض والأرجوانى.. وعن الجلال والاتساع الرحب فى المكان. وتعب للغاية فى أعمال الحفر والنقش والتصوير والزخارف المرصعة وكل أعمال المصنعية الدقيقة الصغيرة. وقال عن الزخارف السابقة: "تلك كانت

أشياء جميلة" وأمر بوضع هذه الأشياء جانبًا فى مبانٍ فرعية حيث لا تعوق هناك مخططاته الأساسية وبدأت ملكاته وقدراته الفنية تزداد أكثر فأكثر.. ورأى الناس، بمزيج من الدهشة والتعجب، كيف تزداد وتكبر لؤلؤة الحب من بداياتها المتواضعة إلى روعة وجمال، وإبداع واتساع فائق غير مسبوق فى العرض والارتفاع، بما يفوق قدرات البشر. لم يكونوا يتوقعون شيئًا محددًا بالذات. لكنهم بالتأكيد لم يتوقعوا شيئًا بهذا الإبداع والجمال.. وهمس الناس وهم يقولون فيما بين بعضهم والبعض الآخر: "إن هذا المبنى أكثر من رائع.. إنه إحدى المعجزات.. الحب يصنع المعجزات دائمًا".. وكل نساء العالم، مهما بلغ شأن عشاقهن، وقعن فى حب الأمير لكل جهوده الجليلة والمهيبة من أجل معشوقته الفقيدة. وفى وسط المبنى امتد ممشى ضخم كان يلقى من الأمير جل اهتمامه.. فمن المدخل الداخلى للمبنى نظر - بامتداد طول رواق الأعمدة الواسع وعبر المنطقة المركزية التى اختفت فيها منذ وقت طويل الأعمدة وردية اللون وفوق قمة المقصورة التى يتمدد تحتها الناووس.. وخلال فتحة ذات تصميم فائق الروعة - إلى القفار الجليدية للجبل الضخم. الأعمدة وأعظم الجبال قاطبة التى تمتد على بعد نحو ثلاثمائة وعشرين كيلو مترًا ودعائم إسناد الجدران والقاعات الكبيرة، ارتفعت عاليًا جدًا وانسابت إلى كلا الجانبين بشكل مثالى غير مقيد.. وعندما رأى الناس كل هذا الجمال الفاتن للمرة الأولى انطلقت منهم عبارات الإعجاب.. ثم ارتعدت أوصالهم، وارتجفت قلوبهم وخروا ساجدين. وكان الأمير يأتى كثيرًا ليقف فى هذا المكان، وينظر إلى هذا المشهد الفاتن الخلاب البعيد، وتتحرك

مشاعره بعمق.. لكنه لم يكن راضيًا كل الرضا وشعر بأن من حق مبنى "لؤلؤة الحب" عليه أن يفعل له كل ما فى وسعه قبل أن تنتهى مهمته أو رسالته التى كرَّس لها الجزء الأكبر من حياته.. فكان دائمًا يأمر بإجراء بعض التغييرات أو التعديلات هنا أو هناك، أو إعادة بعض التغييرات كما كانت عليه من قبل. وذات يوم قال الأمير: إن الناووس سوف يكون أوضح وأبسط وأجمل دون المقصورة الموضوع تحتها.. ولذلك بعد أن فكر فى الموضوع بإمعان لمدة طويلة، طلب هدم المقصورة وإزالتها..

فى اليوم التالى جاء ولم يقل شيئًا.. واستمر هذا الحال يومين.. ثم غاب عن النصب التذكارى لمدة يومين كاملين.. ولما عاد كان معه مهندس معمارى، واثنان من أمهر الحرفيين، وبعض رجال الحاشية. وقف الجميع فى مجموعة صغيرة صامتين وسط تلك الضخامة الجلية والمهيبة التى أنجزوها بجهودهم.. لم تكن ثمة ثغرة أو نقص فى جماله الأخاذ وكماله الفريد.. لقد تمكن الإنسان من صنع جمال يحاكى جمال الطبيعة الآسر للقلوب.. إنه مبنى "لؤلؤة الحب"..

لكنه كان هناك شىء واحد يفسد التجانس والتكامل المطلق.. كان ثمة تناسب غير صحيح يتعلق بالناووس. فالتابوت يتحدى العين ولا يتماشى مع الخطوط الانسيابية التى حوله.. وفى هذا التابوت الحجرى يوجد النعش المصنوع من الرصاص والفضة.. وفى داخل هذا النعش يسجى جسد الملكة المعشوقة الخالدة التى كانت سببًا فى كل هذا الجمال الأخاذ.

ولكن حيث إن التابوت لا يبدو أكثر من مجرد صندوق مستطيل داكن يوضع فى القاعة الواسعة لمبنى "لؤلؤة الحب" بشكل متنافر وغير مناسب.. ويبدو المنظر كما لو أن أحدهم أسقط حقيبة صغيرة قاتمة اللون، على بحر السماء البللورى.

استغرق الأمير وقتًا طويلاً فى التفكير.. ولكن لم يعرف أحد بالطبع ما هى الأفكار التى دارت فى ذهنه..

وأخيرًا تكلم الأمير وأشار بيده قائلاً دون تردد: "أخرجوا ذلك التابوت من هنا"!.

أرض العميان

على بعد يزيد على ثلاثمائة ميل[١] من بركان (تشيمبورازو)[٢] ومائة ميل من ثلوج بركان (كوتوباسى)[٣]، فى أشد مناطق جبال (الإنديز)[٤] الإكوادورية[٥] وعورة، يوجد ذلك الوادى الجبلى الغامض، منعزلاً عن عالم البشر، إنه "أرض العميان" ومنذ سنوات طويلة، كان ذلك الوادى البعيد مفتوحًا للعالم بأسره، يستطيع الناس أن يأتوا إلى مروجه الخضراء المعتدلة، بعد اجتيازهم أودية مخيفة وجبالاً تكتنفها الثلوج. وهكذا جاء إليه عائلة أو أكثر من (بيرو)[٦] هاربة من استبداد حاكم إسبانى شرير وطغيانه. ثم حدثت زلازل بسبب ثورة بركان (ميندو بامبا) المروّع، حيث ظلت (كيوتو)[٧] فى

(١) الميل نحو ١,٦ كيلو متر (المترجم).

(٢) أعلى قمة بركان فى الإكوادور (المترجم).

(٣) بركان ضخم يتكون من عدة طبقات، ويعد أعلى بركان نشط فى العالم (المترجم).

(٤) سلسلة جبلية واسعة ممتدة على طول الساحل الغربى لأمريكا الجنوبية (المترجم).

(٥) ينتسب إلى "الإكوادور"، وهى دولة فى شمال غرب أمريكا الجنوبية (المترجم).

(٦) دولة تقع فى جبال الإنديز (المترجم)

(٧) عاصمة دولة الإكوادور (المترجم).

ظلام دائم مدة سبعة عشر يومًا، وأدى إلى غليان الماء بالقرب من مدينة (ياجواشى) وطفو السمك كله ميتًا حتى مدينة (جواياكيل)، كما كانت هناك تصدعات على طول المحيط الهادى فى هذه المنطقة، بالإضافة إلى ذوبان الثلوج وفيضانات مفاجئة، عندئذ انزلق جانب بأكمله من قمة جبل (أروكا) وانهار محدثًا صوتًا كالرعد، فعزل أرض العميان إلى الأبد عن أقدام المستكشفين من البشر.

لكن أحد هؤلاء السكان الأوائل، تصادف أن كان فى الجانب الآخر من الوادى، حين ارتجت الدنيا بهذا العنف، ومن ثم فقد اضطر إلى أن ينسى زوجته وابنه وكل أصدقائه وممتلكاته التى خلفها هناك، ويبدأ حياته من جديد فى هذا العالم السفلى. ولكن سرعان ما مرض وكُف بصره ثم مات فى أحد المناجم أثناء تنفيذه لعقوبة حُكِم عليه بها، بيد أن القصة التى رواها خلقت أسطورة، ظلت حتى وقتنا هذا تتردد بين سكان المدن التى تقع على سلسلة جبال (الإنديز).

وقد ذكر الأسباب التى أدت به إلى العودة من تلك الأرض النائية المنعزلة، التى حُمل إليها ـ مربوطًا على ظهر حيوان "اللاما" بجانب حزمة كبيرة من الملابس ـ عندما كان طفلاً. قال: إن الوادى يحتوى على كل ما يشتهيه قلب الإنسان: ماء عذب، ومروج خضراء، وطقس معتدل، وتربة خصيبة، بنية وشجيرات متشابكة، تحمل ثمارًا يانعة. وعلى جانب من الوادى، غابات بها أشجار صنوبر باسقة، تقى السكان من الانهيارات الثلجية أو الصخرية.

وعلى ارتفاع قصيّ، ومن ثلاثة جوانب، كانت تشمخ تلال صخورها رمادية خضراء تعلوها تلال تكسوها الثلوج. وعندما تذوب الثلوج فى الصيف وتكوّن نهرًا جليديًا فإنه يتدفق بعيدًا عن الوادى عبر منحدرات قصية، وبين فترة وأخرى تسقط كتل هائلة من الجليد، على جانب الوادى، دون أن تسبب أى أضرار.

ولم تكن تسقط الأمطار أو تنهمر الثلوج فى هذا الوادى، لكن وجود ينابيع طبيعية عديدة، جعل الرى ينتشر فى كل أنحاء الوادى، ونتج عنه إنبات عشب أخضر يانع. لقد عاش السكان هناك فى رغد من العيش، وعاشت حيواناتهم بصحة جيدة ومن ثم تكاثرت بوفرة. لكن ثمة أمر واحد أفسد عليهم سعادتهم، والواقع أنه كان كافيًا لأن يفسدها إلى حد كبير؛ إذ أصابهم مرض غريب جعل من جميع المواليد، بل والعديد من الأطفال الأكبر سنًا، عميان!

حينئذ حاول الرجل البحث عن تعويذة أو ترياق لعلاج هذا البلاء الذى حل بهم وأصابهم بالعمى، ومن أجل هذا عاد إلى الوادى، على الرغم مما كابده من عناء وتعرضه لأخطار عديدة. وفى تلك الأيام - فى مثل هذه الحالات - لم يفكر الناس فى الجراثيم والعدوى، بل فى الخطايا والشرور. واعتقد الرجل العائد أن السبب فى هذه المعاناة، يكمن فى إهمال هؤلاء المهاجرين لاصطحاب قسيس معهم لإقامة الصلوات، بمجرد دخولهم الوادى. وأراد إنشاء بيت للعبادة، على أن يكون أنيقًا ورخيصًا، ويشيد فى الوادى، على أن يمتلئ بالأشياء المقدسة والمباركة، والأيقونات وصور القديسين. وكان يحمل فى حقيبته قضيبًا من فضة بلاده، ليبتاع به الدواء، وأصر على أنه لا توجد أى معادن ثمينة بالوادى،

ولكن يبدو أنه كان يكذب. وقال بأن كل السكان جمعوا أموالهم وحليهم، لأنهم لم يكونوا فى حاجة لهذه الأشياء، وطلبوا منه أخذها لشراء الدواء الناجع لمرضهم الغريب.

ويمكننى أن أتخيل هذا الشاب، متسلق الجبال، النحيل والقلق، الذى لفحته الشمس، ذا العينين الخابيتين، الذى ليس معتادًا على أساليب عالمنا، وهو يروى قصته على قسيس ثاقب النظرات ينصت إليه باهتمام. ويمكننى أن أتصوره يتعجل العودة إلى موطنه ومعه الأدوية المقدسة والمباركة التى تشفى من العمى. كما أستطيع أن أتصور خيبة الأمل غير المحدودة، التى لابد أنه شعر بها، حين أخذ يبحث ـ دون جدوى ـ عن الممر الذى دمرته الهزة الأرضية، لكن بقية قصته التى تضمنت الكثير من سوء الحظ الذى صادفه لم أعرف عنها شيئًا، ولم أعلم إلا بميتته الشنيعة، بعد عدة سنوات.

واستحالت قصة هذا الرجل إلى أسطورة بين السكان، عن جنس من البشر الأكِفَّاء ، ما زال يعيش هناك بين جبال (الإنديز) حتى الوقت الحاضر.

وقد تفشى مرض العمى بين السكان القليلين الذين يقطنون ذلك الوادى الذى أصبح معزولاً ومنسيًا. صار الكبار ذوى رؤية ضعيفة، أما صغار السن فكانوا أنصاف عميان، أما الأطفال ـ الذين يولدون لهم ـ فكانوا لا يرون على الإطلاق. بيد أن الحياة كانت رغدة للغاية فى هذا الوادى الذى تحيط به الثلوج، والذى ينعزل عن العالم كله. ولم تنمُ بأرض الوادى أية أشواك أو "عليق"[٨]، كما لا توجد حشرات

---

(٨) نباتات شائكة خاصة فى سيقانها (المترجم).

ضارة أو أى حيوانات متوحشة، ما عدا تلك الحيوانات الوديعة الرقيقة "اللاما" والتى قاموا باستئناسها وتربيتها. وبعد فترة، أصبح المبصرون أنصاف عميان تدريجيًا، حتى إنهم لم يشعروا بخسارتهم. وكانوا يقودون الأطفال العميان هنا وهناك، حتى أصبحوا يعرفون الوادى بكل تفاصيله، بشكل مدهش. فلما أصبحوا جميعًا عميان، ظلت الحياة تسير. بل لقد توفر لهم الوقت، لكى يدربوا أنفسهم على السيطرة على النيران دون إبصار، فتعلموا كيف يشعلونها بعناية فى مواقد وأفران من الحجارة.

كانوا قومًا بسطاء، ولكن لم ينالوا قسطًا من التعليم، ولكن مستهم الحضارة الإسبانية. كما أنهم كانوا على علم بالفنون القديمة لدولة (بيرو)، وبفلسفتها المفقودة. وتعاقب جيل وراء آخر. نسوا أشياء عديدة وابتكروا أيضًا أشياء كثيرة. وأصبحت ذكرياتهم عن العالم الخارجى الذى أتوا منه، ذات طبيعة أسطورية ومثيرة للشك، لقد كانوا يتميزون بالمهارة والقوة فى كل شىء، ما عدا الإبصار. وظهر بينهم شخص ذو عقل مستنير ومبتكر، استطاع أن يتحدث إليهم ويقنعهم، ثم ظهر شخص آخر فيما بعد. ورحل هذان الشخصان، ولكن بقيت تعاليمهما. وزاد عدد هذا المجتمع الصغير، وكذلك تطورت أفكارهم، ومن ثم استطاعوا مواجهة مشكلاتهم الاجتماعية والاقتصادية، ووجدوا لها حلولاً، وتعاقبت الأجيال. وجاء وقت كان الطفل الذى يولد يفصله خمسة عشر جيلاً تقريبًا،عن ذلك الرجل الذى خرج من الوادى، ومعه قضيب من الفضة. يلتمس عون الرب، ولكنه لم يعد أبدًا.

ونحو ذلك الوقت، تصادف أن أتى شخص إلى هذا المجتمع الصغير، من العالم الخارجى. وهذه هى قصة ذلك الرجل. كان متسلق جبال من بلدة بالقرب من مدينة (كويتو)، ركب البحر وشاهد الدنيا وقرأ كتبًا كثيرة، وكان يتميز بحدة الذهن وبأنه رجل مغامر وصاحب مبادرة، وكان قد استخدمه فريق من الإنجليز ـ الذين قدموا إلى (الإكوادور) لتسلق الجبال ـ بدلاً من واحد من GUIDES السويسريين، الذى أقعده المرض، وتسلق الرجل الجبال هنا وهناك ثم حاول أن يتسلق قمة "باراسكوتوبتل" ـ أعلى قمة فى سلسلة جبال (الإنديز) ـ إلا أنه فُقد بالنسبة للعالم الخارجى.

لقد كتبت قصة هذا الحادث مرارًا وتكرارًا، ولكن أفضلها تلك التى كتبها (بوينتر). وذكر فيها كيف أن فريق المتسلقين شقوا طريقهم بصعوبة بشكل يكاد أن يكون رأسيًا فوق الجبل، إلى آخر وأكبر كتلة صخرية بارزة وشديدة الانحدار، وكيف أنهم شيدوا مأوى ليليًا بين الجليد، فوق نتوء صخرى. وكيف اكتشفوا ـ لدهشتهم البالغة ـ أن (نونيز) قد اختفى من بينهم. أخذوا يصيحون ويصفرون ولكن دون مجيب، ولم يهنئوا بنوم بقية الليل.

وعندما انبلج الصباح شاهدوا آثار سقوطه، واتضح لهم أنه كان من المستحيل أن يصدر عنه أى صوت. فقد انزلق ناحية الشرق، حيث الناحية المجهولة من الجبل. وعلى عمق بعيد، ارتطم بمنحدر من الجليد ثم انجرف وسط انهيار ثلجى. ودلت الآثار التى خلّفها أنه اتجه فى خط مستقيم، إلى حافة صخرة شديدة الانحدار، وفيما وراء ذلك كان كل شىء مخفيًا، وبعيدًا جدًا إلى أسفل، حيث

الضباب الذى يجعل الرؤية عسيرة، شاهدوا أشجارًا نامية فى واد ضيق ـ بلد العميان المفقودة ـ ولكنهم لم يعرفوا أن هذه هى بلد العميان المفقودة، أو استطاعوا التفرقة بينها وبين أى واد آخر ضيق فى تلك المنطقة.

وكان من تأثير ذلك المصاب عليهم، أنهم تخلوا عن فكرة تسلق الجبل. ومازالت قمة "باراسكوتوبتل" شامخة لم يقهرها أحد، حتى يومنا هذا.

أما الرجل الذى سقط فقد بقى على قيد الحياة.

لقد سقط لمسافة ألف قدم ـ بعد نهاية المنحدر ـ واستقر وسط سحابة من الثلوج فوق منحدر أشد ميلاً من المنحدر الذى يعلوه، ثم انزلق بحركة دوامية إلى أسفل، ففقد الوعى ولكن دون أن تنكسر أية عظمة فى جسمه وأخيرًا استقر على منحدر أقل ميلاً، فاستلقى ساكنًا وسط كومة من الكتل البيضاء الهشة، التى أحاطت به منذ سقوطه وأنقذته.

أفاق من غيبوبته، وهو يشعر شعورًا عجيبًا بأنه مريض فى فراشه، ثم تدارك موقفه بذكاء رجل اعتاد تسلق الجبال، فخلص نفسه من كومة الثلوج، وبعد أن استراح قليلاً ، أزاح ما بقى من الثلوج حول عينيه، ومن ثم استطاع رؤية النجوم.

استلقى على صدره لبعض الوقت، وهو يتعجب أين هو وما الذى حدث له، ثم تحسس أطرافه واكتشف أنه فقد العديد من أزراره، وأن سترته قد التفت حول رأسه. وأن سكينه سقطت من جيبه، كما

أنه فقد قبعته على الرغم من أنه كان قد ثبتها تحت ذقنه، واختفت فأس الجليد[٩] الخاصة به. وتذكر أنه كان يبحث عن أحجار ليرفع بها جانبًا من جدار المأوى.

وقرر على نحو حاسم أنه لا بد قد سقط، ونظر إلى أعلى ليرى، وعمل الضوء الساطع للقمر على توضيح ذلك الارتفاع الهائل الذى سقط منه. ولبعض الوقت، استلقى على ظهره محدقًا فى ذلك الانحدار الصخرى الشامخ شاحب اللون. أذهله جماله الأخاذ الذى يوحى بالغموض، ثم انخرط فجأة فى نوبة جيشان عاطفى، فأخذ يبكى ويضحك فى الوقت نفسه.

وبعد مرور وقت طويل، أدرك أنه قريب من الحافة السفلية للثلوج. وعندما نظر إلى أسفل واتضح له وجود منحدر يضيئه القمر ويمكن اجتيازه، لأنه ليس شديد الميل، كما شاهد منظرًا يكتنفه الظلام، يبدو مثل أرض يكسوها العشب وتغطيها الصخور. نهض بصعوبة ووقف على قدميه. وشعر بآلام مبرحة فى كل مفاصله وأعضاء جسمه، وهبط بعد أن تحرر من كومة الثلوج، حتى سقط فوق العشب إلى جانب "جلمود"[١٠]، وأخرج قنينة خمر من جيبه الداخلى، وأخذ يحتسى منها. وسرعان ما راح فى سبات عميق، أيقظه تغريد الطيور على أشجار فى الأسفل على مسافة قصية. فجلس وأدرك أنه فوق هضبة صغيرة، عند قاعدة جرف صخرى، عليه الآثار التى خلّفها سقوطه مع الكتلة الثلجية الهشة.

---

(٩) يستخدمها متسلقو الجبال لقطع موضع لأقدامهم أثناء تسلقهم (المترجم).

(١٠) صخر ضخم مستدير (المترجم).

وأمامه ثمة جدار صخرى آخر عملاق وكأنه يستطيل حتى السماء وكان الممر بين هذين الجرفين الصخريين، يمتد شرقًا وغربًا، وكان مغمورًا بأشعة الشمس، التى أضاءت أيضًا الجهة الغربية، حيث الكتلة التى انهارت من الجبل، وأدت إلى غلق الممر الهابط.

ورأى فى الأسفل جرفًا آخر يبدو أنه منحدر بنفس القدر، ولكن فيما وراء الثلوج ـ وداخل الأخدود ـ وجد شقًا تتقطر منه المياه المثلجة، ووجد أن الهبوط كان أسهل مما تصور، ثم وصل أخيرًا إلى هضبة صغيرة أخرى مقفرة . بعدها استمر فى تسلق بعض الصخور بسهولة، حتى صادف منحدرًا شديدًا تغطيه الأشجار.

أخذ متعلقاته، ونظر إلى أعلى حيث يوجد ممر يؤدى إلى مروج خضراء، لمح بينها ـ بشكل جلىّ ـ مجموعة متشابهة من الأكواخ الحجرية، من طراز غير مألوف له.

أحيانًا كان يتقدم وكأنه يتسلق بصعوبة جدارًا قائمًا. وبعد قليل توقفت الشمس المشرقة عن إرسال أشعتها عبر الممر، وخمدت أصوات الطيور المغردة، وأصبح الجو باردًا ومعتمًا حوله، وعلى الرغم من ذلك فقد كان الوادى البعيد بمنازله مصدرًا للإشراق له. وسرعان ما وصل إلى منحدر جدارى[١١]، واسترعى انتباهه بين الصخور ـ إذا كان متيقظًا فى الملاحظة ـ نبات "سرخس"[١٢] غير مألوف، بدا وكأنه ينبت من الصدوع، مخرجًا زوائد خضراء كثيفة. قطف ورقة من النبات وقضم جزءًا منها بأسنانه وأكله ووجد طعمه

---

(١١) متشكل من تراكم صخور فى أسفل جرف (المترجم).

(١٢) نبات لا زهرى وليس له بذور ولكن له جذور وسيقان وأوراق عريضة (المترجم).

مستساغًا، وعندما انتصف النهار تقريبًا، خرج أخيرًا من الجزء الضيق من الممر إلى السهل حيث غمرته أشعة الشمس، كان جسمه متيبسًا ومرهقًا، استوى جالسًا فى ظل صخرة، وملأ قنينته بالماء من ينبوع قريب ونهل منها حتى فرغت، واستراح لفترة، قبل أن يتجه إلى المنازل.

كانت المنازل جد غريبة فى نظره، بل إن مظهر ذلك الوادى برمته، بدا له - كلما حدق فيه - أكثر غرابة وخروجًا عن المألوف. كان القسم الأكبر من سطحه مروجًا خضراء مورقة، وتزين بالعديد من الأزهار الجميلة، وقد رويت بعناية فائقة. وتحمل الدليل على أنها قد زرعت بطريقة نظامية فريدة. وعلى ارتفاع كبير كان ثمة جدار يحيط بالوادى ويوجد ما يبدو كقناة محيطية يتقطر منها الماء لرى نباتات المروج. وفى المنحدرات الأكثر ارتفاعًا، كانت قطعان "اللاما" تتغذى على العشب القليل. كذلك كانت هناك حظائر - يبدو أنها كانت مأوى أو أماكن لإطعام "اللاما" - تتناثر هنا وهناك إلى جانب الجدار. وكانت قنوات الرى تنساب معًا، لتندمج فى قناة رئيسية عند وسط الوادى، وكان يطوقها من كلا الجانبين جدار فى ارتفاع صدر الإنسان. منح مظهرًا حضاريًا فريدًا لهذا المكان المنعزل، وعززه إلى حد كبير، وجود عدد من المسارات المرصوفة بالأحجار السوداء والبيضاء، ويحيط بكل منها حاجز من الأحجار المتصلة بعضها مع بعض، وتمتد المسارات هنا وهناك بطريقة منتظمة. ولم تكن منازل القرية التى فى وسط الوادى، تماثل تلك التكتلات من المنازل التى شيدت بفوضى وتشوش، فى القرى

الجبلية المألوفة له. بل كانت قائمة فى صفوف طويلة على كلا جانبى الطريق الرئيسى، وكانت تتميز بنظافة مثيرة للدهشة، هنا وهناك كان ثمة باب فى الواجهة متعددة الألوان لكل منزل، ولكنه لم يلحظ وجود آية نافذة. وكانت المنازل ملونة بعدة ألوان ولكن بلا اتباع للقواعد المألوفة فى التلوين. إذ لطخت بخليط من الجص والرمل والماء، أحيانًا يكون رماديًا وأحيانًا أخرى بنيًا فاتحًا أو بلون رمادى داكن أو بنيًا داكنًا يميل إلى السواد. وقد كانت رؤية هذا التلوين المشوش هى ما أتى بكلمة "أعمى" إلى ذهن هذا المستكشف لأول مرة. فقال فى نفسه: "لابد أن الرجل الطيب الذى قام بطلاء المنزل، كان أعمى كالخفاش!".

وهبط إلى مكان منحدر ومن ثم بلغ الجدار والقناة اللذين كانا يحيطان بالوادى. وكانت القناة تلقى بالمياه إلى أعماق الممر، فى شكل خيوط رفيعة ومتذبذبة. وعندئذ أمكن له أن يرى عددًا من الرجال والنساء. وهم يسترخون على أكوام من العشب، كما لو كانوا فى ضجعة الظهيرة. وفى مكان أكثر بعدًا من المرج الأخضر، وقريب من القرية، أبصر عددًا من الأطفال مستلقين على الأرض، وعلى مقربة منه شاهد ثلاثة رجال يحملون دلاء الماء، عبر مسار قصير، يمتد من الجدار المحيط بالقرية، إلى المنازل. وكانوا يرتدون ثيابًا مصنوعة من نسيج صوف "اللاما" وأحذية ذات رقبة وأحزمة من الجلد وأغطية رأس لها أجزاء تغطى الرقبة والأذنين. وكانوا يسيرون فى صف واحد يتبع كل واحد الآخر، ويسيرون فى بطء ويتثاءبون على فترات وكأنهم كانوا ساهرين طوال الليل.

كان ثمة شيء جد مطمئن فى مظهرهم، مما يوحى بأنهم أناس محترمون، حتى إن (نونيز) - بعد لحظة تردد - تقدم إلى مكان واضح فوق الصخرة التى يقف عليها، وأطلق صرخة هائلة بأعلى صوته، تردد صداها فى جنبات الوادى. توقف الرجال الثلاثة، وحركوا رؤوسهم كما لو كانوا يتلفتون حولهم وحولوا وجوههم من ناحية إلى أخرى، وأخذ (نونيز) يلوح بيديه فى كل الاتجاهات، ليلفت النظر إليه. ولكن لم يبد عليهم أنهم شاهدوه، على الرغم من كل إشاراته. وبعد برهة من الوقت، اتجهوا صوب الجبال البعيدة فى الناحية اليمنى، وصاحوا وكأنما يردون عليه. وأطلق (نونيز) صيحة عالية هادرة مرة تلو الأخرى، ثم أخذ يلوح بذراعيه من جديد، ولكن دون جدوى. عندئذ جاءت إلى ذهنه لفظة "أعمى" وسيطرت على تفكيره. وقال: "لابد أن هؤلاء الحمقى عميان!".

وأخيرًا بعد الكثير من الصيحات والغضب الشديد، عبر (نونيز) النهر على جسر صغير، ونفذ من بوابة فى الجدار، ودنا منهم. عندئذ تأكد أنهم فاقدو البصر. وأيقن أن هذه هى أرض العميان التى تناقلتها الأساطير، واقتنع بصحة ما كان يسمعه عنها، وأدرك أن أمامه مغامرة كبرى لا نظير لها.

وقف الرجال الثلاثة كل منهم بإزاء الآخر، ولم يكونوا ينظرون إليه، لكن آذانهم كانت متجهة إليه، ليستطيعوا التعرف عليه من خطواته غير المألوفة لهم. كانوا يقفون متلاصقين، وكأن شيئًا من الخوف قد ألمّ بهم. وكان يمكنه أن يرى أجفانهم مطبقة وغائرة،

كما لو كانت مقلاتها لا وجود لها، وكانت ترتسم على وجوههم أمارات الخوف.

قال أحدهم بلغة إسبانية من الصعب فهمها: "إنه رجل! رجل أو روح هابط من الصخور؟".

تقدم (نونيز) بخطوات ثابتة واثقة جريئة كشاب مقبل على الحياة. في حين كان يستجمع في ذهنه كل القصص القديمة التي كانت تروى عن الوادي المفقود وبلد العميان، وجال بخاطره ذلك المثل القديم - الذي أخذ يتردد في عقله على نحو موصول - والقائل: "الأعور يصير ملكًا في بلاد العميان".

حياهم في أدب جم وبأسلوب شديد التحضر، وكان يتحدث إليهم وهو يتطلع بعينيه سأل أحدهم:"من أين أتى هذا الرجل، يا أخي (بدرو)؟".

- "لقد هبط من الصخور".

فقال (نونيز): "لقد جئت عبر الجبال، من هذا البلد البعيد هناك، حيث يبصر الناس، بالقرب من مدينة (بوجوتا)، التي يسكنها مائة ألف من البشر، ويمتد فيها العمران إلى ما وراء البصر".

وقال الرجل الكفيف الثاني: "لقد جاء من بين الصخور".

ولاحظ (نونيز) أن أقمشة ستراتهم غريبة الصنع؛ إذ كانت غرزها[١٢] تتباين من سترة لأخرى. وأثاروا فزعه عندما اقتربوا

---

(١٢) طريقة في ترتيب الخيوط في الحياكة (المترجم).

جميعًا منه بحركات متزامنة، وهم مادون أذرعهم فى اتجاهه، فتراجع أمام أصابعهم الممتدة صوبه.

قال الكفيف الثالث وهو يتبع حركاته ويمسك به بإحكام: "تعال هنا".

ثم أمسكوا به وآخذوا يتحسسونه، ولم ينبسوا ببنت شفة، حتى أكملوا عملهم.

صاح (نونيز) عندما شعر بإصبع تندس فى عينه: "احترسوا". وقد تبين له أنهم أدركوا أن فى ذلك العضو شيئًا عجيبًا، بسبب جفنيه اللتين تتحركان بشكل سريع، فعادوا يتحسسونه من جديد.

قال المدعو (بدرو): "يا له من مخلوق غريب يا (كوريا). تحسس شعره المجعد إنه يشبه فراء اللاما".

فقال (كوريا) وهو يفحص ذقن (نونيز) غير الحليقة، بيد رخوة وإلى حد ما نديّة: "إنه خشن كالصخور التى أتى من بينها. لكنه ربما يصبح أكثر نعومة فى المستقبل".

أبدى (نونيز) بعض المقاومة وهم يفحصونه، إلا أنهم أمسكوا به بقوة وعزم.

قال (نونيز) مرة أخرى: "احترسوا".

فقال الرجل الكفيف الثالث: "إنه يتكلم! إذن فهو رجل ولا شك".

قال (بدرو) عندما لمس خشونة سترته "أوه!" ثم تساءل: "وجئت إلى العالم بحالتك هذه"؟!.

"بل أتيت من العالم الخارجى عبر جبال وأنهار جليدية، هناك بعيدًا، فى منتصف الطريق إلى الشمس. من العالم الكبير العظيم الممتد لمسافات شاسعة، على مسيرة اثنى عشر يومًا إلى البحر".

وبدا أنهم لا يكترثون به أو يلتفتون لما يقوله لهم، إذ قال (كوريا): "أخبرنا آباؤنا بأن قوى الطبيعة، حرارة الأشياء والرطوبة.. والعفونة، قد تصنع أناسًا".

وقال (بدرو): "دعونا نأخذه إلى شيوخنا".

فقال (كوريا): "صيحوا أولاً حتى لا ينزعج الأطفال. إننا نواجه حدثًا عجيبًا".

وتصايحوا جميعًا، ثم تحرك (بدرو) فى مقدمتهم، وأمسك بيد (نونيز) ليقوده إلى المنازل. إلا أن هذا الأخير سحب يده وقال: "بإمكانى أن أرى".

قال (كوريا) مندهشا: "ترى؟!".

أجاب (نونيز): "نعم إننى أرى".. والتفت وراءه فتعثر فى دلو (بدرو).

قال الرجل الكفيف الثالث: "إن حواسه لم تكتمل بعد، فهو يتعثر فى الأشياء ويتفوه بألفاظ لا معنى لها. اسحبه من يده".

فقال (نونيز): "افعلوا ما شئتم". وقادوه من يده وهو مستغرق فى الضحك وبدا عليهم جميعًا أنهم لا يعرفون شيئًا عن حاسة الإبصار. وقال (نونيز) فى نفسه: "حسنٌ سوف أعلمهم فى الوقت الملائم".

وتنامى إلى سمعه أناس يصيحون وشاهد حشداً من الرجال وسط الطريق الذى يؤدى إلى القرية. لقد وجد أن تلك المقابلة الأولى مع سكان أرض العميان قد أرهقت أعصابه وكانت أصعب مما كان يتصور. وعندما اقترب من القرية، وجدها أكثر رحابة، ولاحظ أن الألوان المشوشة التى طليت بها المنازل أشد غرابة، واجتمع حوله عدد كبير من الأطفال والرجال والنساء، وسره ما كان يبدو فى وجوه النساء والفتيات من مسحة جمال، على الرغم من أعينهن المغلقة والغائرة.

تجمعن حوله، يتلمسنه بأيديهن الناعمة الحساسة، ويتشممن رائحته، ويصغين باهتمام إلى كل كلمة يتفوه بها. غير أن بعض الفتيات والأطفال ظلوا بعيداً عنه، كأنهم يخافون الاقتراب منه. وبالفعل بدا صوته خشناً وفظاً، مقارنة بأصواتهم الرقيقة. كانوا يلتفون حوله من كل جانب، وكان الرجال الثلاثة يحيطونه دائماً كأنما هم يملكونه، ويقولون من آن لآخر: "إنه رجل متوحش خرج إلينا من بين الصخور".

قال (نونيز): "من (بوجوتا)! فوق قمم الجبال".

فقال (بدرو): "إنه رجل وحشى يستخدم فى كلامه ألفاظاً همجية. هل سمع أحدكم بهذه الكلمة (بوجوتا)؟ لا أعتقد أن عقل هذا الرجل قد اكتمل بعد، إنه لا يعرف إلا الكلام البدائى".

وأقبل طفل صغير فعضّ إصبع (نونيز) وقال له ساخراً: "بوجوتا"!

وقال (نونيز): "نعم، إنها مدينة عظيمة لا تقارن بقريتكم. وقد

أتيت إليكم من العالم الكبير، حيث للناس عيون ويتمتعون بقوة الإبصار".

قال البعض: "إنه يدعى (بوجوتا)".

وقال (كوريا): "لقد تعثر فى مشيته مرتين ونحن فى طريقنا إلى هنا".

وقال آخر: "خذوه إلى شيوخنا ليروه".

ودفعوا به فجأة من خلال باب، إلى غرفة حالكة الظلام . لم يكن بها من ضوء، إلا ما ينبع من شعلة صغيرة مضاءة بخفوت عند الركن البعيد. واندفعت الجماهير من ورائه، فحجبوا كل شىء إلا ضوء النهار الخفيف والمتقطع. وقبل أن يتمالك نفسه، سقط على الأرضية بعنف، وجاءت رأسه عند قدمى أحد الجالسين. وبينما كان يسقط، اصطدمت يده الممدودة بوجه رجل، وشعر بتقاطيع وجهه الناعمة، ثم سمع صيحة ملؤها الغضب. وللحظات ثار صراع بينه وبين أياد كثيرة امتدت إليه وأمسكت به. ثم أدرك أنها معركة غير متكافئة بالنسبة إليه. وأنه لم يتمكن من تقدير الموقف حق قدره، لذا رقد ساكنًا وقال: "لقد سقطت، فلم أستطع أن أرى فى هذا الظلام الحالك".

وسادت فترة صمت لبرهة، كأنما يحاول القوم فى أثنائها فهم كلامه.

ثم جاء صوت (كوريا) قائلاً: "إنه حديث الصنع، فهو يتعثر فى مشيته ويخلط بحديثه كلامًا لا معنى له".

وقال آخرون عنه أشياء لم يفهمها كل الفهم أو لم يسمعها.

وقال (نونيز) بعد فترة صمت: "هل تسمحون لى أن أجلس، ولن أقاومكم ثانية؟"، فتشاوروا فيما بينهم ثم سمحوا له بالنهوض وبدأ يستجوبه شيخ متقدم فى السن، و(نونيز) يحاول أن يوضح ما خفى على هؤلاء القوم، ذلك العالم العظيم الذى جاء منه، وتحدث عن السماء والجبال وحاسة البصر، وغير ذلك من الأمور "العجيبة" التى لا يعرفها هؤلاء الشيوخ الجالسون فى هذا المكان الذى تكتفه الظلمة، فى أرض العميان. ولكنهم لم يصدقوا كلامه أو يفهموا حديثه الذى تفوه به. وكان هذا أمرًا لم يتوقعه أبدًا. بل إنهم لم يعرفوا معنى الكثير من كلماته. فقد مر على هذه البلاد أربعة عشر جيلاً وأهلها فاقدو البصر، ومعزولون عن عالم المبصرين برمته، وتغيرت المسميات المتصلة بالبصر عندهم وخبت، وتحولت إلى قصص خرافية تروى للأطفال، ووطنوا أنفسهم على أن يقطعوا صلاتهم بالعالم الخارجى، وكل شىء فيما وراء المنحدرات الصخرية التى تعلو الجدار المحيط بواديهم.

وقد ظهر بينهم رجال مكفوفون أوتوا حظًا وافرًا من العلم والحكمة، درسوا وناقشوا المعتقدات والتقاليد التى توارثوها من قديم الزمان. حيث كان أجدادهم الأولون يتمتعون بنعمة الإبصار، بيد أنهم نبذوا تلك الأمور، باعتبارها أوهامًا ليس لها أساس من الصحة، واستبدلوها بتفسيرات جديدة وأكثر تعقلاً. ذلك أن كثيرًا من خيالهم أصابه الوهن مع ضعف أعينهم، وأصبحت لهم تصورات سمعية وحسية تعتمد على السمع واللمس الفائقين. وأدرك (نونيز)

هذا ببطء، وعرف أنه لن ينال دهشتهم واحترامهم، بسبب ما قص عليهم من نشأته ومواهبه، وأن هذا أمر بعيد الاحتمال. وبعد محاولته الساذجة لشرح حاسة الإبصار لهم، اعتبروا أن الأقوال التى كان يرددها عليهم، من أضاليل أوهام كائن حديث الصنع، ما زالت أفكاره غير مترابطة وأحاسيسه مشوشة. ومن ثم آثر أن يجلس على أريكة صامتًا، وأن يصغى إلى تعاليمهم باهتمام.

وشرح له شيخهم الكبير، أسرار الحياة والفلسفة وأصول الدين. فبين له كيف كان هذا العالم (وكان يقصد واديهم) فى عصور موغلة فى القدم، مجرد تجويف فارغ فى الصخور، ثم نشأت الجمادات التى ليس لها موهبة اللمس، وبعدها جاءت حيوانات "اللاما" وبعض الكائنات الأخرى، التى تتمتع ببعض الحس. ثم ظهر الناس، وأخيرًا الملائكة الذين تُسمع أناشيدهم وأصوات رفرفاتهم، لكن لا يمكن لأحد أن يلمسهم على الإطلاق. وحير هذا (نونيز) كثيرًا، حتى عرف أخيرًا أن الأمر قد استغلق عيهم فتصوروا أن الطيور المغردة، ملائكة.

واستطرد الشيخ فى حديثه، وأخبر (نونيز) كيف أن الزمن مقسم إلى دافئ وبارد (وهما المترادفان اللذان يطلقهما المكفوفون على النهار والليل). وقال بأنه من الأفضل النوم خلال الزمن الدافئ والعمل أثناء الزمن البارد. لذلك فلولا وصول (نونيز) لكان كل سكان بلد العميان، يغطون فى النوم. وأردف الشيخ بأنه لابد أنه قد خلق خصيصًا ليتعلم ويخدم الحكمة التى اكتسبوها. وعلى الرغم من أفكاره غير المترابطة وعثراته المتكررة، فإنه يجب عليه أن

يتشجع ويبذل كثيرًا من الجهد، كى يتعلم ويعرف الأشياء التى لا يعرفها. عندئذ تمتم كل القوم ـ الذين يقفون عند الباب ـ مشجعين. وقال الشيخ إن الليل قد تقدم بنا كثيرًا ـ وكان يقصد النهار إذ إنهم فى بلد العميان يدعون نهارهم ليلاً ـ ويفضل أن نذهب جميعًا إلى مضاجعنا. وسأل (نونيز) إذا كان يعرف كيف ينام، فقال (نونيز) إنه يعرف، بيد أنه فى حاجة إلى طعام قبل النوم.

فأحضروا إليه طعامًا ـ بعض لبن اللاما فى وعاء، وخبزا خشنا مملحا ـ وقادوه إلى مكان منعزل، ليأكل بعيدًا عن مسامعهم، وبعد ذلك خلدوا للنوم، حتى توقظهم برودة المساء فى الجبال، فيبدأون يومهم من جديد. ولكن (نونيز) لم يستطع النوم على الإطلاق. وبدلاً من أن ينام ظل جالسًا فى المكان الذى تركوه فيه يريح أطرافه.

ليفكر فى الظروف غير المتوقعة، التى لازمت وصوله إلى بلد العميان، ويضحك أحيانًا فى تفكه ويتملكه الغضب أحيانًا أخرى.

وقال (نونيز) فى نفسه : "عقل غير ناضج! ليس له حواس بعد! إنهم لا يدركون أنهم أهانوا ملكهم وسيدهم الذى بعثته السماء لهم نعمة ورحمة. لأهديهم سواء السبيل ولأعيدهم إلى صوابهم. دعنى أفكر فى أمرهم" وأخذ يقلب كفيه ويفكر فيما حوله، حتى غربت الشمس.

كان (نونيز) يستمتع بكل الأشياء الجميلة. فبدا له أن التألق الذى يعلو حقول الثلوج[١٤] والأنهار الجليدية، الممتدة إلى أعلى من

---

(١٤) سهول تغطيها الثلوج (المترجم).

كل جانب حول الوادى، لهو أروع ما شاهده فى حياته. ثم تحول نظره عن هذا البهاء الذى لا يضاهى، إلى القرية والحقول المروية، التى يزحف عليها الشفق، فانتابه فجأة إحساس قوى، فحمد الله من أعماق قلبه على نعمة الإبصار.

وسمع (نونيز) صوتًا يناديه من بعيد من خارج القرية، "(بوجوتا)! أين أنت؟ تعال هنا". عندئذ وقف وعلى وجهه ابتسامة، إنه سوف يثبت لهؤلاء القوم، مرة لا تتكرر، مدى قيمة النظر للإنسان. سوف يبحثون عنه ولكنهم لن يجدوه.

قال الصوت: "إنك لا تتحرك يا (بوجوتا)!".

فضحك فى سره وخطا بحذر جانبًا بعيدًا عن الممر، فسمع صوتًا يقول: "لا تطأ العشب يا (بوجوتا) فهذا ممنوع".

فوقف وقد تملكه العجب. إذ إنه لم يتسمع وقع أقدامه. وركض صاحب الصوت فى الممر الملطخ باللونين الأبيض والأسود، فعاد (نونيز) إلى الممر وقال: "هاأنذا".

وقال الرجل الكفيف : "لماذا لم تأت عندما ناديتك؟ أيجب علينا أن نقودك كالطفل؟ ألا تستطيع أن تسمع وقع أقدامك وأنت تسير بالممر؟".

فضحك (نونيز) وقال: "أستطيع أن أرى الممر".

فقال الرجل الكفيف بعد فترة صمت: "إن كلمة (أرى) لا وجود لها. فدع عنك هذه الحماقة واتبع وقع قدمىّ. سار (نونيز) من ورائه وفى نفسه بعض الغيظ وقال فى نفسه: "إن وقتى سيأتى لا محالة".

أجابه الرجل الكفيف: "ستتعلم. ثمة الكثير فى هذا العالم يجب أن يتعلمه الإنسان فى حياته".

"ألم تسمعوا بالمثل القائل (الأعور يصير ملكًا فى بلاد العميان).

فسأله الكفيف دون اكتراث دون أن يلتفت إليه. "ماذا تقصد بكلمة (العميان)؟".

وانقضت أربعة أيام، ولكنه لم يصبح ملكًا كما كان يتمنى. وأيقن أن آماله فى تنصيب نفسه، تكتنفها العديد من الصعاب، التى لم يكن يتصورها. ومن ثم أخذ يفكر فى "انقلاب" على الأوضاع الحالية ببلد العميان. وإلى أن يحين ذلك الوقت، أخذ يؤدى كل ما يكلف به من الأعمال، وتعلم أساليب حياتهم وعاداتهم. وقد وجد أن العمل والتجول ليلاً مزعج للغاية، ومن ثم قرر أن يكون ذلك أول ما يغيره.

كان قوم بلد العميان يعيشون حياة بسيطة ولكن فيها بعض المشقة، وكانوا يعرفون الفضيلة والسعادة، كما يفهمها سائر الناس. كانوا يمارسون أعمالهم ولكن دون أن يرهقوا أنفسهم، إذ كان لديهم ما يكفيهم من الغذاء والكساء، ولهم مواسم وأعياد وأيام للراحة. وكثيرًا ما كانوا يعزفون ويستمعون للموسيقى وكذلك كانوا يغنون. وعرفوا الحب وكان لهم أطفال صغار.

وتعجب (نونيز) من تلك الثقة والدقة، التى نظموا بها معيشتهم، وكأن كل شىء فى هذا الوادى قد رتب ليلائم احتياجاتهم ويقوم على خدمتهم. وكانت الممرات عندهم تتفرع من مركز منطقة

الوادى، بزاوية ثابتة مع باقى الممرات، ويتصل بعضها ببعض. كما كانت تميزها علامة خاصة عبارة عن عصا حادة عند الحاجز الأسمنتى. يمكنهم التعرف عليها بلمسها. وكانت قد أزيلت جميع العقبات من الممرات أو المروج، منذ زمن طويل، وبطبيعة الحال، قامت كل أساليب حياتهم لتخدم ظروفهم الخاصة. وقد أصبحت حواسهم مرهفة إلى درجة كبيرة، فكان فى استطاعة أحدهم أن يسمع ويميز أقل حركة لرجل على بعد نحو اثنتى عشرة خطوة،[١٥] حتى ليكاد يعد نبضات قلبه.

واستخدم ـ منذ وقت طويل ـ لفظ الصوت بوتيرة معينة واللمس، بدلاً من تعبيرات الوجه. وقد استخدموا فى فلاحة أراضيهم المعزقة[١٦] والمجرفة والشوكة، فى يسر وثقة كما تستعمل فى الحدائق. وكانت حاسة الشم عندهم فائقة، فكانوا يستطيعون تمييز الروائح المتباينة كما يفعل الكلب الأصيل. كما كانوا يعنون بتربية "اللاما" التى تعيش بين الصخور، وكانت تأتى إلى الجدار المحيط بالقرية، تلمساً للغذاء والمأوى. وقد تحقق (نونيز) أخيرًا من كفاية سكان وادى العميان ويسر حركاتهم ومقدرتهم التامة على القيام بكل ما يريدون.

ولم يتحدهم (نونيز) إلا بعد أن فشل فى إقناعهم، فحاول ـ فى البداية ـ أن يحدثهم عن الإبصار فى مناسبات عديدة، فقال: "انظروا هنا أيها الناس، ثمة أشياء فىّ لا تفهمونها".

---

(١٥) مقياس طول يعادل خمسة أقدام. والقدم يساوى نحو ثلاثين سنتيمترًا (المترجم).

(١٦) أداة زراعية ذات مسطح عريض تستخدم لإزالة الأعشاب الضارة وللحراثة (المترجم).

وقد استمع إليه عدد منهم، مرة أو مرتين، كانوا يجلسون ووجوههم منكسة ويديرون آذانهم إليه فى اهتمام. وبذل (نونيز) كل ما فى وسعه، يوضح لهم معنى الاستمتاع بنعمة الإبصار. ومن بين مستمعيه، كانت هناك فتاة تتميز بأن أجفانها أقل احمرارًا وغورًا عن غيرها، ويكاد الناظر إليها يعتقد أنها تغمض عينيها عن عمد. وأمل أن يقنع هذه الفتاة بالذات.

تحدث إليهم عن المتعة التى يحققها الإبصار، من حيث القدرة على التطلع إلى الجبال الشاهقة والسماء البديعة وشروق الشمس. كانوا يصغون إليه بانتباه، بيد أنهم لم يصدقوا كلمة واحدة من حديثه، ثم شعر بعد فترة بأنهم قد سئموا كلامه وتطرق إلى نفوسهم الملل.

وقالوا له بأنه ـ فى الحقيقة ـ ليس هناك جبال على الإطلاق، وإنما نهاية العالم هى نهاية تلك الصخور حيث ترعى حيوانات "اللاما" ، وفى ذلك المكان سقف مسامى للكون ومنه يتساقط الندى والانهيارات الجليدية. فلما قال لهم: إن الكون لا نهاية ولا سقف له كما توهموا . اتهموا أفكاره بالفساد. لقد حاول جاهدًا أن يصف لهم السماء والسحب والنجوم ولكن بلا جدوى، إذ بدت لهم هذه الأشياء فراغًا بغيضًا، وظلمة مروعة، مكان السقف الناعم الأملس الذى يعتقدون فى وجوده. وهكذا صدمهم فى عقيدتهم، بشكل ما. ومن ثم توقف عن محاولة شرح هذا الأمر، وحاول ـ فى المقابل ـ أن يبين لهم الفائدة العملية للإبصار. فذات يوم شاهد (بدرو) فى الممر المسمى "سبعةعشر" متجهًا إلى المنازل حتى فى وسط القرية، وكان

أبعد من أن يحسوه بأسماعهم أو يشموه بأنوفهم. فقال لهم متنبئًا: "سيصل (بدرو) بعد قليل". رد عليه رجل عجوز: "إن (بدرو) لا عمل له في هذا الممر". وكأنما كان (بدرو) يؤكد كلام الرجل العجوز، فقد انحرف في اللحظة نفسها إلى الممر "العاشر". وسار بخطوات سريعة نحو الجدار الخارجي.

وعندما لم يصل (بدرو) سخروا من (نونيز). ولما أبلغ (بدرو) فيما بعد أنه رآه يقترب منهم، أنكر ذلك وواجهه في جرأة، وبدأ يشعر بكراهية نحوه.

وأقنعهم (نونيز) بأن يدعوه يصعد لمسافة كبيرة حيث مروج المنحدرات، في اتجاه الجدار، ومعه أحدهم، ووعد بأن يصف كل ما يحدث بين منازل القرية. ووصف لهم بالفعل كل ما كان يحدث بعيدًا عنهم، ولكنهم سخروا منه وقالوا: إن هذا لا يعنيهم على الإطلاق، وإنما كانوا يريدون معرفة ما الذي يحدث داخل المنازل وخلف الجدران، فلما لم يستطع ازدادت سخريتهم. ثم رأى أن يجرب معهم القوة بعد فشله في هذه المحاولة وبعد ما لاقاه من سخرية، وفكر في أن يمسك بمجرفته ويضرب بها رجلاً أو رجلين منهم ويلقي به أرضًا، ليبرهن لهم على فائدة الإبصار وانساق بعيدًا وراء هذا القرار حتى إنه أمسك بمجرفته، ولكن نفسه أبت أن يخالف طبيعته الإنسانية، ويعتدي على رجل ضرير على غرّة. لذلك تردد لهنيهة ووجد أنهم جميعًا أدركوا أنه اختطف مجرفة، فوقفوا منتبهين محترسين، وقد مالت رؤوسهم إلى جانب واحد، وآذانهم متجهة صوبه، منتظرين ما قد يفعله بعد ذلك.

صاح أحدهم: "ضع هذه المجرفة على الأرض". فأحس (نونيز) فى نفسه شيئًا من الرعب واليأس، وكاد أن يخضع لأمرهم، ولكنه دفع كفيفًا منهم إلى جدار أحد المنازل، ومرق من جانبه وولىّ هاربًا إلى خارج القرية.

سار إلى أحد المروج مسرعًا، ثم استوى جالسًا إلى جانب واحد من ممراتهم، بعد أن ترك آثارا لقدميه على العشب الذى وطأه. وأحس بشىء من القوة الدافعة، التى تنتاب كل الأشخاص عند بداية القتال، ولكن كانت تشوبها الحيرة والارتباك. وبدأ يدرك أن المرء لا يستطيع أن يحارب بشرفه من يختلف معه فى طريقة التفكير. وعندما رفع رأسه، أبصر ـ على مسافة بعيدة ـ جماعة من الرجال يحملون فئوسًا وعصيًا، وقد أقبلوا من أحد ممرات القرية، وكانوا يسيرون فى صف منتشر فى اتجاهه، عبر عدد من الممرات. كانوا يتقدمون ببطء، ويتحدثون كثيرًا فيما بينهم، وكان الرجال يقفون بين فترة وأخرى ليتشمموا الهواء ولينصتوا. وضحك (نونيز) أولاً عندما شاهدهم على هذا النحو، لكنه لم يضحك فيما بعد.

واكتشف أحدهم آثار قدميه على العشب، فانحنى وهو يتحسس طريقه، مقتفيًا هذه الآثار. وظل (نونيز) يتابع تقدمهم البطىء لمدة خمس دقائق، ثم انتابه إحساس قوى بأنه يجب أن يبذل جهده للدفاع عن نفسه. وقف وسار خطوة أو نحوها فى اتجاه الجدار المحيط بالقرية، ثم استدار ورجع لمسافة قصيرة، عندئذ وقفوا جميعًا فى صمت وانتظار متخذين شكل هلال وأصغوا. كان هو أيضًا يقف ساكنًا وهو لا يزال يمسك بمجرفته بإحكام شديد بكلتا يديه. وتساءل فى نفسه: "هل أهاجمهم؟". وأحس بأن النبضات فى

آذنيه تشكل هذه الكلمات: "الأعور يصير ملكًا فى بلاد العميان". وتساءل من جديد هل يهاجمهم؟

نظر إلى الجدار الذى يقع خلفه، فبدا له أملس للغاية ولا يمكن تسلقه، ولكن بالرغم من ذلك، كان يتخلله العديد من الأبواب الصغيرة، وتقدم نحوه بعض الذين كانوا يقتفون أثره وتبعهم آخرون قادمون من الممر الذى بين المنازل.

فهل يهاجمهم؟

صاح أحدهم: "(بوجوتا)! (بوجوتا)! أين أنت؟".

فشدد قبضته على المجرفة، وتقدم عبر المروج إلى القرية، وما إن تحرك حتى تجمعوا وتبعوه، وأقسم فى نفسه: "لو لمسونى فسوف أضربهم وحق السماء سأفعل".

تقدم فى اتجاههم وصاح بأعلى صوته: "سأفعل ما أريد فى هذا الوادى. أتسمعون؟ سأفعل ما يحلو لى، وأذهب إلى حيث أشاء".

كانوا يتحركون نحوه بسرعة، وهم يتحسسون طريقهم إليه. وكان الأمر يماثل لعبة "الغُمَيْضة" إلا أن فيها قد عصبت أعين اللاعبين جميعًا ما عدا واحدًا وصاح أحدهم: "أمسكوا به". ووجد (نونيز) أن مهاجميه المكفوفين يكادون أن يحيطوا به، وشعر فجأة أن عليه استجماع نشاطه واتخاذ قرار جد سريع.

صاح بصوت أراد أن يكون قويًا وحازمًا، ولكنه أصبح متهدجًا رغمًا عنه: "إنكم لا تفهمون! أنتم عميان وأنا مبصر! فدعونى وشأنى!".

قال أحدهم: "(بوجوتا)! ألق هذه المجرفة وابتعد عن العشب!".

جعله ذلك الأمر الأخير، يستشيط غضبًا، فصاح بقمة انفعاله: "سيصيبكم منى أذى كبير. وحق السماء، سأوذيكم لو اقتربتم منى. فدعونى وحدى!".

وأخذ يركض، وهو لا يعرف إلى أين يتجه، وتحاشى أن يمس أحدهم بسوء. توقف وهو يلهث واستدار ليهرب من صفوفهم التى تدنو منه بسرعة، وجرى إلى ثغرة متسعة بين أجسامهم المتراصة، وما إن أحس الرجلان على جانبى الثغرة باقتراب خطواته، حتى اندفع كل منهما فى اتجاه الآخر، يريدون إلقاء القبض عليه ، ولكنه قفز إلى الأمام. ولما رأى أنه واقع لا محالة فى قبضة أيديهم، ضرب أحدهم بالمجرفة، فسقط الكفيف على الأرض وهو يصرخ من شدة الألم، وانفلت (نونيز) هاربًا من الثغرة.

وبعد قليل وجد نفسه قريبًا من الشارع ذى المنازل من جديد، وشاهد هناك عميان يمسكون بالفئوس والعصى ويركضون بسرعة هنا وهناك. وسمع وقع خطوات تعدو خلفه، فالتفت ليرى رجلاً طويل القامة يجرى وراءه، ويضرب فى اتجاه صوته، ففقد أعصابه وقذف الرجل المهاجم بالمجرفة ولكنها أخطأته. فصاح (نونيز) عندما استطاع أن يتفادى ضربة وجهها إليه الرجل، ثم ولى هاربًا، انتابه خوف شديد. وأخذ يركض هنا وهناك فى اضطراب، وتعثر عدة مرات بسبب حرصه على أن يرى فى جميع الاتجاهات من حوله فى الوقت نفسه. وعندما سقط فى أحد الممرات، سمعوا

صوت سقوطه. وبعيدًا عن الجدار المحيط بالقرية، ظهر له باب صغير كأنما هو باب الجنة!

فهرع إليه مندفعًا بعنف. ولم يلتفت حتى إلى مطارديه إلا بعد أن وصل إلى الباب. ثم اجتازه وعبر الجسر وهو يتعثر وتسلق بعض الصخور إلى مسافة قصيرة. وهناك أفزع حيوان صغير من "اللاما"، فقفز بعيدًا وتوارى عن الأنظار. وارتمى (نونيز) على الأرض وهو لا يكاد يسترد أنفاسه.

وهكذا انتهى الانقلاب الذى كان ينويه!

وظل خارج الجدار الذى يحيط بوادى بلد العميان، ليلتين ونهارين بلا طعام أو مأوى، وخلال هذه الفترة أخذ يفكر فى مستقبله ويقلب الأمر على مختلف نواحيه. ودارت بذهنه شتى الأفكار واستعاد مرارًا وتكرارًا فى لهجة ساخرة (الأعور يصير ملكًا فى بلاد العميان)، واستعرض فى ذهنه - بشكل أساسى - الطرق الكفيلة بمحاربة هؤلاء القوم والتغلب عليهم. وتبين له أنه من المستحيل تحقيق هذا الأمر. إذ لم يكن يمتلك سلاحًا، وفى الوقت الحاضر، لن يتمكن من الحصول عليه. وكان (نونيز) رجلاً متحضرًا فلم تسول له نفسه أن يقتل رجلاً فاقد البصر. ولو فعل ذلك لربما استطاع أن يملى شروطه، وإلا كان مصيرهم القتل جميعًا. ولكن - عاجلاً أو آجلاً - كان يجب عليه أن ينام. وعبثًا حاول أن يبحث عن طعام بين أشجار الصنوبر، وأن يجد مأوى تحت أغصانها الرئيسية، لحمايته من الثلوج المتساقطة أثناء الليل.

حاول أن يصطاد واحدة من "اللاما" ليأكل بعض اللحم منها، إلا أن "اللاما" كانت تشك فيه وترنو إليه بعيون رمادية مرتابة، وكانت تبصق عندما يقترب منها! سيطر عليه الخوف فى اليوم الثانى فوجد نفسه ينتفض من الجوع واستولى عليه الرعب، فزحف حتى جدار أرض العميان، وحاول أن يصل إلى اتفاق معهم، ثم سار بإزاء النهر. وأخذ يصيح، حتى جاء رجلان كفيفان إلى البوابة وتحدثا إليه.

قال لهما: "كنت مجنونًا، ولكنى معذور لأنى حديث الصنع ناقص التكوين".

فقالا: "إن ذلك أفضل". وأبدى أسفه وأقر بأنه أصبح أكثر تعقلاً عن ذى قبل، وأنه نادم على ما فعل، وذرف الدموع رغمًا عنه، فقد كان بالغ الضعف وفى حالة يرثى لها. وأحس الرجلان من بكائه بأن هذا دليل مشجع على توبته، وسألاه هل لا يزال يظن أنه يستطيع أن "يرى". فأجاب: "كلا"! كان ذلك حماقة منى. فالكلمة لا معنى لها. وهى أقل من لا شىء!".

وسألاه عما يوجد فوقنا. قال: "يوجد سقف صخرى ناعم للغاية يظلل العالم، ويبعد نحو مائة قامة.. ثم انفجر فى البكاء من جديد، وصاح قائلاً: "قبل أن تسألونى ثانية أدركونى ببعض الطعام وإلا مت جوعًا".

توقع (نونيز) عقابًا صارمًا، لكن هؤلاء العميان كانوا قادرين على التسامح، ومن ثم عفوا عنه.

واعتبروا أن عصيانه دليل على بلاهته وضعف عقله، واكتفى ببعض الضربات بالسوط على جسمه، ثم كلفوه أن يقوم بأبسط

الأعمال لديهم وأثقلها فقام بها، ولما لم يجد وسيلة أخرى للحياة. قام بما طلبوه منه. واتضح له أن هذه هى الطريقة الوحيدة التي يستطيع بها أن يعيش مع هؤلاء القوم.

مرض فلزم الفراش لعدة أيام، فكانوا يرعونه ويعطفون عليه. وشكرهم لهذا. لكنهم أصروا على أن يرقد فى الظلام وسبب له ذلك بؤسًا شديدًا. ولما تم شفاؤه نادوا حكماءهم العميان، فأخذوا يلومونه على ما بدر منه بطريقة مؤثرة، وعرضوا لشكه فى سقف العالم، ووبخوه بعنف على هذا الهذيان، الذى يجعله لا يدرك وجود ذلك الغطاء الكونى.

وهكذا أصبح (نونيز) مواطنًا صالحًا فى بلد العميان. وبدأ يألف القوم ويألفونه. فى الوقت الذى صار فيه العالم فيما وراء الجبال نسيًا منسيًا وأكثر غموضًا وبعدًا عن الحقيقة. وكان يعمل لدى (ياكوب) ـ سيده ـ وكان رجلاً كريمًا عطوفًا عندما لا يكون غاضبًا. وكان هناك (بدرو) ابن أخى (ياكوب)، كما تعرّف على (ميدينا ساروتى) أصغر بنات (ياكوب)، ولم تكن تلقى إعجابًا من العميان. لأن وجهها كان حاد التقاطيع، ليس فيه تلك النعومة التى يعدونها مثلهم الأعلى فى الجمال. وقد بدت جميلة الوجه لما رآها (نونيز) ثم اعتبرها ـ فيما بعد ـ أجمل إنسان لديه. لم تكن جفناها المطبقتان غير غائرتين أو حمراوين كالشائع بين مواطنى بلد العميان، بل كانتا تبدوان وكأنما هما على وشك أن تتفتحا فى وقت ما. وكانت أهدابها طويلة. وهذه من علامات القبح عندهم، أما صوتها فكان خشنًا وقويًا. لا يرضى السمع المرهف للشباب فى القرية، ومن ثم لم يكن لها حبيب.

وجاء وقت اعتقد فيه (نونيز) أنه لو استطاع كسب مودتها، لروّض نفسه على الحياة فى الوادى بقية عمره. وظل (نونيز) يراقب الفتاة وينشد المناسبات لكى يقدم لها بعض الخدمات الصغيرة. وسرعان ما اكتشف أنها تلحظه. وذات يوم فى تجمع يوم الراحة، جلسا جنبًا إلى جنب فى ضوء النجوم الخافت، ومن حولهما أنغام عذبة من الموسيقى الساحرة.وجاءت يده على يدها وجرؤ على أن يمسك بها. وضغطت على يده بدورها فى رقة بالغة. وفى يوم آخر كانا جالسين يتناولان الطعام فى الظلام أحس بيدها الناعمة تبحث عن يده. وتصادف عندئذ أن توهجت نيران المدفأة فرأى فيها بعض معانى الحنان والرقة. وكان يسعى دائمًا للتحدث معها. فذهب إليها يومًا ما، وقد جلست تغزل فى ضوء القمر صيفًا. وقد جعل منها الضوء كائنًا فضيًا غامضًا. جلس عند قدميها وقال لها: إنه يحبها، وإنها كم تبدو رائعة الجمال. وكان له صوت إنسان يحب، وكان يتحدث إليها باحترام وعطف أقرب إلى الرهبة ولم تكن قد لقيت إعجابًا من قبل، فلم تجبه إجابة قاطعة، بيد أنه كان واضحًا أن كلامه أدخل السرور إلى قلبها.

وبعد هذا، تحدث إليها كلما كانت الظروف سانحة، وأصبح الوادى كل دنياه. أما العالم فيما وراء الجبال، حيث يعيش الناس فى ضوء الشمس، ليس أكثر من حكاية خرافية سوف يقصها عليها فى يوم ما، حاول (نونيز) بصوت متردد ومفتقر للثقة، أن يصف لها حاسة الإبصار. وكانت حاسة الإبصار ـ فى رأيها ـ من أفضل الأوصاف الشاعرية والخيالية. كانت تصغى إليه وهو يصف النجوم والجبال وجمالها الأخاذ الذى يشع بهاء، ولكنها لم تصدقه، وإن

استطاعت أن تفهم بعض الأشياء إلى حد ما، وكان يعتريها سرور داخلى غامض. بيد أنه خيل إليه أنها تفهمه تمامًا.

ولم يعد حبه يتسم بالرهبة، ومن ثم واتته الشجاعة، لكى يطلب يدها من والدها (ياكوب) والشيوخ، ويصبح زوجًا لها. ولكن الفتاة أظهرت تخوفًا ومماطلة. وكانت إحدى شقيقاتها هى أول من أبلغ (ياكوب) أن (مدينا ساروتى) و(نونيز) يحب بعضهما بعضًا.

كانت ثمة معارضة قوية ـ من أول الأمر ـ لزواج (نونيز) و(مدينا ساروتى) ولم يكن هذا بسبب تقديرهم لها، بل لأنهم اعتبروه مخلوقًا غريبًا وأبله، يقل عن أدنى مستويات الإنسان. واعترضت شقيقاتها بشدة على هذا الزواج، لأنه سوف يجلب العار عليهم جميعًا. وعلى الرغم من أن (ياكوب) العجوز كان قد بدأ يميل إلى خادمه الأخرق الأمين، فإنه هز رأسه وقال: إن هذا الزواج لا يمكن أن يتم. أما بقية شباب القرية، فقد ثاروا عند سماعهم هذا الخبر، وكان غضبهم بسبب فكرة إفساد الجنس، وتمادى أحدهم حتى إنه هاجم وضرب (نونيز)،الذى رد هذا الاعتداء بعنف، ولأول مرة استفاد من حاسة الإبصار لديه. ولم يجرؤ أحد أن يهاجمه بعد هذه المعركة. لكنهم ظلوا يعتقدون أن زواجهما مستحيل.

وكان (ياكوب) العجوز يحب أصغر بناته كثيرًا، وانتابه الحزن عندما وجدها تبكى على كتفه. وقال لها: "أنت تعرفين يا عزيزتى أنه أبله. وأن عقله ملىء بالأوهام والضلالات. ولا يستطيع أن ينجز عملاً على الوجه الصحيح".

بكت (مدينا ساروتى) وقالت من بين عبراتها: "أعرف ذلك. لكنه الآن أفضل مما كان. وحالته فى تحسن مستمر. إنه قوى يا أبى. وحنون، أقوى وأكثر حنانًا من أى رجل فى العالم. وهو يحبنى وأنا أحبه".

حزن (ياكوب) العجوز حزنًا شديدًا، حينما وجد أنها لن تنساه. هذا إلى جانب أنه كان يحب (نونيز) لأمور عديدة. مما زاد من حزنه. لذا فقد توجه إلى مجلس الشورى الخالى من النوافذ، فاجتمع مع الشيوخ الآخرين وراقب اتجاه المناقشات ثم قال فى الوقت المناسب: "لقد تحسن (بوجوتا) وأصبح أفضل مما كان. وهناك احتمال كبير أنه فى يوم ما سيصبح سليم العقل مثلنا".

وبعد ذلك، طرأت لأحد الشيوخ فكرة، بعد أن فكر فى الأمر مليًا، وكان هذا الشيخ طبيبًا عظيمًا بين هؤلاء القوم، وكان هو النظامى البارع، وكان له عقل فلسفى مبدع. وقد راقت له فكرة علاج (نونيز) مما يعانيه من أفكار غريبة. وذات يوم عاد إلى إثارة موضوع (نونيز) وقال: "لقد فحصت (بوجوتا)، وأصبحت حالته أكثر وضوحًا لى. والرأى عندى أن هناك احتمالا كبيرا أن يشفى".

فقال (ياكوب) العجوز: "هذا ما كنت أتمناه دائمًا".

رد عليه الطبيب الكفيف قائلاً: "إن عقله مريض". وتمتم الشيوخ بالموافقة ثم استطرد بقوله: ".. ولكن ما الذى يؤثر فى عقله؟".

وقال (ياكوب): "آه".

فقال الطبيب الكفيف رداً على السؤال الذى طرحه هو نفسه: "إن هذه الأشياء الغريبة التى يطلق عليها (أعين)، والتى وجدت لتحدث فى الوجه انخفاضًا رقيقًا ملائمًا، هى - فى حالة (بوجوتا) - قد أصابها المرض ومن ثم أصبحت تؤثر على عقله. فإنها منتفخة إلى حد كبير، كما أن لها أهدابًا بالإضافة إلى أن جفونها تتحرك، مما أدى إلى أن يصبح عقله فى حالة اضطراب وتشتت".

قال (ياكوب): "أجل؟ أجل؟".

استطرد الطبيب الكفيف قائلاً: "أعتقد أنه يمكن أن أقول بثقة إننا فى حاجة إلى إجراء عملية جراحية بسيطة وسهلة. لإزالة هذه الأجسام الغريبة، وهكذا يشفى تمامًا".

فقال (ياكوب): "أشكر السماء على نعمة العلم".

وبادر إلى (نونيز) يزف إليه هذه البشرى، إلا أن (ياكوب) لم يجد استجابة لهذه الأخبار السعيدة، بل إن (نونيز) أبدى له فتورًا مخيبًا للأمل. فقال (ياكوب): "قد يعتقد أى إنسان من لهجتك أنك لا تهتم بابنتى".

وكانت (مدينا ساروتى) هى التى حاولت إقناع (نونيز) بمواجهة الطبيب الكفيف.

قال لها (نونيز): "أتريدين لى أن أفقد نعمة البصر؟" فهزت رأسها ولم تجب بشىء

فقال لها: "إن الإبصار هو العالم كله بالنسبة لى". فطأطأت رأسها فى حيرة.

واستطرد قائلاً: "... ثمة أشياء جميلة فى هذا العالم، أشياء صغيرة رائعة، الزهور التى تنمو بين الصخور، وخفة قطعة من فراء الحيوان ونعومتها، والسماء مترامية الأطراف والسحب البعيدة ومشهد غروب الشمس وتوهج النجوم. وهناك أنت. أفضل أن أكون مبصرًا من أجلك وحدك. حتى أشاهد وجهك رائع الجمال وشفتيك الرقيقتين ويديك الحبيبتين مطويتين بعضهما على بعض. إن هاتين العينين اللتين يريد أولئك البلهاء انتزاعهما. هما اللتان تربطانى بك. وبدلاً من ذلك فعلىّ أن ألمسك وأستمع إليك ولكن لا أراك أبدًا. وأن أنطوى تحت هذا السقف من الصخر والحجر والظلام، ذلك السقف المروع الذى يحط من خيالكم. كلا، إنك بالتأكيد لا تودين أن أفقد نعمة الإبصار".

انتابه شك بغيض، ومن ثم توقف عن الحديث وترك الموضوع الذى كانا يتناقشان فيه قالت: "أتمنى أحيانًا..." ثم صمتت.

فقال بشىء من التوجس: "نعم".

"أتمنى أحيانًا.. أنك لا تتكلم بهذه الطريقة".

"أية طريقة؟".

"أعلم أنه شىء جميل.. وأنه خيالك.. وأنا أحبه.. لكن الآن..".

شعر بقشعريرة فقال فى صوت واهن: "الآن..".

جلست صامتة ساكنة..

"هل تعنين.. أنك تعتقدين.. أننى أكون أفضل.. ربما أفضل".

كانت الأمور تتضح أمامه لحظيًا، فانتابه الغضب للمسارات

الكئيبة التى يتخذها أحيانًا القدر، لكنه كان يشعر بالشفقة أيضًا لعدم قدرتها على الفهم، كانت شفقة أقرب إلى الرثاء.

قال لها: "أيتها العزيزة" ثم تمكن أن يدرك من شحوب وجهها، كم تضغط روحها بشدة لعدم البوح بأمور تريد أن تقولها. فأخذها بين أحضانه وقبلها فى أذنها. وجلسا صامتين.

وأخيرًا قال لها بصوت بالغ الرقة: "وإذا ما وافقت على ذلك؟".

فطوقته بذراعيها الناعمتين وأخذت تذرف الدموع بتشنج وهى تقول: "آه، لو توافق، فقط لو توافق".

ولم يغتمض جفن (نونيز) طوال الأسبوع الذى سبق موعد العملية الجراحية، التى من حضيض العبودية والانحطاط إلى مرتبة المواطن الأعمى. وبينما ينام الآخرون ملء جفونهم فى سعادة خلال ساعات النهار الدفيئة. كان يقلب كفه ويفكر مليًا أو يهيم فى القرية بلا هدف، محاولاً أن يُعمل عقله لكى يواجه هذه المشكلة الكبيرة. فقد أعطاهم كلمته ووافق على العملية الجراحية، بيد أنه كان لا يزال غير واثق. وأخيرًا انتهى وقت العمل، وأشرقت الشمس فى بهاء فوق القمم الذهبية للجبال والصخور، وبدأ آخر أيامه وهو متمتع بنعمة الإبصار. وتحدث إلى (مدينا ساروتى) لعدة دقائق، قبل أن تذهب للنوم.

قال لها: "غدًا لن أرى شيئًا".

فصاحت وهى تضغط يديه بكل قوتها: "أيها الحبيب الغالى! إنهم لن يسببوا لك إلا ألمًا بسيطًا. وسوف تتمكن من التغلب على

هذا الألم. إنك سوف تجرى العملية من أجلى أنا. أيها الحبيب العزيز، سأعوضك بقلبى وحياتى، لو كان قلب المرأة وحياتها تعوضك عما فقدته، أيها الحبيب ذو الصوت الرقيق، سأكافئك".

شعر بإشفاق بالغ عليها وعلى نفسه. وضمها بين ذراعيه وقبلها وهو ينظر إلى وجهها للمرة الأخيرة، وهمس إلى تلك الحبيبة بالغة الرقة: "الوداع.. الوداع".

ثم ابتعد عنها فى صمت. وتنامى إلى سمعها صوت خطواته البطيئة المبتعدة، وكان فى إيقاع خطواته، ما جعلها تجهش بالبكاء.

ولم يكد يعنى إلا أن يذهب إلى مكان منعزل، حيث تتخلل المروج، زهور (النرجس) ذات الأزهار البيضاء، تضفى عليها جمالاً أخاذًا. فيبقى هناك حتى تأتى ساعة تضحيته بنعمة الإبصار. ولكن بينما كان يسير، رفع بصره وشاهد الصباح وكأنه ملاك يرتدى درعًا ذهبيًا وينساب هابطًا عبر المنحدرات.

وبدا له أنه هو وعالم العميان الذى يقطن الوادى، وحبه وكل شىء، ليست سوى خطيئة أمام هذا البهاء. ولم يسر جانبًا كما كان ينوى، بل اتجه إلى الأمام ومر من الجدار المحيط بالوادى، إلى الخارج حيث الصخور. ولم يحد بعينيه عن الثلوج والجليد الذى يتألق تحت أشعة الشمس. وشاهد جمالها الأبدى وطار به خياله إلى ما وراءها من مشاهد لن يراها أبدًا.

وفكر فى ذلك العالم العظيم الطليق الذى افترق عنه، كانت هذه هى دنياه الرائعة. وكان بمقدوره أن يرى بعين خياله تلك المنحدرات النائية التى تمتد لمسافات شاسعة تتوسطها مدينة (بوجوتا)، تلك

المدينة رائعة الجمال متعددة المباهج، فهى بهاء فى النهار، وغموض متألق فى الليل، إنها مدينة القصور والينابيع والتماثيل والمنازل ناصعة البياض. وفكر فى آن الإنسان قد يقضى يومًا أو يكاد، وهو يخترق ممرات مقتربًا حثيثًا من شوارعها وطرقاتها المزدحمة، كما فكر فى الرحلة النهرية، التى قد تستغرق عدة أيام من (بوجوتا) إلى العالم الرحب الذى يقع وراءها، خلال مدن وقرى وغابات وصحارٍ، وعبر النهر المتدفق دائمًا، حتى تتباعد ضفتاه، حيث تمخر عبابه السفن الكبيرة، ثم يصل المسافر إلى المحيط الذى يبدو أن لا حدود له، وتتناثر فيه آلاف الجزر، وحيث تظهر السفن غير واضحة على البعد ـ وكأنها فى غلالة ـ وهى فى رحلاتها التى لا نهاية لها، حول هذا العالم العظيم.

وهناك يرى المرء السماء ـ حيث لا توجد جبال ـ ليس على شكل قرص دائرى، كما يراها هنا، ولكن قبة زرقاء غير محدودة، لها أعماق مروعة حيث تدور الكواكب السيارة، وتفحصت عينا (نونيز) الحاجز الجبلى الهائل، بإمعان شديد، فمثلاً لو سار شخص ما فى هذا الاتجاه، وصعد هذا الأخدود إلى ذلك الصدع بين الصخور، فعندئذ قد يصل إلى أشجار الصنوبر الباسقة، التى تمتد كنتوء عملاق وتعلو إلى ارتفاع كبير فوق الممر الضيق. وماذا بعد ذلك؟ ربما يمكن اجتياز ذلك المنحدر الجدارى. وربما يوجد ثمة مكان يصعد منه إلى تلك الكتلة الصخرية البارزة وشديدة الانحدار، التى تقع أسفل منطقة الجليد. ولو فشل فى تسلق ذلك الصدع، فقد يكون الصدع الآخر الأكثر بعدًا إلى الشرق أسهل تسلقًا. وماذا بعد؟

ثم يصل المرء إلى المنطقة التى تعلو الجليد، الذى يتألق بفعل ضوء كهرمانى[١٧]، فى منتصف المسافة إلى قمة هذه الجبال المقفرة.

نظر إلى قرية العميان ثم استدار وحدق فيها بشدة، وفكر فى (مدينا ساروتى)، ولكنها كانت قد أصبحت بالغة الضآلة. ثم استدار من جديد إلى حيث الجدار الجبلى الذى انبلج عليه النهار من فوقه، وبدأ يتسلقه بحذر بالغ. وعندما حان وقت غروب الشمس، كان قد توقف عن التسلق، وأصبح على ارتفاع شاهق. وكانت ملابسه ممزقة وأطرافه مغطاة بالدم، وقد جُرح فى عدة أماكن من جسده، لكنه استلقى على الجليد كما لو كان مرتاح البال، وافتر ثغره عن ابتسامة. ومن المكان الذى كان يستريح فيه (نونيز) كان وادى العميان يبدو كما لو كان فى حفرة عملاقة. وكان يبعد حوالى ميل إلى أسفل. وكان الهواء معتمًا بالغمام والظلال، على الرغم من أن قمم الجبال المحيطة به، كانت مثل أجسام من الضوء والنار، وكانت تفاصيل الصخور القريبة منه ذات جمال أخاذ، وبجانبها أبصر عرقًا معدنيًا أخضر يخترق الصخور، وتألقت بللورات المعدن هنا وهناك، وكانت هناك نباتات "الأشنة" - التى تتكون من الطحالب والفطريات - بلونها البرتقالى الرائع، بالقرب من وجهه.

وكان الممر الضيق بلون أزرق يتحول أحيانًا إلى أرجوانى. وإلى أعلى كانت السماء اللامحدودة تلقى بضيائها، لكنه لم يكترث بكل

---

(١٧) لون أصفر محمر (المترجم).

هذه الأشياء، بل استلقى هناك ساكنًا مبتسمًا وكأنما هو قانع لمجرد أنه تمكن من الهرب، من بلد العميان، الذى ظن فى وقت ما أنه يمكنه أن يكون ملكًا عليها. وتلاشى وهج الغروب، وهبط الليل وما زال (نونيز) يرقد فى وداعة ورضا تحت النجوم الباردة.

البكتيريا المسروقة

قال العالم البكتيرى[١] ، وهو يولج شريحة زجاجية صغيرة تحت المجهر: "هذا مستحضر حيوى لبكتيريا (العُصَيّة) الشهيرة المسببة لمرض الكوليرا .. جرثومة الكوليرا" .

حدّق الرجل ذو الوجه الشاحب الذى نظر إلى أسفل فى المجهر.. من الواضح أنه ليس معتادًا على هذا النوع من الأجهزة، ووضع يده البيضاء النحيلة على عينه الحرة وقال: "إننى أكاد لا أرى شيئًا" .

قال العالم البكتيرى: "المس هذا المسمار الملولب.. لعل المجهر غير مضبوط البؤرة بالنسبة لك.. فعينا كل إنسان تختلفان إلى حد كبير عن أى عيون أخرى.. أنت محتاج للفه لفَّةً صغيرة فى هذا الاتجاه أو ذلك" .

قال الزائر: "آه! نعم أرى الآن!.. لكن ليس كثيرًا جدًا على أى حال.. مجرد خيوط قصيرة ومزقات طولية ذات لون أحمر وردى..

---

(١) خبير بعلم الجراثيم (المترجم).

وحتى هذه الجسيمات الدقيقة وتلك الكائنات الضئيلة يمكن أن تتكاثر وتهلك مدينة بأسرها.. ياللعجب العجاب!".

ثم وقف وأخرج الشريحة الزجاجية من مكانها بالمجهر، وأمسكها بيده موجهًا إياها تجاه النافذة.. وقال وهو ينعم النظر فى المستحضر الحيوى: "إنه يُرى بصعوبة.." ثم تردد برهة وأردف":.. لكن، هل هو حىّ؟.. وهل يمثل خطورة الآن؟" قال العالم البكتيرى "تلك الجراثيم تم تلوينها بالصبغ وقتلها.. وأتمنى شخصيًا أن نلوّن ونقتل كل جرثومة منها فى الكون".

قال الرجل الشاحب وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة: "أظن أنك تهتم بالحفاظ على تلك الأشياء التى لديك حية.. أقصد فى الحالة النشطة؟".

قال العالم البكتيرى: "بالعكس.. نحن مضطرون إلى ذلك.. فمثلاً هنا..."، وعبر الغرفة وأخذ واحدة من مجموعة أنابيب مغلقة بإحكام".. هنا يوجد هذا الشىء الحى.. انه مستنبت للبكتيريا المسببة للمرض"..، وصمت لبرهة وأردف": .. إنها كوليرا معبأة، إذا جاز طبعًا هذا التعبير".

رانت فجأة على وجه الرجل الشاحب مسحة خفيفة من الرضى، وقال وهو يلتهم الأنبوب الصغير بعينه: "لقد أصبح بحوزتك كما أرى سلاحًا مميتًا!". ولاحظ العالم البكتيرى تلك المتعة السوداوية فى تعبير ضيفه..فهذا الرجل الذى زاره بعد ظهر ذلك اليوم، ومعه رسالة تقديم قصيرة من صديق قديم له، قد شد انتباهه بسبب التباين الواضح بين طباعهما.. الشعر الأسود الناعم المسترسل،

العينان الرماديتان الداكنتان. التعبير الشرس والعصبية، الاهتمام المتشنج الغريب للزائر بالجراثيم.. كل ذلك يعتبر تغييرًا جوهريًا عن التروى البارد للباحثين والعلماء العاديين الذين يتعامل معهم العالم البكتيرى بصفة أساسية. ولعله كان من الطبيعى، فى وجود شخص مهتم للغاية بالطبيعة المهلكة لهذا الجانب العلمى، التصرف بقدر كبير جدًا من المرونة والحذر.

أمسك الأنبوب فى يده، وهو مستغرق فى أفكاره، وقال: "نعم، هنا يُسجن المرض الوبائى القاتل.. ما عليك إلا أن تكسر هذا الأنبوب الصغير فى مياه شرب جارية.. وتوجه حديثك لتلك الجسيمات فائقة الصغر من الكائنات الحية - التى يحتاج المرء عادة إلى صبغات لتلوينها ثم فحصها بأقصى المجاهر قدرة على التكبير حتى يمكن رؤيتها، والتى ليس لها رائحة ولا طعم - وتقول لها: "امضى فى طريقك.. انتشرى وتكاثرى وتضاعفى واملئى صهاريج الماء وخزاناته! "وعندئذ يسرى فى أرجاء هذه المدينة موت غامض لا يمكن تتبع خطواته.. موت سريع ومروع.. موت يمتلئ بالألم والهوان.. موت نَهِم ينطلق هنا وهناك فى بحث لا يتوقف عن ضحاياه.. وهنا ستراه ينتزع الزوج من زوجته، والطفل من أمه، والسياسى من واجبه وعمله، وكل العاملين والكادحين من مهامهم التى يضطلعون بها.. وهذا الوباء يمكنه تتبع إمدادات المياه ومصادرها وحتى الزحف فى الشوارع، ويعاقب أى منزل هنا وهنا لا يقوم بغلى ماء الشرب.. ثم لا يلبث أن يزحف إلى داخل آبار صانعى المياه المعدنية.. ويتغلغل فى السلاطة التى نأكلها.. ويستقر كامنا فى الثلج والجليد. وبإمكانه أن ينتظر حتى تشربه الخيول فى أجرانها

ومعالفها، والأطفال الغافلون من الصنابير وفوهات المياه العامة.. وبمقدوره أن يتغلغل فى التربة ليظهر من جديد فى ينابيع الماء وآباره فى آلاف الأماكن غير المتوقعة.. فبمجرد إلقائه فى مصادر المياه وإمداداتها، وقبل أن نستدعيه أو نقبض عليه مرة أخرى، فإنه ينجح فى إهلاك المدينة بأسرها تقريبًا..".

توقف العالم فجأة.. عندما تذكر ما يقال له عادة من أن نقطة ضعفه هى البلاغة وفن الخطابة!.. ثم استطرد: ".. لكنه هنا فى أمان بالطبع، كما تعرف.. فى أمان تام".

هز الرجل شاحبُ الوجه رأسَه ولمعت عيناه، وتنحنح ثم قال: "إذن هؤلاء المتمردون والفوضوين والأوغاد حمقى، وفى غاية الغباء لكى يستخدموا قنابل ومتفجرات، فى الوقت الذى لديهم فيه مثل تلك الأشياء.. وأنا أعتقد.....".

سمعا صوت طرقات خافتة بأظافر الأصابع على باب الحجرة.. وفتح العالم البكتيرى الباب.. وقالت له زوجته هامسة: "لحظة واحدة يا عزيزى".

عندما عاد إلى المختبر كان زائره ينظر إلى ساعته ثم قال: "لم يكن لدى فكرة أننى أخذت ساعة كاملة من وقتك الثمين.. الساعة الآن الرابعة إلا عشرين دقيقة.. كان يجب أن أغادر هنا فى الثالثة والنصف بالضبط.. لكن أفكارك الرائعة أثارتنى حقًا.. ولا أظن أنه بوسعى البقاء أكثر من ذلك، فلدى موعد فى الرابعة".

غادر الغرفة مكررًا شكره وصحبه العالم البكتيرى إلى الباب، ثم قفل راجعًا إلى مختبره من خلال الممر.. وكان كل تفكيره منصبًا

على التحليل العرقى لزائره العجيب.. فبالطبع هو لم يكن من النمط "التوتونى"[٢] ولا لاتينيًا عاديًا.. وقال العالم مخاطبًا نفسه: "أخشى أن الرجل مصاب بمرض نفسى أو ما شابه ذلك.. إذ كان يحدق بانبهار غريب فى الجراثيم المسببة للمرض!". وخطرت على باله فكرة مقلقة، فاستدار إلى المنضد بجوار الحمام.. ثم بسرعة إلى منضدة كتابية، ثم تحسس جيوبه فى عجل، وانطلق إلى الباب قائلاً: "لعلى وضعتها على طاولة حجرة الجلوس".

وفى حجرة الجلوس صاح بصوت أجش: "(مينى)! فأجابته زوجته على الفور: "نعم يا حبيبى".

"هل كان فى يدى شىء عندما تحدثت إليك يا عزيزتى منذ قليل؟".

تريثت برهة ثم أجابت: "لا شىء بالمرة يا عزيزى.. لأننى أتذكر أن...".

صاح العالم البكتيرى قائلاً: "ياللخراب الرهيب! واندفع يعدو كالمجنون إلى الباب الخارجى، وهبط كل درج المنزل بسرعة خارقة حتى وصل إلى الشارع.. وعندما سمعت (مينى) صفق الباب بعنف، ركضت مروعة إلى النافذة.. وفى الشارع كان رجل نحيف يهم بركوب مركبة أجرة، وكان العالم البكتيرى يركض دون قبعته، وهو مرتدٍ خفَّى المنزل ويشير إلى تلك المركبة. وانزلق من إحدى قدميه الخفُ، غير أنه لم يأبه لذلك..

---

(٢) العرق "التوتونى" يشمل الألمان والهولنديين ومجموعة الشعوب الاسكندنافية (المترجم).

قالت (مينى) ـ تحدث نفسها: "يبدو أنه أصيب بالجنون.. يا للمسكين!. كل ذلك بسبب هذا العلم البغيض الذى تخصص فيه".. وفتحت النافذة لكى تنادى عليه.. وعلى الفور لمحها الرجل النحيل ويبدو أنه أُصيب بنفس الحالة.. فقد أشار بسرعة إلى العالم البكتيرى ثم قال شيئًا لسائق مركبة الأجرة التى أغلق باب المركبة، وألهب ظهر الحصان بالسوط، وانطلق الجواد يضرب الأرض بحوافره.. وعلى الفور أوقف العالم البكتيرى مركبة أجرة أخرى، وبدأ يطارد العربة الأولى. وأسرعت العربتان وسط المشاهد المتحركة فى الشارع، وسرعان ما تواريَتا عن الأنظار عند المنحنى بآخر الشارع.

أطلَّت (مينى) تحدق من النافذة برهة، ثم رفعت رأسها وأدخلتها فى الغرفة من جديد.. كانت مصعوقة مما حدث.. وفكرت قائلة لنفسها: "الحقيقة أنه غريب الطباع دائمًا.. لكن الركض هكذا فى شوارع لندن وقت الزحام التجارى، وهو متردٍ خفًا ليس شيئًا عاديًا!". ثم خطرت فى ذهنها فكرة سعيدة.. وبسرعة ارتدت قلنسوتها وأمسكت بحذائه، ودخلت فى حجرة الجلوس، وأخذت قبعته ومعطفه الخفيف من على العلاقة.. وأسرعت إلى الدرج وهبطت عليه، ثم أوقفت مركبة أجرة تصادف مرورها ببطء أمامها.. وقالت للسائق: "سر فى هذا الطريق ثم حول (هانلوك كريسنت) وتأكد من رؤية شخص مُرتدٍ سترة مخملية وعارى الرأس".

ردد السائق كلامها: "سترة مخملية وعارى الرأس.. حسنٌ جدًا

يا سيدتى".. وبادر السائق بضرب جواده بالسوط كعادته، كما لو كان يقود عربته إلى هذا العنوان فى كل يوم.

بعد بضع دقائق دُهش جمع صغير من سائقى مركبات الأجرة والمتسكعين المجتمعين حول مأوى للسائقين عند (هافرستوك هيل) لمرور مركبة أجرة يجرها حصان بنى اللون يسابق الريح.. وظلوا صامتين حتى جاوزتهم المركبة ثم قال رجل بدين معروف باسم (أولد توتلز): "إنه آرى إيكس.. ولكن من الذى معه؟".

قال صبى من سائسى الخيل: "إنه يستخدم سوطه.. إنه على صواب".

قال العجوز الهزيل (توسى بيلز) "ها هو مجنون حقير آخر.. اللعنة إذا لم يكن كذلك!".

ثم استطرد قائلاً: "إنه جورج العجوز.. وهو يقود عربته كالمعتوه كما ترون. إنه سيطير من عربته فى يوم ما.. إننى أعجب هل هو يطارد (آرى إيكس)؟".

دب الحماس والإثارة فى المجموعة المحتشدة حول مأوى السائقين.. وصاحوا جميعًا وكأنهم مجموعة من المنشدين "انطلق يا (جورج) إنه سباق.. سوف تلحق بهم.. ألهب ظهر الجواد بالسوط!".

وقال الصبى سائس الخيل: "إنها فرس.. نعم هى فرس!".

وقال (توتلز) العجوز: "انه يقود مركبته بطيش ورعونة وسوف يلف المنحنى مرة أخرى بعد دقيقة.. هاهى مركبة أخرى قادمة.. لعل كل المركبات فى (هامبستيد) أصابها الجنون هذا الصباح!".

قال الصبى السائس: "إنه جواد هذه المرة".

قال (توتلز) العجوز: "إن السيدة تتبعه.. العادة أن العكس هو الذى يحدث".

"ولكن ترى ما الذى تمسكه فى يدها؟".

"يبدو كما لو كان قبعة عالية". وعندئذ قال الصبى سائس الخيل:

"ياله من لهو لعين!.. ثلاثة إلى واحد ضد (جورج) العجوز! ما الذى سيحدث بعد ذلك؟".

جاوزتهم (مينى) وهم يقولون عبارات الاستحسان.. لم يعجبها ذلك، لكنها أقسمت أنها تؤدى واجبها.. وانطلقت عربتها فى شارعى (هافرستول هيل) و(كامدين تاون) العموميين وعيناها مركزتان تمامًا على المنظر الخلفى لعربة (جورج) العجوز الذى كان يقل زوجها الهائم على وجهه والذى تركها دون سبب مفهوم.

جثم الرجل الجالس فى العربة الأمامية فى أحد أركانها وذراعاه مطويتان، ويده ممسكة بقوة بالأنبوب الصغير، الذى يحتوى على كائنات دقيقة لها إمكانيات تدميرية مروعة وكانت حالته مزيجًا من الخوف والابتهاج!.. كان أساسًا يخشى أن يمسك به أحد قبل أن يتمكن من تحقيق هدفه. لكن وراء ذلك ثمة خوف أكبر وأعظم من شناعة الجريمة التى أوشك أن يقدم عليها وفظاعتها.. لكن الحقيقة أن ابتهاجه يتجاوز خوفه.. إذ لم يقدر ثورىٌّ فوضوىٌّ قبله على الاقتراب من فكرة رهيبة مثل فكرته هذه: (رافاشول)

و(فيلانت) وكل أولئك الأشخاص البارزين الذين حسدهم على شهرتهم تضاءت الآن أهميتهم بجانبه.. وكل ما عليه الآن هو أن يصل إلى مصدر التغذية بالمياه للمدينة ثم يكسر هذا الأنبوب الصغير ويفرغ محتوياته فى أحد مستودعاتها.. لقد خطط للأمر بشكل رائع وزوّر خطاب التقديم وتمكن من الدخول إلى المختبر وما أروع الطريقة التى اتبعها لاستغلال تلك الفرصة!.. أخيرًا سوف يسمع العالم عنه! نعم يسمع عن الموت.. لا شىء غير الموت.. الجميع كانوا دائمًا يعاملونه على اعتبار أنه لا قيمة له..العالم كله تآمر لوضعه فى هذه الحالة.. وسوف يلقنهم الآن درسًا انتقامًا لعزلهم له على هذا النحو. لكن تُرى ما هو هذا الشارع المألوف؟.. بالطبع إنه شارع (القديس أندرو العظيم).. كم يخشى تلك المطاردة؟

أخرج رأسه من المركبة.. كان العالم البكتيرى على مسافة خمسين مترًا فقط خلفه.. كان ذلك أمرًا بالغ السوء.. إن الفرصة ستكون كبيرة لإيقافه والإمساك به.. تحسس جيبه بحثًا عن النقود.. ووجد نصف جنيه ذهب إنجليزى.. وقذف تلك العملة من الفتحة الموجودة بأعلى المركبة فى وجه السائق.. وصاح قائلاً له: "ولك المزيد إذا تمكنا من الإفلات من مطاردينا".

انقض السائق على النقود فى الحال كالصقر وغمغم: "سأفعل ذلك يا سيدى". وأغلق الفتحة وأخذ يلهب جسد الحصان اللامع بكل قوته حافزًا إياه للانطلاق بأقصى سرعة وتمايلت المركبة وهى منطلقة فى طريقها.. والفوضوى جاثم تحت فتحة المركبة.. ويده القابضة على الأنبوب الزجاجى الصغير تستند على الحاجز

الجانبى لحفظ توازنه.. وفجأة شعر بالأنبوب الصغير الهش وهو ينكسر ونصفه الأسفل يسقط على أرضية المركبة.. أطلق سيلاً من اللعنات وتهالك على المقعد.. حدق بفزع فى نقطتين أو ثلاث نقاط من السائل سقطت على ساقيه.

ارتعد جسده وشعر ببرودة تسرى فى أوصاله وقال "حسنًا!.. أظن أننى سوف أكون أول من يصاب!! اللعنة! لكن، ليحدث ما يحدث، فسوف أكون شهيدًا.. نعم إنها موتة غير تافهة. ومع ذلك فالحقيقة أنها ميتة قذرة.. ولا أدرى هل هى مؤلمة كثيرًا كما يقولون أو لا".

عندئذ خطرت فكرة على باله.. وتحسس بيده قدميه.. كانت هناك نقطة صغيرة من السائل المهلك مازالت باقية فى قعر الأنبوب المكسور.. وتجرعها لفوره لكى يتأكد.. نعم، كان من الأفضل أن يتأكد!.. على أى حال فهو لن يفشل.. واعتقد وقتئذ أنه ليس هناك داع لمواصلة الهرب من العالم البكتيرى.. فأمر سائق المركبة بالتوقف فى شارع (ولينجتون) ثم غادرها مسرعًا وزلت قدمه على درجة سلم المركبة وشعر بشىء غريب فى رأسه.. إن سم الكوليرا هذا سريع التأثير.. ولوح بيده لسائق المركبة وهو يختفى عن ناظريه.. ثم وقف على الرصيف وطوى ذراعيه أحدهما على الآخر أمام صدره، منتظرًا وصول العالم البكتيرى. كان ثمة شىء مأساوى فى وقفته الغريبة.. إن شعوره بموته الوشيك أعطى له مظهرًا يتسم بشىء من الوقار والجدية.. وحيًّا مطارده بضحكة تعبر عن التحدى.. وصاح قائلاً: "تعيش الفوضوية.. لقد تأخرت أنت أيضًا

يا صديقى.. لقد شربته.. الكوليرا الآن مطلقة السراح خارج مختبرك!".

حدق العالم البكتيرى فيه من خلال عويناته بفضول شديد.. وصاح: "أنت شربته؟!.. وأنت فوضوى!. نعم.. إننى أفهم الآن كل شىء".. وكاد أن يقول شيئًا آخر، لكنه سيطر على نفسه.. وضحك ضحكة خافتة بركن فمه.. وفتح الغطاء المشمع للمركبة كما لو كان سيهبط منها.. فى تلك اللحظة لوَّح له الفوضوى بتحية وداع درامية.. ثم خطا خطوات واسعة تجاه جسر (ووترلو).. وصدم جسمه المصاب بالعدوى المهلكة بأكبر عدد ممكن من الناس فى طريقه.. وكان العالم البكتيرى سارحًا مع أفكاره لمجرد رؤيته هكذا.. لدرجة أنه لم يبد أى دهشة تقريبًا لظهور (مينى) على الرصيف وهى ممسكة بقبعته وحذائه ومعطفه.. ولم يزد على قوله "أحسنت بإحضارك لأغراضى هذه!".. وظل مستغرقًا فى أفكاره المنصبة على ذلك الفوضوى المجنون الذى يبتعد باتجاه النهر.

ثم أردف وهو ما زال يحدق فى الرجل المبتعد "يستحسن أن تدخلى فى المركبة".. اقتنعت (مينى) الآن أكثر من أى وقت مضى بأن زوجها قد أصابه خبل فى عقله.. وأمرت سائق المركبة بالعودة إلى منزلهما على مسئوليتها الخاصة.. وقال زوجها: "ارتدى حذائى؟ نعم بالطبع يا عزيزى".. وكان السائق قد بدأ فى طريق العودة. وحينئذ أخفت المركبة الشبح الأسود الذى يختال فى مشيته والذى بدا صغير الحجم.. ثم فجأة أصاب العالم البكتيرى شىء غامض وبدأ يضحك قائلاً: "ومع ذلك فالأمر جد خطير!".

ونظر إلى زوجته واستطرد: "أتعرفين.. هذا الرجل جاء إلى منزلنا لكى يرانى.. وهو فوضوى.. أى إرهابى.. لا.. لا.. لا تفقدى رشدك يا عزيزتى، وإلا فلن أقص عليك بقية الحكاية.. وأردت أن أثير دهشته، ولم أكن فى الحقيقة أعرف أنه فوضوى، وأمسكت بمستنبتْ السلالات البكتيرية الجديدة التى كلمتك عنها والتى تسبب المرض الذى أعتقد أنه السبب فى ظهور تلك البقع الزرقاء على بعض القرود، وكالأبله قلت له: إنها الكوليرا الآسيوية.. وهرب الرجل بهذه البكتيريا لكى يسمم مياه لندن كلها لكى يهلك هذه المدينة الحضارية عن بكرة أبيها.. والآن ابتلع الغبى ذلك المستحضر الحيوى الموجود داخل الأنبوب.. وبالطبع لا أعرف ما الذى سيحدث له.. لكنك تعرفين أنها جعلت لون القطة الصغيرة أزرقَ، وكذلك فراء الكلب.. والعصفور.. كلهم أصابتهم بقع زرقاء لامعة.. والمشكلة أمامى الآن هى مجهود إعداد المزيد من بكتيريا الكوليرا وتحمل بعض النفقات فى سبيل ذلك. والآن هل أرتدى سترتى فى هذا اليوم الحار؟ لكن لماذا؟ لأننا قد نقابل السيدة (جابر). يا عزيزتى، إن السيدة (جابر) ليست هواء باردًا! لكن لماذا أرتدى سترتى فى يوم حار من أجل السيدة؟ آه حسنٌ جدًا. لا بأس".

ازدهار زهرة الأوركيد العجيبة

لطالما كان شراء زهور الأوركيد يمثل تجربة فريدة تبعث على التأمل.. فأمامك كتلة من النسيج الحى الذابل البنى، أما الباقى فعليك أن تعتمد على تقديرك الشخصى.. أو على بائع المزاد.. أو على حظك السعيد.. حسبما يروق لك.. وهذا النبات قد يكون زاويًا أو ميتًا، أو يكون صفقة رائعة تساوى قيمتها نقودك.. أو ـ كما يحدث أحيانًا هنا أو هناك ـ يتضح لعينيك كمشتر مبتهج وسعيد الحظ يومًا بعد يوم سلالة جديدة أو شيئًا أنيقًا ذكيًا.. أو انحناء غريب لشفة التويج الوسطى.. أو ظهور لون غريب أو رقيق يثير الإعجاب.. أو التخفى غير المتوقع فى البيئة المحيطة.

إن الزهرة والجمال والربح تزدهر جميعها على عنقود أخضر رقيق واحد. وربما يعنى ذلك الخلود!.. إذ إن معجزة الطبيعة الجديدة قد تحتاج إلى اسم معين جديد.. وهل هناك اسم أجمل من اسم مكتشفها؟ (جون سميثيا)!.. وهناك بالطبع أسماء أسوأ من ذلك!..

لعل ذلك كان الأمل هو الاكتشاف السعيد الذى يراود (ونتر ودربيرن)، الذى يتردد كثيرًا على مزادات البيع هذه.. وهذا الأول،

وربما أيضًا حقيقةعدم وجود شىء آخر ذى قيمة يمكنه أن يفعله فى حياته، هو الذى يشغل باله.. كان رجلاً وحيدًا خجولاً غير مفيد لأحد.. ولديه من الدخل ما يكفيه فقط لضروريات الحياة.. ولا يتمتع بأى طاقة أو أعصاب لكى يبحث عن وظيفة محترمة دائمة.. كان بإمكانه أن يجمع الطوابع أو العملات، أو يترجم للشاعر الرومانى (هوراس)، أو يعمل فى تجليد الكتب، أو يخترع أنواعًا جديدة من طحالب الديانوم.. لكن ما حدث أنه اهتم بتربية زهور الأوركيد.. وأصبح لديه صوبة زجاجية صغيرة لا بأس بها..

قال وهو يتناول قدحًا من القهوة: "إن لدىّ حلمًا أو شعورًا بأن شيئًا ما سوف يحدث لى يومًا ما".. وكان يتحدث دائمًا ببطء مثلما يتحرك ببطء ويفكر ببطء..

قالت مديرة منزله، التى كانت فى نفس الوقت ابنة عمه: "لا يا عزيزى.. لا تقل ذلك!".. إذ كان "شىء ما سوف يحدث" يعنى عندها شيئًا واحدًا فقط.

قال بسرعة: "لقد أسأت فهمى.. إننى أعنى شيئا سعيدًا.. رغم أننى نادرًا ما أعرف ما أعنيه!.." وتريث برهة ثم أردف: "اليوم سوف تبيع أسرة (بيتر) دفعة من النباتات التى حصلوا عليها من جزر "أندام" وجزر الهند الغربية.. وسوف أذهب إلى هناك لأرى ما لديهم.. ولعلنى أشترى منهم شيئًا جيدًا دون أن أدرى.. نعم هذا ما سيحدث".

بعد أن انتهى قدحه، أراد قدحًا ثانيًا ممتلئًا بالقهوة وبعد أن

ملأته له استطرد قائلاً: "هل هذه النباتات هى التى جمعها ذلك الشاب البائس الذى حدثتنى عنه ذات يوم؟".

قالت وهى تفكر فى قطعة من الخبز المحمّص: "نعم".

بدأ يفكر بصوت عال "الغريب أنه لا يحدث لى أى شىء.. وأعجب لماذا؟.. فى حين تحدث أمور كثيرة للآخرين.. خذى مثلاً حالة (هارفى).. فمنذ بضعة أسابيع تلقى فى يوم إثنين ستة بنسات، وفى يوم الأربعاء مرضت دجاجاته كلها.. وفى يوم الجمعة عاد ابن عمه من استراليا.. وفى يوم السبت وقع وكُسِر كاحله!.. ما أعجب تلك الإثارة المتلاحقة! لكن قارنى ذلك بما يحدث لى؟"..

قالت مديرة المنزل: "إننى أفضل لك الابتعاد عن مثل تلك الإثارة.. إنها لن تسبب لك خيرًا".

"أوافقك، إن ذلك قد يسبب بعض المتاعب.. ولكن كما ترين لا شىء بالمرة يحدث لى.. عندما كنت صبيًا لم أتعرض لأى حادث.. وعندما كبرت لم أحب فتاة قط.. ولم أتزوج حتى الآن.. ولم يحدث لى أى أمر مهم أو مثير فى حياتى.. إننى أتوق للإحساس بشعور المرء عندما يحدث له شىء.. أقصد شىء هام فعلاً ومثيرا!"..

"وجامع الأوركيد هذا كان فى السادسة والثلاثين من عمره فقط.. أى أصغر منى بعشرين عامًا.. عندما مات!.. ورغم ذلك فقد تزوج مرتين وطلق زوجته الأولى.. وأصيب بحمى الملاريا أربع مرات.. وذات يوم كُسِر فخذه!.. وفى أحد الأيام قتل رجلاً من المالايو!. وذات يوم أصيب بسهم مسموم.. وفى النهاية قتلته علقات الغابة وطفيلياتها.. ولا بد أن كل هذا سبب له الكثير من المعاناة..

لكنه بالتأكيد شعر بالإثارة والمتعة فى حياته.. لو استثنينا بالطبع الديدان العالقة اللعينة التى أودت بحياته!".

قالت السيدة وهى مقتنعة تمامًا بما يقوله: "إننى متأكدة أن كل ذلك لم يكن جيدًا له".

"ربما لم يكن كذلك".. ثم نظر إلى ساعته وأردف: "الساعة الآن الثامنة وثلاث وعشرون دقيقة.. وسوف أستقل قطار الثانية عشرة إلا ربعًا.. حتى يتوفر لى وقت كاف.. أظن أننى سوف أرتدى سترتى الصوفية لكى تبعث الدفء فى أوصالى.. وقبعتى اللبادية الرمادية، وحذائى البنى.. وأعتقد أن...".

ونظر إلى خارج النافذة وحدق فى السماء الصافية والحديقة السابحة فى ضوء الشمس الساطعة.. ثم حوّل نظره بشىء من العصبية إلى وجه ابنة عمه.. وقال بصوت لا يسمح بأى معارضة: "أظن أنه يستحسن أن تأخذى معك مظلة إذا كنت ذاهبة إلى لندن.. فلسوف تقطعين مسافة كبيرة ذهابًا إلى المحطة وعودة منها".

عندما عاد كان فى حالة من الإثارة المعقولة.. فلقد حصل لتوه على صفقة.. ومن النادر أن يقرر شراء شىء ما بمثل تلك السرعة.. لكن هذه المرة فعل ذلك.

أخذ يتفحَّص صفقته بإعجاب وهو يتناول الحساء وقال: "توجد بعض زهور (الفاندا) و(الدندروب) و(الباليونوفيس)..كانت الزهور موضوعة فوق مشمع المائدة النظيف أمامه.. وأخذ يحدث ابنة عمه بكل شىء عنها، فى حين يتناول طعام العشاء ببطء وتلذذ.. وكان

معتادًا دائمًا على ذكر كل تفاصيل زياراته إلى (لندن) فى المساء لها ولأجل استمتاعه الشخصى..

- "كنت أعرف أن شيئًا سوف يحدث اليوم..ولقد اشتريت كل تلك الزهور.. وبعضها أشعر بالثقة فى أنه سوف يكون رائعًا.. لا أعرف كيف سيحدث ذلك، ولكننى أشعر بأن شيئًا سيحدث. أنا متأكد من ذلك.. مثلما الحال لو أن شخصًا ما قال لى: إنها ستكون رائعة"..

"وهذه الزهرة" - وأشار إلى ساق جذرية أرضية متغضنة - "ليس لها اسم محدد.. فربما تكون مثلاً زهرة (باليوتوميس) أو لا تكون.. وربما تكون سلالة جديدة أو حتى نوع مبتكر.. وهى آخر شىء جمعه (باتن) البائس". قالت مديرة المنزل: " لا يعجبنى شكلها.. بل إنها فى نظرى ذات شكل قبيح".

"فى نظرى، شكلها مقبول بصعوبة".

قالت مديرة المنزل: "أنا لا أحب مثل تلك الأشياء التى تبرز إلى الخارج".

"سوف أضعها غدًا فى أصيص خاص بها".

قالت مديرة المنزل: "إنها تبدو لى كعنكبوت يتظاهر بأنه ميت".

ابتسم (ودربيرن) وتفحص الجذر ورأسه مائل إلى أحد الأجناب.. وقال: "الواضح لى أنه ليس شيئًا جميلاً.. لكن لا يمكنك أبدًا أن تحكمى على تلك الأشياء من مظهرها الجاف.. ولعله يتحول فيما بعد إلى زهرة أوركيد فائقة الجمال.. على أى حال إننى سوف

أكون مشغولاً جداً غداً.. وعلىّ أن أقرر اليوم ما سوف أفعله بالضبط لهذه الأشياء.. على أن أنفذ ذلك غداً..

"لقد عثروا على (باتن) البائس ممدداً جثة هامدة أو يُحتضَر فى مستنقع بالقرب من أشجار "التين الهندى".. لا أتذكر اسمه".. وصمت برهة ثم استطرد "ومعه واحدة من زهور الأوركيد تلك محطمة تحت جسده.. وظل يعانى فى حالة سيئة لبضعة أيام من نوع ما من الحمى المحلية هناك.. وأعتقد أنه أُغمى عليه.. ومستنقعات "التين الهندى" هذه كريهة ومؤذية.. وهم يقولون: إن علقات الغابة امتصت كل نقطة من دمه حتى انتهى أمره.. ولعل هذا النبات بالذات هو الذى كلفه حياته من أجل الحصول عليه".

"ولهذا فإننى لا أرى فيه خيراً قط".

قال (ودربيرن) بجدية شديدة: "الرجال يجب أن يعملوا أما النساء فيمكنهن البكاء".

"تخيلى أنك تموتين بعيداً جداً عن كل نعم الحياة ومتعها فى مستنقع قذر لعين.. تخيلى أنك مريضة بالحمى وليس هناك ما يمكنك أن تتناوليه سوى الكلورودين والكينين ـ ولو تُرك الناس وشأنهم لعاشوا على الكلورودين والكينين ـ ولا يوجد أحد حولك سوى السكان الوطنيين البشعين!.. إنهم يقولون: إن سكان جزر "أندامان" مقززون للغاية.. وعلى أى حال يمكن العثور على ممرضات جيدات بينهم، رغم أنهن لا يتلقين التدريب الكافى.. ولعل تلك هى الطريقة التى يحصل بها سكان إنجلترا على زهور الأوركيد.

"لا أظن شخصيًا أن ذلك مريح.. لكن بعض الرجال يبدو أنهم يستمتعون بهذا النوع من المغامرة.. وعمومًا فإن الوطنيين الذين كانوا يرافقونه كانوا متحضرين بما يكفى للعناية بكل مجموعته، حتى عاد زميله - الذى كان عالمًا فى الطيور - من داخل البلاد.. رغم أنهم لم يذكروا له سلالات الأوركيد التى معهم وتركوها تذبل.. وكل ذلك يجعل مثل تلك الأحداث مثيرة إلى حد كبير.

"إن هذا يجعلهم منفرين ومقززين.. وعلى المرء أن يخاف من بعض أنواع الملاريا العالقة بهم.. وفقط عليك أن تفكرى فى أن هناك جثة لا روح فيها تتمدد فى أرجاء ذلك المكان المروع!.. لم أفكر قط فى شىء كهذا من قبل.. نعم هناك!.. وأقول لك الآن: إننى لن آكل لقمة واحدة من طعام العشاء أكثر من ذلك..

"سوف آخذها من على المائدة إذا رغبت فى ذلك، وأضعها على المقعد تحت النافذة.. فهو مكان رائع لها".

فى غضون الأيام القليلة التالية كان مشغولاً للغاية فى صوبته الزجاجية الصغيرة المشبعة بالبخار.. ويهتم بكل جوانب الفحم النباتى وكتل خشب الساج والطحالب وكل الأشياء الأخرى التى يتعامل معها مربّو زهور الأوركيد.. وكان يرى أنه يقضى هكذا وقتًا ممتعًا ومثيرًا.. وفى المساء يتحدث عن هذه الأوركيدات لأصدقائه.. ومرارًا وتكرارًا كان يتوقع حدوث شىء غريب له.

معظم زهور (الفاندا) و(الدندرويوم) ماتت أثناء عنايته بها.. لكن الغريب أن زهرة الأوركيد الغريبة بدأت تظهر عليها علامات الحياة!.. وفرح فرحًا شديدًا حتى أنه أخذ مديرة منزله فى الحال،

فى أثناء صنعها للمربى، لكى تراها فى الحال بعد اكتشافه هذا مباشرة.

وقال لها: "هذا بُرعم.. وسرعان ما سوف تنمو هناك أوراقٌ كثيرة.. وتلك الأشياء الصغيرة النابتة هنا عبارة عن جذور صغيرة ظاهرة".

قالت مديرة المنزل: "إنها تبدو لى كأصابع بيضاء صغيرة، تنفذ من جسم النبات البنىّ.. أنا لا أحبها".

"عجبًا!.. ولم لا تحبينها؟".

"لا أعرف بالضبط.. إنها تبدو كأصابع تريد الوصول إليك.. ولا أستطيع أن أتحكم فيما أحبه وما أكرهه..".

"أنا لست متأكدًا تمامًا.. ولكننى لا أظن أن هناك أى نبات أوركيد له جذيرات هوائية مثل هذه..وبالطبع قد يكون ذلك مجرد وهم لدىّ.. وكما ترين فهى مبططة قليلاً فى أطرافها".

قالت مديرة المنزل فجأة وهى ترتجف وتستدير مبتعدة: "أعرف أن هذه حماقة منى.. وأنا آسفة جدًا من أجلها.. وخصوصًا أنك تحب تلك النباتات كثيرًا جدًا.. لكننى لا أملك إلا أن أفكر فى تلك الجثة".

"لكن لعل المنية وافته لسبب آخر غير هذا النبات.. ولعل هذا الخاطر كان مجرد تخمين منى لا أكثر"..

هزت مديرة المنزل كتفيها وقالت: "وعلى أية حال، فأنا لا أحبها".

شعر (ودربيرن) ببعض الأسى لكرهها لهذا النبات.. لكن هذا لم يمنعه من أن يخبرها بكل شيء عن نباتات الأوركيد، وهذا النبات الأوركيدى الذى لديه بالذات.. كلما شعر بالرغبة فى ذلك.

وذات يوم قال لها: "هناك شيء غريب بشأن نباتات الأوركيد أحب أن أقوله لك.. هو احتمال حدوث مفاجآت منه!.. وكما تعرفين فقد درس (داروين) كيفية تلقيحه، وتوصل إلى أن التركيب الكلى لزهرة الأوركيد العادية تم خلقه بغية حمل الفراشات لحبوب اللقاح من نبات إلى آخر.. لكن الحقيقة أن هناك الكثير من نباتات الأوركيد المعروفة التى لا يمكن استخدام زهورها للتلقيح هكذا.. فمثلاً بعض من نباتات (خُفّ السيدة) لا توجد أى حشرة معروفة يمكنها تلقيحها..بل إن بعضها لا تنمو له أى بذور".

"ولكن كيف يمكن لتلك النباتات إنتاج أجيال جديدة لها؟".

"بالسيقان الأرضية الممتدة والدرنات، وهذا النوع من النمو الزائد.. وهذا من السهل شرحه..لكن اللغز هنا هو ما هى فائدة الزهور للنباتات؟".

"والراجح لدىّ أن هذا النبات الأوركيدى الذى معى يتميز بشيء خارق للعادة.. ولذلك فإننى سوف أدرسه جيداً.. لطالما فكرت فى إجراء بحوث ودراسات مثل تلك التى أجراها (داروين).. لكن المشكلة أنه حتى الآن لم يتوفر لى الوقت اللازم لذلك.. أو أن اهتمامات أخرى حالت دون تفرغى لذلك.. إن الأوراق أوشكت أن تنفرد وتتفتح الآن.. وكم أود أن تحضرى وتزينيها معى!".

بيد أنها اعتذرت له بأن سخونة صوبة نباتات الأوركيد تسبب لها صداعًا.. لكنها رأت النبات مرة ثانية ورأت جذوره الهوائية الصغيرة، وقد وصل طول بعضها إلى أكثر من قدم والتي ذكرتها لسوء الحظ بزوائد تمتد إلى الخارج بحثًا عن شيء ما.. وبدأ ذلك يراودها في أحلامها حيث ترى تلك الزوائد وهي تنمو بسرعة خارقة.. ولذلك استسلمت لقناعتها التامة بأنها يجب ألا ترى هذا النبات اللعين مرة أخرى.. وكان على (ودربرين) أن يتمتع بمحاسن أوراقه بمفرده!

كانت تلك الأوراق عريضة كالمعتاد، ولونها أخضر داكن لامع، وتوجد بعض البقع والنقط بلون أحمر داكن تجاه قاعدتها.. ولم يكن رأى أوراقًا أخرى بهذا الشكل من قبل.. وكان النبات موضوعًا فوق نضد منخفضة بالقرب من الترمومتر.. وبجواره جهاز صغير مزود بصنبور تسقط منه قطرات على أنابيب يسرى فيها ماء ساخن وذلك لتسخين الهواء.. وقضى فترة ما بعد الظهيرة لعدة أيام متتالية يفكر بانتظام في الازهار الوشيك لهذا النبات الغريب والوحيد من نوعه.

وأخيرًا وقع الحدث الكبير.. فبمجرد دخوله في الصوبة الزجاجية الصغيرة أدرك أن العنقود الزهري قد انفجر، بالرغم من أن نبات (باليونوفيس) لديه كان يخفي الركن الذي يوجد فيه نباته الساحر الجديد.. وكان في الهواء عبق جديد.. رائحة عطرة نفاذة شديدة تغلبت على كل الروائح الأخرى داخل تلك الصوبة الزجاجية الصغيرة الدافئة المزدحمة بعشرات النباتات المختلفة.

لاحظ على الفور أنه أسرع إلى نبات الأوركيد العجيب.. ثم نظر مشدوهًا!.. العناقيد الزهرية الغضة الممتدة على الأرض تحمل الآن ثلاث بقع كبيرة من الزهور، تنبعث منها تلك الرائحة العذبة الطاغية.. ووقف أمامها فى حالة من الانبهار والنشوة والإعجاب.

كانت الزهور بيضاء، وتوجد خطوط برتقالية ذهبية على التويجيات أو أوراق الزهرة.. والشفة التويجية الوسطى الضخمة ملتفة فى شكل بروز معقد الشكل.. حيث يختلط اللون الذهبى بلون أرجوانى ضارب إلى الزرقة.. وأدرك لساعته أن هذا النوع من نبات الأوركيد جديد تمامًا.. كم كانت الرائحة قوية جدًا ولا تطاق!.. وشعر بدفء شديد فى المكان!.. وبدأت الزهور تسبح فى الهواء أمام عينيه!

أراد أن يرى ما إذا كانت درجة الحرارة صحيحة أو لا.. وخطا خطوة واحدة تجاه الترمومتر.. وفجأة بدا له كل شىء عائم وغير مستقر.. طوب الأرضية كان يرقص فى حركة إيقاعية إلى أعلى وإلى أسفل.. ثم بدا له أن الزهور البيضاء والأوراق الخضراء والصوبة الزجاجية بأكملها تنزاح جانبيًا ثم لم تلبث أن انسابت، فى خط منحن إلى أعلى فى الهواء!..

فى الرابعة والنصف أعدت ابنة عمه الشاى، طبقًا لعادتهما التى لم تتغير قط.. بيد أن (ودربيرن) لم يحضر لتناول قدح الشاى الخاص به.. وحدثت نفسها قائلة: "إنه أوشك أن يعبد هذا النبات الأوركيدى الفظيع".. ثم انتظرته عشر دقائق.. فقالت لنفسها: "لا بد أن ساعته توقفت.. سوف أذهب لأنادى عليه".

ذهبت مباشرة إلى الصوبة الزجاجية.. وفتحت الباب ونادت اسمه.. لكنها لم تتلق ردًا.. ولاحظت أن الهواء مكتوم ومفعم برائحة قوية نفاذة.. ثم رأت شيئًا ممددًا على الطوب بين أنابيب المياه الساخنة.

وقفت ساكنة ومشدوهة لمدة دقيقة تقريبًا.. فقد كان ممددًا، ووجهه لأعلى بجوار قاعدة نبات الأوركيد العجيب.. الجذور الهوائية التى تشبه الزوائد أو البراثن لم تعد تتأرجح بحرية فى الهواء.. وإنما تلاصقت بعضها مع البعض الآخر فى شكل حزمة من حبال رمادية مشدودة بقوة وأطرافها قابضة بقوة على ذقنه وعنقه ويديه..

لم تستطع أن تعى شيئًا مما تراه.. ثم رأت من تحت إحدى الزوائد المتهدلة على خده يتقاطر خيط رفيع من الدم.. أطلقت صرخة مدوية مبهمة واندفعت تجاهه.. وحاولت جذبه بعيدًا عن البراثن اللعينة الماصة للدماء كالعلقات.. وتمكنت من اقتلاع اثنتين من تلك الزوائد.. وأخذت عصارتها الحمراء تتقاطر على الأرض.

ثم بدأت الرائحة الطاغية للزهرة تدير رأسها.. وبدأت تفهم كيف تمكنت البراثن اللعينة منه.. وبذلت كل قوتها فى تمزيق الحبال الميتة.. وبدأ هو والضياء الأبيض يحومان حولها.. وشعرت بالدوار فى رأسها، وأدركت أنها لا يجب أن تفقد الوعى.. تركته بسرعة وفتحت أقرب باب إليها.. وبعد أن التقطت أنفاسها اللاهثة فى الهواء المنعش للحظة.. خطرت فى ذهنها فكرة رائعة..

أمسكت بإصيص زهور وطوّحت به تجاه النوافذ فى آخر الصوبة.. ثم دخلت مرة أخرى.. الآن أمسكت الجسد الساكن لـ (ودربيرن) بقوة فولاذية وجرته حتى أسقطت نبات الأوركيد العجيب على الأرض.. لكنه كان ما زال قابضًا بقوة هائلة على فريسته المستسلمة.. وفى حالة هياج شديدة تمكنت من دفع الرجل البائس والنبات الجهنمى إلى الهواء الطلق خارج الصوبة..

وفكرت فى تمزيق الجذور الماصة للدماء واحدة بعد أخرى.. وبعد دقيقة كانت قد خلصته تمامًا وبدأت تجره بعيدًا عن هذا الرعب المميت.

كان الرجل أبيض اللون والدم ينزف من اثنتى عشرة بقعة فى جسده.. وفى تلك اللحظة دخل الحديقة رجل يقوم بأى عمل يطلب منه.. ودهش الرجل من تحطيم الزجاج.. ثم رآها تخرج من الصوبة وهى تجر جسدًا لا حراك فيه ويداها ملطختان بالدماء.. وللحظة فكر الرجل فى كثير من الأشياء المحتملة لتفسير هذا..

صاحت فيه بصوت هادر أفاقه من أوهامه: "أحضر بعض الماء يا هذا بسرعة!".. وعندما ذهب بالماء إليها بنشاط غير عادى.. وجدها لدهشته تبكى بحرقة.. ورأس (ودربيرن) على ركبتها وتمسح الدم من وجهه.. وعندئذ فتح (ودربيرن) عينيه بصعوبة وقال: "ما الذى حدث؟" ثم أغلقهما على الفور.

قالت للرجل المنقذ الذى يقوم بأى عمل يُطلب منه: "اذهب وقل لـ (آنى) أن تحضر إلى هنا بسرعة، ثم اذهب فى الحال إلى د. (هادون)"، بمجرد أن أحضر الماء إليها.. وعندما وجدته مترددًا

قالت له: "اذهب يا رجل بحق السماء.. وعندما تعود فسوف آخبرك بكل شئ".

عندئذ فتح (ودربيرن) عينيه من جديد.. وعندما وجدته مربكًا من وجوده هكذا.. شرحت له الأمر قائلة: "لقد فقدت وعيك فى الصوبة الساخنة".. فقال بسرعة: "وماذا حدث للأوركيد؟".. فقالت: "سوف أهتم بالأمر فلا تقلق".

فقد (ودربيرن) كمية كبيرة من دمه.. لكن بخلاف ذلك فلم يصب بأى أذى كبير.. وبعد أن أعطوه كأسًا من البراندى، حملوه إلى الطابق العلوى لكى يستريح فى فراشه.. وقصت مديرة منزله قصتها العجيبة على أجزاء للدكتور (هادون).. ولما رأت على وجهه علامات الاستفهام قالت له: "تعال معى يا دكتور إلى صوبة نباتات الأوركيد وسترى كل شئ بنفسك".

كان الهواء الخارجى البارد يندفع بقوة إلى داخل الصوبة من الباب المفتوح.. والرائحة الغريبة النفاذة تبددت تقريبًا.ومعظم الجذور الهوائية الممزقة منتشرة فى عدد من البقع المعتمة فوق الطوب.. ساق العنقود الزهرى كُسر إثر سقوط النبات.. وبدأت الزهور تذوى وتتغضن ويتحول لون حواف التويجات إلى اللون البنى الأسمر..

انحنى الدكتور تجاهها ورأى إحدى الجذور الهوائية الصغيرة مازالت تتحرك بضعف.. وتردد..

فى الصباح التالى كان نبات الأوركيد العجيب مازال ممددًا على الأرض هناك.. ولونه أسود.. وتعفن تمامًا.. والباب يصفق بين حين

وآخر من نسيم الصباح.. وكل مجموعة نباتات الأوركيد التى يملكها (ودربيرن) ذبلت.. وانبطحت.. بيد أن (ودربيرن) نفسه كان مبتهجًا ومرحًا فى الطابق العلوى بعد أن قام بتلك المغامرة الغريبة.

فى مرصد «آفو»

يقع المرصد الفلكى فى منطقة "آفو" فى جزيرة "بورنيو"[1] عند نتوء جبل. وفى الشمال تمتد فوهة بركان قديم، تبدو سوداء فى الليل، فى مواجهة زرقة السماء التى لا يسبر غورها. ومن المبنى الصغير الدائرى، التى تشبه قبته نبات فطر عملاق، تنحدر جوانب الجبل بحدة لتغوص وسط الغابة الاستوائية السوداء الغامضة.

ويعيش مراقب المرصد ومساعده، فى منزل صغير على بعد نحو خمسين ياردة[2] من المرصد، وتقع أكواخ العمال الوطنيين فيما وراء مقر إقامتهما. وكان (تادى) ـ المراقب الرئيسى ـ مصابًا بحمى بسيطة ألزمته الفراش، ومن ثم تولى مساعده (وودهاوس) مسئولية الرصد فى تلك الليلة. كان يجلس صامتًا يتأمل الليل الاستوائى، قبل أن يبدأ نوبة المراقبة بمفرده.

كان الليل ساكنًا تمامًا، ومن حين لآخر تصدر أصوات، وتدوى ضحكات من أكواخ الوطنيين، أو صرخات حيوان غريب تسمع من

(١) ثالث أكبر جزيرة فى العالم، تقع بين جنوب شرق آسيا واستراليا (المترجم).

(٢) الياردة تساوى نحو ٩١ سنتيمترًا (المترجم).

قلب الغابة الغامضة، فى حين ظهرت الحشرات الليلية من طيات الظلام فى أشكال شبحية، وأخذت تخفق بأجنحتها بسرعة حول الضوء. وفكر (وودهاوس) فى كل الكشوفات المحتملة التى مازالت فى ذلك التشابك من الأشجار والنباتات فى الغابة السوداء والتى تربض فى الأسفل. وبالنسبة للعالم بالتاريخ الطبيعى فإن غابات "بورنيو" - التى لم تكتشف بالكامل بعد - ما زالت تحوى العديد من الأسئلة الغريبة التى ليست لها إجابات.

كان (وودهاوس) يحمل فى يده مصباحًا صغيرًا، يتوهج ضوؤه الأصفر أمام خليط من تدرجات الألوان للمشاهد الطبيعية، التى تصطبغ غالبًا باللونين: الأرجوانى الأزرق والأسود. وكانت يداه ووجهه ملطخة بالمرهم، الذى يقيه من لدغات البعوض المؤذية.

وفى تلك الأيام، كان تصوير الأجرام السماوية يجرى فى مبان مشيدة بصفة مؤقتة، ومزودة بمعدات بدائية، بالإضافة إلى التلسكوب، ولم يكن الرصد فى ذلك الوقت دقيقًا.

تنهد (وودهاوس) إذ فكر فيما ينتظره من التعب والإرهاق الجسمانى إبان فترة المراقبة، ثم تمطى ودلف إلى المرصد.

وربما كان القارئ حسن الاطلاع على تركيب المرصد الفلكى العادى. فالمبنى يكون غالبًا أسطوانى الشكل، له قبة على هيئة نصف كرة خفيفة، يمكن إدارتها من الداخل، ويثبت التلسكوب فى الوسط فوق عمود من الصخر، ومنظومة من آلية الساعة[٣]،

---

(٣) معدات ميكانيكية وتروس تستخدم لضبط الوقت وتحديده (المترجم).

ليعوّض تأثير دوران الأرض، مما يساعد على رصد مستمر للنجم الذى يتم اكتشافه، وثباته فى نفس الموضع.

وبالإضافة إلى هذا، ثمة مجموعة من العجلات واللوالب حول قاعدة التلسكوب، تمكن الراصد من أن يضبط مدى الرؤية. وهناك ـ بالتأكيد ـ شق طولى فى القبة القابلة للتحريك، تتبع عدسة التلسكوب، فى أثناء مسحها للفضاء. ويجلس الراصد أو يرقد على مقعد خشبى مائل، يمكن أن يحركه بواسطة عجلات، إلى أى موضع فى المرصد. ويفضل فى داخل المرصد أن يكون الإظلام كاملاً بقدر الإمكان، حتى يعزز من تألق النجوم التى يتم رصدها.

توهج المصباح عندما دلف (وودهاوس) إلى المرصد الدائرى، حيث تلاشى الظلام العام ليتحول إلى ظلال حالكة السواد، حول التلسكوب الضخم، وسرعان ما أخذت تزحف لتغطى المكان برمته، عندما تضاءلت الأضواء، وأظهر الشق الطولى فى القبة المتحركة، لونًا أزرق شفافًا، حيث تتألق ستة نجوم بألمعية استوائية، مرسلة ضوءها على شكل إشعاع خافت على طول الأنبوب الأسود للتلسكوب.

حرك (وودهاوس) قبة المرصد، واتجه إلى مكان التلسكوب، لف إحدى العجلات ثم تبعها بأخرى، فأخذت الأسطوانة الهائلة تتأرجح ببطء إلى موضع جديد. عندئذ حدق فى التلسكوب الآخر الصغير واسع المدى، ثم حرك القبة قليلاً مرة أخرى، وأجرى بعض التعديلات، وشغل آلة الساعة.

خلع سترته؛ لأن الليل كان شديد الحرارة، ودفع المقعد غير المريح إلى الموضع المخصص له، الذى كان عليه أن يجلس فوقه،

لأربع الساعات القادمة. ثم تنهد وهيأ نفسه، لرصد أسرار الفضاء.

حينئذ لم يكن ثمة صوت فى المرصد، وأخذ ضوء المصباح يتضاءل رويدًا. وفى الخارج كانت تسمع ـ من وقت لآخر ـ صرخة حيوان فزع أو متألم أو ينادى على رفيقه، والأصوات المتقطعة للخدم من قبيلتى "المالاى" و"الدياك". وسرعان ما بدأ أحد الرجال منهم فى إنشاد أغنية غريبة، وكان الآخرون يرددون بعض المقاطع منها، فى فترات فاصلة. وبعد هذا، بدا أنهم استسلموا لليل وخلدوا للنوم، إذ لم يصدر من اتجاههم أى صوت، وأصبح السكون الهامس أكثر عمقًا.

أخذت آلة الساعة تتك بانتظام، والطنين الحاد لبعوضة تكتشف المكان، يزداد حدة عندما تدنو من المرهم الذى وضعه (وودهاوس) على وجهه. ثم انطفأ المصباح وغرق المرصد فى ظلام دامس.

عندئذ غيّر (وودهاوس) وضعه أمام التلسكوب، الذى تحرك ببطء فشعر بعدم راحة، كان يرصد مجموعة صغيرة من النجوم فى مجرة "الطريق اللبنى"، حيث لاحظ رئيسه ـ أو خُيِّل إليه ـ أن أحد نجوم هذه المجموعة، قد أظهر تنوعًا لونيًا لافتًا للنظر.

لم يكن هذا ضمن العمل الروتينى الذى أُنشئ من أجله المرصد، ولعل هذا ما جعل ذلك الأمر يلقى اهتمامًا بالغًا من (وودهاوس). وفى هذه اللحظات نسى كل ما يمت إلى الأرض بصلة، وركز فكره على تلك الدائرة الزرقاء الهائلة، التى هى مجال رؤية التلسكوب، بدت له متناثرة كالمسحوق، وسط حشود لا تحصى ولا تعد من النجوم المتألقة، مع خلفية سوداء.

وبينما كان يقوم بالرصد، أحس بنفسه وقد أصبح كيانًا روحيًا، وكأنما - بدوره - يطفو مع النجوم، فى فراغ الفضاء. وكانت البقعة الحمراء الشاحبة، التى كان يرصدها قد بدت له كأنها فى بؤرة نائية غير محدودة. فجأة تلاشت النجوم، ومر بسرعة ظل أسود، ثم عادت النجوم للتألق.

قال (وودهاوس): "يا له من أمر غريب! لا بد أنه طائر!" ثم حدث نفس الأمر مرة أخرى، واهتز أنبوب التلسكوب على الفور، وكأنما ارتطم به شىء ما. ودوت ضربات فوق قبة المرصد بدت مثل صوت الرعد. وظهرت النجوم وكأنها اندفعت بخفة إلى جانب، حيث إن التلسكوب لم يكن مثبتًا بإحكام، فتأرجح بعيدًا عن الشق الطولى فى القبة.

صاح (وودهاوس): "يا إلهى! ما هذا؟".

ثمة شكل هائل أسود وغامض - له شىء يرفرف مثل الجناح - بدا كأنه يصارع فى فتحة الرصد بالقبة. وبعد وقت قصير، أصبح الشق الطولى واضحًا من جديد، وبدت نجوم مجرة "الطريق اللبنى" متقدة ومتألقة مرة ثانية.

وفى داخل المرصد كان الظلام دامسًا، ولم يكن ثمة شىء يشير إلى وجود المخلوق الغريب، إلا صوت حاد يتردد فى كل الأنحاء. نهض (وودهاوس) من فوق المقعد بسرعة وجهد، وانتصب واقفًا. كان يرتعد بعنف، ويتصبب عرقًا إثر هذا الحدث المفاجئ والمذهل.

وتساءل: "هل كان الشىء المجهول، فى داخل المرصد أو خارجه فى هذه اللحظات؟ لا ريب أنه ضخم ليحدث كل هذه الضجة".

فجأة ظهر شىء ما عبر فتحة القبة، عندئذ تأرجح التلسكوب. جفل (وودهاوس) بعنف ورفع ذراعه إلى أعلى لحمايته. إذن فهذا الشىء بداخل المرصد معه. ومن الواضح أنه يتشبث بالسقف! ترى ماذا يكون بحق الجحيم! هل يتمكن من رؤيته؟

وقف ـ ربما لدقيقة ـ فى حالة ذهول. إن الوحش ـ أيًا كان ـ ينشب مخالبه فى القبة من الداخل، ثم أحس بشىء ما يخفق بالقرب من وجهه، ورأى ـ لحظيًا ـ ضوء النجوم يتوهج فوق جلد عليه ريش مدهون بالزيت. وحينئذ سقطت زجاجة الماء بعنف من فوق المنضدة وتهشمت فوق الأرضية.

إن الإحساس بكائن غريب يشبه الطائر، يحوم على بعد عدة ياردات من وجهه فى الظلام. كان بالنسبة لـ (وودهاوس) أمرًا بغيضًا لا يوصف. وعندما استطاع أن يعاود التفكير، خطر له أن هذا الوحش لابد أنه طائر ليلى أو خفاش ضخم.

على أية حال، فإنه سوف يحاول رؤيته ليعرف ماذا يكون، فسحب عود ثقاب من جيبه، وحاول أن يشعله بحكه بقاعدة التلسكوب. ظهر خط من الضوء المتألق للحظة وتوهج عود الثقاب، عندئذ لمح (وودهاوس) جناحًا هائلاً ينساب نحوه، وميض من الفراء الرمادى البنى، ارتطم بوجهه فسقط عود الثقاب من يده. كانت الضربة المباغتة موجهة إلى صدغه، ومزق مخلب جانب وجهه حتى خده. فقد توازنه وسقط أرضًا وسمع تهشم المصباح. ثم أصابته ضربة أخرى بينما كان يتهاوى. أصيب بالدوار بسبب تلك الضربة، وشعر بدمه الحار يتدفق إلى وجهه. استدار بجسمه ليغطى وجهه،

بعد أن أحس ـ غريزيًا ـ آن عينيه مستهدفتان. وحاول أن يزحف حثيثًا ويلتمس الحماية من قاعدة التلسكوب.

أصيب بضربة أخرى فوق ظهره، وسمع صوت تمزيق سترته، ثم ارتطم الشيء بسقف المرصد. تمكن من التمدد ـ بقدر استطاعته ـ بين المقعد الخشبى وعدسة التلسكوب، ولف جسمه بحيث لم تظهر إلا قدماه مكشوفتان، وبهما يمكنه أن يركل الوحش. كان (وودهاوس) لا يزال يعانى من الارتباك والحيرة الشديدين.

أخذ الوحش الغريب يضرب بعنف وباستمرار، أنحاء المرصد التى تكتنفه الظلمة، وسرعان ما تشبث بالتلسكوب، مما جعله يتأرجح وصلصلت تروسه. وما إن دنا منه الوحش وشعر بجناحيه يرفرفان بالقرب منه، حتى ركله بقدمه بكل قوة، وأحس بها تصطدم بجسم لين. عندئذ كان يشعر بالخوف المروع. لا ريب أن هذا الوحش ضخم الجسم، حتى يتسبب فى تأرجح التلسكوب هكذا. وشاهد للحظات ـ فى ضوء النجوم ـ شكلاً مجملاً لرأس سوداء وأذنين حادتى الأطراف ومنتصبتين وعرفًا قائمًا بينهما. وبدا له أنه فى حجم كلب "الدرواس"(٤) الضخم. ثم أخذ (وودهاوس) يصرخ بقمة انفعاله طلبًا للنجدة.

حينئذ انقض عليه هذا الوحش من جديد. تحسس (وودهاوس) ما حوله بأصابع متشنجة باحثًا عن بقايا زجاجة الماء المحطمة. أخذ يركل الوحش بجنون، وبعد لحظات شعر بأن مجموعة من

(٤) كلب إنجليزى ضخم قد يصل وزنه إلى مائة كيلو جرام (المترجم).

الأسنان الحادة، تقبض بإحكام على رسغ قدمه. صرخ من فرط الألم، وحاول أن يحرر ساقه، بركل الوحش برجله الأخرى. عندئذ أدرك أن زجاجة الماء المحطمة بالقرب من يده، أمسك بها بسرعة وكافح لكى يتخذ وضع الجلوس، ثم تحسس فى الظلام المكان الذى يوجد به قدمه، وأمسك بأذن ناعمة ولينة ويكسوها الفراء.

وكأنها أذن قط عملاق، أمسك بقوة بعنق الزجاجة، وهوى بها بعنف، فوق رأس الوحش الغريب. وكرر الضربة المفاجئة عدة مرات، ثم أخذ يطعن ويغرز الأطراف الحادة للزجاجة المهشمة، حيث يفترض أنه وجه الوحش، إذ كان الظلام دامسًا.

خففت الأسنان قبضتها من فوق رسغ قدمه، وعلى الفور قام (وودهاوس) بتحرير ساقه وركل بعنف، وشعر بأنه سبب ألمًا للوحش فى عظامه، من جراء ركله بحذائه ذى الرقبة، كانت هناك عضة - أحدثت جرحًا - فى ذراعه، وجه ضربة أخرى نحو وجه الوحش، الذى قدر وجوده فى هذا المكان، وشعر أنه يضرب فراء رطبًا.

سادت فترة من الصمت، ثم صوت خربشة مخالب، وجسم ثقيل يسحب عنوة على أرضية المرصد، مبتعدًا عنه. وعاد الصمت يفرض نفسه من جديد، ولم يكن يقطعه سوى شهيقه الشديد التشنجى، وصوت يشبه اللعق. كل ما حوله مغلف بالسواد، إلا شكل متوازى الأضلاع من ضوء الفضاء الأزرق، مع التماع نجوم تشبه غبارًا متألقًا، حينئذ بدا له التلسكوب وكأنه صورة ظلية. وانتظر وقتًا طويلاً حتى السأم والملل.

تساءل (وودهاوس): "هل سوف يعود الوحش من جديد؟" ثم فتش فى جيبه عن بعض أعواد الثقاب، ووجد واحدًا منها مازال باقيًا. حاول أن يشعله بحكه بالأرضية فلم يتمكن، إذ كانت مبتلة، فتوهج بخفوت للحظات ثم انطفأ، فأخذ يلفظ الشتائم والسباب. ولم يستطع أن يحدد مكان باب المرصد. وبدا له أنه أثناء صراعه مع الوحش، فقد قدرته على تحديد الاتجاهات.

وبدأ الوحش الغريب ـ وقد أزعجه التوهج الخافت لعود الثقاب ـ يتحرك من جديد.

صاح (وودهاوس): "أريد المزيد من الوقت" وشعر بومضة من الابتهاج المفاجئ، ولكن الوحش لم يكن متجهًا صوبه. لا بد أنه سبب له الأذى، عندما ضربه بالزجاجة المكسورة، شعر بألم يُخّمل رسغ قدمه، وربما كان الجرح ينزف. وانتابه الشك فى أن ساقه يمكن أن تتحمل وزنه، إذا حاول الوقوف. كان سكون الليل فى الخارج مطبقًا. ليس ثمة صوت لأى شىء يتحرك. إن هؤلاء الخدم الوطنيين الحمقى، يغطون فى النوم، ولم يسمعوا صوت جناحى الوحش وهما يضربان بعنف قبة المرصد، ولا حتى صرخاته. إذن ليست هناك فائدة من معاودة الصراخ، بل الأفضل أن يحتفظ بقوته ولا يفقدها. أخذ الوحش يخفق بجناحيه، وجعل (وودهاوس) يتخذ وضعًا دفاعيًا. أدى عدم اتزانه إلى أن ارتطم مرفقه بالمقعد الخشبى، الذى انقلب محدثًا ضجة. لفظ الشتائم والسباب لكل ما حدث له، ولتلك الظلمة الدامسة.

وعلى حين غرة، بدت رقعة مستطيلة من ضوء النجوم، تتأرجح رواحًا وعودة أمامه. وتساءل: "هل أنا موشك على الإغماء؟". إن

فقدانه للوعى، سوف يزيد الموقف تعقيداً. أطبق قبضتيه وصر على أسنانه، لكى يبقى متماسكًا. أين ذهب باب المرصد؟. وخطر فى باله، أنه يمكنه تبين كل ما حوله، بالنجوم الظاهرة فى السماء التى يجللها الضياء، وكانت حشود النجوم التى يراها من كوكبة[٥] "القوس" فى الاتجاه الجنوبى الشرقى، ولا بد أن باب المرصد فى الشمال أو لعله فى الشمال الغربى. حاول جاهداً أن يُعمل تفكيره. إذا استطاع أن يفتحه، فربما استطاع الهرب إلى الخارج. ويحتمل أن الوحش قد أصيب بجرح. لقد كان الترقب والقلق مروعين.

قال (وودهاوس): "اسمع يا هذا! إذا لم تأت إلىّ فسوف أجىء إليك!".

عندئذ أخذ الوحش يتسلق جانب المرصد، وشاهد هيكل جسمه الأسود، يحجب - تدريجيًا - ضوء السماء. هل يذهب الوحش بعيدًا؟. نسى كل شىء عن مكان باب المرصد، وأخذ يرقب القبة وهى تتحرك فتحدث صريرًا. وتعجب من أنه - فى هذه اللحظات - لا يشعر بالخوف المروع أو الإثارة الشديدة. فجأة انتابه شعور بأن شيئًا ما يتهاوى داخله. أخذت رقعة الضوء - والجسم الأسود الوحش ينساب عبرها - تتضاءل رويدًا. كان هذا الأمر مثيرًا للفضول. بدأ (وودهاوس) يشعر بالظمأ الشديد، لكنه لم يكن يرغب فى البحث عن شىء يشربه. كان يشعر كأنه ينزلق هابطًا فى نفق طويل، يشبه القمع.

---

(٥) حشد هائل من النجوم يتخذ شكلاً معينًا (المترجم).

أحس بحرقة فى حنجرته، عندئذ أدرك أنه يرقد فى وضح النهار، وأن أحد الخدم الوطنيين من قبيلة "الدياك" كان يحدق فى وجهه، بتعبير فضولى. كما كان هناك أعلى وجه (تادى)، الذى كان يقدم له كأسًا من البراندى. وبعد ذلك شاهد عدسة التلسكوب (العينية)، وهى ملطخة بكثير من البقع الحمراء. وبدأ يتذكر ما حدث له.

قال (تادى): "لقد تسببت فى إحداث فوضى داخل المرصد".

كان الخادم الوطنى من "الدياك" يخفق بيضة فى كأس البراندى. احتساه (وودهاوس) واستوى جالسًا، وأحس بوخز ألم حاد. كان رسغ قدمه مربوطًا بضمادات وكذلك ذراعه وجانب وجهه. وتناثر الزجاج المحطم الملوث بالدماء، فى كل مكان بأرضية المرصد، وكان مقعد التلسكوب مقلوبًا وعند الجدار المقابل كانت ثمة بركة سوداء!. كان الباب مفتوحًا، وشاهد من خلاله القمة الرمادية للجبل، فى مقابل خلفية من السماء الزرقاء التى يجللها الضوء.

قال (وودهاوس) بانفعال: "تبًا! من كان يذبح العجول الصغيرة هنا؟ أخرجونى بسرعة من هذا المكان" ثم تذكر الوحش، والمعركة التى دارت بينهما.

سأل (تادى) قائلاً: "ماذا كان ذلك الشىء الذى قاتلته؟".

أجاب (تادى): "أنت أدرى بالأمر. ولكن على أية حال، لا تقلق الآن مما حدث. احتس المزيد من البراندى".

كان (تادى) ـ على الرغم من ذلك ـ ينتابه الفضول، وفى داخله ثمة صراع بين واجبه المهنى ورغبته فى الإبقاء على (وودهاوس) هادئًا،

حتى يوضع فى فراشه بطريقة لائقة. وفكر (تادى) فى أن يتناول (وودهاوس) وجبة دسمة من اللحوم، ثم يخلد للنوم. وعندما يستيقظ يمكنهما معاودة الحوار من جديد، حول هذا الحديث الغريب.

قال (وودهاوس): "كان الوحش أقرب ما يكون إلى خفاش ضخم منه إلى أى حيوان فى هذا العالم. وكانت له أذنان قصيرتان لهما طرفان ويكسو جسمه فراء ناعم وكان جناحاه جلديين. أما أسنانه فكانت صغيرة ولكنها حادة للغاية. ولكن فكه لم يكن قويًا جدًا، وإلا كان قد قضم رسغ قدمى!".

قال (تادى): "لقد كاد أن يفعل ذلك".

- "كان يضربنى بمخالبه فى كل مكان من جسمى. هذا كل ما أعرفه عن الوحش. كانت مناقشتنا حميمية، لكنها لم تكن صريحة وتوحى بالثقة".

- "تحدث الخدم الوطنيون من قبيلة "الدياك" عن وحش أسطورى أطلقوا عليه "الكولوجو" - أيًا كان معنى هذه الكلمة - ولكنه لا يهاجم الإنسان عادة، ولكن يبدو أنك أثرت أعصابه فهاجمك. ويقولون بأن هناك (الكولوجو الكبير) و(الكولوجو الصغير) وكلاهما يأكل بنهم وبسرعة. وهما يطيران ليلاً. وحسب معلوماتى، يوجد فى الغابات هنا "ثعالب طائرة"[٦]. و"ليمورات طائرة"[٧]، ولكن أيًا منها لا يعد حيوانًا هائل الحجم".

---

(٦) نوع من الخفافيش كبيرة الحجم. (المترجم).

(٧) الليمور حيوان يشبه القرد ويتميز بعينيه العاكستين للضوء وبأنه لا ينشط إلا ليلاً. وينتقل من شجرة إلى أخرى وكأنه يطير. (المترجم).

قال (وودهاوس): "وتأوه (تادى) لهذه الفقرة المقتبسة ـ وبالأخص فى غابات "بورنيو"، أكثر من كل معارفنا وما حلمنا به عبر الأجيال. وعلى أية حال، إذا أرادت الحياة الحيوانية فى "بورنيو" أن تطلعنى على غرائبها وأسرارها، فإننى أفضل أن تفعل هذا، عندما لا أكون فى داخل المرصد أؤدى عملى، وحيدًا فى الليل".

انتصارات محنِّط حيوانات وطيور

نورد لكم فيما يلى بعض أسرار تحنيط الحيوانات. رواها لى محنِّط حيوانات فى حالة من التباهى. وكشف لى عنها فى تلك الفترة ما بين الكأس الأولى من "الويسكى" والكأس الرابعة، حين لا يكون المرء مترويًا، على الرغم من أنه لم يثمل بعد.

جلسنا معًا فى حجرته الوحيدة، التى هى فى الوقت نفسه مكتبته وحجرة جلوسه وحجرة طعامه وفى حدود مدى رؤيتى، تفصلنا عن الحجرة ذات الرائحة الكريهة التى يمارس فيها مهنته، ستارة مصنوعة من الخرز.

كان يجلس على كرسى مسطح واضعًا قدميه فوق رف المدفأة بجانب عين اصطناعية زجاجية. وقد لفهما فى خفين صنعهما من سجادة قديمة، قصد بهما أن يكونا مثل صندلين، أما عن سرواله - على الرغم من أنه لا علاقة له بانتصاراته - فقد كان عتيقًا ذا لون أصفر مقلمًا بخطوط طويلة، وكأنما هو مصنوع عندما كان آباؤنا يتركون شواربهم طويلة على جانبى الخدين، وترتدى النساء

"القرينول"[1]. بالإضافة إلى هذا، كان شعره أسود، ووجهه ورديًا، وعيناه بنيتين يشوبهما لون أحمر ومعطفه مصنوعًا بصفة أساسية من الصوف المجزوز قبل تنظيفه مع بعض المخمل القطنى. أما غليونه فكان به تجويف من الخزف عليه نقوش تمثل آلهة الحسن الثلاث عند الإغريق، كما جاء فى الأساطير. وكانت عويناته دائمًا مائلة بانحراف، وتبدو عينه اليسرى - الصغيرة وذات النظرات النافذة - وهى تحدق فيك مباشرة. أما عينه اليمنى فتظهر وكأنك تراها من وراء زجاج داكن، فهى مكبرة وذات ظلال. وكان يتحدث كأنه يلقى محاضرة: لم يوجد قطّ رجل يجيد فن تحنيط الحيوانات[2] مثلى يا (بيلوز). لقد حنطت فيلة وفراشات، وقد بدت كلها كأنها تنبض بالحياة. كما أننى حنطت بشرًا، وذات مرة حنطت زنجيًا. كلا، ليس هناك قانون يمنع هذا. لقد حنطته بحيث تمتد أصابعه يابسة ومفرودة، واستعملته كحامل للقبعات. ولكن ذلك الأحمق (هومر شاى) اصطدم به ذات يوم وحطمه. حدث هذا قبل أن تولد أنت. إن الحصول على الجلود الآن، أمر صعب، ولولا هذا لصنعت لنفسى جلدًا آخر.

"مهنة كريهة؟ لا أعتقد ذلك. إذ إن التحنيط يبدو لى منهاجًا ثالثًا واعدًا، يلى الدفن وحرق الجثث. تخيل أنه يمكنك أن تحتفظ بكل أحبائك إلى جوارك. إن تحفًا فنية من هذا النوع، يمكن أن تنتشر فى أرجاء منزلك وتكون لك صحبة رائعة، دون أن تكلفك

---

(١) تنورة مثبتة بأسلاك لكى تحتفظ بشكلها المنتفخ كالجرس (المترجم).

(٢) حشو جلد الحيوانات أو الطيور لعرضها كتماثيل مشابهة للحقيقة (المترجم).

الكثير. وتستطيع أن تزودهم بآليات، ليقوموا بأداء بعض الأعمال. بالطبع تحتاج هذه الجثث المحنطة إلى صقل وتلميع، بيد أنهم لن يحتاجوا - عادة - إلى أكثر مما يتطلبه الناس الذين هم على قيد الحياة. وعلى الأقل، يمكنك أن تتحدث معهم، دون مقاطعة. وحتى العمّات الثرثارات، إن مستقبلاً رائعًا ينتظر فن التحنيط، بحيث يمكن الاعتماد عليه. أما عن هذه الأحفورة..[٣]".

وصمت فجأة..

وكان يدخن غليونه وهو مغرق فى التفكير، ثم استطرد قائلاً: "لا، لا أظن أنه علىّ أن أخبرك بهذا! كلا شكرًا. لا تضع الكثير من الماء على الويسكى. بالطبع إن ما سأقوله لك سوف يبقى سرًا بيننا. هل تعرف أننى صنعت بعض طيور (الدودو)[٤] وطائر (أوك)[٥] عملاقًا؟ كلا! يبدو واضحًا أنك مجرد هاو فى مجال فن التحنيط. يا صديقى العزيز، إن نصف عدد طيور (الأوك) العملاقة فى العالم، لا يزيد أصالة عن منديل القديسة (فيرونيكا)[٦] أو (القميص المقدس)[٧]. إننا نصنع هذه الطيور من ريش الطيور الغوّاصة وما شابهها. وكذلك نصنع بيض (الأوك) العملاق".

---

(٣) بقايا حيوان أو نبات من عصر جيولوجى سابق (المترجم).

(٤) طائر كبير منقرض رشيق غير قادر على الطيران (المترجم).

(٥) طائر بحرى له جسم قصير، وجناحان قصيرتان وأقدام شبكية (المترجم).

(٦) التى مسح به وجه السيد المسيح عندما كان متجهًا إلى حيث يُصلب، فحدثت معجزة وظهر وجه يسوع على المنديل (المترجم).

(٧) ما يقال: إن السيد المسيح ارتداه قبل الصلب وخلاله (المترجم).

"يا إله السماوات!".

"نعم إننا نصنعه من نوع من الخزف الرقيق الصافى. صدقنى إنه مستحق للعناء والوقت المبذول فى سبيله. إذ يبلغ سعر البيضة الواحدة نحو ثلاثمائة جنيه استرلينى. ولاشك أن تصنيع هذا البيض عمل مجهد ويتطلب خبرة طويلة، ويكون عليك - بعد تصنيعها - أن تكسوها بالغبار، ولا يجرؤ أى شخص من مالكى هذا البيض الثمين، أن يخاطر بتنظيفه. وهذا هو آجمل شىء فى هذا المجال. حتى إذا انتابهم الشك فى مدى أصالة بيضة ما، فإنهم لا يتفحصونها عن كثب: إذ إنها ثمينة وهشة إلى حد كبير".

"إنك لم تعرف قطٌّ أن فن التحنيط قد وصل إلى هذه الآفاق من التقدم. يا بنى. بل تجاوز هذه الحدود، لقد نافست الطبيعة ذاتها؛ إذ قمت بتصنيع واحد من طيور (الأوك) الأصيلة - وانخفض صوته ليصبح همسًا - نعم! واحد من طيور (الأوك) الأصيلة، قد ابتكرته بنفسى".

"لا. عليك أن تدرس علم الطيور، حتى تتبين ما الذى قمت به. بل وما هو أكثر من هذا. فقد اتصلت بى إحدى المنظمات لأخذ عينات من إحدى الجزر غير المكتشفة إلى الشمال من (أيسلندا). وربما أقوم بهذا العمل فى يوم ما. ولكن - فى الوقت الحاضر - أنا منهمك فى أداء عمل مهم. هل سمعت عن طائر (الديورنيس)[٨]؟ إنه واحد من تلك الطيور الكبيرة التى انقرضت فى (نيوزيلندا).

---

(٨) أى من الطيور التى تغوص فى الماء (المترجم).

واسمه الشائع هو (موا). وقد أطلق عليه هذا الاسم لأنه أصبح منقرضًا، إذ لا يوجد أى (موا) فى الوقت الحاضر. أترى؟ لقد كان لديهم بعض عظام هذا الطائر المنقرض وكذلك بعض ريشه، وأجزاء يابسة من جلده. وكانوا قد عثروا عليها فى أحد المستنقعات فى (نيوزيلندا)".

والآن سوف... حسنٌ لم أكن - فى هذه الحالة بالذات - فى حاجة إلى بعض عظام هذا الطائر، إذ قمت بتصنيع (موا) كامل، وكأنما تم تحنيطه. إننى أعرف شابًا يزعم أنه اكتشفه فى مستنقع تطهيرى[٩]، ويدعى أنه قد حنّطه على الفور، قبل أن يتهاوى كفتات تذروها الرياح. إن الريش فريد فى خصائصه. ومن ثم فإننى أستخدم أجزاء من الريش الزاهى للنعام، وأقوم بتحويره وتغيير منظره. نعم. هذا هو سر تلك الرائحة الجديدة التى تشمها. ويمكنهم اكتشاف الخدعة فقط إذا استخدموا مجهرًا. ولكن لا يجرؤ أحد على انتزاع ريشة واحدة من هذه العينات الرائعة. خوفًا من إتلافها. وهكذا ترانى أسهم فى تقدم العلم بجهد متواضع ولكنه مميز. بيد أن كل هذه المجهودات مجرد محاولات منى لتقليد الطبيعة، لقد فعلت ما يفوق هذا فى شبابى، لقد تغلبت على الطبيعة!

وأنزل قدميه من على رف المدفأة، وانحنى نحوى وقال بلهجة تدل على الثقة: "لقد ابتكرت طيورًا.." ثم بصوت هامس: "طيورًا جديدة! مطورة ومحسّنة. لا تشبه أى طيور تمت رؤيتها من قبل"

---

(٩) مياهه قادرة على منع نمو الكائنات الحية المجهرية (المترجم).

واستمر فى الانحناء خلال فترة صمت مؤثرة ثم قال: "وبالأحرى ، أزيد الكون ثراء. بعض الطيور التى ابتكرتها كانت أنواعًا مستحدثة من الطيور الطنّانة، كانت كائنات صغيرة رائعة الجمال. لكن اتضح لى أن بعض الطيور التى ابتكرتها كان غريبًا. لعل أغربها - فى اعتقادى - هو طائر (أنومالوبتركس جيجونا) وكلمة "جيجونس" باللاتينية معناها "فارغ". وقد أطلق على الطائر هذا الاسم، لأنه كان بالفعل مفرغًا من داخله. ومع هذا أمكننى تحنيطه. إن (جافرس) العجوز يمتلك هذا الطائر المبتكر الآن، وأعتقد أنه فخور به مثلى تمامًا. إنه لتحفة فريدة يا (بيلوز) فيه كل الرعونة الحمقاء لـ (البجعة) وكل مهابة (الببغاء) ووقارها وكل قبح منظر (البشروش)[١٠] وهزاله، وكل تداخلات الألوان المفرطة فى (بطة ماندرين)[١١]. يا له من طائر! صنعته من الهياكل العظمية لطائر (اللقلق)[١٢] وطائر (الطوقان)[١٣] بالإضافة إلى استخدام الكثير من الريش.

إن التحنيط بهذا الأسلوب، يصبح متعة حقيقية - يا (بيلوز) - جديرة بأن يمارسها فنان، يتمتع بحس فنى راق.

ربما تتساءل: كيف تحقق لى كل هذا؟ المسألة بسيطة للغاية، مثل اكتشاف كل المخترعات العظيمة. كان هناك صحفى شاب يكتب

---

(١٠) طائر ريشه محمر وله ساقان طويلتان ورقبة مرنة طويلة ومنقاره معقوف للأسفل (المترجم)

(١١) بطة آسيوية ذات ريش ملون وعُرف على الرأس (المترجم).

(١٢) طائر له أرجل طويلة نحيلة ومنقار طويل مستقيم (المترجم)

(١٣) طائر أمريكى ضخم وريشه ذو ألوان براقة (المترجم).

الأخبار العلمية فى الصحف والمجلات، استطاع الحصول على كتيب ألمانى عن طيور (نيوزيلندا)، وترجم جزءًا منه بالاستعانة بقاموس وبذكائه الفطرى، فخلط بين طائر (الكيوى)[١٤] الذى مازال على قيد الحياة، وطائر (أنومالوبتركس) المنقرض، وذكر فى مقاله العلمى معلومات عن طائر ارتفاعه خمسة أقدام[١٥] يعيش فى غابات الجزيرة الشمالية، نادر، خجول، ويصعب أخذ عينات منه...إلخ. وقرأ (جافوس) فقرات من هذا المقال ـ وبالمناسبة هو رجل جاهل إلى حد كبير بوصفه جامع طيور نادرة ـ وأقسم أنه سوف يحصل على هذا الطائر بأى ثمن. وراح يطالب الموردين بإلحاح لكى يحضروه له. إن هذا يدل على ما يمكن أن يقوم به أى رجل بالإصرار والإرادة القوية. لقد كان (جافرس) رجلاً يرغب بشدة فى الحصول على طائر لا وجود له، بل إنه لم يوجد أبدًا. وربما أنه لن يوجد أبدًا فى المستقبل. ولكنه استطاع الحصول على هذا الطائر. نعم لقد حصل عليه!

صمت محنط الحيوانات والطيور لهنيهة، كان خلالها ذهنه مشغولاً بالتفكير والتأمل فى أسرار قوة الإرادة وجمع الطيور النادرة وما شابه ذلك، وأخذ من جديد يسرد لى بعض إنجازاته، فأخبرنى كيف ابتكر عروس بحر فاتنة للغاية، وكيف أن واعظًا متجولاً، لم يستطع استقطاب مستمعين لمواعظه بسببها، قام بتحطيمها فوق مرتفعات (بورسلم ويكس) ، لأنها نوع من الأوثان. لكن هذه الأحداث وغيرها، التى حكاها لى محنط الحيوانات والطيور، غير صالحة

(١٤) طائر نيوزيلاندى بلا جناحين (المترجم).

(١٥) القدم يساوى نحو ثلاثين سنتيمترًا (المترجم).

للنشر على الرغم من طرافتها، ومن ثم ستبقى بعيدًا عن وسائل الإعلام من صحف ومجلات. ولما كان القارئ غير مطلع غالبًا على تلك الأساليب المراوغة، التى قد يتبعها بعض جامعى العينات العلمية النادرة، فقد ينتابه الشك فيما أورده هذا المحنط. أما فيما يتعلق بالبيض الضخم الخاص بطائر (الأوك) والطيور الزائفة المحنطة، فقد وافق عليها كتّاب مرموقون فى علم الطيور. وقد نشر مقال فى جريدة صباحية ذات سمعة طيبة عن طائر (نيوزيلندا)، واحتفظ محنط الحيوانات والطيور بنسخة منها، وقد أطلعنى عليها؛ ليؤكد ما رواه لى.

صفقة النعام

قال مُحنط الحيوانات وهو يتذكر رحلاته أيام صباه، بمناسبة الحديث عن أسعار الطيور.. "لقد رأيت بعينى رأسى هاتين نعامة تباع بثلاثمائة جنيهًا.. نعم ثلاثمائة جنيهًا!".

ونظر إلىّ من خلال نظارته وأردف قائلاً.. "ورأيت نعامة أخرى يرفض صاحبها بيعها بأربعمائة جنيه!".

ثم عقّب.. "لا.. لم يكن ذلك محض خيال.. إنها كانت نعامات عادية.. ولونها باهت قليلاً بسبب نظام غذائها.. ولم يكن هناك أى قيود على طلب شرائها.. هل كنت ستظن أن خمس نعامات سوف تباع رخيصة لرجل من شرق الهند؟. الأمر المثير أن واحدة منها ابتلعت ماسة!".

"الرجل الذى كان يريد شراءها هو سير (موهينى باديشاه).. إنه شخصية هندية مرموقة من (بيكاديللى) يتميز برأس أسود قبيح، وعمامة ضخمة تزينها تلك الماسة.. وفجأة نقر الطائر الكبير تلك الماسة وبلعها.. وعندما أثار الرجل ضجة هائلة، أدرك الطائر أنه

ارتكب خطأ ما ـ على ما أعتقد ـ ولذلك ابتعد بسرعة ودخل فى زمرة النعامات الأخرى للحفاظ على تخفيه بينها.. وحدث كل ذلك فى دقيقة واحدة وكنت من أوائل مَن وصلوا هناك.. وكان يوجد هذا الهندى، وبحاران والرجل المسئول عن تلك الطيور. كانت تلك طريقة عجيبة يفقد بها المرء إحدى مجوهراته.. والرجل المسئول لم يكن موجودًا فى تلك اللحظة، لذلك لم يُعرف فيما بعد أية نعامة هى التى فعلت ذلك.. إنها خسارة جسيمة كما ترى.. وحقيقة لم أشعر بأى أسى.. كان هذا الهندى دائب التباهى بماسته الثمينة منذ أن صعد إلى السفينة، وشىء كهذا يسرى بين الركاب من مقدمة السفينة إلى مؤخرتها فى لحظة واحدة.. الكل كان يتحدث عن هذا الموضوع.. وهبط (باديشاه) إلى أسفل لكى يخفى مشاعره. وعند العشاء قبع على مائدة ومعه اثنان آخران من الهندوس، والقبطان نفسه سخر منه بخصوص هذا الأمر مما جعله يستشيط غضبًا.. ثم استدار وتحدث إلىّ فى أذنى أنه لم يشأ أن يشترى تلك الطيور وإنما كان يريد ماسته.. وطالب بحقوقه كمواطن بريطانى.. لابد من العثور على ماسته.. نعم كان الرجل مصممًا على ذلك.. وكان بوسعه رفع الأمر إلى مجلس اللوردات.

"كان الرجل المسئول عن الطيور من الرجال الحمقى الذين لا يتقبلون أية أفكار جديدة على الدوام، ورفض أى اقتراح باستخدام أدوية للنعام.. كانت تعليماته هى تغذيتها بكذا وكذا من الأطعمة ومعالجتها لكذا وكذا.. وكان الموقف يسمح، فقد أمر بعدم تغذيتها بكذا وكذا، وعدم معالجتها بكذا وكذا. وطلب منه (باديشاه) أن يشفط محتويات المعدة.. رغم أنه لا يمكنك عمل ذلك للطيور..

وكان (باديشاه) رجلاً فظًا وسيئًا مثل معظم البنجاليين الملاعين، ويتحدث دائمًا عن حقه فى الحجز على الطيور.. الخ. لكنه قال أنه رجل عجوز رغم أن ابنه كان محاميًا بلندن وأن ما ابتلعه الطائر أصبح بطبيعة الحال جزءًا من الطائر، وأن كل ما تبقى لدى (باديشاه) هو إقامة دعوى للضرر الذى لحق به. وحتى فى هذه الحالة فسوف يكون من المستحيل إثبات الإهمال الموجب للتعويض. ولم يكن له أى حق تجاه النعامة التى لا يملكها.

"كل ذلك ضايق (باديشاه) للغاية، وكان ضيقه يشتد عندما نعبّر له عن رأينا بأن هذا هو الرأى الصواب.. ولم يكن على متن السفينة أى محام لحل هذا النزاع، ولم يكن أمامنا جميعًا شىء سوى أن نتكلم بحرية كما نشاء.. وأخيرًا وبعد أن تجاوزنا (عدن)، يبدو أن الرجل فوّض أمره للرأى العام لدى الجميع، ولذلك ذهب بمفرده إلى الرجل المسئول عن النعام وقدم له عرضًا بشراء النعامات الخمس"!.

"وفى الصباح التالى كان هناك هرج ومرج عنيف وقت الإفطار.. فقد ثبت أن الرجل المسئول عن النعام ليست له أية خبرة فى التعامل معها ولم يكن ثمة شىء على وجه الارض يدفعه إلى بيعها.. لكن يبدو أنه أخبر (باديشاه) أن رجلاً أوراسيًا[1].. يدعى (بوتر) قدّم له بالفعل عرضًا، وعلى الفور هاجم (باديشاه) الأوراسى (بوتر) هذا علنًا أمامنا.. ولكن اعتقد أكثرنا وأنا معهم أن (بوتر) تصرف بدهاء عندما قال: إنه أبرق من عدن إلى لندن لشراء الطيور.. وأنه

(١) أى نصفه أوروبى ونصفه آسيوى (المترجم).

سوف يحصل على الرد عند بلوغ السفينة ميناء (السويس).. والحقيقة أننى أطلقت اللعنات فى أول فرصة مواتية!

"وفى السويس بكى (باديشاه) وجرت دموعه الساخنة عندما أصبح (بوتر) مالكًا للطيور.. ولم يلبث أن عرض عليه مائتين وخمسين جنيهًا زيادة على ما دفعه للحصول على النعامات الخمس.. وهذا المبلغ يعادل أكثر من ضعف ما دفعه الرجل.. إلا أن (بوتر) قال: إنهم سيشنقونه لو تصرف فى ريشة واحدة منها.. وكان يعنى أنه سيقتل النعام واحدة تلو الأخرى حتى يعثر على الماسة.. لكن بعد أن تروى الرجل فى الأمر بعض الوقت تساهل قليلاً.. كان الرجل (بوتر) هذا مدمنًا للقمار.. ومولعًا إلى حد الهوس بألعاب الورق.. ولابد أن هذا النوع من المغامرة أدى إلى إفلاسه تمامًا.. وعمومًا فقد عرض، وهو يمزح أن يبيع الطيور على حدة لأفراد مختلفين بالمزاد، بدءًا بمبلغ (٨٠ جنيه استرلينى) للنعامة الواحدة.. إلا أنه قال: إنه ينوى الاحتفاظ بإحداها لكى تجلب له الحظ!

"لا شك أنك تفهم أن تلك الماسة باهظة الثمن.. فقد قدر يهودى شاب يعمل تاجرًا للماس، وكان معنا على متن السفينة، ثمنها بثلاثة أو أربعة آلاف جنيهًا استرلينيا عندما أراها له (باديشاه).. وراقت للجميع فكرة المقامرة بالنعام آنذاك.. وتصادف أننى تبادلت الحديث فى الموضوعات العامة مع الرجل الذى كان يعتنى بتلك النعامات.. وتصادف أنه قال لى عرضًا: إن إحدى النعامات مريضة، وأنه يعتقد أنها تعانى من سوء هضم.. وذكر أن لها ريشة بيضاء تمامًا فى ذيلها.. ومن هذه الريشة تعرفت بسرعة عليها..

ولذلك عندما بدأ المزاد فى اليوم التالى على تلك النعامة، فقد رفعت مبلغ الخمسة وثمانية جنيها التى عرضها (باديشاه) إلى تسعين جنيهًا. لقد كنت متأكدًا تمامًا ومتلهفًا لمعرفة نتيجة عرضى وفهم بعض الناس أننى أعرف الحقيقة التى يجهلها غيرى".

"واستمر (باديشاه) يرفع السعر لهذه النعامة كرجل اختل عقليًا. وأخيرًا حصل عليها تاجر الماس اليهودى بمبلغ ١٧٥ جنيهًا، وقال (باديشاه) ١٨٠ جنيه، ولكن بعد أن هبطت مطرقة بائع المزاد. وتم البيع.. وعلى أى حال فقد نالها التاجر اليهودى.. وفى الحال أخرج مسدسه وأطلق النار عليها.. وأحدث (بوتر) جلبة رهيبة لأنه قال: إن ذلك سوف يضر ببيع النعامات الثلاث الأخرى.. وبالطبع تصرف (باديشاه) كالأحمق.. لكننا جميعًا كنا نشعر بالسعادة والإثارة فى وقت واحد.. وأستطيع أن أقول لك إننى شعرت بسعادة بالغة لأن التشريح انتهى ولم يتم العثور على آية ماسة.. نعم كنت سعيدًا جدًا.. ولقد وصلت إلى مبلغ ١٤٠ جنيهًا لهذا الطائر بالذات.. لكن لم يكن لى نصيب فيها..

"اليهودى الشاب كان مثل كل اليهود.. لم يهتج قط أو يسب ويلعن حظه العاثر.. إلا أن (بوتر) رفض الاستمرار فى المزاد حتى عرف الجميع أن البضائع لن يتم تسليمها إلا بعد انتهاء عملية البيع لكل النعام.. وحاول اليهودى الشاب أن يجادل قائلاً بأن هذه الحالة استثنائية ولكن دون جدوى وعندما هدأت المناقشات إلى حد كبير، تم تأجيل بيع النعامات الباقية إلى الصباح التالى.. ويمكننى أن أقول: إننا تناولنا عشاء شهيًا ذلك المساء.. لكن فى النهاية انصرف

(بوتر).. حيث من المسلم به أنه سيشعر بأمان أكثر إذا قبع بجانب طيوره.. وكنا نشعر بالامتنان له لسلوكه الرياضى.. أما السيد العجوز الذى كان ابنه محاميًا فذكر أنه استغرق فى التفكير مليًا.. وإن لديه شكًا كبيرًا جدًا فى أنه لو تم فتح بطن الطائر واكتشاف الماسة بداخله فإنها لن تسلم إلى مالكها الحقيقى.. وأذكر أننى اقترحت أن ذلك يدخل فى نطاق قوانين الكنوز المكتشفة التى تعبر عن واقع ما يحدث.

"احتدم جدال بيننا وانتهينا إلى أن قتل الطائر على متن السفينة يعتبر عملاً لا مبرر له، ثم حاول السيد العجوز.. بعد أن تعمق كثيرًا فى حديثه القانونى.. أن يصف عملية البيع بأنها غير قانونية وليس أكثر من مجرد يانصيب ثم اتجه إلى القبطان وناشده بأن يتصرف.. لكن (بوتر) قال: إنه باع الطيور باعتبارها نعامات.. وأنه لم يبع ولم يَنْوِ أن يبيع ماسات.. وأنه لم يعرض البيع كإغواء أو إغراء لأى أحد.. والنعامات الثلاث التى طرحها كانت على حد علمه ومعرفته لا تحتوى على ماسات.. إن الماسة فى النعامة التى احتفظ بها لنفسه.. أو على الأقل كان يأمل فى ذلك..

"فى اليوم التالى ارتفعت الأسعار بنفس الطريقة.. بالطبع كانت حقيقة وجود أربع فرص بدلاً من خمس أدت إلى تلك الزيادة.. وبلغ متوسط سعر هذه الطيور اللعينة ٢٢٧ جنيهًا استرلينيًا، والأغرب من ذلك أن (باديشاه) هذا لم يحصل على واحدة منها.. وأحدث هياجًا شديدًا.. وفى الوقت الذى كان يفترض فيه أن يعرض سعرًا أعلى، كان يتحدث عن حق الحجز على ممتلكات الآخرين استيفاءً

للدين.. وعلاوة على ذلك كان (بوتر) متضايقًا منه وحاقدًا عليه.. فقد ذهبت إحدى النعامات إلى ضابط شاب هادئ والأخرى إلى اليهودى الصغير والثالثة إلى مجموعة من المهندسين.. وعندئذ بدا (بوتر) آسفًا، لأنه باعها ولأنه أضاع بيده بضعة آلاف من الجنيهات.. وقال: إن الأرجح أنه سوف لا يحقق شيئًا ذا قيمة وأنه كان - دائمًا - أحمق ومغفلاً.. ولكن عندما ذهبت وتحدثت قليلاً معه؛ بهدف استطلاع آخر فرصة له.. عرفت أنه باع بالفعل الطائر الذى احتفظ به لنفسه، إلى رجل دبلوماسى موجود على متن السفينة.. وكان هذا الرجل يدرس العادات والقيم الهندية، وبعض الموضوعات الاجتماعية فى إجازته.. وتلك النعامة الأخيرة بيعت بثلاثمائة جنيهًا.

"المهم أنهم أنزلوا ثلاثة من تلك المخلوقات اللعينة فى ميناء "برنديزى" - رغم أن السيد العجوز قال: إن ذلك يعد خرقًا للأعراف والتقاليد السائدة - كما نزل (بوتر) و(باديشاه) أيضًا.. وبدا الهندوسى كالمخبول كما لو كان يرى ماسته الثمينة تذهب هنا أو هناك!.. واستمر يقول: إنه سيحصل على إنذار قضائى، وكان ذلك فى مخيلته فقط، وأعطى اسمه وعنوانه للرجال الذين أحضروا الطيور، لكى يعرفوا أين يرسلون الماسة عند عثورهم عليها. والحقيقة أن أحدهم لم يكن يريد اسمه أو عنوانه، كما أنهم لم يعطوه اسم أى منهم أو عنوانه".

"وأستطيع القول: إن شجارًا عنيفًا شب على رصيف الميناء.. ولم يلبث كل منهم أن استقل قطارًا مختلفًا.. أما أنا فذهبت إلى

(ساوثهامبتون) وهناك كانت آخر مرة شاهدت فيها الطيور.. وعندما هبطت إلى الشاطئ وجدت النعامة التى اشتراها المهندسون واقفة بجوار الجسر فى شىء يشبه صندوق الشحن البحرى.. وتبدو مخلوقًا أحمق ذا سيقان طويلة جدًا، موطنًا لماسة ثمينة جدًا، إذا صح توقعنا هذا.

"كيف انتهى كل هذا؟".. لعلك تسأل نفسك هذا السؤال.. حسنٌ هذا ما حدث وما كنا نود حدوثه.. نعم ثمة شىء آخر قد يلقى الضوء عليه.. فبعد أسبوع أو نحو ذلك من الهبوط إلى البر، كنت أسير فى شارع (ريجنت) أتسوق بعض الحاجيات. تخيل من اللذين رأيتهما متشابكى الذراعين ويبدو عليهما مظاهر السعادة، إنهما (باديشاه) و(بوتر).. هل كنت تتصور حدوث هذا؟.

"لقد رأيتهما بنفسى.. وكما ترى.. فليس هناك شك فى آن الماسة كانت حقيقية.. و(باديشاه) كان رجلاً هندوسيًا مرموقًا.. فقد قرأت اسمه فى الصحف كثيرًا.. لكن ما إذا كان الطائر الضخم قد ابتلع الماسة بالفعل أو لا.. فهذا أمر لا سبيل إلى القطع به!.

من خلال النافذة

بعد أن أتموا تجبير عظام ساقَىْ (بايلى) حملوه إلى حجرة المكتب ووضعوه على أريكة أمام النافذة المفتوحة.. وهناك تمدد كرجل حىّ.. ولو أنه محموم حتى الخاصرة. وأسفل ذلك مجرد مومياء ذات ساقين ملفوفتين فى الضمادات البيضاء.. حاول (بيلى) أن يقرأ أو حتى أن يكتب قليلاً.. لكنه كان ينظر معظم الوقت من النافذة..

كان يظن أن النظر من النافذة أمر مبهج بدايةً، لكنه الآن يشكر الله عليه مرات كثيرة فى اليوم الواحد.. وفى الداخل كانت الغرفة معتمة وكئيبة، وفى الضوء المنعكس ظهرت معالم الأثاث بوضوح.. وعلى المنضدة الصغيرة توجد أدويته وشرابه.. وبعض الأشياء المبعثرة التى تبدو مثل أفرع عارية لعنقود من العنب أو بعض رماد السيجار على طبق أخضر.. وصحيفة مسائية لليوم السابق.. المنظر فى الخارج كان يغمره الضوء.. ومن خلال ركن هذا المشهد ظهر رأس نبات (السنط)، من أسفل الحافة العلوية لسياج الشرفة من الحديد المشكل بالطرق. وفى مقدمة المشهد تظهر الأمواج الفضية

للنهر التى لا تهدأ ولا تتعب أبدًا.. ووراء ذلك توجد الضفة التى ينمو فيها البوص بغزارة. حيث تمتد رقعة عريضة من أراضى المروج الخضراء.. ثم خط معتم من الأشجار ينتهى بمجموعة من شجر (الحور) عند المنحنى البعيد للنهر.. وينتصب خلفها برج الكنيسة المربع.

وطوال اليوم تمر فى النهر من منبعه إلى مصبه ـ وبالعكس ـ مختلف الأشياء.. وآنذاك تنطلق سلسلة من المراكب والصنادل فى النهر متجهة إلى (لندن).. وهى تنقل أكوامًا من الجير أو براميل الجعة.. ثم زورق بخارى يطلق وراءه كتلاً ضخمة من الدخان الأسود. ويرسل أمواجًا متلاصقة طويلة بكامل عرض النهر. ثم زورق كهربائى هادر.. ومن بعده قارب ممتلئ بالباحثين عن المتعة.. بعضها يجدف فيه شخص واحد بمفرده أو أربعة أفراد ينتمون إلى أحد نوادى التجديف.. ويكون النهر بالغ الهدوء فى الصباح، أو فى آخر الليل. وفى إحدى الليالى القمرية انطلق بعض الناس فى النهر، وهم يغنون ويعزفون على آلة القانون، وبدا أنهم يقضون وقتًا ممتعًا فى الماء.

فى بضعة أيام بدأ (بايلى) يتعرف على بعض المهن والحرف.. وفى أسبوع عرف التاريخ الحميم لستة منهم.. فالزورق (لوزون) يمكنه أن ينطلق من (فيتزجيبون) على مسافة ثلاثة كيلو مترات إلى أعلى النهر، أحيانًا ثلاث أو أربع مرات يوميًا، ظاهرًا بلونيه الأحمر الذى يشبه أكسيد الحديد ـ والأصفر، براكبيه الشرقيين. وذات يوم دهش (بايلى) للغاية عندما توقفت بالخارج العوامة (الإمبراطور

الأرجوانى)، وتناول من على متنها طعام الإفطار بشكل لا ينم عن ألفة.. وذات يوم بعد الظهر، بدأ قبطان مركب نقل بطىء السرعة فى شجار مع زوجته عندما ظهرا من الجهة اليسرى.. ولم يلبث أن تصرف معها بعنف قبل أن يختفيا وراء إطار النافذة الأيمن.. واعتبر (بايلى) كل ما يشاهده من أسباب المتعة خلال مرضه ورقوده فى الفراش.. وكان يحب جدًا مشاهدة الأحداث المتحركة.. وعندما تأتى إليه السيدة (جرين) فى أوقات نادرة حاملة إليه وجبات الطعام، كانت تجده يصفق بيديه أو يصيح قائلا "المزيد.. المزيد".. بيد أن كل "الممثلين" الذين يمخرون عباب النهر كانت لديهم ارتباطات أخرى.. لذلك ذهبت صيحاته تلك أدراج الرياح.

قال (بايلى) لـ (وايلدرسبين) الذى اعتاد على الحضور إليه بطريقة ودية عصبية، لكى يريح المريض بالإنصات إليه "لم يكن يجدر بى أن أفكر فى أن أهتم كل هذا الاهتمام بالأمور التى لا تخصنى ولا علاقة لى بها.. لقد اعتقدت أن تلك الطاقة العاطلة يتميز بها الأطفال الصغار، والخادمات الكبيرات فى السن.. لكنها الظروف.. إننى ببساطة لا أستطيع العمل، والأمور يجب أن تتحرك.. وليس ثمة جدوى من الضيق والضجر والصراع.. والذى يحدث أننى أرقد هنا فى فراشى وأستمتع بهذا النهر، وما يحدث فيه كطفل يلهو! وبالطبع أحيانًا تسوء الأمور لكن ليس دائمًا، وأنا على استعداد لدفع أى ثمن يا (وايلدرسبين) لكى أرى حادث غرق.. حادث غرق واحد.. رؤوس تسبح وزورق بخارى يبادر بإنقاذها.. وشخص واحد أو أكثر يتم إنقاذهم بواسطة خُطّاف حديدى.. هاهو زورق (فيتزجيبون)!. إن لديهم خطَّافًا حديديا كما أرى.. وهناك

صبى أسمر ما زال فى المستنقع.. ولا أظنه فى حالة جيدة يا (وايلدرسبين) وهو على هذه الحالة طوال يومين أو ثلاثة.. جالسًا القرفصاء، ومقطّب الجبين، ومتأملاً رجرجة المياه من حوله.. إنه لأمر كريه بالنسبة له، أن يحدّق باستمرار فى المياه كثيرة الرغاوى التى تندفع بعيدًا عن مؤخرة الزورق.

لاحظا القارب البخارى الصغير وهو يمخر عباب رقعة من النهر مضاءة بضوء الشمس.. وشعرا بحجب لحظى لشجر (السنط).. ثم بانسياب القارب إلى بعيد حتى اختفى عن أنظارهما خلف إطار النافذة الداكن.

قال (بايلى): "لقد بدأت عيناى تكتشف تفاصيل دقيقة فى المشاهد التى أراها.. لقد لاحظت على الفور هذا الخطّاف الجديد.. أما الزنجى البحّار فهو رجل قصير مثير للسخرية فلم يحدث أبدًا من قبل أن اختال فى مشيته حاملاً الخطاف القديم هكذا".

قال (وايلدرسبين): "هل هؤلاء (مالاويون)[1]؟".

قال (بايلى): "لا أعرف.. ولكنى أعتقد أن شخصًا ما أطلق عليهم، (بحّارة جزر الهند الشرقية)".

ثم بدأ يخبر (وايلدرسبين) بما يعرفه من الأمور الخاصة بالعوّامة (الإمبراطور الأرجوانى).. وقال: "من المسلى أن تعرف أن أولئك الناس يأتون من مختلف أرجاء العالم من (أوكسفورد)

---

(١) سكان شبه جزيرة الملايو بجنوب شرق آسيا (المترجم).

و(وندسور).. من آسيا وإفريقيا.. ويجتمعون ويمرون من أمام النافذة لمجرد تسليتى والترفيه عنى.. ورأيت رجلاً أول أمس يطفو فى الماء من حيث لا أدرى، وأمسك بسرطان بحرى كبير أمامى.. ثم فقد مجدافًا واستعاده.. ومر من أمامى من جديد.. ولعله لن يدخل حياتى مرة أخرى فيما بعد.. فإنه عاش وكانت أمامه مشكلاته طوال ثلاثين أو ربما أربعين عامًا على الأرض. لمجرد أن يجعل من نفسه شخصًا أحمق لمدة ثلاث دقائق أمام نافذتى.. إنه شىء رائع يا (وايلدرسبين) لو فكرت فيه".

قال (وايلدرسبين): "نعم.. أعتقد ذلك يا عزيزى".

بعد يوم أو يومين، صادف (بايلى) صباحًا رائعًا.. والحقيقة أنه قرب نهاية الحدث، أصبح فى مثل إثارة أى نافذة عرض.. ومع ذلك فإننا سوف نبدأ من البداية.

كان (بايلى) وحيدًا فى المنزل، إذ إن مديرة المنزل ذهبت إلى المدينة التى تبعد نحو خمسة كيلو مترات لسداد بعض الفواتير المستحقة، كما أن الخادمة كانت فى فترة إجازتها.. وبدأ الصباح كئيبًا.. ومر من أمام النافذة زورق حوالى الساعة التاسعة والنصف متجهًا إلى أعلى النهر.. وبعده هبط مع النهر قارب به مجموعة من الرجال الذين يقضون بعض الوقت فى مخيم لهم على الشاطئ.. لكن كل هذا كان مجرد بداية.. لأن الأحداث ازدادت بهجتها فى حوالى الساعة العاشرة صباحًا.

بدأت الأحداث بشىء أبيض يرفرف بعيدًا، حيث تحف أشجار (الحور) و(الصفصاف) بالنهر، معلّمة انحناءة هناك.. وقال (بايلى):

"لعله منديل جيب.. لا.. إنه كبير جدًا!.. لعله راية أو ما شابه ذلك". لكنها لم تكن راية كذلك.. لأنه وثب من مكانه.. وقال (بايلى) لنفسه: "لعله رجل يرتدى ملابس بيضاء ويركض مسرعًا فى هذا الاتجاه.. إننى محظوظ!.. لكن ملابسه البيضاء فضفاضة جدًا.. ياللعجب".

ثم حدث شىء واحد.. انتشر ضياء أحمر وردى دقيق بين الأشجار المعتمة البعيدة.. ثم شاهد هبّة صغيرة ذات لون رمادى أصفر تنساب باتجاه الشرق ولم تلبث أن اختفت.. ووثب الرجل ذو الملابس البيضاء وأخذ يركض.. والآن وصل دوىٌّ الطلقة التى انطلقت لتوها.. وقال (بايلى): "ما هذا بحق الشيطان؟.. يبدو أن بعضهم أطلق النار عليه". انتصب جالسًا فى سريره متصلبًا.. وأخذ يحدّق بحدّة.. الرجل الأبيض كان قادمًا من الطريق الذى يخترق حقل الذرة.

وقال (بايلى) محدثًا نفسه: "لا ريب أنه أحد الزنوج من (فيتزجيبون) وإلا فلتصبنى اللعنة!.. لكننى أعجب لأمر هذا الرجل، الذى لا يكف عن تحريك ذراعه!".

ثم ظهر ثلاثة أشخاص آخرون بوضوح أمام خلفية معتمة من الأشجار. وفجأة ظهر فى الصورة رجل فى الضفة الأخرى للنهر. كان ذا لحية سوداء، ويرتدى ملابس صوفية وحزامًا أحمر اللون وقبعة رمادية كبيرة من اللباد.. وسار هذا الرجل وهو مائل جدًا إلى الأمام، ويداه تتأرجحان أمامه وخلفه يستطيع المرء أن يرى الأعشاب وهى تنزاح جانبًا من جراء تغلغل الحبل الذى يجر به

القارب الذى وراءه.. وكان يحدق بثبات فى الرجل الأبيض الذى يركض فى حقل الذرة.. وفجأة توقف هذا الرجل.. وبإشارة مميزة أدرك (بايلى) أن الرجل بدأ يجذب حبل الجر يدًا وراء أخرى.. وعبر الماء أمكنه أن يسمع أصوات الناس الموجودين بالقارب الذى ما زال فى نطاق الرؤية.

قال بعضهم: "ما الذى ترمى إليه يا (هاجشوت)؟" .. عندئذ دمدم الرجل ذو الحزام الأحمر ببعض الكلمات غير المسموعة، واستمر يجذب الحبل.. ناظرًا من فوق كتفه إلى الشخص الأبيض المتقدم للأمام.. ووصل إلى ضفة النهر، وانثنى الحبل بين البوص، وضرب الماء كالسوط بين كل جذبة وأخرى..

وعندئذ ظهرت مقدمة القارب.. وصارى الجر.. ورجل طويل أشقر الشعر، واقفًا محاولاً أن يرى كل ما على الضفة وارتطم القارب فجأة وسط القضبان.. وسرعان ما اختفى الرجل الأشقر الطويل.. ويبدو أنه سقط إلى الخلف فى الجزء المختفى من القارب.. وأخذ يطلق اللعنات وبعض الضحك المبهم. أما (هاجشوت) فلم يضحك، وإنما تسلق بسرعة القارب وانطلق به.. ولم يلبث القارب أن غاب عن ناظرى (بايلى).

لكن الأصوات كانت ما تزال مسموعة.. وأوحى اتساق الأصوات بأن ركاب القارب يخبر بعضهم بعضًا بما ينبغى عمله.. وفى ذلك الوقت كان الشخص الذى يركض يقترب من الضفة.. عندئذ أدرك (بايلى) أن الواضح أنه أحد أبناء الشرق من (فيتزجيبون) وبدأ يفهم كنه الشىء الغامض الذى يحمله الرجل فى يده.. وكان ثمة ثلاثة

رجال يسير أحدهم وراء الآخر خلال حقل الذرة، ويحمل أولهم فى يده شيئًا ربما يكون مسدسًا.. وكانوا تقريبًا خلف الرجل المالاوىّ بمسافة تبلغ نحو ٢٠٠ متر.

هتف (بايلى): "يا إله السماوات!.. إنها مطاردة للقبض على شخص ما أو قتله".. ووقف المالاوىّ للحظة، واستقصى الضفة على يمينه.. ثم ترك الممر الذى يسير فيه، واخترق حقل الذرة واختفى هناك.. واقتفى المطاردون الثلاثة أثره.. ورؤوسهم وأذرعهم تتحرك فوق الذرة.. ثم لم يلبثوا هم الآخرون أن اختفوا عن نظر (بايلى) بعد قليل.. حتى الآن نسى (بايلى) أن يسب أو يلعن.. وقال "إن الأمور أصبحت مثيرة للغاية!". ودوت فى الهواء صرخة لامرأة.. تلتها صيحات ونباح وارتطام قوى بالشرفة فى الخارج جعلت (بايلى) يثب من فراشه.. ثم لم يلبث أن دوى طلق نارى من مسدس.. وقال (بايلى) لنفسه: "إن كل هذا بالغ الصعوبة على مريض عاجز مثلى".

بيد أن الأحداث لم تنته بعد فى المشهد الذى يتراءى أمامه.. والحقيقة أن أحداثًا أكثر كانت تنتظره.. فقد ظهر المالاوىّ مرة ثانية، وهو يركض الآن على طول الضفة متجهًا إلى أعلى النهر.. حركته كانت أكثر نشاطًا وأقصر فى طول الخطوة عن ذلك قبل.. كان يهدد شخصًا ما أمامه بواسطة شىء حديدى كئيب يحمله.. ولاحظ (بايلى) أن نصله كان كليلاً؛ إذ لم يكن كالصلب على الإطلاق.

ثم جاء الرجل الأشقر الطويل وهو يلوّح مهددًا بخطاف القارب.. وفى إثره ثلاثة رجال يرتدون ملابس التجديف يجرون بشكل أخرق

حاملين فى أيديهم مجاديف.. ولم يكن بصحبتهم الرجل ذو القبعة الرمادية والحزام الأحمر.. وبعد برهة ظهر الرجال الثلاثة الذين معهم المسدس مرة أخرى.. وهم لا يزالون داخل حقل الذرة. لكنهم الآن اقتربوا من ضفة النهر.. وخرجوا إلى طريق الجر.. وأسرعوا وراء الآخرين.. أما الضفة المقابلة فأصبحت آنذاك خالية ومقفرة من جديد.

قال (بايلى): "إننى على استعداد لدفع عمرى كله وأعرف نهاية كل هذا!" وترددت صيحات مبهمة بأعلى النهر.. وعندما اقتربت تلك الأصوات.. لم تلبث أن خيبت ظنه..

استوى (بايلى) جالسًا ودمدم.. واستمر يدمدم حتى لمحت عيناه شيئًا أسود مستديرًا بين الأمواج.. فهتف "يا إلهى!".

ونظر بدقة شديدة ورأى جسمين أسودين مثلثى الشكل، يبرزان بين حين وآخر على مسافة متر واحد أمام الجسم الأسود.. وظل فى حيرة من أمره، حتى ظهرت جماعة المطاردين مرة أخرى أمامه.. وأخذ يشير إلى هذا الجسم الطافى على الماء.. لكنهم كانوا يتحدثون باهتمام شديد.. ثم حدد الرجل الذى معه المسدس هدفه..

قال (بايلى): "يا إله السماوات.. إنه يسبح فى النهر!" ورفع المالاوىّ رأسه ونظر فرأى المسدس. فغطس فى الماء على الفور.. واقترب كثيرًا من ضفة النهر التى يسكن بها (بايلى).. حتى إن أحد قضبان الشرفة أخفته عن نظر (بايلى) للحظة.. وعندما خرج من الماء أطلق الرجل الذى يحمل المسدس النار عليه.. إلا أن المالاوىّ واصل تقدمه إلى الأمام بثبات.. حينئذ رأى (بايلى) شعره المبتل

على جبهته، والسلاح الذى معه بين أسنانه.. ثم اختفى الرجل تمامًا خلف الشرفة.

بدا ذلك لـ (بايلى) كشىء خطأ لا يمكن تحمله.. وظن أنه فقد أثر الرجل، ولن يراه بعد ذلك.. ترى لماذا لم يستسلم الرجل الهمجى لهم فى الضفة المقابلة للنهر، أو لماذا لم يطلقوا عليه النار فى الماء؟.. وقال (بايلى): "إن هذا سيئ.. نعم سيئ جدًا!.. أسوأ من أحداث الروايات الغامضة!".

وعبر النهر أيضًا أصبحت الأمور عقيمة تمامًا.. تحرّك كل الرجال السبعة إلى أسفل النهر مرة أخرى.. لعلهم يريدون الحصول على القارب، ويواصلون مطاردتهم للمالاوىّ بعبور النهر.. وأنصت (بايلى) وانتظر صوت أى شىء. لكن لم يكن هناك سوى السكون المطبق. وحدّث (بايلى) نفسه: "بالطبع إن الأمر لم ينته هكذا!.. يا إلهى.. لابد أن شيئًا مثيرًا أو مفاجئًا سيحدث!".

انقضت خمس دقائق.. عشر دقائق، ثم مرت قاطرة بحرية، متجهة إلى أعلى النهر.. وهى تجر قاربين.. وسلوك الرجال الراكبين على متنها يشبه سلوك أولئك الذين لم يروا شيئًا مثيرًا فى الأرض أو الماء أو السماء..!

والواضح أن كل الأحداث قد اختفت من مشهد النهر الذى أمامه.. ولعل المطاردة المميتة امتدت إلى داخل أشجار الشاطئ التى خلف المنزل.. وقال (بايلى): "اللعنة!. إن للأحداث بقية.. ولكن لا توجد فرصة الآن لمعرفة النتيجة.. وهذا أمر صعب حقًا لرجل مريض ملازم للفراش!".

سمع خطوات على الدرج خلفه.. ونظر إلى الوراء ورأى الباب ينفتح.. ودخلت السيدة (جرين) وجلست وهى متقطعة الأنفاس.. كانت ما تزال ترتدى قلنسوتها.. وممسكة بكيس نقودها فى يدها. وسلتها البنية الصغيرة معلقة على ذراعها.. وبعد لحظات كان كل ما قالته: "آه.. هناك!".. ثم انصرفت لتوها تاركة (بايلى) غارقًا فى أفكاره ومتخيلاً لبقية كلماتها.

قال (بايلى): "سيدة (جرين).. هلا تناولت بعض الويسكى بالماء.. ثم أخبرتنى بكل شىء".

احتست بعض رشفات، ثم بدأت تسترد قوتها، وقدرتها على الشرح والوصف.. فأحد أولئك المخلوقات السوداء من (فيتزجيبون) فقد عقله، وأخذ يركض فى الطرقات، ومعه سكين كبير يطعن بها كل من يصادفه من الناس.. وتمكن من قتل سائس للعربات، وطعن ساقيًا للخمر، وكاد أن يقطع ذراع أحد السادة الذين يمارسون رياضة التجديف.

قال (بايلى): "رجل مخبول يهذى ينطلق لقتل الناس بالسكين.. نعم هذا ما ظننته". وكان يختبئ بين الأشجار عندما جاءت من خلال الأشجار من المهمة التى كانت تقضيها بالمدينة، وهتف (بايلى) وفى صوته رنة من المرح: "ماذا؟ هل طاردك الرجل المخبول هذا؟".. لكن السيدة (جرين) أوضحت له الموقف بقولها: "لا.. هذا هو الجزء الفظيع فى الموضوع!". فقد كانت تسير فى غابة من الأشجار ولم يدر بخلدها -قط- أنه موجود هناك.. وفقط عندما قابلت السيد (فيتزجيبون) حاملاً مسدسه فى منطقة الأشجار، عرفت ما يجرى

من أحداث وبدا واضحًا ، أن ما يزعج السيدة (جرين) هو ضياع فرصة الإثارة العاطفية.. لكنها مع ذلك كانت مصممة على الاستفادة إلى أقصى حد ممكن مما فاتها. وقالت له مرارًا وتكرارًا: "كان لدى شعور بالاعتقاد بأنه هناك طوال الوقت".

تحمّل (بايلى) ذلك بصبر لمدة عشر دقائق تقريبًا.. وأخيرًا رأى أنه يستحسن أن يثبت وجوده وقال: "سيدة (جرين) الساعة الآن الواحدة وعشرون دقيقة.. ألا تظنين أنه قد حان الوقت لكى تحضرى طعامًا لى؟".

على الفور نهضت السيدة (جرين) وقالت: "يا إلهى! سيدى!.. أرجوك لا تدعنى أخرج من هذه الحجرة حتى أعلم أنهم قبضوا عليه.. فربما يكون قد دلف إلى المنزل دون أن نعلم وربما أنه يزحف ويزحف وهو ممسك بسكينه الرهيب فى الممر الذى يؤدى إلى هذه....".

توقفت فجأة وحدقت من فوقه عبر النافذة. وسقط فكها الأسفل.. ولف (بايلى) رأسه بحدة ولمدة نصف دقيقة تقريبًا بدا كل شىء كالمعتاد.. فهناك الشجرة والشرفة والنهر اللامع تحت ضوء الشمس وبرج الكنيسة البعيد.. ثم لاحظ أن أشجار (السنط) قد تزحزحت إلى اليمين.. وأنها تهتز والأوراق تصدر حفيفًا.. ثم اهتزت الشجرة بعنف وسمع صوت أنفاس لاهثة.

وخلال لحظات ظهرت يد سمراء كثيفة الشعر وتشبثت بقوة بسياج الشرفة.. وبعد لحظات أخرى كان وجه المالاوىّ يحدّق فى وجه الرجل المستلقى على الأريكة!.. وكان تعبير وجهه عبارة عن

تقطيبة غير سارة بسبب السكين الذى يمسكه بين آسنانه.. وكان ينزف دمًا من جرح كئيب المنظر فى خده.. وشعره المبتل جف والتصق برأسه كالقرون.. وكان جسده عاريًا باستثناء سرواله المبتل العالق بجسده.. وكان أول رد فعل لـ (بايلى) هو أن يثب من فوق أريكته.. لكن ساقيه العاجزتين ذكرتاه باستحالة حدوث ذلك.

وبواسطة الشرفة والشجرة تمكن الرجل من رفع نفسه ببطء حتى ظهر للسيدة (جرين).. ولم تتمالك المرأة نفسها من الصراخ والاندفاع إلى الباب محاولة فتح المقبض.. وفكر (بايلى) بسرعة وقبض بكل ما يديه على زجاجتى دواء. قذف إحداهما.. فانطلقت تجاه شجر (السنط).. أما المالاوىّ فقد تشبث بسياج الشرفة وبدأ فى التسلق إلى داخل الشرفة وعيناه اللامعتان مركزتان على (بايلى).

آنذاك كان (بايلى) قابضًا على زجاجة الدواء الثانية.. ولكنه شعر بأن قلبه يوشك أن يهبط فى قدميه.. ولاحظ الرجل وهو يضع ساقه الأولى إلى السياج ثم ساقه الأخرى.. وأحس (بايلى) أن المالاوىّ استغرق حوالى ساعة كاملة ليضع ساقه الثانية على السياج الحديدى!.. وبدت الفترة التى انقضت قبل أن يغيّر وضع جلوسه إلى وقوف كأنها أيام أو أسابيع أو ربما عام أو نحو ذلك.. بيد أن (بايلى) لم يكن لديه تصور واضح عن أى شىء يدور فى ذهنه خلال تلك المدة الطويلة، فيما عدا الدهشة الغامضة من عدم قدرته على قذف زجاجة الدواء الثانية.. وفجأة نظر المالاوىّ من فوق كتفه.. فقد دوت طلقة مسدس.. فطوّح ذراعيه واندفع مسرعًا تجاه الأريكة.

بدأت السيدة (جرين) فى إطلاق صرخة مقبضة بدا أنها ستستمر إلى الأبد! وحدق (بايلى) فى الجسم الأسمر الذى انغرست فيه عظمة الكتف، والذى كان يتلوى بألم عبر ساقيه وتلوثت وتشربت ضمادته النظيفة بالدماء.. وتطلع إلى الخطوط الحمراء على عظمة الكتف الموجودة على مسافة عدة سنتيمترات وراء الأصابع السمراء المرتعدة على الأرض ثم نظر بعد ذلك إلى السيدة (جرين) التى كان مستندة بقوة على الباب وتحدق فى الجسد الملقى، وتطلق صرخات عالية، كما لو أنها تريد إيقاظ الموتى!.. ثم اهتز الجسد متشنجًا.

قبض المالاوىّ على خنجره، وحاول رفع نفسه بيده اليسرى، لكنه لم يلبث أن انهار.. ثم رفع رأسه وحدّق للحظة فى السيدة (جرين).. ولوى وجهه جانبيًا ونظر إلى (بايلى).. وبصوت أنين لاهث نجح الرجل المحتضر فى أن يمسك بقوة بثياب (بايلى) بيده المعوقة، وبذل مجهودًا عنيفًا آذى ساقَى (بايلى) لكى يقذف بنفسه جانبيًا، فى لحظة وصول (فيتزجيبون) وأحد رجال القارب.

بيد أن شيئًا ما انطلق من ذهن (بايلى)، أدى إلى سقوط الزجاجة الثانية بكل قوة على وجه المالاوىّ، وعلى الفور سقط الرف بقوة على الأرض.. وقال (بايلى): "انتبها جيدًا إلى هاتين الساقين" فى الوقت الذى شرع فيه (فيتزجيبون) الشاب وأحد رجال القارب فى رفع الجسم بعيدًا عنه.. وشحب وجه الشاب (فيتزجيبون) شحوبًا شديدًا وقال: "لم أقصد أن أقتله" وقال (بايلى): "لقد فعلت الشىء الصواب!"

إغـواء (هـارينـجـاى)

من المستحيل أن نقرر ما إذا كان هذا الأمر قد حدث بالفعل.. إن ذلك يتوقف بالكلية على كلمة (ر.م. هارينجاى) الذى هو أحد الفنانين.

وتبعًا لروايته عن هذا الموضوع، فإن القصة تفيد أن (هارينجاى) دخل إلى مرسمه فى الساعة العاشرة ليرى ما يمكن عمله لصورة الرأس التى بدأ يرسمها فى اليوم السابق، كانت الرأس التى نحن بصددها لإيطالى يقوم بالعزف على أرغن يدوى فى الشوارع واعتقد (هارينجاى) ـ لكنه لم يكن متأكدًا تمامًا ـ أن اسم اللوحة سيكون "ليلة العيد".. حتى الآن هو صادق، وقصته تحمل سمة الصدق.. لقد رأى الرجل وهو ينتظر بعض الدريهمات. وبسرعة بديهة تنطوى على عبقرية تمكن من إحضاره إلى مرسمه.

قال له (هارينجاى): "اركع يا رجل.. انظر إلى هذا الحامل.. كما لو كنت تنتظر بعض الدريهمات".

وبعد قليل أردف: "لا يفتر ثغرك عن ابتسامة عريضة. لا أريد أن أرسم لثتك.. حاول أن تبدو رجلاً حزينًا".

والآن بعد ليلة من العمل الشاق، بدت الصورة بالتأكيد غير مرضية.. ولكنه تمتم قائلاً: "إنه عمل جيد.. صحيح أن ثمة ندبة صغيرة فى الرقبة.. ولكن".

تحرك فى المرسم، ونظر إلى اللوحة من أكثر من مكان واحد، ثم قال: "لا تعبر عن الرضا.. وهذه الكلمة مكتوبة على اللوحة الأصلية". وأبلغنى أنه قال أيضًا: "اللوحة ليست سوى رسمٍ لعازف الأرغن اليدوى فى الشوارع.. مجرد صورة جانبية له.. ولو كانت صورة كاملة للعازف لما كنت أبالى.. ولكننى لا أستطيع جعل الأشياء تنبض بالحياة.. وأخشى أن خيالى ليس سليمًا.. وهذا أيضًا له صفة الصدق؛ إذ إن خياله بالفعل ليس سليمًا!

"إنها لمسة الإبداع!.. أن تأخذ قطعة من قماش الكنفا[1] وألوان زيتية ثم ترسم إنسانًا.

لكن هذه الصورة!.. لو صادفتها وأنت تسير فى الطرقات، فسوف تعرف أنها رسمت فى مرسم فنى.. وسوف يتكلم عنها الأطفال بزهو، ومع هذا فإنها تحتاج للمسة جمالية أخرى.. إذ لم تكتمل بعد".

ذهب إلى ستارة النافذة وجذبها لأسفل ـ كانت مصنوعة من نسيج قطنى أزرق اللون ذى طبقة ملساء صقيلة يتحرك رأسيًا على بكرات موجودة بأسفل النافذة ـ لإدخال مزيد من الضوء.. ثم أمسك بلوحة مزج الألوان والفرشاة وتكأة الرسام[2] من على

(١) قماش غليظ من القطن أو الكتان معدة للرسم الزيتى (المترجم).

(٢) عصا طويلة خشبية يسند الرسام يده إليها (المترجم).

المنضدة.. ثم استدار إلى الصورة، ووضع بقعة من اللون البنى فى ركن الفم.. ثم حوَّل اهتمامه إلى إنسان العين.. آنذاك قرر أن الذقن ليس معبرًا بالضبط عن أحاسيس ليلة العيد!.

عندئذ وضع كل أدواته على المنضدة، وأشعل غليونًا، وتفحص لوحته بإمعان وحدث نفسه: "سوف أموت لو لم تكن تلك اللوحة اللعينة تسخر منى!". وكان مقتنعًا بأنها تهزأ به فعلاً!

بالفعل زادت الحيوية والحياة فى الشكل.. ولكن ليس بالضبط فى الاتجاه الذى أراده.. لم يكن ثمة خطأ فى السخرية.. وقال (هارينجاى): "ليلة العيد للكافر!... إنه رسم بارع خبيث.. لكن الحاجب الأيسر لا يعبر عن السخرية كما يجب".

ذهب ومر بالفرشاة على الحاجب.. وأضاف القليل إلى شَحْمَة الأذن للإيحاء بأنها مجسمة. ثم خطرت له فكرة أخرى فقال محدثًا نفسه: "أخشى أن ليلة العيد قد انتهت.. لماذا لا يكون الشيطان (مفيستو فيليس)؟ [٣] لكن هذا شىء حقير.. ربما كان صديقًا للدوج؟[٤].. لكنه ليس ردىء السمعة إلى هذا الحد .. ومع هذا لن تفيد الدروع. كان المشهد يبدو كأنه يجرى فى (كاميلوت)[٥]. هل يمكن إلباسه ثوبًا قرمزيًا وتسميته "طالب بالمدرسة المقدسة؟".. لعل

(٣) أحد الشياطين السبعة الرئيسيين عند أهل العصور الوسطى (المترجم).

(٤) لقب يطلق على حاكم جمهورية البندقية منذ القرن السابع الميلادى وحتى القرن الثامن عشر (المترجم).

(٥) مدينة أسطورية كان فيها بلاط (الملك آرثر) البطل البريطانى وقصره فى القرن السادس الميلادى (المترجم).

فى ذلك بعض الدعاية والتقدير للتاريخ الإيطالى فى العصور الوسطى.. أليس كذلك؟".

وقال (هارينجاى) تبدو لوحة من رسم (بنفنوتو شيلينى)![6] مع اقتراح بارع.. بإضافة قدح ذهبى فى أحد الأركان.. لكن ذلك لن يناسب المظهر العام للوحة بالتأكيد".

كان يصف نفسه بأنه يثرثر كثيرًا هكذا، بغية إحساسه البغيض وغير القابل للتعليل بالخوف.. كانت الصورة تكاد أن تكون متكاملة ما عدا التعبير السار الذى يدل على الفرحة..لكنها بكل تأكيد اقتربت من كونها شيئًا حيًا أكثر من ذى قبل، ولو أنها تعبر عن الشر!.. نعم إنها "تنبض بالحياة أكثر من أى لوحة زيتية رسمها من قبل.. وقال (هارينجاى): "لأطلق عليها "صورة رجل نبيل".. أو "رجل محترم"...".

ثم استطرد.. وهو لا يزال يتظاهر بالشجاعة: "هذا لن يجدى.. إنه ما يسمونه الذوق السيئ.. هذه السخرية يجب أن تظهر بوضوح.. وعلاوة على ذلك ثمة بريق زائد فى العينين.. لم ألاحظ من قبل مقدار الدفء فى العينين.. لكن ربما كان ذلك أفضل..!".

الوجه الشيطانى لن يصلح فى هذا الجانب من القنال الإنجليزى[7]..".

(٦) (١٥٠٠ ـ ١٥٧١) رسام ونحات إيطالى من عصر النهضة (المترجم).

(٧) جزء من المحيط الأطلنطى الذى يفصل بريطانيا عن شمال فرنسا (ويطلق عليه الفرنسيون "المانش") ويبلغ طوله نحو ٥٦٣ كيلو متر (المترجم).

ثم قال: "بعض عدم التدقيق يفعل ذلك.. لعل الحاجبين مائلان قليلاً".. ثم جذب ستارة النافذة إلى أسفل لإدخال المزيد من الضوء.. واستأنف خلط الألوان واستخدام الفرشاة فى اللوحة.

بدأ الوجه الموجود فوق قماش الكانفا نابضًا بالحياة من تلقاء ذاته.. وعندما ارتسم على الوجه تعبير خبيث ينم عن الشيطنة، كان من المستحيل عليه اكتشاف ذلك..لابد من التجربة العملية.. الحاجبان - لعل السبب هو الحاجبان؟... وقام بتغييرهما.. لا، لم يكن ذلك أفضل، بل ربما أكثر خبثًا وشيطنة.. هل المشكلة فى ركن الفم؟ ياه..لقد أصبحت نظرته أكثر شذرًا من أى وقت مضى.. وبعد أن أجرى عليها بعض اللمسات، أصبحت النظرة متجهمة وتنذر بالشر.. هل هى العين إذن؟.. إنها كارثة!... وملأ فرشاته باللون القرمزى بدلاً من اللون البنى... حينئذ بدا أن العين فى الصورة تحركت فى محجرها وأنها تحولت إلى عين نارية تحدق فيه!.

كرد فعل انفعالى، ملأ فرشاته باللون الأحمر الزاهى ثم مسح بها الصورة من جانب إلى آخر.. وعندئذ حدث شىء عجيب جدًا.. شىء فى منتهى الغرابة.. إذا كان قد حدث فعلاً!.

الشخص الإيطالى الشيطانى أغلق كلتا عينيه، وزم فمه، ومسح الألوان من على وجهه بيده! ثم فتح عينيه الحمراوين من جديد بصوت يشبه صوت فتح الشفتين، وافتر وجهه عن ابتسامة.. ثم تكلمت الصورة: "لقد كان ذلك تهورًا منك!".

يقول (هارينجاى) حيث إنه أسوأ شىء حدث بالفعل، فقد

استعاد رباطة جأشه.. كانت لديه قناعة مختزنة أن الشياطين مخلوقات عقلانية للغاية!!

صاح (هارينجاى): "إذن لماذا تستمر فى الحركة وتكشر وتلوى وجهك وما شابه ذلك.. وتهزأ بى وتنظر إلىّ خلال.. فى أثناء رسمى لك؟".

قالت الصورة: "لم أفعل شيئًا من هذا".

رد (هارينجاى): قائلاً: "لا بل فعلت".

قالت الصورة: "إنك أنت الذى فعلت ذلك، لكنك لا تدرى".

قال(هارينجاى): "لا لست أنا.. أؤكد لك".

أكدّت الصورة: "قلت لك: إنك أنت الذى فعلت ذلك.. لا، لا.. لا تلطخنى بالألوان من جديد لأننى أخبرك بالحقيقة.. لقد كنت تحاول طوال النهار، أن تنجح بضربة حظ لا غير فى رسم تعبير معين على وجهى.. الحقيقة أنك ليست لديك أى فكرة عن الشكل المطلوب لصورتك.. أليس كذلك؟".

صاح (هارينجاى): "نعم، هذا غير صحيح".

قالت الصورة: "بل هذا صحيح.. ولم تكن لديك فى أى وقت مضى فكرة واضحة عن الصورة التى تعكف عليها.. أنت تبدأ عادة بفكرة غامضة عما تريد تنفيذه.. أنت تريدها أن تكون جميلة.. وتثق بذلك.. كما تريدها أن تكون صادقة وربما مأساوية.. وما وراء ذلك يتوقف على التجربة والحظ.. يا صديقى العزيز! أنت لا تعتقد أنك سترسم صورة كهذه؟".

يجب أن تتذكر الآن أنه ليس أمامنا إلا أن نثق فى كلام (هارينجاى) بالنسبة للأحداث التالية.

فجأة قال (هارينجاى): "سوف أرسم صورة كما أريد بالضبط".. قال ذلك بهدوء وثقة لكن بدا أن ذلك قد "أزعج" الصورة قليلاً!.. وسرعان ما قدمت له الصورة ملاحظة "لن تستطيع أن ترسم صورة دون إلهام".

"لكنى لدىّ إلهام.. لهذه الصورة بالذات".

قال الشكل الساخر المرسوم بلهجة التهكم "إلهام"!.. إنه مجرد خيال جامح راود ذهنك من مجرد مشاهدتك لعازف الأرغن اليدوى بالطريق حين كان ينظر إلى إحدى النوافذ.. ليلة العيد! ... ها، ها، ها... لقد بدأت ترسم مترقباً فرصة لحدوث شىء ما.. هذا هو ما فعلته.. وعندما رأيتك فى ذلك الموقف، حضرت إليك.. لكى أتحدث معك!..".

تريثت الصورة برهة ثم واصلت حديثها: "إن الفن بين يديك عمل ردىء.. أنت رسام فاشل.. لا أعرف لماذا؟ لكن يبدو أنك غير قادر على التركيز فى اللوحة.. أنت تعرف الكثير جداً.. وهذا يعوقك!.. ففى وسط نشاطك وحماسك تسأل نفسك ما إذا كان شىء كهذا لم يحدث من قبل... و....".

قال (هارينجاى) الذى كان يتوقع من الشيطان شيئاً: "لتنتهِ من مجرد النقد.. هل تريد إلقاء محاضرة فنية على مسامعى؟" ثم ملأ الشعر الخشن فى الصورة بطلاء أحمر.

قالت الصورة: "الفنان الحقيقى يظل دائمًا جاهلاً.. الفنان الذى يؤلف نظريات عن أعماله ينتهى دوره بوصفه فنانًا ويتحول إلى ناقد.. لكن بالمناسبة!.. ما الذى تنوى أن تفعله بهذا الطلاء الأحمر؟".

قال (هارينجاى): "سوف أطمس معالمك.. لا أريد أن أسمع كل هذا الهراء.. وإذا ظننت أنه لمجرد كونى أتكسب من فنى فإننى سوف أنخرط فى مناقشات فنية معك.. فأنت ترتكب خطأ جسيمًا".

قالت الصورة وقد رُوّعت بالفعل: "دقيقة واحدة من فضلك.. أريد أن أطرح عليك عرضًا.. عرضًا مخلصًا.. إننى صادق فيما أقوله لك.. أنت ينقصك الإلهام.. حسنٌ.. لا شك أنك سمعت عن كاتدرائية كولون[8] وجسر الشيطان[9] و....".

قال (هارينجاى): "مجرد هراء.. هل تعتقد أننى أريد أن أهلك نفسى لمجرد متعة رسم صورة جيدة ثم لا تلبث أن يلقى بها هنا أو هناك!.. تذكر هذا؟!".

أحس بثورة عارمة من الغضب.. ودفعه غضبه العنيف إلى العمل.. لذلك دهن فم هذا المخلوق باللون القرمزى.. وعندئذ غمغم

---

(٨) من أشهر الصروح المعمارية والدينية المهيبة فى ألمانيا، شيدت عام ١٢٤٨م (المترجم).

(٩) جسر من الحجر فى مدينة (سيريه) بجنوب فرنسا، تدور حوله أسطورة مفادها أن الشيطان بناه على أن يقبض روح أول شخص يعبره، ولكنه فشل فى ذلك ومن ثم اختفى بلا عودة (المترجم).

الإيطالى بكلمات غير مفهومة.. وحاول أن يمسح الطلاء وهو فى دهشة ورعب.. ثم حسب ما قاله (هارينجاى) بدأ صراع لافت للنظر بين جبهتين.. حيث أخذ ينثر الطلاء الأحمر على الصورة، وفى نفس الوقت تدافع الصورة عن نفسها وتمسح الطلاء بنفس السرعة التى يوضع بها!.

وقال الشيطان: "تحفتان فنيتان.. تحفتان مؤكدتان لروح فنان مبدع.. إنها صفقة رابحة؟".. ورد عليه (هارينجاى) بطمس اللوحة بألوان الفرشاة.

لم يكن ثمة صوت يَسمع سوى حفيف الفرشاة وتمتة الإيطالى ودمدمته.. وتحركت يد (هارينجاى) وذراعه بسرعة بالفرشاة. وابتعدت ذراعه عن الحامل كثيرًا.. ثم نفذ الطلاء من لوحة خلط الألوان.. وتوقف الخصمان مقطوعى النفس وجهًا لوجه.. وكانت الصور ملطخة بشدة بالطلاء الأحمر إلى حدٍّ أنها تبدو كما لو كانت قد تمرَّغت فى أرضية مجزر! قال (هارينجاى): "كنت ألهث بشدة، وكانت نقط الطلاء السائلة تتقاطر من رقبتها.. لكن مازالت الجولة الأولى فى صالحها بشكل عام. ثم قالت الصورة بجرأة: "فكر جيدًا.. تحفتان متميزتان كل منهما بشكل مختلف عن الأخرى.. وكل منهما تعادل لوحة الكاتدرائية الرائعة".

قال (هارينجاى): "أعرف ذلك". ثم اندفع خارجًا من مرسمه، وركض فى الممر الذى يفضى إلى مخدع زوجته.. وبعد دقيقة أخرى عاد؛ ومعه علبة كبيرة من طلاء لامع، يشبه لون بيض عصافير الأسوار الشجرية، وفرشاة.. وبمجرد رؤية ذلك بدا الشيطان الفنى ذو العين الحمراء يصرخ قائلاً: "ثلاث تحف لا نظير لها".

كال (هارينجاى) الضربة الثانية عبر وجه الشيطان، وأتبعها بلطخة فى العين.. وسرت همهمة تذمر غامضة.. "أربع تحف".. ثم صوت بصق..

أصبحت لـ (هارينجاى) اليد الطولى الآن.. وهو مصمم على المحافظة عليها بأى شكل.. استمر يضرب بفرشاته يمنة ويسرة بحركات سريعة جريئة على كل الكانفا المهتز فبدا كأنه يتوجع ويتلوى!.. حتى تحول فى النهاية إلى اللون اللامع لعصفور "الدورى"[١٠]!

وبمجرد أن ظهر الفم مرة أخرى ونطق "خمس تحف" وقبل أن يغلقه بالطلاء، انفتحت العين الحمراء وحدجته بنظرة ساخطة ناقمة.. لكن فى النهاية لم يتبق شىء سوى لوحة لامعة من الميناء[١١] سريع الجفاف ولفترة قصيرة أدت حركة طفيفة تحت سطح اللوحة إلى ظهور تغضنات بسيطة هنا وهنالك بها.. لكن سرعان ما همدت تلك الحركة وسكنت الصورة تمامًا!.

أشعل (هارينجاى) غليونه.. تبعًا لروايته هو.. وجلس يحدق بهدوء فى قماش الكنفا المطلى بالمينا.. وحاول أن يصف بالضبط ما حدث للوحة. ثم سار بضع خطوات حتى أصبح خلفها، لكى يتأكد مما إذا كان ظهرها مثيرًا ولافتًا للنظر أو لا.. وبعد ذلك بدأ يندم على عدم تصويره للشيطان قبل أن يطمس اللوحة التى رسمها له.

---

(١٠) عصفور صغير يعيش بين الشجيرات، له لون بنى لامع (المترجم).

(١١) طلاء زجاجى عندما يجف يصير لماعًا وقاسيًا (المترجم).

المهم أن هذه قصة (هارينجاى) وليست قصتى أنا.. وهو يغطى لوحته بقماشه كنفا صغيرة (٦٠ × ٥٠ سم) مطلية بلون أخضر فاتح من الميناء.. ولطخات عنيفة من اللون الأحمر والحقيقة كذلك أنه لم يرسم تحفة فنية رائعة قط.. وهو فى نظر أخلص أصدقائه لن يستطيع أن يفعل ذلك فى يوم ما!.

الرجـل الطائـر

حدّق خبير الأعراق البشرية[1] فى ريشة طائرة "البهمراج"[2] بعمق.. ثم قال: "يبدو لى أنهم كرهوا أن يتركوه".

قال الملازم: "إنه مقدس عند الزعماء.. تمامًا مثلما نجد أن الحرير الأصفر، كما تعلم، مقدس لدى إمبراطور الصين".

لم يُجب خبير الأعراق البشرية.. تردد قليلاً.. ثم فتح الموضوع بغتة: "تُرى ما هى بحق السماء حقيقة القصة التى لا تُصدق التى يحكونها عن رجل طائر".

ارتسمت على شفَتى الملازم ابتسامة واهنة وقال: "وما الذى قالوه لك؟".

قال خبير الأعراق البشرية "أرى أنك تدرك مدى شهرتك!".

لفَ الملازم سيجارة لنفسه وقال: "ليس لدىّ مانع من سماعها مرة أخرى.. لأعرف إلى أى حد وصلت الآن!".

---

(١) عالم فى وصف الأجناس البشرية (المترجم).

(٢) طائر صغير ريشه أسود وذيله طويل (المترجم).

قال خبير الأعراق البشرية وهو يشعر بالضيق.. "إن ذلك شيء سخيف محيّر.. لكن كيف تمكنت من خداعهم؟".

لم يُحرِ الملازم إجابة لكنه أراح ظهره على مسند مقعده القابل للطى وظل مبتسمًا. أردف خبير الأعراق البشرية قائلاً: "ها أنا هنا قد قطعت مسافة ستمائة وخمسين كيلو متر بعيدًا عن طريقى المعتاد لكى أحصل على ما تبقى من التراث الشعبى لهؤلاء الناس.. قبل أن تندثر بسبب الإرساليات التبشيرية والجيش.. ولم أجد سوى حفنة من الأساطير المستحيلة عن ملازم بسلاح المشاة ضئيل الجسم وشعره بلون الرمل.. ولا يدرى أحد كيف أنه حصين لا يصاب بضرر.. أو كيف يقفز فوق ظهور الأفيال.. أو كيف يطير! هذه هى المعضلة الحقيقية.. وقال لى رجل عجوز واصفًا جناحيك أن بهما ريشًا أسود وأن طولهما أقل من طول البغل!.. وقال: إنه رآك كثيرًا فى ضوء القمر تحلق فوق قمم التلال والجبال باتجاه مقاطعة (شندو)[٣] إن هذا شىء محيّر يا رجل!".

ضحك الملازم فى جزل وقال: "استمر.. بالله عليك استمر".

وفعل خبير الأعراق البشرية ذلك.. ولكن فى النهاية شعر بالضجر، وقال: "كيف تمكنت بحق السماء من خداع أطفال الجبال السذج هؤلاء.. كيف فعلت ذلك يا رجل؟".

قال الملازم: "أنا آسف، ولكن صدقنى، إنه كان مفروضًا علىّ.. أؤكد لك أننى دُفعت إلى ذلك.. وفى الوقت الذى لم يكن لدىّ فيه

---

(٣) مقاطعة كانت تتبع الهند من قبل وأصبحت الآن داخل الحدود الباكستانية (المترجم).

أدنى فكرة عن كيفية نظر الخيال الصينى إلى ذلك.. ولا عن مدى فضول هؤلاء القوم.. كل دفاعى يتلخص فى أن ما فعلته من استبدال التراث الشعبى بأسطورة جديدة، كان حماقة منى، ولكن ليس مكرًا أو خداعًا.. ولكن حيث إننى أراك متضايقًا، فسوف أحاول توضيح الأمر برمته لك!".

كان ذلك فى وقت البعثة قبل الأخيرة إلى (لوشاى)[٤] واعتقد (والترز) أن هؤلاء القوم الذين زرتهم أنت، كانوا ودودين ولا يُضمرون الشر.. ومن واقع ثقته الوهمية، فى قدرتى على العناية بنفسى، فقد أرسلنى إلى خانق[٥] طوله عشرون كيلو مترًا تقريبًا.. ومعى ثلاثة من رجال مقاطعة (دربى شاير)، وستة من الجنود الهنود فى الجيش البريطانى[٦] وبغلان و"مباركته" لنا.. لكى نراقب مظاهر الشعور الشعبى فى القرية التى زرتها أنت.. يا لها من بعثة ضعيفة تلك التى تضم عشرة رجال فقط، مع عدم حسبان البغلين بالطبع!. و تقطع عشرين كيلو مترًا.. أثناء اندلاع الحرب!. وبالمناسبة هل رأيت ذلك الطريق؟".

قال خبير الأعراق البشرية: "الطريق! ماذا تعنى؟".

"إنه أفضل حالاً الآن عما كان عليه من قبل.. وعندما صعدنا إلى أعلى الخانق الضيق، كان علينا أن نخوض فى مياه النهر لمسافة

---

(٤) مقاطعة هندية طبيعتها جبلية (المترجم).

(٥) وادى ضيق تكتنفه سفوح صخرية شديدة الانحدار (المترجم).

(٦) كان يطلق عليهم "السباهى" وهم الجنود الهنود الذين كانوا فى الجيش البريطانى قبل عام ١٩٧٤م (المترجم).

أكثر من كيلو ونصف الكيلو متر. حيث يضيق الوادى ويجرى جدول سريع مُزْبد من حول ركبنا. وكنا نسير فوق صخور ملساء وزلقة كالجليد.. وفى هذا المكان المروّع سقطت منى بندقيتى. بعد ذلك قام خبراء وضع الألغام بنسف الجرف الصخرى بالديناميت، وشقوا الطريق الذى جئت منه أنت.. ثم هبطنا إلى أسفل حيث توجد تلك الجروف الصخرية العالية.. لذلك اضطررنا لتجنبها بالانتقال جانبًا فى أثناء عبور النهر.. والحقيقة أننا عبرنا هذا النهر اثنتى عشرة مرة خلال مسافة ثلاثة كيلو مترات فقط..!

"وفى باكورة صباح اليوم التالى كان المكان الذى نسعى إليه فى مرمى بصرنا.. وأنت تعرف هذا الموقع، على رعن[٧] فى منتصف المسافة ما بين تلين كبيرين.. وعندما بدأنا ندرك مدى شؤم السكون المريب بالقرية التى تسطع عليها الشمس، قررنا التوقف لنتدبر الأمر. فى تلك اللحظة ألقوا علينا كتلة ضخمة من وثن نحاسى، تعبيرًا عن مدى ترحيبهم بنا! وهبطت تلك الكتلة علينا من أعلى المنحدر وهى تهدر.. وسقطت على يميننا حيث توجد الجلاميد[٨].. نجا كتفى منها بأعجوبة حيث مرت بجواره على مسافة خمسة سنتيمترات وسحقت البغل الذى كان يحمل كل المؤن والتجهيزات. لم أسمع من قبل ولا من بعد زلزال موت كهذا. وفى ذلك الوقت أدركنا أن عددًا من الرجال الذين يحملون بنادق الفتيل[٩] ويرتدون

---

(٧) جزء بارز من الجبل (المترجم).

(٨) صخر ضخم أكسبته المياه أو الأحوال الجوية شكلاً مدورًا (المترجم).

(٩) يطلق البارود منها عندما يشعل فتيلها (المترجم).

ملابس تشبه الأُزُرّ[١٠] الصوفية المقلمة، يشقون طريقهم بحذرعلى طول المضيق الممتد بين القرية وقمة الجبل فى اتجاه الشرق.. وعلى الفور أصدرت تعليماتى لمن معى (لليمين دُرْ.. ابتعدوا بعضكم عن بعض)

"ومن منطلق هذا التشجيع والحماس، اتبعت بعثتى المكونة من عشرة رجال طريقًا غير مباشر، وشرعت فى التحرك السريع عبر الوادى الممتد أمامنا.. لم نتوقف لإنقاذ ما كان يحمله بغلنا الميت. لكننا احتفظنا معنا بالبغل الذى حمل خيمتى، وبعض الأشياء الأخرى غير الهامة".

"وهكذا انتهت المعركة ونحن فى خزى، ونظرت خلفى فرأيت الوادى ممتلئًا بالمنتصرين، وهم يصيحون ويطلقون النار علينا.. لكن لم يُصَب واحد منا.. هؤلاء الصينيون وبنادقهم ليس لها قيمة إلا عند التصويب من وضع الجلوس.. إنهم يجلسون فوق صخرة ضخمة لساعات يصوبون بنادقهم، وعندما يطلقون نيرانهم، فإنهم يفعلون ذلك كمؤثرات مسرحية لجذب الاهتمام إليهم، وتصور (هوكر) أحد رجال (دربى شاير) بأنه بارع فى استخدام بندقيته فتوقف خلفنا مدة نصف دقيقة ليجرب حظه حين استدرنا فى المنعطف.. لكنه لم يحقق شيئًا على الإطلاق".

"وأنا لست مؤلفًا بارعًا حتى ألفق قصة حول جيشى المتقهقر.. واضطُررنا لإيقاف تقدم العدو مرتين فى ثلاث الكيلو مترات التالية

---

(١٠) ثوب يحيط بالنصف الأسفل من الجسم (المترجم).

عندما اقترب منا كثيرًا، وذلك بتبادل إطلاق النيران معه.. لكن ذلك كان عملاً مملاً ومضجرًا إلى حد كبير.. وكنا نتنفس بصعوبة.. حتى اقتربنا من المكان الذى تطبق فيه التلال على النهر وتضغط الوادى فى ممر ضيق.. وحالفنا الحظ إلى حد بعيد.. عندما لمحنا ستة رءوس سوداء مدورة قادمة فى اتجاه مائل فوق التل على يسارنا فى اتجاه الشرق - وهم يسيرون بموازاتنا تقريبًا".

"عندئذ أمرت مجموعتى بالتوقف، وصحت لـ (هوكر) والإنجليز الآخرين: "تمهلوا!.. ما الذى سنفعله الآن؟" وأشرت إلى الرؤوس الستة.

قال أحد الرجال: "نحصد رؤوسهم وإلا نكون من الحمقى".

قال آخر: "سوف نصبح كذلك بالفعل.. هل تعرف أسلوب الصينيين يا (جورج)؟".

قال (هوكر): "إنهم يستطيعون إطلاق النيران علينا من مسافة نحو خمسين مترًا.. فى المكان الذى يضيق فيه النهر.. إننا سوف ننتحر لو واصلنا تقدمنا".

"نظرت إلى التل على يميننا. كان يشتد انحدارًا فى اتجاه الوادى.. لكن لا زال من الممكن الصعود عليه.. وكل الصينيين الذين رأيناهم حتى وقتنا هذا، كانوا على الجانب الآخر من الجدول".

وقال أحد الجنود الهنود: "إما أن نصعد على هذا التل أو نتوقف".

"لذلك بدأنا نصعد التل بمَيْل.. وبدا لنا أن هناك طريقًا يمتد بميل فى واجهة التل وهو ما تبعناه.. ولم نلبث أن شاهدنا بعض

الصينيين بأعلى الوادى وسمعت أصوات بعض الأعيرة النارية.. ثم رأيت أحد الجنود الهنود جالسًا آسفل منا بمسافة ثلاثين مترًا تقريبًا.. كل ما فعله أنه ببساطة جلس هكذا حتى لا يسبب لنا أى متاعب.. وعلى الفور أصدرت أمرًا بالتوقف.. وطلبت من (هوكر) أن يجرّب إطلاق رصاصة أخرى.. وعندما وجدت أحد الرجال مصابًا فى ساقه.. حملته فوق كتفىّ وصعدت به إلى أعلى لكى أضعه على البغل الذى يحمل بالفعل الخيمة وأشياء أخرى. لم يكن لدينا وقت للتخلص منها.. وعندما صعدت به إلى بقية رفاقنا، كان (هوكر) ممسكًا بزجاجة "المارتينى"[11] فارغة وكان يضحك ويشير إلى نقطة سوداء ساكنة بأعلى الوادى.. أما بقية الصينيين فكانوا مختفين وراء الصخور أو عادوا أدراجهم من المنحنى.

قال (هوكر): "من مسافة نحو خمسمائة مترًا.. هل تصدق؟ أقسم أننى أصبته فى رأسه".

طلبت منه أن يذهب ويفعل ذلك مرة أخرى.. ثم واصلنا سيرنا. بدأ جانب التل يزداد انحدارًا ونحن نصعد إلى أعلى.. والطريق الذى كنا نتبعه تحول إلى طبقة صخرية مستوية.. وفى النهاية أصبح مجرد منحدر صخرى فوقنا وأسفل منا..

"قلت لكى أشجع الرجال رغم أننى كنت خائفًا مما قد يحدث" إنه أفضل طريق رأيته فى منطقة (لوشاى) الصينية حتى الآن".

(١٠) نوع من الخمر (المترجم).

"وبعد بضع دقائق انحنى الطريق حول ركن للمنحدر الصخرى. ثم انتهى الأمر! كانت نهاية الصخور! وبمجرد أن فهم أحد جنود (دربى شاير) الموقف الذى أصبحنا فيه.. أخذ يسب ويلعن المصيدة التى وقعنا فيها.. وتوقف الجنود الهنود فى الحال.. وتقدم (هوكر) وعمّر بندقيته ورجع إلى المنعطف".

"ثم ساعد اثنان من الجنود الهنود زميلهما، وأنزلاه من على البغل. وبدأ ينزلان حمولة البغل من على ظهره. وعندئذ نظرت حولى بدأت أدرك أن موقفنا ليس سيئًا جدًا كما تصورنا.. كنا واقفين على صخور مسطحة أقصى عرض لها حوالى عشرة أمتار.. وفوقنا توجد صخور مائلة تبرز إلى الخارج، بمعنى أنه لا يمكن إطلاق النار علينا من فوق.. وتحتنا هُوة سحيفة عمقها حوالى مئتين إلى ثلاثمائة متر.. وإذا انبطحنا فلن يرانا أحد على الإطلاق من الجانب الآخر من الوادى الضيق..الطريق الوحيد للوصول إلينا كان من على المنصة الصخرية التى نقف عليها.. وهنا الرجل الواحد يساوى جيشًا!.. كنا موجودين فى موقع حصين للغاية وطبيعى جدًا.. ولكن به عيب واحد أن المصدر الوحيد لطعامنا وشرابنا كان بغلاً حيًا واحدًا.. وكذلك كنا على مسافة ثلاثة عشر إلى خمسة عشر كيلو مترًا من مقر البعثة الرئيسية.. وبلا شك فإنهم سوف يرسلون قوة إلينا بعد يوم أو نحو ذلك، للبحث عنا إذا لم نعد".

تريث الملازم برهة ثم قال: "هل شعرت يومًا بالعطش الشديد يا (جراهام)؟".

أجاب خبير الأعراق البشرية: "ليس بالضبط".

"آه.. لقد مر علينا اليوم كله والليلة ثم اليوم التالى، ولم يكن لدينا سوى القليل جدًا من ماء الندى الذى عصرناه من ملابسنا وقماش الخيمة.. وتحتنا نهر زاخر بالمياه العذبة التى تتدافع من حول صخرة كبيرة وسط النهر.. لم أعرف من قبل عقم الأحداث وجدبها هكذا، ولا كل هذه الأحاسيس التى تجيش فى صدرك فى أوقات الشدّة.. لا بد أن الشمس تتلقى أوامر دقيقة لكى تتحرك هكذا وفى نفس الوقت ترسل أشعتها الحارة كفرن هائل قريب من الأرض!.. ونحو نهاية ليلة اليوم الأول قال أحد رجال (دربى شاير) شيئًا لم يسمعه أحد، ثم ذهب ودار حول منعطف الجرف الصخرى.. وسمعنا أصوات طلقات.. وعندما ذهب (هوكر) إلى المنحنى الصخرى لم يجد له أثرًا. وفى صباح اليوم الثانى أصاب الاهتياج الجندى الهندى الذى أصيب ساقه.. ولم يلبث أن قفز أو سقط من على الجرف.. ثم أخذنا البغل وأطلقنا عليه النار.. وهذا أيضًا يجب أن يسقط من على الجرف لينهى صراعه مع الحياة.. تاركًا ثمانية منا فقط على قيد الحياة.

"كنا نستطيع رؤية جثة الجندى الهندى أسفل منا ورأسه غاطسة فى مياه النهر.. كان ممددًا ووجهه لأسفل.. لم يكن جسده محطمًا بقدر ما أمكننى رؤيته.. وبلا شك أن الصينيين كانوا يشتهون الحصول على رأسه.. ولكنهم قرروا ترك ذلك حتى يأتى الليل".

"فى البداية تحدثنا عن كل الاحتمالات فى أن تسمع القوات الرئيسية التى نتبعها طلقات النار.. وأخذنا نخمن عما إذا كانوا قد

افتقدونا أو لا.. وكل ذلك الكلام المعتاد.. لكننا تجمدنا من البرد القارص عندما حل الليل.. وأخذ الجنود الهنود يلعبون ألعابًا بقطع من الحجارة بعضهم مع بعض.. ثم بدأوا يقصون حكايات.. كانت الليلة شديدة البرودة.. وفى اليوم الثانى لم يتكلم منا أحد.. اسودت شفاهنا، واشتعلت حلوقنا من الجفاف، وتمددنا على المنصة الصخرية يحدق بعضنا فى بعض.. وقد آثرنا أن يحتفظ كل منا بأفكاره لنفسه وبدأ أحد الجنود الإنجليز يكتب كلامًا يعبر عن الكفر والهرطقة على الصخور بقطعة من الطين الخزفى يعبر بها عن آخر وصيّة له، غير أننى أوقفته عن هذا العبث.. وعندما نظرت من حافة الصخر على الوادى بأسفل، وشاهدت مويجات الماء تتراقص فى وداعة.. شعرت بشىء يدفعنى للقفز مثل الجندى الهندى.. بدا لى شيئًا معقولاً جدًا وسارًا أن يقفز المرء فى الهواء ليجد بأسفل ماء وفيرًا ليشربه.. أو على الأقل يتخلص من عطشه!.. لكننى تذكرت فى الوقت المناسب أننى الضابط المسئول، وواجبى أن أضرب لمن معى مثالاً يقتدون به.. وهذا هو الأمر الذى منعنى من ارتكاب أية حماقة..

"لكن عند هذا الحد خطرت فكرة ما على ذهنى.. فنهضت ونظرت إلى الخيمة وحبالها.. وتساءلت لماذا لم أفكر فى ذلك من قبل.. ثم تقدمت وأمعنت النظر من فوق الجرف مرة أخرى.. هذه المرة بدا لى الارتفاع أكبر ومنظر الجندى الهندى الطافى أكثر إيلامًا.. ولكن إما أن أفعل هذا أو لا شىء قط.. ولكى أختصر قصة طويلة فقد قررت الهبوط بالمظلة"!.

"حصلت على قطعة دائرية كبيرة من قماش الخيمة السميك. ثلاثة أمثال حجم مفرش المائدة.. ثم سددت الفتحة التى فى المنتصف، وربطت ثمانية حبال حولها فى محيطها الخارجى، بحيث تتقابل فى منتصف المظلة.. وهكذا تم صنع المظلة!".

"جثم الرجال الآخرون حولى يراقبوننى كما لو أن هذيانًا محمومًا قد أصابنى.. ثم شرحت فكرتى للجنديين البريطانيين وكيف أنوى تنفيذها.. وبمجرد حلول الظلام وقت الغسق بدأت المغامرة. أمسك الجميع بالمظلة عاليًا.. ثم أخذت أركض بطول المنصة الصخرية كلها.. وفى الحال امتلأت المظلة بالهواء، وانتفخت مثل الشراع.. ولكنى سأعترف بأننى شعرت بالخوف عند حافة الجرف.. فتوقفت".

"بمجرد أن توقفت شعرت بالخجل من نفسى أمام جنودى.. ومن ثم عدت أدراجى وبدأت من جديد وهذه المرة قفزت فعلاً بالمظلة، وأنا أشهق فى الهواء الطلق والشراع الأبيض الضخم منتفخًا من فوقى"..

"لا بد أننى فكرت بسرعة خارقة.. وبدا لى أن وقتًا طويلاً جدًا مرّ قبل أن أتأكد أن المظلة استقرت وانتظمت فى هبوطها.. فى البداية تمايلت جانبيًا.. ثم لاحظت أسطح الصخور وهى تتجه لأعلى بالنسبة لى كما لو كنت ساكنًا.. لكنى فى الضوء الباهت رأيت أيضًا ثلاثة من الصينيين، وقد أصابهم الذعر من رؤيتهم لى.. كما رأيت أن الجندى الهندى كان مقطوع الرأس.. وعندئذ تمنيت العودة إلى أعلى".

"ثم وجدت حذائى فى فم أحدهم.. وفى لحظات كنت أنا وهو وسط كومة من قماش المظلة وهى تخفق فوقنا.. أعتقد أننى ضربته بحذائى بقوة بحيث خرج فمه من جمجمته.. ولم أتوقع سوى أن يتمكن الآخران من إخراج دماغى أنا من جمجمتى.. لكن هذين الجاهلين البائسين لم يسمعا أبدًا عن الإنسان الطائر.. ولذلك فقد فرا لا يلويان على شىء".

"جاهدت لكى أخلص نفسى من الصينى الميت وقماش المظلة.. ثم نظرت حولى.. على بعد ثمانى خطوات منى قبع رأس الجندى الهندى يحدق فى ضوء القمر.. ثم رأيت الماء وذهبت إليه وشربت.. ولم أسمع فى العالم كله شيئًا سوى وقع خطوات الصينيين الفارين.. وصيحة خافتة من أعلى. وصوت رقرقة الماء.. وبعد أن شربت وارتويت تمامًا، أخذت أسير مع النهر".

"لعل ذلك ينهى تفسير قصة الرجل الطائر.. لكننى لم أقابل أحدًا قط طوال اثنى عشر كيلو مترًا قطعتها.. وصلت إلى معسكر (والترز) فى الساعة العاشرة.. وعندئذ قام حارس ليلٍ بإطلاق النار علىّ، وأنا أركض خارجًا من الظلام الدامس.. وبمجرد أن قصصت حكايتى على الرجل.. خرج خمسون رجلاً إلى الوادى للقضاء على الصينيين والعودة برجالنا.. وبالنسبة لى فقد راقتنى الفكرة لدرجة أننى ذهبت معهم".

"ولقد عرفت أى نوع من الأكاذيب لفقها الصينيون.. أجنحة بطول البغل.. إيه؟ وريش أسود! الملازم الطائر المرح!! هذا رائع جدًا".

استغرق الملازم فى تفكير عميق للحظة ثم أضاف فى مرح: "إنك لن تصدق ذلك.. عندما وصلوا إلى قمة سلسلة الجبال أخيرًا وجدوا أن اثنين آخرين من الجنود الهنود قد قفزا فى الماء".

سأله خبير الأعراق البشرية: "وهل كان الباقون بخير؟".

أجاب الملازم: "نعم.. كان الباقون بخير.. ولكن فى حالة يرثى لها من العطش".

وفى تلك اللحظة صب لنفسه كأسًا من الويسكى والصودا من جديد".

صانع الماسات

عطلتنى بعض الأعمال فى شارع المحكمة العليا حتى الساعة التاسعة مساء.. وعندئذ أحسست ببعض الصداع.. وشعرت بالنفور من الترويح ومن المزيد من العمل. ومشهد السماء فوق الصخور العالية المنحدرة بالوادى الضيق، الذى تمر منه السيارات، تبشر بأن الليلة ستكون هادئة.. ولذلك قررت أن أشق طريقى إلى الجسر.. سأريح عينى.. وأهدئ رأسى بمشاهدة الأضواء الملونة فوق النهر.

بلا شك فإن الليل هو أفضل وقت فى هذا المكان.. فالليل الهادئ يخفى قذارة المياه.. كما أن أضواء هذا العصر الانتقالى - الحمراء والبرتقالى الزاهى والأصفر الغازى والأبيض - تنتشر بين أشكال الظلال وبكل الدرجات اللونية التى تتخيلها ما بين الرمادى والأحمر القانى.. وخلال أقواس (جسر ووترلو) تدل مئة علامة ضوئية على اكتساح العمران لضفتى النهر.. وترتفع فوق أسوار الجسر أبراج (وستمنستر) الرمادية الرقيقة باتجاه ضوء القمر.. وينساب النهر الأسود فى سكون لا تقطعه سوى مويجات نادرة تشتت انعكاسات الأضواء التى تسبح على سطحه الوادع.

قال صوت بجانبى: "ليلة جميلة يا (صاح)!" .. والتفت برأسى، ورأيت جسم رجل يستند على السور بجانبى.. كان وجهًا مهذبًا، ليس قبيحًا.. رغم أنه نحيل وشاحب إلى حد ما، وياقة سترته ملتفة لأعلى ومثبتة بإحكام حول عنقه بما يوحى بتواضع منزلته فى الحياة.. وشعرت بأننى ملتزم بثمن سرير وإفطار لو رددت عليه.

نظرت إليه بفضول.. ترى هل كان لديه شىء يقوله لى ويستحق هذا المال.. أو أنه الشخص العادى العاجز - العاجز حتى عن إخبارى بقصته؟.. كان هناك شىء ينم عن الذكاء فى جبهته وعينيه، كما كانت هناك رجفة ما فى شفته السفلية حملتنى على أن أتحاور معه.. قلت: "جميلة جدًا.. ولكنها ليست كذلك لو بقينا هنا".

قال وهو لا يزال يحدق فى الماء: "لا بالطبع.. إنها جميلة حقًا هنا.. ولكن الآن فقط". وتريث برهة ثم تابع حديثه: " شىء طيب أن تجد شيئًا مريحًا كهذا فى لندن.. بعد التعب والقلق فى أداء أعمالك طوال اليوم.. وقضاء مصالحك والوفاء بكل التزاماتك والحذر من المخاطر.. لا أعرف ما الذى يمكن أن يفعله المرء لو لم تكن هناك تلك الأماكن الهادئة".. كان يتحدث ويتوقف طويلاً بين الجمل.. وواصل :"لابد أنك لا تعرف سوى القليل عن العمال المضجرين فى هذا العالم، وإلا ما كانت هنا.. لكننى أشك أن يكون ذهنك متعبًا، وقدماك متقرحتين مثلى أنا.. ياه!.. إننى أشك أحيانًا فى أن لعبة الحياة تستحق كل هذا العناء.. إننى لو تخليت عن طموحاتى، فلن أجد شيئًا سوى الندم طوال ما بقى لى من العمر".

صمت الرجل. ونظرت إليه فى دهشة.. إذ لن أجد طوال حياتى رجلاً أكثر بؤسًا وعجزًا من هذا الرجل الذى آمامى.. كانت ملابسه رثة وقذرة.. كما كان غير حليق وغير مهندم بالمرة.. وبدا كما لو أنه بقى فى صندوق قمامة لمدة أسبوع!.. والعجيب أنه يتحدث إلىّ عن متاعب العمل فى مشروع تجارى كبير.. وأمسكت نفسى بصعوبة حتى لا أضحك.. إما أن هذا الرجل مجنون، وإما أنه يسخر من فقره.

قلت: "لو كان للأهداف الطموحة والوظائف الكبرى عيوبها ومشكلاتها، مثل العمل الشاق والقلق.. الخ، فإن لها مزاياها وتعويضاتها.. مثلاً النفوذ والقدرة على عمل أشياء جيدة، ومساعدة الآخرين الأكثر ضعفًا وفقرًا من أنفسنا.. ثم إن هناك الشعور بالرضا والإشباع عند تحقيق أهدافنا....".

لم يكن مزاجى فى مثل تلك الظروف ذا وقع رائع.. ولقد تحدثت من واقع التباين بين مظهره وحديثه.. وشعرت بالأسف حتى أثناء ما كنت أتكلم. والتفت الرجل إلىّ بوجه منهك ولكن هادئ وقال: "إننى نسيت نفسى.. بالطبع أنت أسأت فهمى".

حاول أن يسبر غوره للحظة ثم أردف: بلا شك، إن هذه حماقة منى.. وأنت لن تصدقنى حتى لو قلت لك.. ولذلك فليس هناك خطر فى إخبارك.. إن المرء يرتاح عندما يتكلم مع أى إنسان ويُفضى له بهمومه.. إن لدىّ فعلاً تجارة كبيرة تحت سيطرتى.. نعم تجارة كبيرة جدًا.. لكن هناك مشكلات تواجهنى الآن.. الحقيقة أننى.. أصنع ماسات".

قلت: "أظن أنك بلا عمل فى الوقت الحالى.. أليس كذلك؟".

قال الرجل بنفاذ صبر: "لقد سئمت من عدم تصديق الناس لى".. ثم فجأة فك أزرار سترته الرثة وأخرج حقيبة قماشية صغيرة معلقة بخيط حول رقبته.. وأخرج من تلك الحقيبة حصاة بنية اللون.. وقال وهو يناولها إلىّ: "إننى أتساءل عما إذا كان لديك من المعلومات ما يمكنك من معرفة ما هذه؟".

منذ عام أو نحو ذلك كنت أستغل وقت فراغى فى الدراسة للحصول على شهادة علمية من لندن، ومن ثم فإن لدىّ معرفة سطحية بالفيزياء وعلم المعادن. كانت الحصاة تشبه ماسة خام من النوع الداكن، رغم أنها كبيرة جدًا، فى حجم قمة إصبعى الإبهام. حدقت فيها جيدًا، وتبينت أنها على شكل جسم منتظم ثمانى الأسطح، وأسطحه المنحوتة مشابهة لأكثر الأحجار الكريمة.. أخرجت مُديتى وحاولت أن أخدشها بلا جدوى.. وملت ناحية المصباح الغازى وحاولت أن أفعل نفس الشىء فى زجاجة ساعتى، وفعلاً تمكنت من خدشها بخدش أبيض عبر وجهها بسهولة فائقة.

نظرت إلى محدثى بفضول متزايد وقلت: "إنها بالتأكيد تشبه الماسة.. فإذا كان الأمر كذلك، فإنها تكون ماسة ضخمة جدًا.. من أين حصلت عليها؟".. فقال: "لقد صنعتها.. أعدها إلىّ الآن".

استرد الرجل الماسة، ووضعها بسرعة فى مكانها وزر أزرار سترته وقال: "سوف أبيعها لك بمئة جنيه يا رجل". وقال ذلك فجأة وبصوت هامس. وعندئذ ساورتنى الشكوك تجاهه مرة أخرى. فلعل تلك الحصاة تكون مجرد كتلة من مادة صلبة تسمى الكوروندوم

التى تصادف أن شكلها يشبه الماسة، وإذا كانت ماسة، فكيف حصل عليها، ولماذا يبيعها بمئة جنيه فقط، وهى تساوى أضعاف ذلك بلا شك؟".

نظر كل منا فى عينى الآخر.. بدا الرجل متحمسًا ومتلهفًا ولكن بصدق.. وفى تلك اللحظة اقتنعت بأنه يريد أن يبيع لى إحدى الماسات الحقيقية.. بيد أننى رجل فقير، ودفع مئة جنيه سوف يشكل ثغرة ملحوظة فى ثروتى المتواضعة، كما أن أى رجل عاقل لا يشترى ماسة تحت ضوء مصباح غازى من متشرد أشعث بضمانه الشخصى فقط. والأهم من ذلك أن ماسة بهذا الحجم تقدر فى رأيى بعدة آلاف من الجنيهات. ثم فكرت فى أن حجرًا كريمًا كهذا لابد أن ورد ذكره فى كل كتب المجوهرات والأحجار الكريمة. وكذلك تذكرت قصص السلع المهربة وخصوصا أولئك المهربين من قبائل (كفير) بجنوب أفريقيا المشهورين بالسرقة.. ونحيت موضوع الشراء جانبًا.. وقلت له: "كيف حصلت عليها يا رجل؟".. فأجاب: "قلت لك: صنعتها".

كنت سمعت شيئًا عن ذلك المدعو (مواسون).. لكننى علمت أن ماساته المزيفة صغيرة الحجم، وهززت رأسى. وقال الرجل: "يبدو عليك يا (صاح) أنك تعرف القليل عن هذه الأشياء.. سوف أخبرك ببعض المعلومات عن نفسى.. وعندئذ تفكر بطريقة أفضل فى موضوع الشراء".. وأدار ظهره إلى النهر ووضع يديه فى جيبه وتنهد قائلاً: "أعرف أنك لن تصدقنى".

-ريث الرجل برهة ثم بدأ بعد أن فقد صوته الرنة الخافتة للمتشرد، وبدأ يتسم بالنبرات الهادئة لرجل متعلم، يقول: "الماسات

يا صديقى يتم صنعها بنزع الكربون من المادة الخام فى مادة مناسبة لصهرها وتحت ضغط مناسب.. وهذا الكربون يتبلر، ليس كجرافيت "رصاص طرى" أو مسحوق الفحم الحجرى وإنما كماسات صغيرة.. والكيميائيون يعرفون الكثير عن هذا الموضوع منذ سنوات.. لكن لم يتوصل أحد منهم حتى الآن إلى المادة الصحيحة التى يمكن صهر الكربون بها أو تذويبها.. ولا إلى الضغط الصحيح الذى يحصلون به على أفضل النتائج.. ولذلك فإن الماسات التى يصنعها الكيميائيون تكون دائمًا صغيرة وداكنة ولا قيمة لها للاستخدام كحلىٍّ أو مجوهرات.. وأحب أن أقول لك: إننى قد كرست حياتى كلها لهذا الموضوع". وتريث برهة كعادته وواصل حديثه: "بدأت أعمل فى شروط صنع الماس وظروفه عندما كنت فى السابعة عشرة من عمرى.. والآن أنا فى الثانية والثلاثين.. بدا لى أن موضوع صنع الماسات يحتاج إلى كل فكر المرء وطاقته لمدة عشر سنوات، أو حتى عشرين عامًا، لكن حتى لو صح ذلك فإن الأمر يستحق كل ما يبذل فيه من جهد وعناء.. والآن أفترض أن شخصًا توصل أخيرًا إلى اكتشاف هذا السر قبل أن ينتشر وتصبح الماسات شائعة بين الناس كالفحم.. ألست معى فى أن شخصًا كهذا سوف يكسب الملايين؟" تريث مرة أخرى وانتظر أى تعاطف منى معه.. ولمعت عيناه ببريق الطمع وأردف: "فكر يا هذا فى أننى على وشك الوصول إلى هذا السر اللعين وهنا!".

حدق الرجل فىّ متفحصًا وواصل: "كان لدىّ نحو ألف جنيه عندما كنت فى الواحدة والعشرين.. وظننت وقتئذ أنه بقليل من الاقتصاد والتعليم يمكننى مواصلة أبحاثى.. وقضيت عامًا أو عامين

فى الدراسة ببرلين أساسًا، ثم واصلت المسيرة بطريقتى الخاصة.. المشكلة كانت فى السرية.. فكما ترى لو أننى أفشيت مرة واحدة ما لدى من اسرار وما أقوم به من دراسات، فلعل رجالاً آخرين كان سيلهمهم اعتقادى بالجانب العملى لتلك الفكرة بأشياء يفعلونها بأنفسهم.. وبصراحة أنا لا أزعم أن لدىّ من العبقرية ما يضمن لى أن أكون أول فائز بين هؤلاء، لو بدأ السباق المحموم للوصول إلى الاكتشاف.. وأنت ترى أنه كان من المهم بالنسبة لى إذا أردت فعلاً عمل ثروة كبيرة، فإن الناس يجب ألا يعرفوا أنها عملية صناعية وقادرة على إنتاج الماسات بالطن.. ولذلك اضطررت إلى العمل بمفردى.

"فى البداية كان لدىّ معمل صغير، لكن عندما بدأت أموالى تنفد اضطررت إلى مواصلة أبحاثى فى حجرة قذرة قليلة الأثاث بمدينة "كنتيش" حيث كنت أنام مؤخرًا على مرتبة من القش على الأرض بين أدواتى وأجهزتى.. وببساطة نفدت كل أموالى.. وحرمت نفسى من كل شىء إلا من أدواتى وأجهزتى العلمية.. وحاولت أن أسيّر أمورى بإعطاء القليل من الدروس، لكننى لم أكن قط مدرسًا جيدًا.. كما أننى لا أحمل أى شهادة جامعية.. ولم أتعلم الكثير إلا فى الكيمياء.. ووجدت نفسى أضيع وقتًا طويلاً وجهدًا كبيرًا من أجل الحصول على القليل من المال.. لكننى كنت أقترب أكثر وأكثر من هدفى.. فمنذ ثلاث سنوات مضت استطعت حل مشكلة تركيب مادة الصهر أو الإذابة، واقتربت من الضغط الصحيح بوضع مادة الصهر هذه ومركب كربونى معين فى ماسورة بندقية مقفولة جيدا، ثم ملأتها بالماء وأغلقتها بإحكام وسخنتها" ثم تريث برهة..

قلت: "أعتقد أن هذا عمل خطير جدًا.. أليس كذلك؟".

قال: "نعم. فقد انفجرت التركيبة وحطمت كل نوافذ حجرتى والكثير من أجهزتى.. ومع ذلك فقد حصلت منها على نوع من مسحوق الماس.. وأثناء بحثى فى مشكلة الحصول على ضغط كبير على الخليط المصهور الذى تتبلر منه الماسات المطلوبة، وقعت بالصدفة على أبحاث (دوبريه).. بمعامل باريس للبارود والملح الصخرى.. حيث فجر ديناميتًا فى أُسطوانة فولاذية محكمة الغلق تتحمل ضغوطًا هائلة قبل أن تنفجر.. ووجدت أنه بإمكانه سحق الصخور إلى تراب يشبه طبقات الأرض العميقة فى جنوب أفريقيا التى يوجد فيها الماس.. وشكل كل ذلك استنزافًا هائلاً لمواردى وأموالى.. لكننى حصلت فى النهاية على أُسطوانة فولاذية صممت خصيصًا لأغراض هذه..

"ووضعت فى هذه الأُسطوانة كل المادة المتوفرة لدىّ ومتفجراتى.. ثم أوقدت النار فى فرنى ووضعت كل هذا فيها.. ثم خرجت لأتمشى قليلاً!".

لم أتمالك نفسى من الضحك من هذا الأسلوب الواقعى العجيب.. وقلت: "ألم تفكر فى أنها قد تدمر منزلك تمامًا؟، وهل كان هناك أناس آخرون بالمنزل؟".

قال الرجل بعد فترة من الصمت: "كان ذلك من أجل تقدم العلم.. كان بالطابق الأسفل منى أسرة بائع خضر وفاكهة متجول، وفى الحجرة التى بجوار حجرتى كاتب بإحدى المصالح الحكومية.. وبالطابق الأعلى بائعتا زهور.. وربما كانت تلك الفكرة طائشة.. ولعل بعضهم كان بالخارج.

وعندما رجعت كان كل شىء فى مكانه الذى تركته فيه بين الفحم المتقد إلى درجة البياض.. المتفجرات لم تفجر الأُسطوانة.. لكنه كان أمامى مشكلة يتعين علىّ حلها.. فكما تعلم الوقت عنصر هام جداً فى عملية التبلر.. فإذا أسرعت بالعملية، فإن البلورات تكون صغيرة.. ولكن مع البطء فقط يمكن للبلورات أن تكبر إلى أى حجم تريده. وقررت أن أترك الجهاز لكى يبرد لمدة عامين، على أن تقل درجة الحرارة ببطء خلال هذا الوقت. والآن لم يكن لدىّ أى مال.. وفى ظل تلك المحنة وإيجار غرفتى وحاجتى إلى الطعام والشراب.. لم يكن لدى أى مورد مالى أعيش منه..

"فى الحقيقة لا أستطيع أن أقول لك كل التغيرات التى حدثت لى حين كنت أصنع الماسات.. لقد بعت صحفًا وسيَّست خيلاً وفتحت أبواب التاكسيات للناس.. وطوال أسابيع طويلة كنت أرسل خطابات للحصول على عمل محترم. وعملت مساعداً لرجل يمتلك عربة يد، واعتدت أن أنادى على بضاعتنا فى أحد جانبى الطريق وهو فى الجانب الآخر . وذات مرة لم أجد أى عمل طوال أسبوع حتى إننى لجأت إلى التسول.. يا له من أسبوع فظيع!.. وذات يوم كادت نار الموقد تنطفئ ولم آكل شيئًا طوال اليوم.. وأعطانى شاب صغير كان خارجًا مع فتاته ستة بنسات للتفاخر أمامها.. وشكرًا للرب على هذا التفاخر.. فما أجمل رائحة مطاعم الأسماك!.. لكننى على أى حال اشتريت بها كلها فحمًا بحيث أنقذت النيران فى فرنى مرة أخرى.. إن الجوع يدفع الإنسان إلى أى شىء حتى لو كان أحمق!..

"وأخيرًا منذ ثلاثة أسابيع مضت.. أطفأت النار وأخرجت الأُسطوانة وفتحتها فإذا بها ما زالت ساخنة لدرجة أنها لسعت يديّ.. وكشطت الطبقة العلوية الطرية التى تشبه الحمم بآجنة، وغرزتها فى المسحوق فوق لوحة من الحديد.. وعثرت على ثلاث ماسات كبيرة وخمس ماسات صغيرة. وبينما كنت جالسًا على الأرض أغرز الأجنة فى المسحوق انفتح بابى ودخل الكاتب الذى يعمل فى المصلحة الحكومية. كان الرجل ثملاً كعادته.. وقال: "أيها الفوضوى" فقلت له: "اصمت أيها السكير الأحمق".. فقال: "أيها النذل المخرب".. فقلت له: "اذهب يا هذا إلى أبيك" وكنت أقصد كاهن (ليز).. فقال: "لا عليك يا رجل". وغمز لى غمزة ماكرة وتحذّق واستند على الباب، وعينه الأخرى فوق الباب.. وبدأ يثرثر بشأن كيفية اقتحامه لغرفتى، وكيف أنه ذهب إلى الشرطة فى الصباح وأخبرهم بكل ما يعرفه عنى.. وقال: "لقد سرق جوهرة".. وفجأة أدركت أننى فى ورطة.. فإما أن أخبر رجال الشرطة بسرى الخاص جدًا وأخرج من هذا الأمر بلا شىء.. وإما أن يُزج بى فى السجن باعتبارى فوضويًا.

"لذلك توجهت إلى جارى هذا وأمسكت به بقوة من ياقته وجررته على الأرض لفترة.. ثم جمعت كل ماساتى ولذت بالفرار.. وأطلقت صحف المساء على بيتى "مصنع القنابل المدمرة".. والآن أصبحت فى موقف لا أحُسد عليه ولا أستطيع أن أتخلى عن ماساتى بطريقة أو بأخرى. وإذا ذهبت إلى محل مجوهرات محترم فسوف يسألوننى من أين حصلت عليها ويطلبون منى الانتظار قليلاً، ثم يهمس

أحدهم فى أذن أحد العمال لكى يذهب ويحضر شرطيًا، وعندئذ أُضطر لإفشاء سرى.. إننى لا يمكننى الانتظار.

وعثرت على تاجر للسلع المسروقة ولكنه احتفظ بالماسة التى أعطيتها له وقال لى: إنه إذا كنت أريد استردادها فعلىّ أن أرفع دعوى ضده.. والآن أنا أذهب هنا وهناك وحول عنقى ماسات تساوى بضعة مئات الآلاف من الجنيهات.. ولا أجد طعامًا ولا مأوى.. أنت أول شخص أثق به.. وارتحت إلى وجهه.. وأنا فى ورطة حقيقية".

وصمت الرجل ونظر فى عينى نظرة ذات مغزى.. وقلت له: "أعتقد أنه من الجنون أن أشترى منك إحدى الماسات فى مثل تلك الظروف.. كما أننى لا أتجول عادة وفى جيبى مئات الجنيهات كما قد تعتقد.. كما أننى لا أصدق كل ما رويته لى. لكن إذا كنت ترغب فإننى سأفعل ذلك.. وبوسعك أن تحضر إلى مكتبى غدًا".

قال الرجل بجدية: "إذن أنت تعتقد أننى لص!.. وسوف تخبر الشرطة بذلك.. هل تظننى أحمق يا رجل؟ أنا لا أدخل فى مصيدة كهذه أبدًا".

أؤكد لك أننى لا أظنك لصًا.. وهاهى بطاقتى.. على أى حال خذها ولا تخف.. لا تحضر إلىّ فى أى ميعاد مسبق بيننا.. احضر إلىّ فى أى وقت تريد.. هل يرضيك هذا؟".. فأخذ البطاقة وبدأ يطمئن إلى نيتى الحسنة.. وقلت له: "فكر جيدًا فيما قلته لك.. ولا تخش شيئًا.. وأحب أن تحضر إلىّ".

هز الرجل رأسه فى ارتياب وقال: "سوف أرد لك نصف الكراون مع فائدته فى يوم ما.. وسوف تدهشك هذه الفائدة.. على أى حال سوف تحفظ سرى.. أليس كذلك؟.. وأرجوك لا تتبعنى". وعبر الطريق وعرج من تحت القوس الذى يفضى إلى شارع (إركس).. وتركته يمضى إلى حال سبيله.. وكانت تلك آخر مرة رأيته فيها.

بعد ذلك تلقيت خطابين منه يطلب منى فيهما أن أرسل إليه نقودًا ـ وليس شيكات ـ إلى عناوين محددة.. ووزنت الأمر جيدًا فى ذهنى، ثم نفذت ما اعتقدت أنه أفضل أسلوب. وذات مرة زارنى وكنت بالخارج، ووصفه البواب على أنه رجل نحيل جدًا وقذر ورث الثياب ويسعل سعالاً مخيفًا.. ولم يترك أى رسالة. وكانت تلك آخر مرة يتصل فيها بى فيما يتعلق بقصته. وأحيانًا أتساءل عما حدث له.. هل كان عبقريًا مجنونًا؟ أو بائعًا مخادعًا يبيع الحصى والأحجار الزائفة، أو هل صنع بالفعل ماسات كما أكد لى؟

الاحتمال الأخير معقول إلى حد كبير بحيث يجعلنى أعتقد أحيانًا أننى ضيّعت أعظم فرصة لى فى حياتى.. وبالطبع لعله مات الآن، وضاعت ماساته فى مكان ما. إحداها كانت كبيرة جدًا فى حجم إبهامى.. أو لعله ما زال هائمًا على وجهه محاولاً بيع تلك الماسات.. ومن الممكن أيضًا أن يظهر بعد فترة فى المجتمع وهو فى منزلة عالية ومكانة بارزة تناظر تلك التى للأثرياء والوجهاء الذين يتناقل الناس أخبارهم.. ولذلك أشعر بالتأنيب الصامت لنفسى لانعدام روح المغامرة عندى.. وأحيانًا أعتقد أننى كان يجب علىّ أن أدفع له على الأقل خمسة جنيهات.

جزيرة "الإيبيورنيس"[1]

انحنى الرجل ذو الوجه الذى به ندبة[2]، على المنضدة ونظر إلى باقة الزهور التى كانت معى.

وقال متسائلاً: "أهى من زهور الأوركيد؟".

فأجبته: "إن فيها قليلاً منها".

وعاد يتساءل قائلاً: "هل هى زهور السُحْلَب[3]؟"

قلت: "أكثرها منها".

ثم سألنى: "هل ثمة جديد؟ لا أعتقد هذا. فقد زرت هذه الجزر من خمس وعشرين سنة أو ربما من سبع وعشرين سنة. وإذا

(١) طائر ضخم منقرض لا يطير، كان يسمى "طائر الفيل"، أصله من جزيرة مدغشقر التى تقع بالمحيط الهادى يفصلها عن شرق إفريقيا مضيق موزمبيق (المترجم).

(٢) الندبة، هى أثر الجرح يبقى بعد الالتئام (المترجم).

(٣) نبات ذو زهر ملون شبيه بالخف لهذا يطلق عليه أحيانًا "خف السيدة" (المترجم).

وجدت أنت شيئًا جديدًا فيها، فلا ريب أنه جديد تمامًا، ذلك أنى لم أترك هناك الكثير ليجمعه من يأتى بعدى".

قلت: "أنا لا أجمع الأشياء الجديدة".

استطرد الرجل قائلاً :"يا إلهى! كنت شابًا فى ذلك الوقت، وما أسرع ما طوفت حول العالم.". ثم نظر إلىّ متفحصًا وأردف: ... لقد قضيت فى جزائر الهند الشرقية سنتين، وفى البرازيل سبعًا ثم زرت مدغشقر".

قلت له متوقعًا أن يروى سلسلة من الحكايات المحبوكة: "إننى أعرف القليل من المستكشفين المشهورين. لحساب من كنت تجمع الأشياء؟".

- "(دوسن). لعلك سمعت باسم (بوتشر) من قبل!".

- "(بوتشر).. (بوتشر)؟" لقد كان الاسم مألوفًا، ولكنه غامض فى ذهنى، وفجأة استعدت ذكرى قضية (بوتشر ضد دوسن).

قلت: "لقد تذكرت! أنت الرجل الذى قاضيتهم مطالبًا بمرتب أربع سنوات، عندما ألقى بك منبوذًا فى جزيرة صحراوية!".

انحنى الرجل ذو الندبة وقال: "هذا صحيح! كانت قضية غريبة، أليس كذلك؟ لقد استطعت جمع ثروة لا بأس بها فى تلك الجزيرة، دون أن أبذل مجهودًا يذكر و(دوسن) عاجز عن إبلاغى بأية معلومات. وكثيرًا ما كنت أسلى نفسى بالتفكير فى هذا الأمر، أثناء إقامتى فى الجزيرة. لقد قمت بعمل تقديرات مبنية على افتراضات عن هذا الموضوع، وسجلتها بأشكال مزخرفة فى كل أنحاء الجزيرة الخيّرة".

قلت: "ولكن كيف جمعت هذه الثروة؟ إننى لا أتذكر القضية بتفاصيلها".

- "حسنٌ. لعلك سمعت عن (الإيبيورنيس)؟".

"بكل تأكيد. إذ أخبرنى (أندروز) منذ نحو شهر مضى، وقبل أن أبحر مباشرة، أنه كان يدرس أجناس طيور جديدة، فقد عثروا على ما يشبه عظمة فخذ، وكان طولها حوالى ياردة[٤]، مما ينبئ أن صاحبها كان طائرًا عملاقًا.. وحشًا!".

فقال الرجل ذو الندبة: "إننى أصدقك.. لقد كان وحشًا حقًا.. ولم يكن رخ السندباد سوى أسطورة حيكت حول هذا الطائر العملاق.. ولكن متى عثروا على هذه العظام؟".

- "من ثلاث سنوات أو أربع. أعتقد فى عام ١٨٩١. لماذا تسأل؟".

- "لماذا؟ لأننى أنا الذى وجدت العظام.. يا إلهى! كان هذا من عشرين سنة تقريبًا. ولو لم يمكن (دوسن) أحمق بخصوص ذلك المرتب، لأمكنهم تحقيق ربح وفير منها. أما أنا فلم أستطع منع هذا القارب اللعين من الانسياب على غير هدى مع التيار!".

وبعد أن تريث قليلاً.. استطرد: "... لعله المكان ذاته، إنه أشبه بمستنقع على بعد نحو تسعين ميلاً[٥] شمال (أنتانا ناريفو)[٦]. فهل تعرفه؟ إذا أردت أن تذهب إلى هذا المستنقع، فعليك أن تبحر محاذيًا الشاطئ فى قارب. ربما لا تتذكر ذلك؟".

---

(٤) الياردة تساوى ٩١,٤ سنتيمترًا (المترجم).

(٥) الميل = ١,٦ كيلو متر تقريبًا (المترجم).

(٦) عاصمة جزيرة مدغشقر (المترجم).

"كلا لا أتذكر. ولكننى أتصور أن (أندروز) قد ذكر شيئًا عن مستنقع".

"لا بد أنه يعنى نفس هذا المكان. إنه يقع على الساحل الشرقى. وثمة شىء غامض فى مياهه، يحفظ الكائنات من التحلل، وله رائحة "روح القطران"[٧]. لقد ذكرنى بـ (ترينيداد)[٨]. هل عثروا على أى بيض آخر؟ إن طول بعض البيض الذى وجدته كان قدمًا[٩] ونصف. والمستنقع - كما تعرف - يلتف حول المكان ويفصل هذا الجزء، وهو فى معظمه مالح.. كم كانت الحياة شاقة. فى تلك الفترة التى قضيتها هناك! لقد وجدت البيض والعظام بمحض الصدفة. لقد ذهبنا - أنا واثنان من أهل البلاد - فى زوارق طويلة ضيقة مربوطة بعضها فى بعض، ووجدنا العظام فى نفس الوقت. وكانت لدينا خيمة نقيم فيها ومئونة تكفينا أربعة أيام. وكنا نعسكر فى أحد الأماكن الأكثر استقرارًا من غيرها. وحين أفكر الآن - من جديد - فى ذلك، فإننى أتذكر على الفور رائحة المكان التى تشبه قار الفحم. كم كان عملاً غريبًا بحق؛ فإنك تذهب لتسبر غور الطين بقضبان حديدية. وغالبًا كان البيض يتهشم. ولست أدرى كم من الزمن انقضى، منذ عاشت "الإيبيورنيس". وتروى البعثات التبشيرية[١٠] بأن للوطنيين أساطير يتناقلونها عن تلك الطيور العملاقة حين كانت على قيد الحياة..".

---

(٧) سائل زيت يحضر بتقطير القار الخشبى (المترجم).

(٨) جزيرة تقع فى جنوب البحر الكاريبى على بعد حوالى ١١ كجم عن السواحل الشمالية الشرقية لفنزويلا (أمريكا الجنوبية) (المترجم).

(٩) القدم نحو ٣٠ سنتيمترًا (المترجم).

(١٠) التى تقوم بمهمات دينية أو خيرية (المترجم).

صمت برهة ثم أردف: "... ولكنى لم أسمع هذه القصص بنفسى[١١] غير أنه من المؤكد أن البيض الذى حصلنا عليه كان طازجًا، وكأنه وضع حديثًا. نعم كان طازجًا! فقد سقطت واحدة من أحد أتباعى الوطنيين، حين كان ينقلها إلى القارب فتهشمت، أنبَّته على ذلك حتى ندم على ما فعل! ولكن ما كان أحلى طعم هذه البيضة، وكأن أنثى وضعتها فى التو، بل لم تكن حتى كريهة الرائحة. وكأن أمها لم تمت من ما يقرب من أربعمائة عام. وقال الوطنى مبررًا فعلته بأن حشرة "المئينية"[١٢] قد لدغته فاختل توازنه وأسقط البيضة. على أننى قد خرجت من سياق القصة. لقد قضينا اليوم كله نحفر بحرص فى الطين الناعم، لنخرج هذا البيض غير مكسور، حتى كسانا كلنا الطين الأسود الكريه. ومن الطبيعى أننى كنت محبطًا، إذ كانت هذه - حسب علمى - هى كمية البيض الوحيدة التى أمكن العثور عليها دون أن تصاب حتى بشرخ. وفيما بعد ذهبت لمشاهدة البيض المحفوظ فى متحف التاريخ الطبيعى فى لندن. ووجدت أن كله كان متشققًا وملتصقة أجزاؤه، بعضها ببعض كأنها أشغال الفسيفساء تنقصها بعض القطع. أما البيض الذى عثرت عليه فقد كان سليمًا بلا عيوب. لهذا قررت الاحتفاظ به فى مكان آمن بمجرد عودتى. وبالطبع، أصابنى ضيق شديد من ذلك الإنسان الأحمق الذى أسقط بيضة وهشمها، بعد

---

(١١) لم يشاهد أى أوروبى أحد طيور "الإيبيورنيس" الحية. مع احتمال استثناء تاجر أقمشة زار مدغشقر فيعام ١٧٤٥ (هـ.ج.ويلز).

(١٢) حشرة منصلية شبيهة بالدودة يطلق عليها "ذات مئة القدم" أو "أم أربع وأربعين" (المترجم).

عمل ثلاث ساعات، لمجرد أن حشرة لدغته. لقد ضربته على فعلته ضربًا مبرحًا".

وأخرج الرجل ذو الندبة غليون من الخزف. فوضعت أمامه كيس التبغ الخاص بى، فملأ غليونه وهو منشغل البال. سألته قائلاً: "وماذا عن باقى البيض؟ هل أخذته إلى الوطن؟ لا أتذكر أنك قلت شيئًا عن هذا الأمر..".

أجابنى بقوله: "هذا هو الجزء العجيب من القصة. لقد كان لدىّ ثلاث غيرها، كلها طازجة تمامًا. وضعناها فى القارب، وذهبت إلى الخيمة لأعد بعض القهوة، تاركًا تابعَى الهمجيَّين على الشاطئ. وكان أحدهما يتألم من لدغة الحشرة، والآخر يحاول مساعدته. ولم يخطر ببالى أن هذين الوضيعين يمكن أن ينتهزا فرصة الوضع غير الاعتيادى الذى كنت فيه، ليفكرا فى الهرب. بيد أننى أعتقد أن المصاب بلدغة الحشرة، قد تأثر بسمها بالإضافة إلى ما سببه ضربى له من ألم - وكان بطبعه مشاكسًا - ومن ثم حمل الآخر على التذمر..".

تريث لبرهة ثم أضاف قائلاً: "... أذكر أننى كنت جالسًا أدخن وأغلى الماء على الموقد الكحولى(١٣)، الذى اعتدت أخذه معى فى مثل هذه الرحلات العلمية. وفى الوقت ذاته، كنت أستمتع بمشهد المستنقع وقت غروب الشمس. فقد كان منظره رائعًا يختلط فيه اللون الأحمر القانى بشرائط من اللون الأسود. ويرتفع اللون

---

(١٣) الذى يستخدم فيه الكحول كوقود (المترجم).

الرمادى ضبابيًا وراء الأرض وحتى التلال، وتبدو السماء فى الخلف، حمراء متوهجة، كفوهة فرن هائل. ومن خلفى ـ على مسافة خمسين ياردة ـ كان تابعىّ الهمجيان، لا يعبآن بالمشهد الطبيعى الذى يوحى بالهدوء والسلام، بل كانا يتآمران علىّ بالفرار بالقارب وتركى وحيدًا، ليس لدىّ سوى الماء الموجود فى برميل من الخشب سعته ٣٠ جالونًا(١٤).

تناهى إلى سمعى صوتٌ عالٍ، جعلنى ألتفت خلفى، فوجدت تابعىّ فى هذا القارب الضيق ـ إذا أمكن أن نسميه قاربًا ـ وكانا على مسافة نحو عشرين ياردة من الشاطئ. فاكتشفت المؤامرة فى الحال. وكانت بندقيتى فى الخيمة ولكن لم يكن لدىّ طلقات رصاص، بل مجرد خرطوش لاصطياد البط. وكانا يعرفان ذلك. بيد أنه كان معى أيضًا مسدس ذو أُسطوانة دوّارة فى جيبى. فأخرجته حين كنت أركض فى اتجاه الشاطئ. قلت لهما وأنا ألوّح بيدى: "عودا" ولكنهما أجابا ببضع كلمات غير واضحة لم أفهم لها معنى. وسخر منى الرجل الذى كسر البيضة، وصوبت مسدسى نحو الرجل الآخر لأنه لم يكن مصابًا ولأن المجداف كان معه، ولكنى أخطأت الهدف، ثم سمعتهما يضحكان ومع هذا فإننى لم أُهزم. وكنت أعرف أنه فى مثل هذه المواقف. يجب أن أحتفظ بهدوئى ورباطة جأشى. أطلقت عليه رصاصة أخرى جعلته يقفز من مكانه بسبب صوت أزيزها المدوى. ولم يضحك هذه المرة. أما الرصاصة الثالثة التى أطلقتها فقد أصابته فى رأسه، فسقط ومعه المجداف. ويالها

(١٤) الجالون يساوى نحو ٣،٨ لتر (المترجم).

من طلقة مسدس موفقة. وأحسب أننى كنت على بعد خمسين ياردة منه. لقد سقط فى المياه، ولا أدرى هل أصيب بالرصاصة فعلاً، أو أنه فقد وعيه وغرق. ثم أخذت أنادى زميله نعود. ولكنه جلس القرفصاء فى القارب يرتجف من الخوف، ورفض أن يجيب، فصوبت مسدسى نحوه وأطلقت النار، ولكنى لم أقترب منه.

"أصدقك القول، إننى شعرت بحماقة تصرفاتى؛ إذ كنت أقف على الشاطئ القاتم لهذه المنطقة الساحلية القذرة، وخلفى مستنقع مسطح، وأمامى بحر منبسط، والجو بارد بعد غروب الشمس. وليس هناك سوى هذا القارب الضيق الأسود، ينساق بانتظام بفعل تيار مائى فى البحر. ولا أنكر أننى سببت (دوسن) والمتاحف وغيرها بأفحش الألفاظ التى يستحقونها. وصحت مناديًا هذا الهمجى ليعود، حتى ارتفع صوتى ليصبح صراخًا.

"ولم يكن أمامى إلا أن أسبح خلفه وأتعرض لخطر سمك القرش. ولذلك فتحت مديتى وأخرجت نصلها المطوى، ووضعتها فى فمى وأطبقت عليها بأسنانى، ثم نزعت ملابسى وخضت فى المياه، ولكنى ضللت مكان القارب ولم أعد أراه، بمجرد نزولى فى المياه، ومع ذلك أخذت أسبح لأقطع عليه الطريق، كما تراءى لى. على أمل أن الهمجى لا يحسن الملاحة على الإطلاق، ومن ثم سيظل يبحر فى اتجاه واحد طوال الوقت.

"أخيرًا شاهدت القارب من جديد بعيدًا عند الأفق، فى الناحية الجنوبية الغربية، وانتشر الشفق(١٥) فى كل مكان، وبدأت ظلمة

(١٥) بقية ضوء الشمس بعد غروبها (المترجم).

الليل تزحف ببطء. وبزغت النجوم فى كبد السماء. كنت أعوم كأبطال السباحة، على الرغم من الآلام التى بدأت أشعر بها فى ذراعى وساقى، ووصلت إلى القارب فى الوقت الذى كانت فيه النجوم متألقة فى السماء. ولما أظلمت الدنيا، بدأت أشاهد العديد من الأشياء المتوهجة فى المياه، إنه "الوميض الفسفورى" [16] كما تعرف، الذى يصيبنى أحيانًا بالدوار. وعجزت عن أن أميز النجوم من الوميض الفسفورى، ولم أعرف هل كنت أسبح ورأسى إلى أسفل أو كعبى. وكان القارب الطويل الضيق حالك السواد كالخطيئة، وبدت الأمواج الصغيرة تحت مقدمه، أشبه بسائل من نار.

"ومن الطبيعى أننى لم أحرص على تسلق القارب مستخدمًا يدىّ وقدمىّ؛ إذ كنت تواقًا لمعرفة ما الذى يريد أن يفعله ذلك الهجمى. ويبدو أنه كان راقدًا منكمشًا عند مقدمة القارب، أما مؤخرة القارب فقد كانت كلها خارج الماء.

وظل القارب يدور ببطء حين كان ينساب فى الماء، وكأنه يؤدى رقصة الفالس!

اتجهت إلى مؤخره وجذبته إلى أسفل آملاً أن يستيقظ الهمجى، ثم بدأت أتسلق القارب والمدية فى يدى وأنا مستعد للهجوم، ولكنه لم يتحرك مطلقًا.

وعلى ذلك جلست عند مؤخرة القارب الصغير الذى أخذ يندفع

---

(١٦) تألق ينشأ من امتصاص الإشعاعات (المترجم).

مع التيار فوق البحر الهادئ ذى الوميض الفسفورى ويتألق حشد من النجوم فوقى، منتظرًا ما تجىء به الأقدار.

"وبعد وقت طويل، ناديته باسمه ولكنه لم يرد علىّ أبدًا، وكنت متعبًا للغاية، حتى إننى لم أخاطر بالذهاب إليه. وهكذا جلسنا فى القارب كل فى مكانه. ويخيل إلىّ أننى أغفيت مرة أو مرتين. وعند بزوغ الفجر وجدت الهمجى جثة هامدة وجسده منتفخًا. وكان لونه أرجوانيًا وكانت بيضاتى الثلاث والعظام فى وسط القارب، وبرميل المياه الخشبى وقليل من القهوة والبسكويت الملفوف بين طيات جريدة"أرجوس" ـ التى تصدر فى مدينة "الكاب"[(١٧)] ـ عند قدميه. وصفيحة من القصدير بها كحول ميثيلى إلى جانبه.

ولم يكن فى القارب مجداف أو شىء يمكننى استخدامه كمجداف، عدا صفيحة الكحول ومن ثم قررت أن أترك القارب ينجرف مع التيار، وحتى يلتقطنى شخص ما.

وتحريت بينى وبين نفسى من أسباب وفاة الهمجى، وتوصلت إلى أنه ربما عضه ثعبان أو لدغه عقرب أو حشرة مئينية غير معروفة، ثم ألقيت بالجثة فى البحر.

"بعد هذا شربت جرعة من الماء وتناولت بضع قطع من البسكويت، ونظرت حولى.

وأظن أن أى إنسان مثلى وصل إلى هذا الحد من الضعف، لا يستطيع أن يرى إلى مسافة بعيدة. وعلى أية حال، فقد كانت

---

(١٧)"كيب تاون"، ثالث أكبر مدن جنوب إفريقيا من حيث عدد السكان (المترجم).

مدغشقر خارج نطاق رؤيتى، وهى كل أثر لليابسة. ثم شاهدت مركبًا شراعيًا مبحرًا إلى الاتجاه الجنوبى الغربى، كان يبدو مثل "السكُّونة"[١٨]. ولكنه لم يقترب منى. ولم تلبث الشمس أن إرتفعت فى كبد السماء، وأخذت أشعتها الحارقة تضايقنى. يا الله! لقد كادت أن تجعل مخى يغلى، وحاولت أن أغمر رأسى فى ماء البحر، ولكن بعد فترة، أبصرت جريدة"أرجوس" التى تصدر فى مدينة الكاب، كانت ملقاة فى قاع القارب، فرقدت على ظهرى فى القارب، وفردتها فوق رأسى.

"ما أكثر فوائد هذه الجرائد! إننى لم أقرأ من قبل واحدة منها من البداية إلى النهاية. ولكنك تتعجب مما قد تفعله بالجريدة، إذا كنت تعانى من الوحدة مثلى فى هذا القارب اللعين. أعتقد أننى قرأت هذه الجريدة القديمة نحو عشرين مرة. أخذ الزّفت فى القارب يصدر رائحة كريهة ونتنة بفعل حرارة الشمس، وتصاعدت منه فقاعات كبيرة..".

استطرد الرجل ذو الندبة قائلاً: "... انجرف القارب مع التيار عشرة أيام. وتراها أمرًا بسيطًا وأنا أروى حكايتها. أليس كذلك؟ لم يختلف فيها يوم عن اليوم السابق له. ولم أرقب ما حولى بتدقيق، إلا فى الصباح الباكر والمساء، لأن وهج الشمس اللافح كان كقطعة من الجحيم. ولم أر شراعًا بعد ثلاثة الأيام الأولى، أما تلك السفن التى رأيتها فلم تعرنى أى التفات. ونحو الليلة السادسة، مرت بى سفينة لا تكاد تبعد نصف ميل عنى. وكانت كل أنوارها متوهجة

(١٨) مركب شراعى ذو صاريين أو أكثر (المترجم).

بلون برّاق، وكل نوافذها الصغيرة الدائرية الجانبية مفتوحة، وبدت مثل يراعة[١٩] هائلة، وكانت النغمات الموسيقية تصدح من على متنها. فانتصبت على قدميّ داخل القارب وصحت وصرخت مناديًا عليها. ولكن دون جدوى. وفى اليوم الثانى، ثقبت إحدى بيضات (الإيبيورنيس)، وكسرت جزءًا من قشرتها عند طرفها بالتدريج. وتذوقت محتواها، وسررت حين وجدت أنها صالحة للأكل إلى حد كاف، على الرغم من أنها كانت ذات رائحة مميزة - ولكنها ليست كريهة - ولها طعم بيضة البط. وفى داخلها شاهدت بقعة تكاد أن تكون مستديرة. قطرها حوالى ست بوصات، على أحد جانبى صفار البيضة، وخطوط من دم وعلامة بيضاء واضحة أشبه بسلم ظننتها شيئًا غريبًا. بيد أننى لم أفهم لها معنى وقتئذ، ولم يشغلنى أمرها كثيرًا. وكفتنى هذه البيضة ثلاثة أيام مع البسكويت وشرب الماء الذى كان فى البرميل الخشبى، بالإضافة إلى مضغ بعض حبوب البن وهو مادة مقوية ومنشطة. وقشرت البيضة الثانية فى اليوم الثامن، وما إن نظرت داخلها حتى إنتابنى الخوف..".

توقف الرجل ذو الندبة لبرهة ثم أردف قائلاً : ".. نعم، كان جنين يتكوّن فيها!

أعتقد أنه من الصعب عليك أن تصدق هذا. لقد وجدته أنا نفسى غير معقول، مع أن الحقيقة ماثلة أمامى. إذ ظلت البيضة مدفونة فى ذلك الطين الأسود البارد، ربما لثلاثمائة سنة أو نحوها. ولكن ليس ثمة أى خطأ فى الأمر. فقد كان هناك —ماذا

---

(١٩) نوع من الحشرات التى لها أعضاء مضيئة (المترجم).

أطلق عليه؟ ـ جنين برأسه الكبير وظهره المقوس وقلبه الذى يخفق فى صدره، وصفار متجعد، وأغشية كثيرة تمتد داخل القشرة وتغطى كل أجزاء الصفار.

"وهكذا كنت أفرخ بيضة أضخم الطيور المنقرضة، فى قارب صغير وسط المحيط الهندى. ألا ليت (دوسن) العجوز كان يعلم بهذا الأمر! لقد كان هذا الاكتشاف يستحق مرتب أربع سنوات. فما رأيك؟

بيد أننى كنت مضطرًا لأن آكل البيضة حتى آخرها. كل جزء فيها، قبل أن أشاهد الحافة المرتفعة من الصخور ـ وكان طعم بعضها كريهًا إلى حد بعيد. ولم أكسر البيضة الثالثة، بل رفعتها فى الضوء، ولكن قشرتها كانت سميكة للغاية، ومن ثم لم أستطع تبيّن ما الذى قد يحدث بداخلها. على الرغم من أنه خيّل إلىّ أننى أسمع الدم يجرى فيها، وحسبت أن هذا ربما كان مثل الخشخشة التى تسمعها عندما تضع صدفة بحرية على أذنك.

"وأخيرًا شاهدت الجزيرة المرجانية[٢٠]، كأنها انبثقت فجأة من مشرق الشمس بالقرب منى. جرفنى تيار مائى فى اتجاهها مباشرة، حتى أصبحت على مسيرة نصف ميل من شاطئها، لا أكثر، ثم تغير اتجاه التيار، ومن ثم كان علىّ أن أجدف بكل ما أوتيت من قوة بيدىّ وبقطع من قشرة بيضة "الإيبيورنيس"، حتى وصلت إلى الجزيرة.

---

(٢٠) صخور مقاومة للإنجراف متكونة أساسًا من الهياكل العظيمة للمرجان البحرى (المترجم).

كانت جزيرة مرجانية عادية محيطها نحو أربعة أميال، تنمو فيها بعض الأشجار، وينبوع ماء يتدفق فى إحدى جهاتها، وبحيرة ضحلة تزخر بالأسماك الببغائية(٢١).

"وأخذت البيضة إلى الجزيرة ووضعتها فى مكان ملائم، بعيدًا عن المجال الذى يمكن أن يصل إليه المد وبحيث تكون معرّضة لأشعة الشمس، لأعطيها كل ما أستطيع من فرص لكى تفقس. وسحبت القارب إلى مكان آمن، وأخذت أتجول فى الجزيرة لأتفقدها. ومن عجب أنه لم يكن فيها شىء ممتع أو مثير. وزال كل اهتمامى بها بعد أن عثرت على ينبوع مياه. مع أننى عندما كنت صبيًا، ظننت أن ليس ثمة ما هو أروع ولا أكثر تعرضًا للمخاطر، من حياة (روبنسن كروزو)(٢٢) فى جزيرته النائية. ولكن هذه الجزيرة المرجانية كانت مضجرة ككتاب مواعظ!

تجولت فى أنحاء الجزيرة منقبًا عن أشياء صالحة للأكل، ولم أكف أبدًا عن التفكير والتأمل. ولكنى أصدقك القول، بأننى كدت أن أقضى من فرط الملل، قبل أن ينقضى اليوم الأول.

"ولسوء حظى، تبدّل الجو، وهبت عاصفة رعدية هوجاء من جهة الشمال، اجتاحت الجزيرة بأكملها. وإنهمر المطر كالسيل، وهبت علينا رياح صرصر بالليل، وسرعان ما انقلب القارب.

كنت أنام تحت القارب. ومن حسن الحظ أن البيضة كانت موضوعة على كومة من الرمال ترتفع عن الشاطئ ومن ثم لم تصب

---

(٢١) نوع من الأسماك لها فك يشبه منقار الببغاء (المترجم).

(٢٢) رواية شهيرة صدرت عام ١٧١٩ للكاتب دانييل دينو (١٦٦٠ ـ ١٧٣١المترجم).

بأذى. وكان أول ما أذكره صوتًا غريبًا أشبه بصوت مئات الحصى ترتطم بالقارب دفعة واحدة، واندفاع المياه فوق جسمى. كنت أحلم أننى فى (أنتانانا ريفو)، وأصرخ سائلاً (أنتوشى) عما يجرى، ومادًا يدى نحو المقعد الذى كانت أعواد الثقاب توضع عليه عادة! ثم تذكرت أين أنا، ورأيت الأمواج المتألقة تتدفق بسرعة نحوى، كأنها تريد أن تبتلعنى. وكان الليل حالك السواد كالقار، والرياح تصدر صوتًا كالعواء، وبدت السحب كأنها تكاد أن تلامس رأسى، فى حين أن الأمطار تنهمر مدرارًا وكأن السماء نفسها تتساقط!. ثم غمرتنى إحدى الأمواج الملتوية كأفعى نارية، فاندفعت بعيدًا عنها. ثم تذكرت القارب فركضت عائدًا إلى مكانه لأبحث عنه، بعد أن انحسرت المياه من جديد. ولكنه كان قد ضاع، وفكرت فى أمر البيضة الضخمة، واتخذت طريقى إليها، فوجدتها سليمة بعيدة عن أقوى الأمواج، فجلست بجوارها وطوقتها بذراعى معتزًا برفقتها. يا إلهى! كم كانت هذه الليلة هوجاء!

قبل الصباح، سكنت العاصفة، ولم تبق أى قطعة من السحب فى السماء، حين بزغ الفجر. ووجدت ألواحًا من الخشب متناثرة على طول الشاطئ. التى كانت تكوّن هيكل قاربى المفقود. وأتاح لى وجود هذه الألواح فرصة لأداء عمل ما، إذ استفدت من شجرتين متقاربتين، واستعنت بحطام القارب، لأقيم حاجزًا يوفر الحماية لى من العواصف.

وفقست البيضة فى ذلك اليوم.

"لقد فقست يا سيدى. وأنا أتوسدها[٢٣] فى أثناء نومى. سمعت نقرًا وصريرًا[٢٤] فجلست. ورأيت ثقبًا فى نهاية البيضة أحدثه نقرًا من داخلها، ثم برز رأس صغير بنى غريب الشكل وآخذ يتطلع إلىّ. صحت: "يا إلهى! ما هذا؟ عمومًا مرحبًا بك!".

وخرج الفرخ من البيضة بشىء من الصعوبة.

"فى مبدأ الأمر، كان مخلوقًا صغيرًا ودودًا ولطيفًا، وكان فى حجم دجاجة صغيرة، يشبه معظم صغار الطيور الأخرى، إلا أنه أكبر منها. ويغطى جسمه زغب خفيف لونه بنى داكن، وكانت تعلوه قشور رمادية سرعان ما تساقطت، لم يكن له ريش بل ما يشبه الشعر الناعم الأملس. ولست أستطيع أن أعبر بوضوح عن مدى سعادتى برؤيته. ويمكننى القول: إن (روبنسن كروزو) لم يخبرنا بما يكفى عما كان يعانيه من وحدة. أما هنا فوق هذه الجزيرة المرجانية، فإننى أصبحت أتمتع بصحبة مثيرة للاهتمام.

نظر إلىّ الفرخ وغمز بعينه كما تفعل الدجاجة، وأصدر صوت سقسقة[٢٥]، وأخذ ينقر فيما حوله على الفور للبحث عن طعام، وكأن خروجه من البيضة متأخرًا عن موعده بثلثمائة سنة، لم يغير فيه شيئًا على الإطلاق.

قلت له: "كم أنا سعيد برؤيتك يا (جمعة)[٢٦]! "حيث إننى قررت إطلاق هذا الاسم عليه، إذا حدث وفقست البيضة وخرج منها فرخ.

(٢٣) أضع رأسى عليها متخذا إياها وسادة (المترجم).

(٢٤) يحدث صوتًا لا تسيغه الأذن (المترجم).

(٢٥) صوت قصير ذو طبقة صوتية عالية (المترجم).

(٢٦) خادم أمين فى رواية "روبنسون كروزو" (المترجم).

وذلك عندما لاحظت أن البيضة فى القارب قد اكتمل نموها. وكان توفير طعام له، يسبب لى بعض القلق، لهذا قدمت له قطعة نيئة من السمك الببغائى فى الحال. فازدردها وفتح منقاره طلبًا للمزيد، فسرنى ذلك منه. ولو أنه ـ فى ظل الظروف التى كنت أعيش فيها ـ كان يدقق فيما يأكل. لاضطررت إلى أن آكله هو الآخر فى نهاية الأمر!

"ربما تعتريك الدهشة عندما تعلم كم سبب لى فرخ الإيبيورنيس هذا من متعة. فقد أخذ ـ من بداية الأمر ـ يتتبعنى فى كل مكان أذهب إليه. وعادة كان يقف إلى جانبى ويرقبنى عندما كنت أصطاد السمك فى البحيرة، وكنا نتقاسم كل شىء.

وكان هذا الفرخ العملاق ذا إحساس أيضًا، فقد وجد على الشاطئ نباتات خضراء قذرة ذات نتوءات مبعثرة هنا وهناك، كانت تشبه الخيار المخلّل. حاول أن يتذوق أحدها ولكن عافتها نفسه. ومن ثم لم يشأ بعد هذا أن يلقى حتى مجرد نظرة خاطفة على أى من هذه النباتات.

"وأخذ ينمو بسرعة، حتى تكاد أن تراه حين كان ينمو. ولما كنت رجلاً غير اجتماعى، فإن طباعه الهادئة الودية كانت تلائمنى للغاية. ومر علينا ما يقرب من عامين فوق هذه الجزيرة، كنا فيها كأسعد ما يكون الرفاق.

ولم يكن ثمة ما يشغل بالى من ناحية النقود، لأننى كنت على ثقة بأن مرتبى يتجمع شهرًا بعد الآخر، لدى (داوسن). ومن وقت لآخر. كنا نشاهد سفينة شراعية على مسافة بعيدة عنا. ولكن لم تقترب

منا أية سفينة. وكنت أسلى نفسى بتزيين الجزيرة برسوم مبتكرة مستخدمًا قنفذيات[٢٧] البحر وقواقع مزخرفة من مختلف الأنواع. وكتبت عبارة "جزيرة الإيبيورنيس" فى مكان من الجزيرة ، بحروف كبيرة، كالتى تراها مكتوبة بالأحجار الملونة فى محطات السكك الحديدية، فى المناطق الريفية القديمة. كذلك كتبت عمليات حسابية ورسومات متباينة الأشكال.

"واعتدت أن أرقد وأرقب هذا الطائر المُسْعِد[٢٨]، حين كان يمشى متشامخًا. ويومًا بعد يوم كان ينمو باطّراد. فكرت فى الوسيلة التى قد تمكننى من جمع بعض المال من عرضه على الناس، إذ قدّر لى أن أغادر يومًا ما هذه الجزيرة.

وبعد أن طرح ريشه لأول مرة، أصبح حسن المظهر، بعرفه ولغده[٢٩] الأزرق، وريشه الغزير الأخضر، الذى نما فى الجزء الخلفى من جسمه.

وقتئذ كان ما يشغل بالى، مدى أحقية (ذاوس) فى المطالبة به. وفى الجو العاصف وفى موسم الأمطار كنا نرقد متضامين التماسًا للدفء فى المخبأ الذى شيدته من بقايا القارب القديم. واعتدت أن أروى له قصصًا كاذبة مختلقة عن أصدقائى فى بلدى.

وبعد كل عاصفة كنا نتجول فى أنحاء الجزيرة لنرى عما إذا كانت الأمواج والتيارات المائية قد جرفت شيئًا ما. ويمكنك القول

(٢٧) كائنات بحرية لها صدفة مستديرة مغطاة بأشواك طويلة (المترجم).

(٢٩) جالب السعادة والسرور (المترجم).

(٢٩) جزء متدل من الرقبة (المترجم).

بأننا كنا نستمتع بتلك المشاهد الطبيعية البسيطة والهادئة. ولو كان معى بعض التبغ، لشعرت وكأننى فى الفردوس السماوى.

"ونحو نهاية السنة الثانية، تبدلت الأحوال فى فردوسنا الصغير وأصبحت سيئة. وحينئذ كان (جمعة) قد بلغ ارتفاعه حوالى أربعة عشرة قدمًا عند منقاره. وكان له رأس ضخم عريض يشبه طرف البلطة الحاد. وعينان كبيرتان بنيتان ذواتا حافتين صفراوين كأنهما عينا إنسان، متقاربتان وليستا متباعدتين مثل عينَى الدجاجة. وكان ريشه ناعمًا وجميلاً، ليس مثل ريش النعامة الداكن اللون، ولكنه أقرب إلى ريش طائر الشّبنّم"[٣٠]، من حيث اللون والملمس. ثم حدث بعد ذلك، أن بدأ يمشى بخيلاء أمامى ويشهر عرفه فى اتجاهى بعدوانية ويُظهر طبعًا بغيضًا ومنفرًا نحوى..

"وأخيرًا جاء وقت لم يكن حظى فى صيد السمك مواتيًا، فبدأ يتسكع حولى بطريقة غريبة متأملاً، وكأنه يعتزم أمرًا ما. وظننت أولاً أنه ربما قد أكل شيئًا من خيار البحر[٣١] أو غيره، ولكن الحقيقة أنه كان ناقمًا بسبب إحساسه بالجوع. وكنت أنا أيضًا جائعًا. ولما استطعت ـ أخيرًا ـ الحصول على سمكة، أردت الاستئثار بها لنفسى. لقد كان كلانا متبرمًا فى ذلك الصباح. أخذ ينقر السمكة فى البداية بمنقاره الطويل ثم انتزعها منى بقوة، فسددت إليه ضربة شديدة على رأسه، ليتركها.

---

(٣٠) طائر كبير يوجد فى أستراليا وغينيا الجديدة، ذو نتوء عظمى على قمة رأسه وألغاد ملونة (المترجم).

(٣١) إحدى الكائنات البحرية ذات الأشواك شكلها مثل الخيار (المترجم).

عندئذ هاجمنى اللعين. يا إلهى!..

وأشار الرجل إلى الندبة التى فى وجهه وقال: ".. وأصابنى بما تراه فى وجهى. ثم ركلنى بقدمه كأنه حصان ،ربة، استويت على قدمى بسرعة، ولما تبينت أنه لم يفرغ بعد من ضربى، ركضت من أمامه وذراعاى مطويتان فوق وجهى لحمايته. ولكنه آخذ يجرى من خلفى على رجليه الطويلتين، بسرعة تفوق خيل السباق. وظل يركلنى بقدميه الشبيهتين بمطرقتين ثقيلتين، وينقر مؤخرة رأسى بمنقاره الطويل الشبيه بالبلطة، هرعت إلى البحيرة الضحلة، وغطست فيها إلى عنقى. وقف الطائر العملاق عند حافة المياه، لأنه كان يكره أن تبتل قدماه، وأخذ يصدر صوتًا كصياح الطاووس، ولكنه أكثر منه خشونة.ثم أخذ يختال فى مشيته على الشاطئ جيئة وذهابًا، رافعًا رأسه فى الهواء. ولست أنكر أننى شعرت بضآلة شأنى، حين شاهدت هذه الأحفورة(٣٢) تسود هذا المكان. وكان الدم ينزف من رأسى ووجهى، وكأن جسمى كتلة عديمة الشكل مليئة بالكدمات والجروح.

"قررت أن أسبح عبر البحيرة وأتركه وحيدًا لبعض الوقت، حتى تهدأ الأحوال. ثم خرجت من الماءِ وتسلقت أطول شجرة نخيل، وجلست هناك بين أفرعها، أفكر فى الأمور برمتها. ولا أعتقد أننى أحسست بمثل هذا الألم من قبل أو منذ ذلك الحين.

وكان سبب الشعور الذى انتابنى، جحود ذلك المخلوق المتوحش، الذى كنت له أكثر من أخ. لقد أفرخته وعلمته ودربته. هذا الطائر

---

(٣٢) بقايا حيوان أو نبات من عصر جيولوجى سالف (المترجم).

الأخرق، الذى جاء فى غير أوانه! وأنا الآدمى أنبل ما فى الوجود، وريث حضارة العصور، وما إلى دلك.

"وظننت بعد مرور بعض الوقت، أنه سيبدأ فى رؤية الأمور على صورتها الصحيحة، وأنه سوف يشعر ببعض الندم على سلوكه المشين. وفكرت فى أننى إذا قمت باصطياد بعض الأسماك ذات الشكل الجذاب. ثم ذهبت إليه توًا وقدمتها له ـ وكأنما بمحض الصدفة ـ ربما سوف يثوب إلى رشده، واستغرق الأمر بعض الوقت، لأدرك كم يكون الطائر المنقرض رافضًا الصفح ومشاكسًا ومحبًا للخصام. حقًا يا له من شرير ماكر!

"لست أريد أن أسرد عليك تلك الوسائل البسيطة، التى حاولت بها استمالة هذا الطائر واسترداد صداقته، لأن ذلك ليس بمقدورى بالإضافة إلى أننى أخجل ـ حتى الوقت الحاضر ـ كلما تذكرت الإهانات التى شعرت بها نتيجة تعامله معى بازدراء وعدم مبالاة، وكذلك ما أصابنى من ضربات موجعة، من هذا الطائر الشيطانى.

ثم حاولت العنف معه، فألقيت فى اتجاهه بقطع من الصخور المرجانية، من مسافة بعيدة. ولكنه ابتلعها. وقذفته بسكينى المفتوح وكدت أن أفقده، إلا أنه كان أكبر من أن يتمكن من ابتلاعه. حاولت أن أجعله يتضور جوعًا، بتوقفى عن صيد السمك، فاعتمد فى غذائه على الديدان التى يبحث عنها على طول الشاطئ مستخدمًا منقاره الطويل، وقت انحسار الماء عند الجَزْرْ.

وكنت أقضى نصف وقتى فى البحيرة، غارقًا فى مياهها إلى عنقى. أما ما بقى من الوقت، فقد كنت أرقد فيه فوق شجرة نخيل،

ولم تكن إحداها عالية بما يكفى، ومن ثم استطاع الطائر أن يصل إلىّ، فأخذ ينقر لحم رجلىّ بعنف، حتى أصبح الأمر لا يحتمل.

"ولست أدرى إذا كنت قد حاولت أن تنام فوق شجرة نخيل؟ لقد سبب لى هذا النوم كوابيس مروّعة، ثم فكر فيما يحدث ذلك أيضًا من خجل لا قبل لى به. فهاهو المخلوق المنقرض، ينفق الوقت متكاسلاً ويسير بخيلاء فى طول جزيرتى وعرضها وكأنه أحد النبلاء المتبرمين. ولا يسمح لى بأن أطأها بقدمى.

واعتدت أن أنتحب من الغضب والمعاناة. وأخبرته ـ بكل صراحة ـ بأننى لا أقبل أن يطاردنى فى جزيرة صحراوية، مخلوق لعين خارج عن زمانه كان المفروض أنه انقرض منذ مئات السنين. كما قلت له بأن يبحث عن مستكشف من عصره وينقره، بيد أنه لم يتوقف عن نقرى بمنقاره الطويل، ذلك الطائر الكبير البشع، الذى لا يتكوّن إلا من عنق ورجلين اثنتين!

"لا أود أن أتذكر كم مضى من الوقت وأنا على هذا الحال، ويا ليتنى قتلته منذ زمن طويل دون إبطاء، إذا توفرت لى وسيلة للتخلص منه. ومع هذا، فقد توصلت إلى طريقة للقضاء عليه آخر الأمر، بأسلوب يستخدم فى الصيد بأمريكا الجنوبية. فقد وصلت معًا كل خيوط الصيد التى لدىّ، مع سيقان بعض الأعشاب البحرية وأشياء أخرى، وكوّنت منها حبلاً متينًا لعل طوله كان اثنتى عشرة ياردة أو أكثر. وربطت فى طرفيه قطعتين من صخر المرجان، واستغرق منى هذا بعض الوقت، فقد كنت أضطر ـ بين الفينة والفينة ـ إلى الذهاب إلى البحيرة أو الصعود فوق شجرة، وفق ما يتراءى لى.

وأخذت أدير هذا الحبل بسرعة فوق رأسى، ثم قذفته فى اتجاه الطائر الكبير. ولكننى أخطأته فى المرة الأولى، أما فى المحاولة الثانية فقد أصاب الحبل ساقيه والتف بإحكام حولهما عدة مرات، فسقط على الأرض. وكنت قد قذفت الحبل وأنا غارق إلى وسطى فى البحيرة، وما كاد يقع أرضًا حتى خرجت من الماء بسرعة، وانقضضت على رقبته بسكينى، وأجهزت عليه.

"لا أود أن أفكر فى ذلك ـ حتى فى الوقت الحاضر ـ فقد شعرت بأننى ارتكبت جريمة قتل، على الرغم من مدى شدة غضبى عليه. وكم أحسست بالألم وأنا أقف إلى جانبه والدم ينزف منه فيلطخ الرمال البيضاء، وشاهدت ساقيه الطويلتين الجميلتين وعنقه وهى تتلوى أثناء غصَّة الموت. يا له من مشهد مروِّع!

"وبعد هذه الفاجعة، شعرت بالوحدة الرهيبة التى انقضت علىَّ كاللعنة. يا إلهى! إنك لا تستطيع أن تتصور كم افتقدت هذا الطائر. جلست بجانب جثته أتحسر عليه، وأشعر بقشعريرة عندما كنت أتجول بنظرى فى الجزيرة المقفرة الساكنة.

وتذكرت كيف كان بهيجًا ومرحًا عندما خرج من البيضة، وفكرت فى آلاف من حركاته المرحة وأفعاله "الطفولية" عندما كان ما يزال طائرًا صغيرًا، قبل أن يكبر وتسوء طباعه. وتخيلت أننى لو اكتفيت بجرحه فقط، لأمكننى علاجه وترويضه ليصبح سلوكه أفضل. ولو استطعت أن أحفر الصخور المرجانية بوسيلة ما، لدفنته فيها. وشعرت كأنه إنسان بالفعل. ومن ثم لم أستطع أن أفكر فى أكل لحمه ولذلك وضعته فى البحيرة فالتهمت الأسماك الصغيرة لحمه كله، وحتى ريشه لم أتمكن من إنقاذه منها.

"وذات يوم كان رجل يبحر فى يخته فى منطقة قريبة، فمرّ بجزيرتى. ليعرف عما إذا كانت ما تزال موجودة. وقد جاء فى الوقت المناسب تمامًا، إذ كنت قد سئمت من إقفار الجزيرة ومن وحدتى، وكل ما كنت أتردد فيه هو هل ألقى بنفسى فى البحر لأغرق، أو أن آكل العشب الأخضر.

"وبعت عظام الطائر إلى رجل يدعى (ونسلو) يقع متجره بالقرب من المتحف البريطانى.وقال لى فيما بعد إنه باعها بدوره إلى (هافرز) العجوز. ويبدو أن (هافرز) هذا لم يدرك أنها كانت كبيرة بشكل استثنائى، ولم تلفت الأنظار إلا بعد موته وأطلقوا عليها "إيبيورنيس".. ماذا؟".

فقلت مكملاً: "إيبيورنيس العظيم". يا له من أمر غريب، فقد أخبرنى بالشىء نفسه أحد أصدقائى. وعندما وجدوا إيبيورنيس له فخذ طولها ياردة، ظنوا أنهم وصلوا إلى الحد الأقصى فى الطول. فأطلقوا عليه "إيبيورنيس العظيم". ثم عثر أحدهم على عظم فخذ آخر طوله أربع أقدام وست بوصات أو ربما أكبر، وسموا هذا "إيبيورنيس الجبار". ثم عُثر على عظمك ضمن مجموعة (هافرز) العجوز، بعد موته. فكان هذا هو "إيبيورنيس الهائل".

واستطرد الرجل ذو الندبة قائلاً: ".. أخبرنى (وينسلو) عن كل هذا، وأبلغنى بأنهم لو وجدوا أى إيبيورنيس آخر، فسوف يشكل ذلك صدمة لعلماء الحفريات. ولكن ألم يكن هذا من أعجب الأشياء التى حدثت لأى شخص؟ هل توافقنى الرأى؟".

الحالة المثيرة لعينى (ديفيدسون)

الحقيقة أن الاضطراب العقلى المؤقت الذى أصاب (سيدنى ديفيدسون)، المثير فى حد ذاته، مازال يعتبر أكثر إثارة لو صدقنا تفسير (واد) له.. إنه يجعل المرء يحلم بأعجب احتمالات الاتصالات المتبادلة فى المستقبل.

وبقضاء خمس دقائق فى الجانب الآخر من العالم، وتطفل عين دخيلة على أدق أمورنا الخاصة السرية ولأننى كنت الشاهد المباشر على النوبة المرضية المفاجئة لـ (ديفيدسون)، فإننى أجد نفسى مدفوعًا ـ بطبيعة الحال ـ لكتابة قصته وتسجيلها على الورق.

وعندما أقول: إننى كنت الشاهد المباشر على هذه النوبة المرضية، فأنا أعنى أننى أول شخص حضر وقائعها التى حدثت بكلية (هارلو) للتقنية، التى تقع مباشرة خلف قنطرة (هايجيت).. لقد كان بمفرده فى المختبر الكبير عندما وقع الحادث، وكنت موجودًا فى حجرة أصغر، بها عدد من الموازين وكنت أقوم بتسجيل بعض الملاحظات.. وبالطبع فإن العاصفة الرعدية أربكت عملى تمامًا.

بعد واحدة من أشد فرقعات الرعد دويًا ظننت أننى سمعت صوت تهشم بعض الزجاج فى الحجرة الأخرى.. توقفت عن الكتابة واستدرت لكى أرهف السمع جيدًا. وللحظة لم أسمع شيئًا فقد كان المطر يدق دقًا متواصلاً على ألواح الصاج المتموج بالسقف فوقى.. ثم سمعت صوتًا آخر. صوت شىء يتحطم أو يتهشم.. لم يكن ثمة أدنى شك فى هذه المرة.. شىء ثقيل سقط من على النُّضُد.. انتصبت واقفًا على الفور، وهرعت وفتحت الباب الذى يُفضى إلى المختبر الكبير.

دُهشت عندما سمعت ضحكة غريبة مألوفة، ورأيت (ديفيدسون) واقفًا يترنح فى وسط الغرفة، ترتسم على وجهه ملامح الانبهار والذهول.. أول انطباع تكوّن لدىّ أنه كان ثملاً.. ولم يلاحظنى على الإطلاق كان فاتحًا يديه ومكورًا أصابعه فى محاولة للإمساك بشىء ما خفىّ يبعد مترًا عن وجهه.. ومد يده ببطء وتردد.. ثم أمسك بلا شىء وهتف: "ما الذى حدث؟" ثم رفع يديه إلى وجهه وأصابعه منفرجة بعضها عن بعض.. ثم قال: "يا إلهى!"..

لقد وقعت هذه الحادثة، منذ ثلاث أو أربع سنوات مضت، وفى ذلك الوقت كان الجميع معجبين للغاية بهذه الشخصية البارزة.. ثم بدأ (ديفيدسون) يرفع قدميه بصعوبة وتثاقل، كما لو كان يتوقع أنهما ملتصقتان بالأرض بالغراء..!

صحت قائلاً: "(ديفيدسون).. ماذا حدث لك؟".. فاستدار فى اتجاهى ونظر باحثًا عنى.. لكنه نظر فوقى، فى مواجهتى وإلى يمينى ويسارى، دون أدنى إشارة على أنه رآنى.. وقال: "الموج!..

و(دونيج)[1] رائع وأنيق.. أقسم أن هذا صوت (بيلوز).. مرحبًا!!" وفجأة صاح بأعلى صوته.

ظننت ـ وقتئذ ـ أنه يهذى أو شىء من هذا القبيل.. ثم رأيت ـ حول قدميه ـ حطامًا لأفضل (إلكترومتر)[2] لدينا.. فقلت على الفور: "يا إله السماوات. هلا أخبرتنى بما جرى يا رجل؟".. لقد حطمت الإلكترومتر.

قال: "هذا (بيلوز) مرة أخرى.. الأصدقاء حلوا.. إذا ذهبت يداى!..إنه شىء متعلق بأجهزة الإلكترومتر.. لكن ما هو اتجاهك يا (بيلوز)؟". وفجأة أقبل يترنح باتجاهى.. ثم قال بسرعة: "إن المادة اللعينة تنقطع بسهولة مثل الزبد". وسار تجاه النّضد مباشرة وجفل خوفًا وقال: "لا شىء طرىّ كالزبد مثله"! ثم وقف يترنح فى كل اتجاه.

شعرت بالفزع وقلت: "(ديفيدسون).. اللعنة! ماذا دهاك يا رجل.. قل لى شيئًا؟".

نظر حوله فى كل اتجاه وقال: "أقسم أنه كان (بيلوز).. لماذا لا تظهر نفسك كرجل.. ألا تسمعنى يا (بيلوز)؟".

وخطر لى عندئذ أنه أصيب بالعمى.. فاستدرت حول النضد ووضعت يدى على ذراعه.. ولم أر شخصًا فى حياتى أصابه الذعر مثله.. فقد وثب فى الحال بعيدًا عنى، واستدار لكى يواجهنى كما

---

(١) مركب شراعى ذو صاريين أو أكثر (المترجم).

(٢) جهاز يقاس به مقدار القوة الكهربائية (المترجم).

لو أنه سيدافع عن نفسه من خطر داهم.. وتشنج وجهه من الرعب. وصرخ: "يا إلهى!.. ما هذا؟".

"أنا (بيلوز).. اللعنة!.. ألا تعرفنى يا (ديفيدسون)!"

وثب عندما أجبته.. وحدق فىّ - يا إلهى، كيف أستطيع وصف ذلك؟. من خلالى.. وبدأ يتكلم، ليس معى ولكن مع نفسه.." هنا فى وضح النهار وعلى شاطئ هادئ.. لا يوجد مكان للاختباء فيه".. ونظر حوله فى هياج.. ثم قال: "أنا ذاهب الآن".. واستدار فجأة وركض بتهور لدرجة أنه اصطدم بالمغنطيس الكهربائى الكبير بعنف، مما أحدث كدمات فى كتفه وعظام فكه.. وعندئذ تقهقر خطوة وصاح وهو يئن: "ما الذى حدث لى بحق السماء؟".. ثم وقف وهو يرتعد بشدة من الذعر، ويده اليمنى تمسك بيسراه التى اصطدمت لتوها بالمغنطيس الكهربائى.

حينئذ تملكنى الخوف والقلق وقلت: "(ديفيدسون).. لا تخف.. اطمئن".

دُهِش من صوتى ولكن بدرجة أقل من ذى قبل.. وكررت كلماتى بأقصى قدر أستطيعه من الوضوح والهدوء.

قال: "(بيلوز).. أهذا أنت؟".

"ألا ترى أنه أنا؟".. ثم ضحك وأردف: "إننى حتى لا أرى نفسى.. أين نحن بحق الشيطان؟".

قلت: "هنا.. فى المختبر".

أجاب بلهجة متحيرة للغاية: "المختبر؟".. ثم وضع يده على جبهته واستطرد: "لقد كنت فعلاً فى المختبر حتى جاء ذلك الوميض.. لكن

لتحل على اللعنة إذا كنت هنالك الآن.. ما هى تلك السفينة التى نحن عليها؟".

قلت له: "لا توجد أى سفينة هنا يا (ديفيدسون).. أرجوك تصرف بتعقل يا عزيزى".

قال مكررًا: "لا توجد أى سفينة!".. وبدا أنه نسى ما أوصيته به لتوى.. وقال بتؤدة: "إننى أفترض أن كلينا ميت.. لكنى الجزء العجيب هنا، إننى أشعر كما لو أنه ما زال لدى جسد.. إنك لا تعتاد على تلك الأشياء فورًا على ما أعتقد.. والسفينة القديمة أصابتها صاعقة على ما أظن.. لقد تم كل شىء بسرعة غريبة.. أليس كذلك؟".

قلت له: "لا تتكلم بمثل هذا الهراء يا (ديفيدسون) إنك حى مثلى تمامًا.. وأنت الآن فى المختبر تتحرك هنا وهناك. وقد حطمت لتوك إلكترومترًا.. لا أظن أنك ستكون سعيدًا عندما يصل (بويس) إلى هنا".

نظر بعيدا عنى تجاه مخططات "هدرات التبريد[٣]"، وقال: "لا بد أننى أصم.. لقد أطلقوا علىّ النار.. إذ شاهدت الدخان الذى تصاعد.. لكننى لم أسمع صوتًا".

وضعت يدى على ذراعه مرة أخرى، وفى هذه المرة كان أقل توترًا.. وقال: "يبدو أن أجسامنا غير مرئية!.. لكن يا إلهى!.. هاهو

(٣) مركبات تحتوى على مركبات الماء ومواد أخرى مثل الملح أو كلوريد النشادر، تستعمل للتبريد إلى درجات حرارة منخفضة، تقل عن نقطة التجمد للماء، وكانت تستخدم قديمًا لحفظ المنتجات الحيوانية والنباتية (المترجم).

قارب قادم من حول اللسان البحرى. إن الأمر يشبه حياتنا القديمة إلى حد كبير.. ولكن المناخ مختلف".

هززت ذراعه وصرخت: "(ديفيدسون).. أرجوك استيقظ! .

وفى تلك اللحظة جاء (بويس).. وبمجرد أن تكلم هتف (ديفيدسون): "(بويس) العجوز.. ميت أيضًا!.. ما أجمل هذا!".

وتدخلت بسرعة لكى أشرح لـ (بويس) أن (ديفيدسون) يعانى من حالة غيبوبة "السرنمة"[٤] اهتم (بويس) بالأمر بسرعة وفعل - كلانا - كل ما فى وسعه لإخراج صديقنا من حالته غير العادية.. وأجاب على أسئلتنا وألقى علينا بعض الأسئلة من عنده.. لكن كان من الواضح أن انتباهه مشتت من جراء حالة الهذيان بخصوص شاطئ وسفينة!.. واستمر يدلى ببعض الملاحظات الخاصة بقارب وساعدات الرفع والإنزال بالسفينة وأشرعة تفردها الرياح.. وكنت أشعر بغرابة الموقف ونحن فى المختبر المعتم منصتين لمثل هذا الكلام العجيب. كان كفيفًا ولا حيلة له.. اضطررنا لجعله يمشى معنا على طول الممر، وأحدنا يمسك بمرفقه الأيمن والآخر بمرفقه الأيسر.. حتى وصلنا إلى حجرة (بويس) الخاصة.

وهناك بينما أخذ (بويس) يتحدث معه ويلاطفه بخصوص فكرة (السفينة) ذهبتُ فى الممر وطلبت من (واد) العجوز أن يأتى لكى يلقى عليه نظرة، وأراحه صوت عميد الكلية قليلاً فقط، وليس إلى حد كبير، ثم سألنا أين كانتَ يداه. ولماذا اضطر لأن يسير وهو

(٤) مرض السير فى أثناء النوم (المترجم).

غاطس حتى وسطه فى الأرض! تأمل (واد): حالته لفترة طويلة، وهو عاقد حاجبيه ثم جعله يتحسس بيده الأريكة وأرشد يداه إليها.. ثم قال (واد) "هذه الأريكة يا (ديفيدسون).. الأريكة الموجودة بحجرة البروفيسور (بويس) الخاصة المحشورة بشعر ذيل الفرس".

أخذ (ديفيدسون) يتحسسها ويفكر فيها ثم أجاب بأنه يمكنه الإحساس بها جيدًا دون أن يراها.

وسأله (واد): "ما الذى تراه بالضبط يا (ديفيدسون)؟".. فأجاب بأنه لا يرى شيئًا سوى الرمال والقوقع الملقاة هنا وهناك..لكن كلها محطمة!.. وأعطاه (واد) بعض الأشياء الأخرى ليتحسسها ويقول له ما هى، ثم أخذ يلاحظه بدقة شديدة.

حينئذ قال (ديفيدسون) بشكل لا يتفق على الإطلاق مع الواقع الذى نحن فيه: "السفينة بعيدة ويكد أن يكون هيكلها العلوى فقط هو المرئى".

قال (واد): "لا تهتم كثيرًا بالسفينة.. أصغ إلىّ يا (ديفيدسون).. هل تعرف معنى الهذيان؟

قال (ديفيدسون): "هل أنت الأسقف (بيركلى)؟".

قال (واد): "لا تفهمنى خطأ يا (ديفيدسون).. إنك حى وموجود فى حجرة (بويس) ولكن حدث شىء ما لعينيك.. أنت لا تستطيع أن ترى الآن. يمكنك فقط أن تتحسس الأشياء، وتسمع الأصوات، لكن لا ترى أحدًا.. هل تفهمنى؟".

حك (ديفيدسون) عينيه بمفاصل أصابعه وقال: "لكن يبدو لى أننى أرى أكثر من اللازم.. حسنٌ، ماذا يعنى ذلك؟".

"هذا كل شىء.. لا تدع ذلك يقلقك (بيلوز) وأنا سوف آخذك الآن فى مركبة أجرة إلى منزلك".

قال (ديفيدسون): "انتظر قليلاً.. ساعدنى لكى أجلس".. وبعد أن استوى جالسًا أردف: "حسنٌ جدًا.. أنا آسف لأننى سببت لكم كل هذه المشقة.. لكن هلا قلت لى كل ما حدث مرة أخرى؟".

كرر له (واد) كل ما حدث بصبر شديد.. وأغلق (ديفيدسون) عينيه وضغط بيديه على جبهته وقال: "نعم.. هذا صحيح تمامًا.. الآن وعيناى مغلقتان أعرف أن ما تقوله صحيح.. وها أنت يا (بيلوز) تجلس بجانبى على الأريكة.. أنا فى إنجلترا من جديد والظلمة تكتنفنا.

ثم فتح عينيه واستطرد: "لكن الشمس أشرقت لتوها.. وأرى حوض السفن، وبحرًا متلاطم الأمواج وطائرين يطيران فى دعة.. لم أر من قبل شيئًا حقيقيًا كهذا.. وأنا أقف غاطسًا حتى عنقى فى كومة ضخمة من الرمال".

انحنى إلى الأمام وغطى وجهه بيديه.. ثم فتح عينيه مرة أخرى وقال: "بحر مظلم وشمس تشرق! ومع ذلك فأنا أجلس على أريكة فى حجرة (بويس) العجوز!.. ليساعدنى الله قبل أن أجن تمامًا".

كانت هذه هى البداية، وطوال ثلاثة أسابيع استمر هذا المرض الغريب بعينى (ديفيدسون) دون أى تحسن.. كان ذلك أسوأ من

العمى فى حد ذاته.. وكان عاجزًا قليل الحيلة، ويحتاج لأن يطعمه أحد كطائر فقس لتوه من البيضة! وأن يأخذ شخص ما بيده ليتحرك، ويساعده فى خلع ملابسه وارتدائها. وإذا حاول أن يتحرك بمفرده، فإنه ينكفئ على الأشياء أو يصطدم بحائط أو باب.

بعد يوم أو نحو ذلك اعتاد على سماع أصواتنا دون أن يرانا، وعبر عن ارتياحه لوجوده فى منزله، والتأكيد على صحة كل ما أخبره به (واد)، وأصرت أختى التى كانت مخطوبة له، على الحضور لرؤيته والبقاء لبضع ساعات معه فى كل يوم، لتسمعه فى صبر وهو يتحدث عن شاطئه الخيالى!.. وبدا أن إمساكه بيدها يريحه إلى حد كبير.. وقال إنه عندما غادرنا الكلية متجهين إلى منزله بقرية (هامبستيد) بدا له أننا دخلنا مباشرة فى تل رملى، وأن كل شىء ظل أسود تمامًا حتى خرجنا منه، ثم تصور صخورًا وأشجارًا وعوائق صلبة.. وأنه عندما أخذناه إلى حجرته الخاصة به أصابه الدوار والهلع من فكرة أنه قد يسقط.. لأن صعوده على السلم يعنى رفعه إلى مسافة عشرة إلى اثنى عشر مترًا فوق صخور جزيرته الخيالية! واستمر يقول إنه سوف يحطم كل البيضات! وفى آخر الأمر كان عليهم أن يأخذوه إلى أسفل، إلى حجرة الكشف الخاصة بأبيه الطبيب ليتمدد على أريكة موجودة هناك.

وصف (ديفيدسون) هذه الجزيرة بأنها مكان منعزل ومكشوف تمامًا وليس بها سوى القليل جدًا من النباتات والأشجار باستثناء بعض النباتات المتفحمة والعديد من الصخور الجرداء.. ويعيش

عليها الكثير جدًا من طيور البطريق التى جعلت الصخور بيضاء اللون وشكلها قبيح.. والبحر غالبًا هائج.. وذات مرة قامت عاصفة رعدية حيث هو ممدد ويصيح للومضات الساكنة.. ومرة أو مرتين خرجت الفُقمات على الشاطئ، ولكن حدث ذلك فى اليومين أو ثلاثة الأيام الأولى فقط.. وقال: إنه أسعده جدًا الطريقة التى تتهادى بها طيور البطريق خلاله، وكيف أنه كان يجثم بينها دون أن يزعجها.

وأتذكر الآن شيئًا عجيبًا. حدث ذلك عندما تاق بشدة للتدخين.. وضعنا غليونًا بين يديه وكاد أن يقتلع به عينيه، ثم أشعله.. لكنه لم يستمتع به أو يجد له أى لذة. ومنذ ذلك الوقت حدث لى نفس الشىء.. ولا أعرف ما إذا كان ذلك عاديًا أو لا.. إذ لم أعد أستمتع بتدخين التبغ.. قط.. ما لم أر الدخان المتصاعد منها!.

بيد أن الجزء الأعجب من رؤياه حدث عندما أخرجه (واد) فى كرسى القعدة[5] ؛ لاستنشاق الهواء النقى.. وكانت أسرة (ديفيدسون) قد استأجرت هذا الكرسى على أن يرافقه خادم أصم ومثابر، يدعى (ويدجيرى) وكان لهذا الرجل أفكار غريبة عن الرعاية الصحية. وقابلتهما أختى، التى كانت تقيم بمنزل أسرة (دوج) بمدينة (كامدن) باتجاه (كنجز كروس)، حيث كان (ويدجيرى) يهرول تريضًا برضا وسعادة.. أما (ديفيدسون) فكان من الواضح أنه متألم حقًا ويحاول بأسلوب واهن جذب اهتمام (ويدجيرى) إليه.

---

(٥) كرسى بثلاث عجلات للمرضى أو المقعدين (المترجم).

لكنه لم يستطع أن يمنع نفسه من البكاء عندما تحدثت أختى إليه.. وقال لها: "أرجوك أخرجينى من هذا الظلام المروّع".. وتحسس يدها ثم أردف: "يجب أن أتخلص منه، وإلا فإننى سوف أموت" لكنه كان عاجزًا تمامًا عن توضيح الأمر.. قررت أختى ضرورة إعادته إلى المنزل.. وعندما صعدا التل متجهين إلى قرية (هامبستيد) تخلص تمامًا من حالة الرعب التى انتابته.. وقال إنه شىء رائع أن يرى النجوم من جديد، على الرغم من أن الوقت آنذاك كان حوالى الظهر والشمس ترسل أشعتها الحارة إلى الأرض!

وفيما بعد قال لى: "بدا لى أن شيئًا ما يحملنى بقوة لا أستطيع مقاومتها إلى المياه.. وفى البداية لم أشعر بخوف يذكر.. وبالطبع كان الوقت ليلاً.. كانت ليلة ممتعة"!.

سألته بسرعة بعد أن أحسست بغرابة هذا الكلام: "بالطبع كان الوقت ليلاً؟".

قال "نعم.. فدائما يكون هناك ليل عندما يكون عندنا هنا نهار.. على أى حال لقد دخلنا مباشرة فى المياه التى كانت هادئة ومتألقة تحت ضوء القمر.. وثمة أمواج طويلة وعريضة بدت لى كأنها تتسع وتسطع أكثر كلما تعمقت فيها.. ولمع السطح مثل جلد الإنسان.. ولعله كان فضاءً خاليًا تحت سطح الماء، حيث إنه لا يمكننى قول عكس ذلك. وركبت البحر ببطء شديد حيث سبحت فى اتجاه مائل ووصلت المياه إلى عينى. ثم تعمقت أكثر، وبدا لى أن الجلد الذى حول عينى يتقطع ثم يلتئم من جديد!. وكان القمر مرتفعًا فى كبد

السماء مرسلاً ضوءه الأبيض الشاحب، وتدافعت الأسماك خافتة التألق من كل اتجاه حولى.. بدا لى أن الأشياء التى حولى مصنوعة من زجاج متلألئ. ومررت من خلال كتلة ضخمة من الأعشاب البحرية التى تتوهج ببريق زيتى.. وهكذا هبطت فى أعماق البحر، وبدأت النجوم تنطفئ واحدة تلو الأخرى.. وأصبح لون القمر أكثر خفوتًا.. وتحول لون أعشاب البحر إلى اللون الأحمر القرمزى.. كل شىء حولى كان خافتًا وغامضًا، وبدا لى أن كل شىء يرتعش وطول الوقت كنت أستطيع سماع صرير عجلات كرسى القعدة الذى أجلس عليه ووقع أقدام الناس من حولى.. ورجل من بعيد يبيع نوعًا خاصًا من لعبة الكرة والمطرقة والحلقة(٦)..!

"واصلت الغوص إلى عمق أكبر وأكبر فى الماء. أصبح اللون من حولى أسود كالحبر.. لا يوجد شعاع ضوء واحد يسقط من أعلى فى هذا الظلام الحالك.. أما الأجسام المضيئة ذاتيًا، فقد ازداد لمعانها أكثر فأكثر.. والأفرع المتعرجة الثعبانية لأعشاب البحر فى الأعماق، خفتت وكأنها أضواء المصابيح الكحولية. لكن بمرور الوقت لم أعد أرى أى أعشاب.. وأقبلت الأسماك علىّ، تحدق فىّ، وهى فاغرة فاها، ثم دخلت فىّ ومرت من خلالى! لم أتخيل وجود مثل هذه الأسماك العجيبة من قبل.. كان لها خطوط نارية لامعة بامتداد جوانبها، كما لو أن قلما سحريًا مضيئًا علّم على أجسامها.

---

(٦) لعبة ابتكرت فى القرن السابع عشر يتم فيها ضرب الكرة بمضرب لتمر من حلقة حديدية (المترجم).

"ورأيت شيئًا ضخمًا مروّعًا يسبح خلفى وله الكثير من الأذرع الملتفة.. ثم رأيت كتلة ضبابية من الضوء قادمة تجاهى ببطء من الظلام.. لم تلبث أن تفرقت عندما اقتربت منى إلى أعداد كبيرة جدًا من الأسماك تشق طريقها بصعوبة حول شىء ما يجرفه الماء... تحركت مباشرة تجاه هذا الشىء ورأيت آنذاك وسط كل هذا الاضطراب وتحت الضوء المنبعث من الأسماك، قطعة من صارى ممزق يقترب منى بشكل غير مطمئن.. وهيكل معتم يتمايل. وبعض الأشكال المتألقة بالوميض الفوسفورى[٧].. تهتز وتتلوى عندما تقضمها الأسماك.. ثم بدأت أحاول جذب اهتمام (ويدجيرى).. وعندئذ أطبق علىّ الرعب.. أوه! كان يجدر بى أن أتجه مباشرة إلى داخل تلك الأشياء "نصف المأكولة" لو لم تحضر أختك! كان يتخلل تلك الأشياء ثقوب ضخمة.. (بيلوز) و.. لا بأس.. لكنها كانت مروّعة!".

وطوال ثلاثة أسابيع بقى (ديفيدسون) فى حالته الغريبة هذه.. يرى ما نعتبره عالمًا خياليًا تمامًا.. ولا يرى شيئًا من العالم الحقيقى الذى حوله.. ثم فى أحد أيام الثلاثاء، عندما قمت بزيارة قصيرة له، قابلت والد (ديفيدسون) فى الممر.. وقال الرجل الطبيب العجوز فى نشوة كاملة: "إنه يستطيع أن يرى إبهامه!".. ثم ضبط سترته وأردف: "نعم إنه يستطيع أن يرى إبهامه يا (بيلوز)، قال ذلك والدموع فى عينيه.. وأضاف: ".. ابنى سيكون بخير فى نهاية الأمر".

---

(٧) انبعاث الضوء من مادة بعد تعرضها لضوء مرئى أو فوق بنفسجى، دون أن ترتفع درجة حرارتها (المترجم).

ونظرت مسرعًا إلى (ديفيدسون) كان ممسكًا بكتاب صغير أمام وجهه وينظر إليه ويضحك بشكل غامض وواهن.. وقال لى: "هذا مدهش.. ثمة بقعة غريبة ظهرت"، وأشار بإصبعه الى شىء ما، وأردفت: "إننى فوق الصخور.. وطيور البطريق تتهادى فى مشيتها وتخفق بأجنحتها كالمعتاد.. وهناك حوت يظهر بين كل حين وآخر. لكن الجو أصبح مظلمًا تمامًا الآن.. بيد أنى أراك جيدًا.. لكن المهم أنك لو وضعت شيئًا هناك، فإننى سوف أراه.. نعم يمكننى أن أراه.. حقًا إن كل شىء حولى مظلم للغاية، لكننى أرى رغم ذلك، مثل شبح أو ما شابه ذلك.. اكتشفت ذلك صباح هذا اليوم حين كانوا يغيرون ملابسى.. إنه يشبه مكانًا معزولاً فى عالم جهنمى يعج بالأشباح.. مثلاً ضع يدك بجوار يدى لا، ليس هناك.. آه! نعم! إننى أراها الآن.. أرى قاعدة إبهامك وبعضًا من طوق كمك!.. إنه يشبه كما لو كان طيفًا لجزء من يدك خارجًا من السماء المظلمة.. وبجوارها مباشرة توجد مجموعة من النجوم تشبه صليبًا بارزًا".

منذ ذلك الوقت بدأت حالة (ديفيدسون) تتحسن. وكان تفسيره للتغير الذى حدث ـ مثل تفسيره للرؤية الغريبة التى تراءت له ـ مقنعًا ولكن بشكل غريب.. فعبر مساحات صغيرة من مجال رؤيته، بدأ العالم الخيالى أو عالم الأشباح الذى يراه يضعف وتزداد شفافيته وإمكانية الرؤية خلاله، إذا جاز التعبير، ومن خلال تلك الثغرات نصف الشفافة بدأ يرى العالم الحقيقى الذى حوله بشكل ضعيف.. ثم اتسعت تلك المساحات المتناثرة وازداد عددها وانضمت بعضها إلى بعض، واتسعت أكثر فأكثر، بحيث لم يتبق سوى بقع صغيرة "عمياء" فى عينيه، وأصبح بمقدوره أن يقف ويوجه نفسه

كما يشاء ويأكل بنفسه كعهده من قبل وأن يقرأ ويدخن ويتصرف عمومًا كأى إنسان عادى. فى البداية كان هذا أمرًا بالغ الصعوبة عليه.. وجود تلك الصورتين المتداخلتين فى مخيلته مثل أضواء الفانوس السحرى التى تتغير بين حين وآخر.. لكن بعد فترة وجيزة بدأ يميز بين العالم الحقيقى الذى يعيش فيه والعالم الهذيانى الموجود فى مخيلته فقط.

فى البداية كان سعيدًا بحق، ولكنه كان متلهفًا للغاية لإكمال علاجه، سواء بتناول المنشطات والمقويات أو عمل التمرينات الرياضية اللازمة. ولكن عندما بدأت صورة تلك الجزيرة العجيبة تتلاشى من مخيلته، ازداد شغفه بها بشكل غريب.. وأراد بشدة النزول إلى أعماق البحر مرة ثانية، حيث يقضى نصف وقته يتجول فى أرجاء الأجزاء المنخفضة من (لندن) فى محاولة للعثور على الحطام الغاطس المشرّب بالماء، الذى رآه ينجرف أمامه وسرعان ما تأثر بأضواء النهار العادى، إلى درجة أنه محا من ذاكرته تمامًا كل معالم عالم الأشباح الذى التصق بمخيلته.. لكن فى ظلام الليل، وفى أى حجرة مظلمة فإنه لا يزال يرى صخور الجزيرة الملطخة باللون الأبيض، وكذلك طيور البطريق وهى تتهادى ذهابًا وإيابًا بحركاتها الخرقاء.. لكن حتى طيور البطريق، أخذت صورها تزداد خفوتًا، وأخيرًا بعد أن تزوج أختى فقد رآها للمرة الأخيرة.

والآن جاء دور ذكر أغرب الأشياء على الإطلاق.. فبعد حوالى سنتين من شفائه، تناولت طعام العشاء مع أسرة (ديفيدسون) وبعد أن فرغنا من الطعام، جاء رجل يسمى (اتكينز).. وهو ملازم فى

سلاح البحرية الملكى.. والحقيقة أنه رجل لطيف ثرثار.. وكان صديقًا لزوج أختى، ثم أصبح صديقًا لى كذلك، وعرفت أنه كان مخطوبًا لابنة عم (ديفيدسون).. وفجأة أخرج من جيبه علبة بها صور فوتوغرافية لكى يرينا شكلاً جديدًا لخطيبته القديمة.. وقال "وبالمناسبة، ها هى "خطيبتى القديمة" السفينة (فولمار)!".

نظر (ديفيدسون) إلى الصورة عرضيًا. وفجأة أضاء وجهه وهتف: "يا إله السماوات!.. إننى أقسم أن...".

قال (اتكينز) : "تقسم على ماذا يا عزيزى؟".

"على أننى رأيت تلك السفينة من قبل".

"ولكن الحقيقة غير ذلك.. فهى لم تغادر البحار الجنوبية لمدة ستة سنوات، وقبل ذلك".

قاطعه (ديفيدسون) "ولكن.. نعم.. هذه هى نفس السفينة التى حلمت بها.. أنا متأكد أن هذه هى نفس السفينة التى كانت فى مخيلتى.. كانت راسية بالقرب من جزيرة صغيرة تعيش عليها قطعان من طيور البطريق.. وأطلقت على هذه السفينة النار".

قال (اتكينز) الذى سمع الآن تفاصيل الحالة المرضية التى عانى منها (ديفيدسون): "لكن بحق السماء كيف حلمت بشىء كهذا.. إنه أمر لا يصدق؟".

ثم عرفت بعد ذلك رويدًا رويدًا أنه فى نفس اليوم الذى أصيب فيه (ديفيدسون) بهذا المرض الغريب، كانت السفينة الملكية البريطانية (فولمار) راسية بالفعل، بالقرب من صخرة صغيرة جنوب

جزيرة (أنتيبودز)[٨].. وقد أرسلت السفينة قاربًا ليلاً إلى تلك الجزيرة لإحضار بيض طيور البطريق.. لكن هبت عاصفة رعدية أدت إلى حجز القارب هناك.. حيث اضطر طاقمه إلى الانتظار إلى الصباح لكى يعودوا إلى السفينة.. وكان (اتكينز) أحد أفراد هذا الطاقم.. وقد أكد بشكل قاطع، كل أوصاف الجزيرة والقارب التى أبلغنا بها (ديفيدسون) من قبل وعندئذ لم يبق فى ذهن أى منا شك فى أن (ديفيدسون) شاهد فعلاً تلك الأماكن والأشياء.. ويعنى ذلك أنه فى أثناء تجوله فى شوارع لندن رآى بطريقة لا يمكن فهمها، أو بتعبير آخر تحرك بصره هنا وهناك فى أرجاء العالم وبخاصة فى تلك الجزيرة البعيدة ووصف أشياء موجودة بالفعل فى الحياة!.. لكن كيف حدث ذلك، فهذا سر تعجز عن فهمه العقول!

الآن انتهت أحداث القصة العجيبة لعينَى (ديفيدسون).. ولعلها تكون أفضل قصة حقيقية تعزز نظرية الرؤية الحقيقية عن بعد. وتفسيرها لا يبدو وشيكًا، باستثناء ما طرحه البروفيسور (واد). إلا أن تفسيره هذا يتضمن وجود بُعد رابع وشرح طويل لأنواع الفضاء النظرية والواقع أن الحديث عن "التواء الفضاء" يبدو لا معنى له بالنسبة لى، ولعل ذلك بسبب أننى لست خبيرًا فى الرياضيات.. وعندما قلت: لا شىء سوف يغيّر حقيقة أن هذا المكان يبعد عنا بمسافة ثلاثة عشر ألف كيلو متر، أجاب بأنه قد توجد نقطتان على ورقة أمامنا وتبعدان بعضهما عن بعض بمسافة متر واحد، ولكن

---

(٨) جزيرة تقع فى جنوب المحيط الهادى على بعد نحو ٧٧٠ كيلو متر من جنوب شرق نيوزيلندا، وهى ذات طبيعة بركانية (المترجم).

يمكن انطباقهما بعضهما على بعض لو طويت الورقة بشكل معين. وربما يمكن للقارئ أن يفهم هذه المقولة، لكننى لا أستطيع ذلك. وتتلخص فكرته فى أن انحناء (ديفيدسون) بين قطبَى المغنطيس الكهربائى الكبير أحدث التواءً كبيرًا فى مكونات شبكتى عينيه، من خلال التغير المفاجئ فى مجال القوة بسبب برق العاصفة الرعدية.

إنه يعتقد نتيجة لما سبق فى إمكانية أن يعيش ببصره فى جزء معين من العالم، فى حين يعيش بجسده فى جزء آخر منه.. بل إنه قام ببعض التجارب للتأكد من صحة أفكاره هذه.. وحتى الآن نجح فى إصابة بعض الكلاب بالعمى. واعتقد أن هذه خلاصة أبحاثه وتجاربه، رغم أننى لم أره منذ بضعة أسابيع. فقد كنت مشغولاً للغاية مؤخرًا فى أبحاثى المتعلقة بتجهيزات منطقة (سانت بانكراس) لدرجة أنه لم تتح لى سوى فرصة قليلة لزيارته.. إلا أن كل نظريته تبدو خيالية غير واقعية.. أما الحقائق الخاصة بقصة (ديفيدسون) فهى تقف على أساس مختلف تمامًا، وأستطيع أن أشهد شخصيًا على دقة كل التفاصيل والأحداث التى أوردتها بشأنها.

سيد المولدات الكهربائية

كان (جيمس هولرويد) الملاحظ الرئيسى للمحولات الكهربائية الثلاثة التى تطن وتقعقع فى (كمبرويل) والتى تشكل مصدر الكهرباء لخط السكك الحديدية هو الذى يعمل بالكهرباء ويربط (كمبرويل) بـ (يوركشاير) .

كان (جيمس هولرويد) كهربائيًا خبيرًا ومتدربًا عالى المهارة، لكنه شغوف باحتساء الويسكى، ذا شعر أحمر أشعث وأسنان غير منتظمة أيضًا. إلى جانب ذلك فقد كان ملحدًا وإن كان يقبل فكرة الدائرة. قرأ مؤلفات (شكسبير) واعتبر أن (شكسبير) كان ضعيفًا فى علم الكيمياء. أما مساعده فقد جاء من الشرق الملىء بالغموض والذى يؤمن سكانه بكثير من الخرافات. وكان هذا المساعد يدعى (أزمو ـ زى) لكن (هولرويد) اعتاد أن يناديه (بوه ـ بابا) أحب (هولرويد) مساعده الزنجى ذاك لأنه كان يصمد عندما كان يركله، كما تعود (هولرويد) التعامل مع مساعديه. إلى جانب أن (بوه بابا) أيضًا لم يكن يتابع بحزم أداء الآلة (المولد) ليتعلم كيف تعمل. كانت للزنجى (بوه بابا) مفاهيم غريبة معينة نظرًا لأن ذهنه قام بالاتصال

المفاجئ بحضارة إنجلترا المتقدمة. وهذا ما جعل (هولرويد) لا يتبين تمامًا ما إذا كان (بوه بابا) قد أمكنه أن يستفيد من مظاهر هذه الحضارة أو لا.

لكى نتعرف بالأكثر على (أزمو - زى) فلتعلم أنه كان يتجاوز ما استقر عليه علم الأجناس البشرية: فقد كان ربما أكثر زنجية من أى زنجى آخر، رغم أن شعره كان مجعدًا وليس ملتفًا حول نفسه كشعر الزنوج كما أن أنفه كان عاليًا وليس أفطس كأنوف الزنوج بالإضافة إلى ذلك فقد كانت بشرته بنية أكثر منها سوداء كما كان بياض عينيه أصفر وعظام وجنتيه المستعرضة والتى تضيق بصورة ملحوظة عند ذقنه تجعل من شكل وجهه كحرف V فى اللغة الإنجليزية. ورأسه كذلك كان عريضًا فى الخلفية ويتخفف ويضيق عند جبهته كما لو أن مخه قد تم تدويره وطيه على عكس مخ الأوربيين. كان قصير القامة ورغم أن الإنجليز عمومًا ليسوا طوالاً فإنه كان لا يزال يبدو أقصر.

عندما يتحدث (أزمو - زى) يصدر الكثير من الأصوات الغريبة التى لا تؤدى لمعنى على الإطلاق. ألفاظه كانت منمقة ومختارة تعطى أصواتًا كأحد المذيعين يحاول أن ينتقى ألفاظه.

وقد كان (هولرويد) يحاول أن يطور من معتقدات (أزمو - زى) الدينية خاصة بعد تناول الكثير من الويسكى وأن يحاضره مفندًا خرافاته ووثنياته، لكن (أزمو - زى) كان على أى حال يتفادى النقاش حول آلهته حتى لو قام (هولرويد) بركله بسبب إصراره على معتقداته.

حضر (أزمو ـ زى) لابسًا أثمالاً بيضاء، وكان يبدو فى أثماله أشبه بالمجانين. لقد سمع فى شبابه بمدى عظمة لندن ومجدها، حيث النساء كلهن بيضاوات وأنيقات حتى الشحاذين فى الطرقات كانوا ذوى بشرة بيضاء. وصل إلى لندن ولديه عملات ذهبية جديدة فى محفظته ليقوم بالعبادة فى مزار الحضارة فى لندن.

أما عن يوم وصوله إلى لندن فقد كان يومًا جديرًا بالتسجيل: كانت السماء موحشة، وصفير الرياح يجتاح الشوارع الموحلة. ولكن شعورًا بالبهجة غمره رغم هذا الجو الغائم، وأحس فى ذلك التوقيت أنه يرتقى هو ليحطم الصخة المفلس فى هذا الزى المتحضر الذى يلبسه وفيما عدا سماته الإنسانية الأساسية فقد كان فعليًا أشبه بحيوان الكم يناضل للوصول لـ (جيمس هولرويد) ليعيد تأهيله فى مقر المحولات الكهربائية فى (كامبرويل) أما بالنسبة لـ (جيمس هولرويد) فقد كان إعادة تأهيل (أزمو ـ زى) عملاً إنسانيًا ينطوى على الحب.

لقد كان هناك ثلاثة مولدات بملحقاتها فى (كامبرويل)، اثنان منها كانا هناك منذ البداية وكانا صغيرين. أما المولد الثالث ـ أحدثهم - فقد كان أكبر الثلاثة . كان المولدان الصغيران يصدران ضوضاء مقبولة؛ فقد كانت شرائطهما المعدنية تطرق أسطواناتهما تبادليًا من لحظة لأخرى فتقوم الفرش بإصدار طنين يعقبه صوت خروج هواء محبوس يعطى نغمة كشخص يقول "هووه ـ هووه ـ هووه"، ما بين الحركتين. وكانت إحدى الفرشتين غير محكمة الربط بالمولد مما يجعل حركتها تسبب اهتزازًا للمحركات. لكن صوت

المولد الكبير كان يلغى كل هذه الضجة الصغيرة بالأزير المستديم الذى يحدثه قلبه الحديدى والذى كان صوته يختلف عن صوت المولدات الصغيرة.

كانت ضجة المكان تجعل رأس أى زائر تدور مع صوت نبضات المولدات الثلاثة وصوت دوران العجلات الكبيرة وصوت بكرات دواليب الصمامات وصوت تدفق الدخان مرحليًا، وفوق كل ذلك الصوت المتواصل الملحوظ للمولد الكبير.

كان هذا الصوت المنتظم الملحوظ للمولد الكبير من وجهة النظر الهندسية يمثل عيبًا ولكن بالنسبة لـ (أزمو ـ زى) فقد كان صوتًا يتابعه بفخر ولا يسهو عنه للحظة.. صوت وحش..

لو كان ممكنًا لجعلنا هذا الصوت ـ صوت مقر المولد حيث الصوت ـ مسموعًا وهو يواصل قراءة القصة.. لقد كنا نتمنى أن يصاحب هذا الصوت القارئ وهو يواصل القراءة.. إنه صوت جلبة منتظمة فى إصرار حيث تلتقط أذن القارئ صوت نبضة يعقبها نبضة ثم الصوت المتقطع الذى يشخر ويلهث ويضطرب متابعًا للآلات البخارية.. الصوت الساحب والصوت المكتوم للمكابس.. الصوت الخافق المميز للهوء عندما تدور العجلات، وصوت سيور الجلد عندما تقترب وعندما تبتعد عن العجلات وصوت الضجة المضطربة الخارجة عن المحولات وأهم من كل هذا الصوت غير المسموع عندما تتعب الأذن من كل هذه الضجة. دعنا نعاود التسلسل إلى حيث كنا ثانية قبل هذه الجملة الاعتراضية إلى حيث الصوت الموسيقى الرتيب المنتظم للمولد الكبير ثانية. إن

الأرض لا تستقر أبدًا تحت أقدام الساتر حيا فى المقر فهى تهتز وتتأرجح.

لقد كان المكان يدعو إلى التشوش، مكانًا غير مستقر ويؤدى إلى أن تندفع أفكار الإنسان فى مسارات متعرجة. وفى خلال ثلاثة شهور كان فيها المهندسون قد قاموا بإضراب كان (هولرويد) و(أزمو ـزى) الذى كان مجرد زنجى أسود لا يبتعدان إطلاقًا عن هذه الحركة المتذبذبة التى تشبه الدوامات البحرية فقد كانا يأكلان وينامان فى كوخ خشبى بين المقر والبوابات.

وقد أعطى (هولرويد) محاضرة لاهوتية[١] عن كيفية التعامل مع المولد الكبير عقب حضور (أزمو ـ زى) مباشرة.

كان عليه أن يصيح لكى يتم سماعه فى هذا الضجيج.. "انظر إلى هذا"، مشيرًا إلى المولد محدثًا (أزمو ـ زى) هل لاعتقاداتك الوثنية مجال مع مثل هذا، نظر (أزموـ زى) للحظة فلم يكن صوت (هولرويد) يمكن سماعه إلا أنه بعدها أمكنه أن يسمعه يقول وكأنما يحدث المولد.. "اقتل مئة شخص فإن اثنى عشر شخصًا من بين كل مئة يعملون عليه يموتون.. ألا يعتبر هذا إلهًا؟". كان (هولرويد) فخورًا بالمولد الكبير الذى يديره وكان دومًا يطنب فى الكلام عن قوة المولد وحجمه لـ (أزمو ـ زى) حتى جاء الوقت الذى أدركت فيه السماوات تيارات الفكر الغريبة التى كانت تراود وتتصارع فى رأس هذا الأسود الجاهل وسط كل هذه الجعجعة.

(١) له علاقة بدراسة دينية متخصصة (المترجم).

كان يمكن لـ (هولرويد) أن يشرح بأسلوب توضيحى عشر طرق مختلفة بها يمكن للمولد الكبير أن يقتل شخصًا. وقد تسبب لـ (أزمو - زى) فى صدمة عندما أجرى اختبارًا عمليًا لدى قدرة المولد على القتل. بعد ذلك صار (أزمو - زى) فى أوقات معينة (فقد كان عمله شاقًا جدًا وكذلك معظم عمل (هولرويد) يجلس ساكنًا يراقب المولد. ما بين الحين والآخر كانت فُرش المولد تلمع وتصدر ومضات من الضوء الأزرق مما يجعل (هولرويد) يسب ويلعن. لكن فى معظم الأوقات كان أداء المولد مستقرًا وفى إيقاع ثابت مثل عملية التنفس. يجرى السير الجلدى مُصدرًا صوتًا عند احتكاكه بعمود المولد وخلفه يصدر المكبس صوتًا يشبه الضحك المكتوم. هكذا كان المولد يعمل معظم اليوم فى مقره وكذلك ينتظر (هولرويد) بالقرب منه بوصفه مشرفًا. لم يكن المولد يشبه الآلات المعروفة التى تدير السفن - وكأنما الآلة سجينة السفينة مثل ركابها - أو كمثل الشياطين السجينة فى جزر سيلان البريطانية، كانت الآلة متوجة كملك يجلس على عرشه. أما المولدان الكهربائيان الصغيران الآخران فقد كانا على العكس بالنسبة لـ (أزمو - زى) محتقرين، لذلك اعتبر (أزمو - زى) المولد الكبير إلهًا وسيدًا لهذه المولدات الصغيرة؛ فقد كانا مضطربين، وحركتهما غير منتظمة. لكن المولد الكبير كان مستقرًا، لكم هو عظيم فهو يعمل بجلال وسلاسة. إنه حتى أعظم وأهدأ من تمثال (بوذا)[٢] الذى رآه فى (رانجون)[٣] كما

---

(٢) جاوتاما بوذا (٥٦٢ قبل الميلاد - ٤٨٣ قبل الميلاد) فيلسوف هندى شهير مؤسس ديانة (البوذية) التى يعتنقها عدد كبير من سكان آسيا (المترجم).

(٣) من أكبر مدن دولة "ميانمار" (بورما سابقًا)، التى تقع فى جنوب شرق آسيا (المترجم).

أن الدينامو حيّ يتحرك وليس كبوذا ميت لا يتحرك! إن حلقاته المعدنية السوداء تدور وتدور وتدور، والحلقات تجرى حول الفرش والسلك الذى يجمع الحلقات يجعل حركتها مستقرة. لقد أثر هذا السياق على (أزمو ـ ز ى) وجعله دومًا يرتعد.

لم يكن (أزمو ـ زى) مغرمًا بالعمل فقد كان يجلس ساكنًا ينظر إلى المولدات ويرقب "سيد المولدات" عندما كان (هولرويد) يذهب بعيدًا إلى حيث البواب ليقنعه بإحضار الويسكى رغم أن مكان (أزمو ـ زى) لم يكن عند مقر المولد ، ولكن خلف الآلات. أكثر من ذلك فقد كان يتعرض للعقاب عندما يكتشف (هولرويد) مكانه ويضربه بسير من النحاس السميك وعندها كان يذهب ويقف أمام المولد ناظرًا إلى أعلى إلى السير الجلدى الذى يجرى أعلاه. كانت هناك بقعة سوداء على السير تدور مع دورانه وتعود إلى حيث كانت مع عودته وكان منظر هذه البقعة المتحركة يسعد (أزمو ـ زى) جدًا فى ظل كل هذه القعقعة الصوتية. أفكار غريبة كانت تدور فى ذهنه وهو يدور معها. لقد كان العلماء فى قبيلته يقولون: إن الآلهة الوثنية تعطى أرواحًا للصخور والأشجار. كان (أزمو ـ زى) ما يزال همجيًا ولم تكن الأفكار الحضارية تزيد عن قشرة بسيطة لا تتعدى الخدشات والكدمات التى على سطح جلده وهباب الفحم الأسود الذى يغطى وجهه ويديه.

لقد كان أبوه من قبل يعبد حجرًا نيزكيًا ولربما يكون الدم المرشوش على هذا الحجر قد راح يتسع فى حلقات دائرية واسعة ناشرًا معه الكثير من أفكار الشعوذة.

كان (أزمو - زى) ينتهز أى فرصة يعطيها له (هولرويد) لكى يتلامس ويتعامل مع المولد الكبير الذى كان يبهره، لقد كان يحك أجزاءه وينظفها لدرجة أن أجزاءه المعدنية قد صارت مصقولة تلمع فى ضوء الشمس، وكان يحس بإحساس غامض يغمره وهو يفعل ذلك.. ربما نوع من الوجد الروحانى - كان يصعد إلى حيث الحلقات التى تدور ليلمسها بدقة، كانت الآلهة التى يعبدها بعيدة عنه جداً وكان مقتنعًا أن أهل لندن يخبئون آلهتهم.

وفى الفترة الأخيرة صارت أحاسيسه الغامضة هذه تنمو وتصير واضحة وجلية فى ذهنه، ثم بدأت تظهر على تصرفاته. فعندما دخل إلى مقر المولد الكبير فى أحد الأيام عند الصباح سجد له عندما ابتعد (هولرويد). راح يقترب من المولد بصوته العاصف وقد اعتبر نفسه خادمه وكاهنه. وصلى له لكى يصير رءوفًا به وينقذه من (هولرويد) وما إن أنهى ذلك حتى أحس أن هناك شعاعًا نادرًا انبعث غامرًا المقر وأن "سيد المولدات" وهو يدور يشع شعاعًا ذهبيًا باهتًا. عندها أحس (أزمو - زى) أن صلاته قد تم قبولها من جانب معبوده وربه. بعدها لم يعد يحس بالوحشة كما كان يحس من قبل وإن صار بالحقيقة وحيدًا بالأكثر فى لندن. وعندما كان وقت عمله ينتهى (ونادرًا ما كان يحدث هذا) كان يتسكع حول مقر المولد الكبير.

فى المرة التالية عندما أساء (هولرويد) معاملته فذهب (أزمو - زى) فى التو إلى "سيد المولدات" وهمس فى أذنه ألا ترى يا سيدى؟ وبدا أن طنين الآلة الغاضب يجيبه، وبعد ذلك بدا له أنه

كلما دخل (هولرويد) السقيفة سمع نغمة مختلفة تختلط بأصوات المولد فيقول (أزمو - زى) لنفسه: "إن سيدى ينتظر، فإن ظلم الأحمق لم ينضج بعد". وفى يوم ما كان هناك عطل لدائرة كهربية صغيرة، وقام (هولرويد) بعمل اختبار حذر. وكان هذا بعد الظهر فتلقى صدمة كهربائية كيرة ورآه (أزمو - زى) من وراء الآلة يقفز ويلعن تلك اللفافة من الأسلاك.

وقال آزمو لنفسه: "لقد تنبه عليه، ولكن بكل تأكيد فإن سيدى صبور للغاية".

ذات يوم لاحظ (هولريويد) مدى تعلق (أزمو - زى) بالمولد الكبير وصاح أعلى من صوت الآلات: "لا تقترب من هذا المولد الكبير وإلا سلخت جلدك". أما (أزمو - زى) فقد أصر أن يكون بالقرب من هذا المولد الكبير فلم يكن من الذوق واللياقة أن يبعده عنها.

أطاع (أزمو - زى) فى وقتها ولكنه أمسك فيما بعد وهو ينحنى أمام "سيد المولدات" فلوى (هولرويد) ذراعه وركله عندما هم بالرحيل وعندما وقف (أزمو - زى) خلف الآلة وأخذ ينظر إلى خلف (هولرويد) المكروه أخذت تصدر الآلة ضوضاء بشكل مختلف. وبدا الصوت كأنه أربع كلمات فى لغته القومية، وبدا الصوت الذى لم يتوقف من مكان الدينامو أنه كان يحرك بعنف يتسم بالحزن معلوماته وخياله الخرافى أخيرًا إلى شىء أقرب إلى الخبل المؤقت. وعلى أى حال، فإن فكرة أن يقدم (هولرويد) ذبيحة للمولد ملأته بشعور غريب من الابتهاج.

وقد كان الرجلان وظلهما الأسود بمفرديهما فى تلك الليلة فى السقيفة معًا وقد أضيئت باللون الأرجوانى المهتز، وكانت الظلال سوداء خلف المولدات وكرات التحكم كانت تضىء وتخبو ، كما كانت المكابس تدق بثبات وبصوت عال. وكان العالم الخارجى كما يبدو من خلال الطرف المفتوح للسقيفة معتمًا وبعيدًا بشكل غير معقول، وكان يبدو ساكنًا تمامًا أيضًا حيث إن صخب الآلة غطى على كل صوت خارجى، وكان عن بعد يوجد السور الأسود للفناء بمساكنه الظليلة الرمادية خلفه، وفى الأعلى كانت توجد السماء ذات الزرقة الفائقة والنجوم الصغيرة الباهتة وفجأة سار (أزمو - زى) وسط السقيفة التى كان تجرى أعلاها الأحزمة الجلدية وتدخل الظل بواسطة المولد الكبير. سمع (هولرويد) صوت طقطقة وتغير دوران الجزء الدوار من المولد فصاح بدهشة قائلاً: "ماذا تفعل بذلك المفتاح؟" "ألم أقل لك..؟".

ثم رأى التعبير العدائى فى عينى (أزمو - زى) عندما خرج "الآسيوى" من الظل متجهًا نحوه.

وفى لحظة أخرى كان الرجلان يتشابكان بوحشية أمام المولد الكبير.

"أيها الأحمق.. ابتعد عن هذه الوصلات" قالها (هولرويد) انحبس نفسه من الصدمة وكانت يد بنية حول رقبته. وفى اللحظة التالية كان يتعثر ويلف حول "سيد المولدات" ثم غريزيًا خفف من قبضته على خصمه لينقذ نفسه من الآلة.

وكان أحد رجال الشرطة قد أرسل فى سرعة كبيرة من مخفر الشرطة ليكتشف ما حدث فى سقيفة المولدات، وقابل (أزمو - زى)

فى مسكن حمالى السكة الحديدية عند البوابة. وقد حاول (أزمو - زى) أن يشرح شيئًا، ولكن رجل الشرطة لم يفهم شيئًا من إنجليزية الأسود غير المترابطة، وأسرع إلى داخل السقيفة وكانت المولدات كلها تعمل بصوت عال، وكل شىء كان منتظمًا، ولكن كانت هناك رائحة غريبة لشعر يحترق ثم رأى كتلة مجعدة غريبة الشكل متعلقة بمقدمة المولد الكبير. وعند اقترابه تعرف على البقايا المشوهة لـ(هولرويد).

حملق الرجل وتردد للحظة ثم رأى الوجه وأغلق عينيه بطريقة غريبة واستدار على عَقِبه قبل أن يفتح عينيه حتى لا يرى (هولرويد) ثانية وخرج من السقيفة ليحصل على المساعدة.

وعندما رأى (أزمو - زى) (هولرويد) يموت فى قبضة المولد العظيم ارتعب قليلاً من نتائج فعلته، ولكنه شعر بأنه معجب بنفسه وعرف أن معروف "سيد المولدات" قد غمره، وكانت خطته قد استقرت عندما تقابل مع الرجل الآتى من مخفر الشرطة والمدير العلمى الذى وصل بسرعة إلى المكان واعتقد أن (هولرويد) - لأول وهلة - قد انتحر. ولم يلحظ هذا الخبير وجود (أزمو - زى) إلا ليوجه إليه بعض الأسئلة القليلة: هل رأى (هولرويد) يقتل نفسه؟ فشرح (أزمو - زى) أنه كان بعيداً عند فرن الآلة حتى سمع اختلافًا فى ضوضاء المولد ولم يكن فحصًا عسيرًا كما لم يساوره الشك فيما حدث.

أما البقايا المشوهة لـ (هولرويد) والتى أزالها الكهربائى من المولد فقد غطاها أحد الحمالين بسرعة بمفرش سفرة عليه بقع

القهوة وقد أحضر أحد الرجال طبيبًا وكان الخبير قلقًا أن يشغل الآلة ثانية لأن سبعة أو ثمانية قطارات قد توقفت فى منتصف الطريق فى الأنفاق المزدحمة للسكك الحديدية الكهربية. فأجاب (أزمو ـ زى) أو أساء الفهم للأسئلة الموجهة من الناس الذين كان لهم السلطة والذين أتوا إلى السقيفة وأرسلوا عائدين إلى فتحة الفرن بأمر المدير العلمى. وطبعًا كان هناك تجمع خارج بوابات الفناء لسبب غير معروف، مخبرين صحفيين أو ثلاثة استطاعوا وبطريقة ما الدخول لسقيفة الآلة بل إن أحدهم جاء يريد التحدث إلى (أزمو ـ زى) ولكن الخبير العلمى فرقهم ثانية".

وفى الحال حُمل الجسد وحمل معه اهتمام الناس وبقى (أزمو ـ زى) هادئًا عند الفرن ينظر إلى الفحم ويرى شبحًا أو شكلاً يتلوى بعنف ثم يسكن وبعد ساعة من جريمة القتل كان كل شىء يبدو وكأن لا شىء ذا قيمة قد حدث هناك.

عندئذ أخذ (أزمو ـ زى) من مكانه فى حجرة المحركات، إلى "سيد المولدات"، وهو يدور حول محوره بسرعة ويلف ويصر بجوار إخوته الصغار، وكانت عجلات الدفع تنبض بإيقاع رتيب والبخار فى المكابس يصدر صوتًا مكتومًا. تمامًا كما كان فى السابق فى الساعات الأولى من المساء. وعلى الرغم من كل شىء ـ ومن وجهة النظر الميكانيكية ـ كانت هذه حادثة عديمة الأهمية، مجرد انحراف مؤقت للتيار الكهربائى. وعندئذ استبدل التكوين المتين لـ (هولرويد) بالجسم والظل الطويل الرفيع للمدير العلمى الذى أخذ يذرع المكان جيئة وذهابًا، والضوء ينتشر على الأرضية المهتزة على طول النطاق الضيق بين المحركات والمولدات.

"هل لم أخدم سيدى؟" قالها (أزمو -زى) بصوت غير مسموع من مكانه وقد خرجت نغمة من المولد واضحة جلية، وعندما نظر إلى حركة الآلات ـ ذات السحر الغريب والتى كانت معطلة قليلاً منذ موت (هولرويد) ـ بدأت تستأنف عملها.

ولم ير (أزمو ـ زى) رجلاً يقتل بهذه السرعة والقوة قبل ذلك فقد ذبحت الآلة الطنانة الكبيرة ضحيتها دون أى تردد فقد كانت حقًا إلهًا قويًا.

ووقف المدير العلمى غير الواعى معطيًا ظهره له يخط شيئًا وقد وقع ظله على الوحش.

هل كان السيد المولد لا يزال جائعًا فقد كان خادمه على استعداد.

تقدم (أزمو ـ زى) خطوة خلسة ثم توقف وكذلك توقف المدير العلمى عن كتابته وسار فى السقيفة حتى نهاية الدينامو الكبير وبدأ فى فحص الفرش.

تردد (أزمو ـ زى) ثم انسل دون صوت فى الظل عند مفتاح التشغيل وهناك انتظر ثم سمع وقع أقدام المدير راجعًا وتوقف فى مكانه السابق غير واع بالموقد[٤] على بعد عشرة أقدام منه، ثم فجأة بدأ المولد يئز ثم فى لحظة ثانية قفز (أزمو ـ زى) من الظلام عليه.

---

(٤) الشخص الذى يقوم بتذكية النار والاهتمام بالفرن، ويقصد المؤلف هنا (أزمو ـ زى) (المترجم).

وأمسك المدير العلمى من وسطه ودفعه نحو المولد الكبير، وأخذ يركله بركبته مجبرًا خصمه على انحناء رأسه بيده إلا أن المدير العلمى استطاع أن يفك القبضة من وسطه ولف بعيدًا عن الآلة. ثم أمسكه الزنجى ثانية واضعًا رأسه المجعد على صدره. وتأرجحا ولهثا فترة ما، ثم تمكن المدير العلمى من أن يمسك أذن الزنجى بأسنانه ويعضها بشدة فصرخ الزنجى بوحشية.

وسقطا على الأرض وبدا من الواضح أن الزنجى أفلت من الأسنان ببقية من أذنه، وتعجب المدير العلمى الذى حاول أن يخنقه فى نفس الوقت، وحاول أن يعمل مجهودًا مؤثرًا لكى يخدش بيديه وأن يركل برجليه عندما جاء الصوت المحبب لوقع الأقدام السريعة على الأرض. وفى اللحظة التالية تركه (أزمو - زى) واتجه نحو المولد الكبير.

ووقف رجل أمن الشركة الذى كان قد دخل وشاهد كل شىء، بينما كان (أزمو - زى) يمسك الطرفين العاريين للسلكين الكهربيين بيديه، وارتعش بشدة ثم وقف دون حراك بجانب المولد الكبير وقد شوه وجهه.

قال المدير العلمى : "إننى مسرور أنك أتيت فى الوقت المناسب". وكان لا يزال جالسًا على الأرض ونظر إلى الشخص المرتعد "إنها ليست ميتة ظريفة ولكن من الواضح أنها سريعة".

وكان رجل الأمن لا يزال ناظرًا إلى الجثة فقد كان رجلاً ذا فهم بطىء.

كانت هناك وقفة وقام المدير العلمى ووقف على قدميه بحرج

وتحسس ياقته بأصابعه مفكرًا ومحركًا رأسه إلى الأمام وإلى الخلف عدة مرات.

"يا (هزلرويد) المسكين! قد فهمت الآن". وذهب بطريقة آلية نحو مفتاح التشغيل وشغل التيار الكهربى فى دائرة قضبان السكك الحديدية من جديد، ونظر إلى الجسم المحروق الذى خفف قبضته على المولد الكبير وسقط على وجهه، وكان قلب المولد يزأر بصوت عال وواضح، والجزء الدوار منه يضرب الهواء على نحو متكرر.

وهكذا أنهى بصورة مبكرة عبادة ألوهية المولد، وهى أقصر ديانة، وبالإضافة إلى ذلك يمكنها أن تتباهى بالاستشهاد والتضحية البشرية.

سطو بحديقة (هامربوند)

لطالما كان السطو موضوع نقاش جَدَلىّ حول اعتباره رياضة أو تجارة أو فن.. فبالنسبة للتجارة نجد أنه لا يعتمد على أسلوب صارم بما فيه الكفاية.. وأما الزعم بأنه فن فيبطله اعتماده على الجشع أو الطمع الذى يدفع إليه عادة.. ولكن بوجه عام يبدو أنه أقرب ما يكون إلى تصنيفه كرياضة، وهى لم تُضَعْ لها - حتى الآن - قواعد تتبع، كما أنه يتم توزيع جوائزها بطريقة غير رسمية بالمرة.. والحقيقة أن هذا الطابع غير الرسمى للسطو هو الذى أدى إلى انتهاء أمر اثنين من اللصوص الواعدين اللذين استهلا ممارسة نشاطهما فى حديقة (هامربوند).

كانت الجوائز المنتظرة من هذه العملية تتكون أساسًا من ماسات وغيرها من تحف قيمة لقدمها وندرتها، ولوحات زيتية تمتلكها السيدة (افلينج) المتزوجة حديثًا.. والسيدة (افلينج)، كما يتذكر القارئ، هى الابنة الوحيدة لسيدة المجتمع التى بلغت شهرتها الآفاق السيدة (مونتاج).. وقد تم الإعلان بكثافة عن زواجها من اللورد (افلينج) فى كل الصحف..وكذا كميات هدايا

عرسها ونوعياتها.. وحقيقة أنهما سيقضيان شهر العسل فى (هامربوند).

أدى الإعلان الباهر عن تلك الهدايا البالغة القيمة إلى خلق شعور قوى فى محيط "الدائرة الصغيرة" التى يعتبر السيد (تيدى واتكنز) الزعيم المتوّج لها دون منازع.. ومن ثم قرر أن يزور قرية (هامربوند) بصفته "المهنية" ومعه مساعد قدير مشهود له بالكفاءة والقدرة على تنفيذ مختلف المهام.

ولكونه رجل خجول ومتواضع الشخصية، فقد قرر السيد (واتكنز) أن يتخفى وراء اسم مستعار تحسبًا للعواقب غير المرغوب فيها..وبعد تفكير ونظر فى ظروف تلك "المهمة الخاصة"، اختار تمثيل دور رسام للمناظر الطبيعية، وكذا اللقب المتواضع (سميث).. وتوجه أولاً إلى هناك قبل مساعده الذى قرر أن ينضم إليه فقط فى آخر أمسية يقضيها فى (هامربوند).

حينئذ كانت قرية (هامربوند) تعد واحدة من أجمل قرى منطقة (ساسكس)[1].. حيث ما زال هناك بيوت كثيرة ذات سقوف من القش والبوص.. والكنيسة المشيدة من حجر الصوان، ذات البرج الشاهق والجاثمة أسفل التل، والتى تعتبر واحدة من أجمل الكنائس فى البلاد وأقلها ترميمًا والتى ما زالت بحالة جيدة، وأشجار الزان، وغابات السرخس[2] التى يمر الطريق خلالها إلى القصر الكبير، التى يطلق عليها الرسامون والمصورون "بقع متناثرة ذات قيمة فنية

---

(١) مقاطعة تاريخية تقع فى جنوب شرق إنجلترا (المترجم).

(٢) من النباتات اللازهرية تزدهر عادة فى المناطق الاستوائية (المترجم).

فـريـدة" .. ولـذلـك ذهـب الـسـيـد (واتـكـنـز) إلى هـنــاك، حـامـلاً معه قطعتَى قماش من الكنفا[٣] نظيفتين للرسم وحاملاً جيدًا للوحات، وعلبة ألوان الرسم الزيتى وحقيبة سفر وسلم صغير رائع مكون من أقسام، وعتلة وملفات من الأسلاك.. وبمجرد وصوله لاقى ترحيبًا شديدًا، وبعض الفضول من عدد من زملاء "المهنة" الرسامين.. وجعل ذلك تنكره الذى اختاره شيئًا معقولاً ـ على غير ما كان يتوقع ـ ولكن تطلب منه قدرًا كبيرًا من المناقشات الفنية والجمالية التى لم يكن مستعدًا لها بشكل كامل..

قال له (بورسون) الشاب فى ردهة فندق (العربة والجياد)، حيث كان السيد (واتكنز) يجمع ببراعة بعض المعلومات المحلية فى ليلة وصوله: "هل عرضت لوحاتك فى الكثير من المعارض؟".

قال السيد (واتكنز): "قليلاً جدًا.. بضع لوحات هنا وهناك".

وعاد يسأله: "هل درست فى أحد المعاهد الفنية؟".

فأجابه: "بالطبع.. فى (كريستال بالاس)".

قال (بورسون): "وهل عرضوا لوحاتك بشكل لائق؟".

قال السيد (واتكنز) منفعلاً: "دعك من هذا اللغو.. فأنا لا أحب الهراء".

"على رسلك يا رجل..إنما أعنى: هل عرضوا لوحاتك فى مكان جيد؟".

---

(٣) قماش غليظ متباعد الخيوط من القطن أو الكتان معد للرسم الزيتى (المترجم).

قال (واتكنز) بارتياب: "ماذا ترمى إليه يا رجل؟.. سوف يعتقد من يسمعك أنهم يعاملون لوحاتى كنفاية لا قيمة لها".

كان (بورسون) رجلاً مهذبًا حسن التربية. ولم يقصد أى إهانة.. وعندما شعر بحرج الموقف، بادر بتغيير موضوع الحديث إلى حد ما.. فسأل (واتكنز): "وهل تصنع تماثيل من أى نوع؟".

قال السيد (واتكنز) "لا.. لم أصنع تمثالاً لرأس إنسان قط.. إن زوجتى السيدة (سميث) تنحت التماثيل".

قال (بورسون) "إذن هى ترسم أيضًا!.. هذا شىء رائع فعلاً".

قال (واتكنز) "نعم" على الرغم أنه لم يكن يظن ذلك.. وعندما شعر أن الحوار بدأ يخرج من بين يديه.. بادر الرجل بقوله: "لقد جئت إلى هنا لرسم قصر (هامربوند) فى ضوء القمر".

قال (بورسون) "حقًا!.. إنها فكرة جديدة بالفعل".

قال (واتكنز) "نعم.. أنا أيضًا اعتقدت ذلك عندما خطرت الفكرة ببالى.. وربما أبدأ مساء الغد".

تساءل (بورسون) فى دهشة: "ماذا؟ ماذا تقول؟.. أنت بالطبع لا تنوى الرسم فى الخلاء ليلاً.. أليس كذلك؟".

"لكننى أنوى فعل هذا يا رجل.. وماذا فى ذلك بحق السماء؟".

"لا شىء سوى أنك لن تستطيع رؤية اللوحة التى ترسمها..هذا كل ما فى الأمر!".

فهم (واتكنز) مغزى الكلام.. وأيقن أنه يجب أن يرد بشىء

معقول.. وصاح فى السيدة (دورجان) طالبًا كأسًا آخر من الجعة.. وقال لـ (بورسون): "سوف أحضر معى مصباحًا ليليًا لينير لى".

اعترض (بورسون) قائلاً: "لكن القمر الآن هلال يا صديقى.. أى لا يكاد يوجد قمر أصلاً فى السماء".

قال (واتكنز): "ولكن على أى حال هناك القصر.. وسوف أقوم أولاً برسم القصر ثم بعد ذلك أرسم القمر".

قال (بورسون) وهو فى حالة من الذهول لا تسمح بمواصلة الحوار: "حقًا!".

أما العجوز (دورجان) صاحب الفندق، والذى ظل صامتًا طوال حديثهما الفنى، فقد قال "بما أنه يوجد ما لا يقل عن ثلاثة رجال شرطة من (أزلوورث) يقومون بحراسة القصر كل ليلة.. وأيضًا حراسة مجوهرات الليدى (افلينج).. فلا خوف عليها قط..".

وقبيل غروب شمس اليوم التالى، سار (واتكنز)، حاملاً معه قماشتى الكنفا النظيفتين، والحامل وحقيبة كبيرة بها كثير من الأدوات التى تلزمه، فى الطريق الجميل الذى يخترق أشجار الزان، متجهًا إلى حديقة (هامربوند).. وهناك نصب أجهزته فى مكان استراتيجى يشرف على القصر.. وهنا لاحظه السيد (رافاييل سانت) الذى كان يخترق الحديقة عائدًا إلى منزله بعد أن انتهى من عمله.. وكان فضوله قد ثار من حديث (بورسون) عن الوافد الجديد غريب الأطوار.. ولم يلبث أن استدار بعد أن خطرت على باله فكرة مناقشة هذا الفن "الليلى" معه..

بدا أن السيد (واتكنز) لم ينتبه إلى اقترابه.. كان قد انتهى لتوه من الحديث الودى مع كبير خدم الليدى فى (هامربوند) والذى أخذ الآن يبتعد عنه، وحوله كلابه الأليفة الثلاثة، التى كان عليه أن يسير بها فى الهواء الطلق بعد تقديم وجبة العشاء لها..

كان السيد (واتكنز) يخلط ألوانًا محاولاً التظاهر بأنه فنان كبير.. وعندما اقترب (سانت) جدًا منه، دهش لرؤية تلك الألوان الجميلة والزاهية، التى تميل إلى اللون الأخضر الزمردى الآخاذ.. ولما كان الرجل اكتسب قدرة فائقة على الإحساس بالألوان من خبرة سنواته السابقة. فقد ملأ صدره بالهواء المنعش لمجرد مشاهدته له.. واستدار (واتكنز) على عقبيه ونظر فى قلق..

قال (سانت): "بحق السماء، ما الذى ستفعله يا رجل بهذا اللون الأخضر المفرط؟".

عندئذ أدرك (واتكنز) أن ادعاء الانهماك فى العمل الذى انطلى على كبير الخدم لم ينجح الآن بسبب خطأ فنى وقع فيه..

ونظر إلى (سانت) متحيرًا.

قال (سانت): "معذرة لتطفلى.. ولكن الحقيقة أن هذا اللون الأخضر أدهشنى.. أو بتعبير أدق صدمنى.. ترى ما الذى تنوى أن تفعله به؟".

قدح (واتكنز) زناد فكره.. وأدرك أنه لن يتمكن من إنقاذ الموقف إلا بالحسم ولذلك أسرع قائلاً: "اسمع يا هذا.. إذا قاطعتنى فى أثناء عملى مرة أخرى فلسوف أدهن وجهك بهذا اللون".

تراجع (سانت) وكان رجلاً ظريفًا مسالمًا بطبعه.. وفى أثناء نزوله من على التل قابل (بورسون) و(وينرايت) وقال لهما: "هذا الرجل إما أنه عبقرى فى الرسم، أو معتوه يمثل خطرًا علينا.. ما عليكما إلا أن تصعدا التل وتريا اللون الأخضر العجيب الذى يرسم به".. وتابع الرجل سيره، وانفرجت أساريره وهو يتوقع حدوث عراك وصخب حول حامل لوحة الرسم فى ضوء الغسق وإسالة المزيد من اللون الأخضر.

لكن بالنسبة إلى (بورسون) و(وينرايت) كان (واتكنز) أقل عدوانية مما يزعم الرجل.. إذ أخذ يشرح لهما آن اللون الأخضر مطلوب للوحته.. واعترف فى رده على سؤال طرح عليه أن هذه طريقة جديدة تمامًا ابتكرها بنفسه.. لكنه فيما بعد أصبح أكثر تحفظًا فى الكلام.. وقال: إنه ليس مستعدًا لأن يشرح لكل عابر سبيل سر أسلوبه الفنى المبتكر.. ثم تفوه ببعض الكلمات القاسية جدًا عن وضاعة الناس الذين يتطفلون عليه، لانتزاع أسرار فنه العظيم.. وساعده ذلك على الفور فى التخلص من صحبة الفضوليين..

ازدادت ظلمة الشفق.. ثم ظهر أحد النجوم وسرعان ما تلاه آخر.. وجثمت أسراب (الغداف)[٤] وسط الأشجار الباسقة على يسار القصر فى هدوء وسكينة لفترة طويلة.. وفقد القصر نفسه كل تفاصيله المعمارية بعد أن أسدل الظلام عليه ولم يبق منه إلا معالمه الرمادية الداكنة.. وعندئذ تألق نور ساطع من نوافذ البهو..

---

(٤) طائر يشبه الغراب (المترجم).

ثم أضيئت حجرة الموسيقى.. وانتشر ضوء أصفر من بعض نوافذ حجرات النوم الضخمة.. ولو اقترب أحد من حامل الرسم فى الحديقة لوجده مهجورًا، وكلمة واحدة صغيرة بذيئة مكتوبة بلون أخضر فاقع تشوه نصاعة اللوحة.. فقد كان السيد (واتكنز) مشغولاً بين مجموعة الأشجار فى الحديث مع مساعده الذى انضم إليه فى تكتم وحيطة وحذر بعد أن هبط من العربة التى أقلته إلى هناك..

كان السيد (واتكنز) يجنح إلى تهنئة نفسه على الخطة العبقرية التى تمكن بواسطتها من نقل كل أدواته بسهولة وعلنا أمام أعين الجميع، إلى مشهد الأحداث مباشرة.. ثم قال لمساعده: "هذه غرفة تغيير الملابس.. وبمجرد أن تأخذ الخادمة الشمعة وتتجه إلى الطابق الأرضى لتناول طعام العشاء، سوف نبدأ زيارتنا السرية!.. ما أجمل منظر القصر... وخصوصًا فى ضوء النجوم.وفى وجود كل تلك النوافذ والأضواء! أتعرف يا (جيم) إننى أتمنى لو كنت بالفعل رسامًا!.. هلا مددت سلكًا قويًا من غرفة الغسيل عبر الممر" ثم اقترب بحذر من القصر حتى وقف تحت نافذة حجرة تغيير الملابس.. وبدأ ينصب سلمه المطوى.. لقد كان مهنيًا ذا خبرة طويلة وغير عادية، بحيث أنه لم يشعر بأية إثارة استثنائية أما (جيم) فطفق يستطلع أحوال حجرة التدخين. وفجأة صدر خلف (واتكنز) فى الشجيرات القريبة منه جلبة وارتطام ولعنات مكبوتة! شخص ما سقط بعد اصطدامه بالسلك الذى مده مساعده لتوه.. وسمع وقع أقدام تعدو على الممر الخلفى.

كان السيد (واتكنز) ـ مثل كل الفنانين الحقيقيين ـ رجلاً متهيبًا.. ولذلك أسقط السلم المطوى بانفعال وبدأ يركض بين الأحراش وهو محتاط للظروف والنتائج المحتملة، وكان يدرك بشكل غامض أن شخصين يطاردانه باستماتة.. وتخيل أنه يرى مساعده أمامه.. وبعد لحظة أخرى كان قد وثب من فوق الجدار الحجرى الخفيض الذى يحد الأحراش.. ووجد نفسه فى الحديقة الفسيحة.. وإثر قفزه من على الجدارسمع صوت خبطتين مكتومتين على النجيل والحشائش..

كانت تلك مطاردة عن قرب وسط الظلام والأحراش.. وكان (واتكنز) رجلاً مرن الجسم ومدربًا جيدًا.. ولذلك قد اقترب بسرعة من الرجل المتقطع الأنفاس الذى أمامه.. لم يتكلم أى منهما، ولكنه عندما أصبح (واتكنز) بمحاذاة الرجل، انتابه إحساس مفاجئ بارتياب غير مطمئن.. وفى نفس اللحظة أدار الرجل الآخر رأسه وأطلق صيحة تنم عن المباغتة.. وحدث (واتكنز) نفسه "إنه ليس (جيم).. ياللعجب!".. وأطاح الرجل بنفسه على ركبتى (واتكنز).. وفى الحال تصارع الرجلان على الأرض.. وصاح الرجل الغريب عندما أقبل الرجل الثالث: "هات يدك يا (بيل)".. ومد (بيل) له يديه وقدميه.. أما الرجل الرابع، المفترض أنه (جيم) فقد بدا أنه اتجه جانبًا وأخذ يركض فى اتجاه مختلف.. وعلى أى حال فإنه لم يلحق بالرجال الثلاثة.

إن ذاكرة السيد (واتكنز) لا تسعفه تمامًا فى تذكر أحداث الدقيقتين التاليتين.. فهو يكاد لا يتذكر أن إبهامه دخل فى ركن فم الرجل الأول، وأنه كان غير مطمئن إلى سلامته، وأنه ظل بضع ثوان

على الاقل ممسكًا برأس الرجل ـ الذى أجاب النداء الموجه إلى (بيل) على الأرض ـ من شعره.. كما أنه تعرض لركلات كثيرة جدًا فى مختلف أجزاء جسمه.. ويبدو أن عددًا كبيرًا من الناس وجهوا تلك الركلات له.. وبعد ذلك وضع الرجل الذى لم يكن (بيل) ركبته تحت الحجاب الحاجز[٥] لجسم السيد (واتكنز) وحاول أن يكوره عليها.

عندما استعاد (واتكنز) جزءًا من شعوره الطبيعى وجد نفسه جالسًا على العشب.. ويقف حوله ثمانية أو عشرة رجال ـ إذ كان الظلام حالكًا ومن ثم لم يستطع أن يحصى عددهم ـ وكان من الواضح أنهم ينتظرون استعادته لوعيه.. واستنتج ـ وقد انتابه حزن شديد ـ أنه قُبض عليه.. وكان سوف يبدى بعض آراء فلسفية عن مدى تقلب الثروة، لكن أحاسيسه الداخلية منعته من الكلام..

وبسرعة لاحظ أن معصميه خاليان من أى قيود حديدية.. ثم وجد زجاجة (براندى)[٦] توضع بين يديه وتأثر قليلاً لتلك اللمسة الرقيقة غير المتوقعة.وقال صوت اعتقد أنه يخص خادم (هامربوند) الثانى: "لقد استعاد وعيه".. "لقد أمسكنا بهما الاثنين يا سيدى".. قال ذلك كبير خدم (هامربوند)، وهو الرجل الذى أعطاه الزجاجة.. "شكرًا لك".

قال الصوت الغريب: "من الواضح أنه مصاب بالدوار.. لقد كاد الأوغاد أن يقتلوه".

---

(٥) غشاء عضلى يفصل بين التجويف الصدرى والتجويف البطنى (المترجم).

(٦) نوع من الخمور (المترجم).

قرر السيد (تيدى واتكنز) آن يبقى متظاهراً بالإصابة بالدوار حتى يسبر غور الموقف بشكل أفضل.. وأدرك أن الشخصين الأسودين الواقفين حوله جنباً إلى جنب.يبدو عليهما الاكتئاب .. وأن هناك شيئًا فوق أكتافهما يبدو لعينيه الخبيرتين كأيد مشبوكة بعضها فى بعض(٧).. اثنان!.. وفى لمح البصر نهض واقفاً.. وأفرغ الزجاجة الصغيرة فى جوفه وترنح.. وعندئذ ساعدته أيد حانية حتى وقف على قدميه.. وسمع لغطًا متعاطفًا معه".

قال أحد الرجال المجاورين له: "هل تسمح لى بمصافحتك يا سيدى!.. أقدم لك نفسى.. إننى مدين لك جداً.. إنها مجوهرات زوجتى، السيدة (افلينج) التى جذبت أولئك الأوغاد إلى المنزل".

قال (تيدى واتكنز): "إننى فى غاية السعادة أن أتعرف على فخامة اللورد".

"أظن أنك رأيت الأوغاد، وهم يهرعون إلى الاشجار الكثيفة لكى يختبئوا بها، ثم انقضضت عليهم".

قال (واتكنز) "نعم.. هذا ما حدث بالضبط يا سيدى اللورد..فقد هجمت على أولئك اللصوص الملاعين!".

قال اللورد (افلينج): "كان الأجدر بك أن تنتظر حتى يدخلوا من النافذة".. فلا شك أنهم كانوا سيتعرضون لضرب أكثر عنفًا لو ارتكبوا جريمة السرقة بالفعل.. ومن حسن الطالع، أن رجلَى شرطة كانا موجودين بالخارج عند بوابة القصر ومن ثم تابعا ثلاثتكما..

---

(٧) يقصد المؤلف العلامة المميزة لرجال الشرطة (المترجم).

وإننى لا أعتقد أنه كان بإمكانك القبض عليهما.. ولو أن هذا لا ينفى شجاعتك الفائقة".

قال (واتكنز) "نعم.. كان يجب أن أدرك هذا الأمر.. ولكن كما تعلمون فخامتكم أن المرء لا يمكنه أن يفكر فى كل شىء".

قال اللورد (افلينج): "بالطبع لا.. وأخشى أنك تعرضت لخشونة غير مقصودة".. وفى ذلك الوقت كانت المجموعة تتحرك باتجاه القصر.. وأردف اللورد: "إننى أراك تعرج قليلاً.. هلا اتكأت على ذراعى؟".

وبدلاً من دخول (هامربوند) من نافذة حجرة تغيير الملابس، فقد دخله السيد (واتكنز) من الباب الأمامى وهو ثمل قليلاً، وقد عاد إليه ابتهاجه، وهو متأبط ذراع أحد النبلاء الحقيقيين.

وحدث (واتكنز) نفسه قائلاً: "هذه بلا شك سرقة فريدة من طراز خاص!". أما "الأوغاد" الذين تم اكتشافهم على ضوء مصباح غازى فقد ثبت أنهم من "الهواة" المحليين الذين لا يعرفهم (واتكنز).. واقتيدوا إلى حجرة حفظ المؤن وأدوات المائدة بالقصر، حيث راقبهم رجال الشرطة الثلاثة واثنان من حراس الطرائد[8]، ومعهم مسدسات محشوة بالإضافة إلى كبير الخدم وسائس الخيل وسائق عربة حتى فجر اليوم التالى، حيث يتم اقتيادهم إلى مركز شرطة (هازل هورست).

ثم احتُفى بالسيد (واتكنز) غاية الاحتفاء فى البهو.. وخصصت له إحدى الأرائك.. ولم يسمحوا له بالعودة إلى القرية فى تلك

---

(٨) حارس يستخدم لحماية الحياة البرية (المترجم).

الليلة.. وكانت الليدى (افلينج) متأكدة من أنه شخص رائع ومثير للإعجاب.. وأحضر بعضهم سلمًا مطويًا صغير لافتا للنظر تم العثور عليه بين الشجيرات، وشرحوا له كيف يتم تجميعه.. كما وصفوا له كيف أنهم وجدوا أسلاكًا بين الأشجار من الواضح أنها وضعت هناك للإيقاع بأى مطاردين غير حذرين.. ومن حسن حظه أنه لم يقع ضحية هذا الشرك!..كما جعلوه يرى المجوهرات ذاتها.

لم يكن من عادة السيد (واتكنز) أن يتكلم كثيرًا.. وعندما يتعرض لأى متاعب فى أثناء حديثه فإنه يلجأ إلى حيلة ادعاء المرض أو الإحساس بالألم.. وأخيرًا شعر بتقلص فى ظهره وأخذ يتثاءب.. وتنبه الجميع بغتة إلى حقيقة أنه من غير المقبول أن يستمر فى الحديث، بعد ما تعرض له من إجهاد وصراع. ولذلك فقد آوى إلى حجرته مبكرًا..الحجرة الحمراء الصغيرة التى تلى جناح اللورد (افلينج).

انبلج الفجر على مشهد لحامل مهجور عليه لوحة رسم قماشية عليها نقوش خضراء فى حديقة (هامربوند) ومشهد آخر لهياج واضطراب في قصر (هامربوند). ولكن إذا كان الفجر قد بزغ على السيد (تيدى واتكنز) ومعه ماسات الليدى (افلينج).. فإنه لم يكن ليفشى هذا السر إلى الشرطة أبدًا!.

الفراشـــة

لعلك سمعت عن (هابلى) .. وأنا لا أقصد (و.ت.هـابلى) الابن ولكن (هـابلى) الشهير عالم الحشرات الذى ألف بعض المراجع الهامة فى علم الحشرات.. وإذا كنت تعرف العداء المستحكم بين (هـابلى) والأستاذ الجامعى (بوكينز)، فربما لا تكون متأكدًا من النتائج التى ترتبت عليه.. ولذلك تلزم كلمة أو كلمتان من الشرح والتوضيح لأولئك الذين لا يعرفون.. ولو أن القارئ العادى الكسول اللامبالى قد يتفحصه بغير اهتمام!

ومن المدهش هذا الجهل الشديد بتلك الأمور الهامة فعلاً مثل الصراع بين (هـابلى) و(بوكينز).. والحقيقة أننى أعتقد أن هذا الجدل والنقاش التاريخى الذى هز بعنف المجتمع الجيولوجى ليس معروفًا بالمرة خارج نطاق العلاقات الأكاديمية.. وسمعت رجالاً من أنصاف المتعلمين يشيرون إلى ما دار فى تلك الاجتماعات بأنها مجرد خلافات فى الرأى.. إلا أن المقت الشديد بين علماء الجيولوجيا الإنجليز والاسكتلنديين استمر الآن لنحو نصف قرن وترك آثارًا واضحة على كيان العلم.. وهذه الصراعات بين (هـابلى)

و(بوكينز)، رغم أنها شخصية للغاية، فإنها تحرك عواطف عميقة لا يصعب فهمها..

والرجل العادى ليس لديه فكرة عن الغيرة أو الحماس الذى يحث الباحث العلمى على العمل، ومدى الغضب الذى يشعر به إزاء كل من يكذبه أو يهاجمه.. إن هذه هى روح العلم فى أحد أشكالها.. فمثلاً هناك رجال يسعدهم أن يحرقوا السيد (راى لانكسترش) بميدان "شيمثفيلد" لمعالجته للحيوانات الرخوية التى شرحها فى كتابه "الموسوعة فى علم الحيوان".. مثل هذا التعميم العجيب لرأسيات الأرجل بحيث يشمل جناحيات الأقدام.. وخوفًا من أن أبتعد عن صلب الموضوع المرتبط بـ (هابلى) و(بوكينز) فسوف أدخل فيه مباشرة.

بدأت القصة منذ سنوات وسنوات مضت من خلال قيام (بوكينز) بمراجعة قشريات الأجنحة الدقيقة وتنقيحها (أيًا كانت)، حيث أبطل أو ألغى سلالة جديدة أوجدها (هابلى).. ورد (هابلى)، الذى كان مشاكسًا دائمًا، بالتشكيك التام فى كل التصنيف الذى وضعه (بوكينز) لقشريات الأجنحة الدقيقة(*) . وبدوره أبدى بوكينز فى كتابه "الرد"(**) اعتقاده بأن مجهر (هابلى) معيب وقاصر تمامًا مثل قدرته على الملاحظة وأسماه "المتطفل غير المسئول"، ولم يكن (هابلى) فى ذلك الوقت أستاذًا جامعيًا. ولم يلبث (هابلى) فى

(*) ملاحظات على المراجعة الحديثة لقشريات الأجنحة الدقيقة"، المجلة ربع السنوية لجمعية علم الحشرات، ١٨٦٣.

(**) الرد على بعض الملاحظات".. الخ، انظر المرجع السابق، ١٨٦٤.

رده(*) على (بوكينز) أن تحدث عن "الباحثين المتخبطين" ووصف مراجعة (بوكينز) - بشكل حاول ألا يجعله متعمدًا - بأنها "توليفة غريبة من الحماقات".

كان ذلك كله بمنزلة حرب لا هوادة فيها بين خصمين عنيدين. لكن لعل القارئ لا يشعر باهتمام كبير لمعرفة تفاصيل الصراع بين هذين الرجلين العظيمين.. وكيف أن الشُّقة بينهما اتسعت حتى إن الخلاف بينهما اتسع من قشريات الأجنحة الدقيقة ليشمل كل موضوع مهم قيد البحث فى علم الحشرات!.. وكانت هناك مناسبات هامة فى هذا الصراع.. وفى بعض الأوقات لم تكن اجتماعات جمعية الحشرات الملكية تشبه كثيرًا اجتماعات مجلس النواب!.. وعمومًا فإننى أظن أن (بوكينز) كان أقرب إلى الحقيقة من (هابلى).. ولكن (هابلى) كان فصيحًا فى كلامه وكان حديثه يتسم بسخرية غير معتادة فى رجل العلم.. وكان رجلاً نشطًا ذا طاقة هائلة.. وكان يشعر بالإهانة من موضوع إلغاء السلالة التى استحدثها.. فى حين كان (بوكينز) ذا مبادئ يمليها عليه ضميره، رجلاً مملاً قليل النشاط ذا حديث مضجر، وجسمه يشبه برميل الماء، ودائمًا من ناحية الأدلة والبراهين.. كما أن هناك شكوكًا فى استغلاله لمقابلاته فى المتاحف.. لتحقيق مصلحته الشخصية..

لذلك كان الشباب يتجمعون حول (هابلى) ويحيونه ويهتفون له.. أما أنصار (بوكينز) فكانوا قليلين.. واستمرت تلك الصراعات العنيفة وقتًا طويلاً منذ بدايتها.. ولم تلبث أن ازدادت عنفًا حتى

(*) المزيد من الملاحظات"... الخ، انظر المرجعين السابقين.

وصلت إلى معاداة وحشية لا رحمة فيها أو لنقل إلى حرب مستعرة.. وتناوبت دورات الحظ بينهما.. تارة لصالح طرف وتارة لصالح الطرف الآخر.. تارة يتعب (هابلى) من نجاح (بوكينز) وتارة يعلو نجم (بوكينز) على ذلك الـ (هابلى).. ولو أن ذلك المجال يتعلق بعلم الحشرات أكثر مما يتعلق بقصتنا هذه التى نحن بصددها.

لكن فى عام ١٨٩١ نشر (بوكينز)، الذى كانت صحته قد تدهورت فى ذلك الوقت، كتابًا فى موضوع "الطبقة الحرثومية الوسطى للجنين" وذلك للفراشة الجمجمية السريعة.. لكن ما هو موضوع الفراشة المجمجمة السريعة فهذا شىء لا يعنينا قط فى قصتنا هذه.. إلا أن الكتاب كان أقل من مستواه العلمى الحقيقى.. وأتاح ذلك لـ (هابل) الفرصة التى انتظرها لسنوات.. ولا بد أنه عمل ليلاً ونهارًا لكى يحقق أكبر استفادة ممكنة. ومن خلال انتقاد دقيق ومحكم كال لـ (بوكينز) ضربة موجعة.. ويمكن للمرء تصور الشعر الأسود المشوش للرجل وعينيه السوداوين الغريبتين تلمعان وهو يهاجم خصمه.. ورد عليه (بوكينز) ردًا متلعثمًا غير فعال.. وصمتًا مؤلمًا وخبيثًا.. لم يكن هناك شك فى أنه يريد إلحاق الأذى بـ (هابلى).. رغم عدم قدرته على تحقيق ذلك.. وقليل فقط هم الذين سمعوه. وأدركوا أن الرجل جد مريض.. وبالصدفة كنت غائبًا عن هذا الاجتماع.

تمكن (هابلى) من الإيقاع بخصمه أرضًا.. وكان ينوى الإجهاز عليه تمامًا.. وانقض بهجوم ساحق على (بوكينز).. فى شكل بحث علمى عن تطور الفراشات بشكل عام.. وهو بحث يبين الدليل على

بذل قدر هائل من الجهد فى شكل خلافى عنيف مثير للجدل.. ورغم عنفه فقد أوضحت ملاحظة للناشر بأنه تم تعديله.. ولا شك أنه ألحق العار بـ (بوكينز) وأصابه بالارتباك الشديد.. لم تكن هناك آى فرصة للنجاة.. كان جدالاً مميتًا فى لهجة تتسم بالاحتقار.. شىء مؤلم ورهيب فعلاً، سنوات الهبوط لسيرة رجل عظيم..

انتظر عالم الحشرات بأنفاس لاهثة رد (بوكينز).. لا شك أنه لم يكن ليقدم ردًا ما، حيث إن (بوكينز) كان دائمًا ذا تصميم وعزم.. لكن عندما جاء الرد أدهشهم جميعًا.. إذ كان الرد أن (بوكينز) أصيب بالأنفلونزا ثم اشتد المرض عليه إلى التهاب رئوى لم يلبث أن أودى بحياته.

ربما كان هذا الرد فى نفس قوة الرد الذى سيقدمه (بوكينز) وفعاليته لو كان حيًا فى مثل تلك الظروف.. وقد حوّل هذا الرد تيار الأحاسيس للناس ضد (هابلى).. كل الأشخاص الذين أسعدهم تشجيع "المصارعين" اتجهوا لتلك النتيجة.. ولم يكن هناك شك فى أن التوتر والحزن الذى صاحب الهزيمة ساهما فى موت (بوكينز).. وقال أشخاص جادون: إن النقاش العلمى ليس له حد..

وكان ثمة هجوم مدمر آخر فى المطبعة ظهر فى السوق فى اليوم السابق على الجنازة.. ولا أظن أن (هابلى) اهتم بوقفه قط.. ويتذكر الناس كيف أن (هابلى) أوقع بغريمه ولكنهم ينسون نواحى فى هذا الغريم.. وآثار ذلك التعليقات المختلفة فى الجرائد اليومية.. وذلك ما دفعنى إلى الظن بأنك أيها القارئ ربما سمعت

عن (هابلى) وهذه القضية الجدلية المرتبطة به.. لكن كما قلت بالفعل فإن الباحثين العلميين يعيشون فى عالم خاص بهم فقط..وأستطيع القول إن نصف الناس الذين يسيرون من بيكاديللى إلى الأكاديمية العلمية كل عام لا يستطيعون أن يحددوا لك مكان المجتمعات العلمية هذه.. بل إن الكثير من الناس يظنون أن البحث العلمى ما هو إلا نوع من المعسكرات تقيم به أسرة سعيدة تضم كل أنواع البشر الذين يقبعون هناك فى أمن وسكينة وهدوء!..

فى أفكاره الخاصة لم يتمكن (هابلى) من العفو عن (بوكينز) لموته!.. فأولاً الهروب وسيلة أو حيلة رخيصة لتجنب السحق التام الذى كان ينتظره بيد (هابلى)!.. وثانيًا فقد ترك ذلك ذهن (هابلى) وبه ثغرة غريبة.. فقد عمل طوال عشرين عامًا بجد ومثابرة، سبعة أيام فى الأسبوع، وأحيانًا لساعات متأخرة من الليل.. بالمجهر والمشرط وشبكة التجميع والقلم الحبر.. وذلك فيما يتعلق كليةً بـ(بوكينز).. والشهرة الأوروبية التى كسبها جاءت كحادثة عرضية فى هذه الكراهية الضخمة.. وقد تمكن من الوصول تدريجيًا إلى ذروة ذلك النقاش الجدلى الذى قتل (بوكينز).. لكن ذلك فى نفس الوقت سبّب اضطرابًا وتشويشًا لـ (هابلى)، إذا جاز هذا التعبير، ولذلك نصحه طبيبه بالتوقف عن العمل بعض الوقت والتمتع بالراحة.. وعندما توجه (هابلى) إلى قرية هادئة فى (كنت).. أخذ يفكر ليلاً ونهارًا فى (بوكينز) والأشياء الطيبة التى يستحيل الآن أن يقولها عنه..

أخيرًا بدأ (هابلى) يدرك الاتجاه الذى تسير فيه تلك الاستغراقات فى الفكر، وصمم على مقاومتها.. وبدأ فعلاً فى

محاولة قراءة القصص والروايات.. لكنه لم يستطع إبعاد (بوكينز) تمامًا عن فكره.. وهو شاحب الوجه ويلقى آخر حديث له قبل موته.. كل جملة عبارة عن افتتاح جميل لـ (هابلى).. وتحول إلى القصص الخيالية، لكنه لم يستطع أن يستسيغها.. قرأ "تسالى ليالى الجزيرة" حتى صُدم "إحساسه بالسببية" إلى حد عدم التحمل بقصته "عفريت الزجاجة".. ثم قرأ قصة "كيبلينج" ووجد أنه لم يثبت شيئًا سوى أن يكون سوقيًا وغير محترم.. إن هؤلاء الناس المهتمين بالعلم لهم حدودهم وقيودهم.. ثم قرأ بلا مبالاة "البيت الداخلى" لـ (بيزانت) وفتح الفصل الافتتاحى ذهنه على المجتمعات المتعلمة أو المثقفة و (بوكينز) على الفور..

ثم تحول (هابلى) إلى الشطرنج ووجد أنه أكثر إمتاعًا ولطفًا.. وسرعان ما أجاد لعب النقلات وألعاب الجامبيت (أو التضحية بأحد البيادق الأساسية، مثل جامبيت الملك وجامبيت الوزير، والمواقف الافتتاحية المعتادة وبدأ يغلب القسيس.. وعندئذ بدأت التحصينات الدائرية للملك الخصم تشبه دفاع أو مقاومة (بوكينز) المستميتة ومحاولاته اللاهثة لتحقيق كش ملك.. ولذلك قرر (هابلى) أن يتوقف عن لعب الشطرنج".

ولعل دراسة أحد أفرع العلم الجديدة قد تكون بديلاً أفضل له.. وأفضل راحة هى تغيير المهنة..وقرر (هابلى) أن يجرب فكرة أنه لو أمكنه إثارة نزاع عنيف مع (هاليبوت) فلعله يستطيع أن يبدأ حياته فى دراسة الطحالب المجهرية (الدياتومات). استخدم أحد مجاهره الصغيرة والدراسة التى أعدها (هاليبوت) وأرسلها من لندن.. ومرة أخرى نسى (بوكينز).. وسرعان ما انخرط فى عمل كعادته فى

الحماس والنشاط فى تلك الحيوانات المجهرية التى تعيش فى البركة القائمة على جانب الطريق.

وفى اليوم الثالث من دراسة الطحالب المجهرية أدرك (هابلى) وجود إضافة جديدة لحيوانات تلك المنطقة المحلية.. كان يعمل فى وقت متأخر بمجهره، وكان الضوء الوحيد فى الغرفة لمصباح صغير متألق ذى غطاء أخضر خاص.. ومثل كل خبراء المجاهر أبقى كلتا عينيه مفتوحتين.. وهذه هى الطريقة الوحيدة لتجنب الإجهاد الشديد.. إحدى عينيه فوق الجهاز.. وأمامه مجال الرؤية الدائرى المميز واللامع للمجهر.. ويتحرك عبره ببطء طحلب مجهرى بنى اللون.. وبالعين الأخرى رأى (هابلى) - إذا جاز التعبير - دون رؤية!.. كان واعيًا فقط إلى حد ما بالجانب النحاسى من الجهاز والجزء المضاء من غطاء النضد وورقة الملاحظات وقاعدة المصباح والجزء المظلم من الغرفة حوله..

وفجأة تحول اهتمامه من إحدى عينيه إلى الأخرى.. وغطاء النضد كان من مادة يسميها البائعون كسوة مطرزة وهى ملونة بألوان زاهية.. كانت أشكال هذا القماش ذهبية مع قليل من اللون الأحمر القرمزى ولون أزرق خفيف على أرضية أو خلفية رمادية.. وفى إحدى نقاط الغطاء بدت الأشكال منزاحة وهناك حركة اهتزازية للألوان فى تلك النقطة..

حرّك (هابلى) رأسه فجأة إلى الخلف ونظر بكلتا عينيه.. وفغر فاه بكامل اتساعه من فرط الدهشة.. كانت أمامه فراشة كبيرة وجناحاها مفرودان مثل أى فراشة.. لكن الغريب أن تكون فى

الغرفة أصلاً، لأن النوافذ مقفلة.. وغريب أيضًا أن تجذب انتباهه وهى تخفق بجناحيها فى موضعها الحالى.. وغريب كذلك أن تشبه ألوان مفرش المائدة إلى تلك الدرجة.. والأغرب من ذلك أن (هابلى) وهو عالم حيوان عظيم الشأن لا يعرف عنها شيئًا قط.. لم يكن هناك أى وهم أو تخيل.. كانت هناك فراشة تزحف ببطء باتجاه قاعدة المصباح..

قال (هابلى) وهو يحدق فيها مشدوهًا: "يا إله السماوات! أيحدث ذلك فى إنجلترا؟!".. وفجأة فكّر فى (بوكينز).. لا شىء كان سيثيره أكثر من ذلك.. لكن (بوكينز) رحل الآن عن الحياة!

شىء ما فى رأس الحشرة وجسمها جعله يفكر فى (بوكينز).. مثلما جعله ملك الشطرنج يفكر فيه من قبل.. وهتف (هابلى): "(بوكينز) اللعين دائمًا!.. لكن يجب علىّ الإمساك بتلك الفراشة العجيبة".. ونظر حوله بحثًا عن أى وسيلة للإمساك بالفراشة.. وقام ببطء من مقعده.. وفجأة صعدت الحشرة وضربت حافة قاعدة المصباح.. حتى إن (هابلى) سمع صوت "بينج".. ثم لم تلبث أن اختفت فى الظل..

وبسرعة تخلص (هابلى) من كل الظلال والأماكن المعتمة وأضاء الغرفة كلها.. لكن هذا "الشىء" اختفى.. بيد أن عينيه المدربتين اكتشفتا وجوده على ورق الحائط بجوار الباب.. فاتجه ناحيته ممسكًا بكمة المصباح بهدف الإمساك به.. لكنه قبل أن يقترب منه بالمسافة التى تمكنه من الإيقاع به، إذا به يرتفع ويحلق فى أرجاء الغرفة.. ومثل بقية أفراد جنسه، أخذ يقفز ويلف ويدور.. يختفى

من نقطة ما ثم يظهر عند أخرى.. وهكذا.. وبمجرد أن يضرب (هابلى) بكمة المصباح، يختفى هذا الشىء لكى يظهر بعد برهة من جديد.

فى المرة الثالثة ضرب مجهره.. وتمايل الجهاز واصطدم بالمصباح وقلبه وسقط بجلبة على الأرض.. والمصباح انقلب على المائدة ومن حسن الحظ أنه انطفأ.. وبقى (هابلى) وسط الظلام.. وفجأة شعر بالفراشة العجيبة تعبث بوجهه.. وضايقه ذلك كثيرًا، إذ لم تكن هناك إضاءة.. ولو فتح باب الغرفة سوف ينطلق منه هذا الشىء إلى الخارج.. ووسط الظلام رأى (بوكينز) بوضوح وهو يسخر منه.. و(بوكينز) كان دائمًا يضحك ضحكة مداهنة متصنعة.. أخذ يسب ويلعن وضرب الأرض بقدمه بقوة..ثم سمع دقة خفيفة على الباب.. ثم انفتح لمسافة قدم تقريبًا وببطء شديد.. وظهر الوجه المنزعج لصاحبة المنزل وراء لهب شمعة حمراء وردية.. وهى ترتدى غطاء ليليًا للرأس فوق شعرها الأشيب.. وعلى كتفيها ثوب أرجوانى.. وقالت: "ما هذا التحطيم المريع يا (هابلى)؟.. هل حدث شىء....".. وفى تلك اللحظة أخذت فراشة غريبة تخفق فى فتحة الباب.. فاندفع (هابلى) فجأة وقال: "اقفلى الباب!"..

انقفل الباب بسرعة وقوة.. وبقى (هابلى) بمفرده فى الظلام.. وأثناء ذلك سمع خطوات صاحبة المنزل وهى تعود مسرعة إلى الطابق الأعلى، ثم تقفل بابها.. وتجر شيئًا ثقيلاً عبر الغرفة وتدفعه تجاه الباب..

أصبح واضحًا لـ (هابلى) أن سلوكه ومظهره كانا غريبين ومزعجين.. يا للفراشة اللعينة!.. ويا لـ (بوكينز) اللعين!.. لكن من المؤسف فقد الفراشة الآن.. واتجه إلى الصالة وبحث عن الثقاب.. بعد أن أسقط قبعته على الأرض محدثًا ضجيجًا يشبه دقة الطبلة.. ثم عاد إلى حجرة الجلوس ممسكًا بالشمعة المضاءة.. لم يكن هناك أى فراشة يمكن رؤيتها.. لكن للحظة بدا أن ذلك الشىء يخفق حول رأسه.. وفجأة قرر (هابلى) أن يترك الفراشة ويذهب إلى السرير.. لكنه كان مهتاجًا.. وطوال الليل كان نومه متقطعًا وتتخلله أحلام عن الفراشة و (بوكينز) وصاحبة المنزل.. ونهض من فراشه مرتين فى الليل وغمر رأسه فى ماء بارد..

كان ثمة شىء واحد واضح تمامًا له.. أن صاحبة المنزل ربما لم تتمكن من فهم موضوع الفراشة العجيبة.. وخصوصًا أنه فشل فى الإمساك بها.. إذ لا يمكن لغير خبير الحشرات أن يفهم طبيعة أحاسيسه.. لعلها كانت خائفة من تصرفاته، ومع ذلك فإنه فشل فى تقديم تفسير معقول لها.. وقرر ألا يقول المزيد من أحداث الليلة الأخيرة لأحد.. وبعد تناول طعام الإفطار رآها فى الحديقة الخاصة بها، وعندئذ قرر أن يخرج إليها لكى يتحدث إليها ويطمئنها..

تحدث إليها عن الفول والبطاطس والنحل والفراشات وأسعار الفاكهة.. وردت بطريقتها العادية.. لكنها نظرت إليه بارتياب.. وأخذت تسير أثناء سيره بحيث يظل دائمًا حوض من الزهور أو صف من نباتات الفل أو أى شىء من أى نوع فاصلاً بينهما.. وبعد

برهة بدأ يشعر بالضيق والتوتر من جراء ذلك.. ولكى يخفى هذا الضيق فقد دخل المنزل ثم سرعان ما خرج لكى يتمشى..

الفراشة التى تصاحبها صفات (بوكينز) ونكهته أخذت تطارده فى أثناء سيره، رغم أنه بذل أقصى جهده لكى يبعد تفكيره عنها.. وبمجرد أن رآها بوضوح، وهى تخفق بجناحيها، على الجدار الحجرى القديم المحيط بالحافة الغربية للحديقة، ذهب إليها لكى يجدها مجرد كتلتين من نباتات الأشفة الرمادية الصفراء.. وقال: "هذا هو عكس التنكر والتخفى.. فبدلاً من أن تبدو الفراشة مثل حجر أو غيره، فإن هنا حجراً يبدو كأنه فراشة!".. ومرة واحدة حلق شىء ما حول رأسه.. لكنه بذل جهداً لكى يطرد هذا الانطباع من ذهنه مرة أخرى..

فى فترة العصر نادى (هابلى) على القسيس وتجادل معه فى بعض الموضوعات اللاهوتية.. وجلسا فى التعريشة الصغيرة المغطاة بالورد البرى ودخنا أثناء شجارهما.. وقال (هابلى): "انظر إلى هذه الفراشة" وهو يشير فجأة إلى حافة المنضدة الخشبية التى يجلسان عليها.. فقال القس: "أين هى؟" فأجابه (هابلى): "ألا ترى فراشة على حافة المنضدة هنا لك؟".. فقال القسيس: "بالطبع لا".

دُهش (هابلى) كما لو أن صاعقة انقضت عليه.. وتتابعت أنفاسه سريعاً.. وكان القسيس يحدق فيه.. بات واضحاً أن الرجل لا يرى شيئاً.. وقال (هابلى) وهو يشعر بحرج: "إن عين الإيمان ليست أفضل من عين العلم".

وقال القس وهو يرى أن ذلك جزء من جدالهما الطويل: "إننى لا أفهم ما تعنيه بالضبط".

فى تلك الليلة وجد (هابلى) الفراشة تزحف على لحاف سريره.. وجلس على حافة السرير مرتديًا قميصه فقط وحاول أن يحلل الأحداث عله يستطيع أن يسبر غورها.. ترى هل كانت هذه هلاوس؟.. كان يعرف أن عقله يتدهور.. وعليه أن يكافح من أجل الحفاظ على قواه العقلية بنفس الطاقة الوافرة التى أبداها من قبل ضد (بوكينز).. وكانت تلح عليه فكرة أو عادة الإحساس بأنه ما زال يصارع (بوكينز).. وكان بارعًا فى علم النفس.. ولم يكن يخفى عليه أن مثل تلك الهلاوس البصرية تأتى نتيجة للإجهاد الذهنى.. إلا أن النقطة الهامة هى أنه لم ير الفراشة فقط، وإنما سمعها عندما لمست حافة كمة المصباح.. ثم بعد ذلك عندما اصطدمت بالجدار.. كما أنه شعر بها تصطدم بوجهه فى الظلام..

نظر إلى الموضوع نظرة علمية..إنه لم يكن حلمًا، وإنما رؤية واضحة تمامًا فى ضوء الشمعة.. نعم، رأى الجسم المكسوَّ بالشعر وقرون الاستشعار الرقيقة.. والأرجل المفصلية.. وحتى مكان سقوط الزغب الصغير من الجناحين .... الخ.. وفجأة شعر بالضيق من نفسه لخوفه من حشرة صغيرة تافهة كتلك الفراشة..

طلبت صاحبة المنزل من خادمتها أن تنام معها تلك الليلة، لأنها خشيت أن تنام بمفردها.. وعلاوة على ذلك فإنها أغلقت بابها بالمفتاح وثبتته بخزانة الأدراج.. وعندما دخلتا مخدعهما للنوم، أصغيتا سمعهما جيدًا ثم أخذتا تتحدثان همسًا.. لكن لم يحدث أى شىء يعكِّر صفوهما.. وحوالى الساعة الحادية عشرة مساء تجرأتا وأطفأتا الشمعة ثم خلدتا للنوم.. لكنهما استيقظتا فجأة بانزعاج وجلستا فى سريرهما تصغيان جيدًا وسط الظلام الحالك..

ثم سمعتا أصوات قدمين منتعلتين خفين، وهما تذهبان جيئة وذهابا فى غرفة (هابلى).. كما انقلب أحد الكراسى.. ثم صوت ارتطام عنيف بالجدار.. ثم تحطمت زخارف رف المدفأة الصينى على حاجز المدفأة.. وفجأة سمعتا باب الحجرة ينسح ثم هو يخرج إلى منبسط الدرج.. تشبثت كل منهما بالأخرى وأنصتتا.. بدا لهما أنه يرقص على الدرج.. الآن هو يهبط ثلاث أو أربع درجات بسرعة ثم يصعد مرة أخرى بسرعة ويدلف مسرعًا إلى الصالة.. ثم سمعتا صوت اصطدام بحامل المظلة.. ثم الضوء المنبعث عن النافذة نصف الدائرية فوق الباب ينطفئ.. ولسان قفل الباب يتحرك والسلسلة تصطك.. كان شخص ما يفتح باب المنزل..

هرعت المرأتان إلى النافذة.. كانت ليلة مظلمة تمامًا، حيث تنساب باستمرار تقريبًا طبقة من السحاب المحمل بالماء أمام وجه القمر.. والسور الشجرى والأشجار التى أمام المنزل تبدو سوداء أمام خلفية من طريق باهت يكاد لا يرى.. ورأيتا (هابلى) كما لو كان شبحًا مرتديًا قميصًا وسروالاً أبيض اللون.. يعدو إلى الأمام وإلى الخلف فى الطريق.. ويضرب بيديه فى الهواء!.. الآن يتوقف ثم يهجم بسرعة خارقة على شىء ما غير مرئى!.. الآن هو يتحرك فوقه بخطوات مختلسة.. وأخيرًا اختفى عن أنظارهما فى نهاية الطريق باتجاه التل.. وبينما تتجادل المرأتان فى من منهما تهبط لكى تقفل الباب بالمفتاح، لم يلبث أن عاد أدراجه.. كان يسير مسرعًا جدًا.. ودخل المنزل مباشرة وأقفل الباب بعناية ثم صعد بهدوء إلى مخدعه.. وبعد ذلك ران السكون على أرجاء المنزل..

قال (هابلى) وهو ينادى إلى أسفل الدرج فى الصباح التالى: "سيدة (كولفيل).. أتمنى ألا أكون أزعجتك أو أخفتك ليلة البارحة".. فقالت السيد (كولفيل): "إن كلامك هذا فى محله فعلاً".

"الحقيقة هى أننى أسير فى أثناء نومى.. وفى الليلتين الأخيرتين لم يكن لدى دواء النوم.. لكن عمومًا لا يوجد ما يستدعى الخوف من ذلك أبدًا.. وأنا آسف لأننى فعلت كل هذه الأمور الحمقاء.. ولذلك سوف أذهب إلى (شورهام) عند التل العالى لكى أحصل على دواء يجعلنى أنام مرتاحًا.. وكان يجدر أبى ان أفعل ذلك أمس".

لكن فى منتصف الطريق إلى التل، عند حفر الطباشير، حامت الفراشة مرة أخرى فوق (هابلى).. واصل طريقه محاولاً أن يركز تفكيره فى ألغاز الشطرنج، لكن بلا جدوى.. واصطدم هذا الشىء بوجهه، فضربه بقبعته للدفاع عن نفسه.. وفجأة هبط عليه الغضب مرة أخرى.. ذلك الغضب القديم الذى طالما شعر به ضد (بوكينز).. وواصل سيره وهو يقفز ويضرب الحشرة الحوامة حوله.. وفجأة وطئ شيئًا بقدمه ووقع على الأرض..

غاب عنه شعوره فترة من الوقت.. ثم وجد (هابلى) نفسه جالسًا على كومة من الأحجار أمام فتحة الحفر الطباشيرية.. وساقه ملوية إلى الخلف تحت جسمه.. والفراشة العجيبة ما زالت تحوم حول رأسه.. ضربها بيده.. ثم أدار رأسه ورأى رجلين يقتربان منه.. أحدهما كان طبيب القرية.. وخطر بعقل (هابلى) أن هذا من

حسن حظه.. ثم خطر بعقله، وفى وضوح تام، أنه لا أحد غيره قط يمكنه أن يرى هذه الفراشة العجيبة.. وأن من واجبه أن يحتفظ بهذا السر لنفسه..

لكن فى آخر تلك الليلة بعد أن تم تضميد ساقه، أصيب بالحمى ونسى أن يتمالك نفسه.. كان يرقد ممددًا على سريره.. وبدأ يجوب بعينيه أرجاء الغرفة لعله يرى الفراشة فى مكان ما بها.. وحاول ألا يفعل ذلك، بدون جدوى.. وسرعان ما اكتشف وجود هذا الشىء قريبًا من يده.. على مفرش المائدة الأخضر بجوار ضوء المساء.. واهتز الجناحان.. وفى نوبة من الغضب ضربها بقبضته.. واستيقظت الممرضة وهى تصرخ.. فقد كاد يضربها هى!..

وقال بانفعال: "هذه الفراشة اللعينة ليست سوى وهم ولا شىء غير ذلك!".

وطوال الوقت كان يرى بوضوح الحشرة وهى تطير حول زخارف الحائط وتجوب أرجاء الغرفة.. ولاحظ أن الممرضة لم تلاحظها ونظرت إليه باستغراب.. وأدرك أنه يتعين عليه أن يسيطر على نفسه.. وما لم يسيطر على نفسه فلسوف يصبح رجلاً ضائعًا.. ولكن عندما انتهت الليلة زادت الحمى عليه.. وأدى فزعه الشديد من رؤية الفراشة إلى رؤيته الفعلية لها.. وحوالى الساعة الخامسة صباحًا حيث بزغ الفجر، حاول النهوض من فراشه والإمساك بها، رغم أن ساقه كانت تشتعل من الألم.. واضطرت الممرضة إلى مصارعته حتى يظل فى فراشه..

وبسبب ذلك اضطروا لتقييده فى سريره.. وعندئذ ازدادت الفراشة ضراوة وعنفًا.. وأحس بها ذات مرة وهى تستقر فى شعره.. وسرعان ما ضربها بقوة بذراعيه.. وعندئذ اضطروا لتقييد ذراعيه أيضًا.. ولذلك عادت الفراشة وزحفت على وجهه.. وبكى (هابلى) وأخذ يسب ويلعن.. وصرخ.. وتوسل إليهم لكى يبعدوا الفراشة اللعينة عنه.. لكن بلا جدوى..

كان الطبيب رجلاً أحمق.. تأهل لتوه ليكون ممارسًا عامًا.. ولا يدرى شيئًا عن علم الأمراض العقلية والنفسية.. والذى قاله ببساطة هو أنه لا توجد أى فراشات.. ولو كان لديه حصافة معقولة فلربما تمكن من إنقاذ (هابلى) من مصيره البائس باقتحام مخاوفه الوهمية وتغطية وجهه بالشاش استجابة لتوسلاته بعمل ذلك.. ولكن كما قلت فإن الطبيب كان رجلاً أبله.. وحتى يتم شفاء ساق (هابلى)، فقد استمر مقيدًا فى فراشه.. والفراشة الوهمية ما زالت تحوم فوقه وحوله.. ولم تتركه قط كلما كان مستيقظًا.. فى حين تحولت إلى وحش فى أحلامه أثناء نومه.. وكلما كان مستيقظًا فقد كان يشتهى النوم، وكلما نام كان يستيقظ وهو يصرخ.

والآن يقضى (هابلى) بقية أيامه فى حجرة مبطنة تمامًا من الداخل.. وهو قلق ومضطرب البال بشأن فراشة لا يراها أحد غيره قط.. ويسمى أطباء المستشفى ذلك هلوسة أو هذيانًا.. بيد أن (هابلى) عندما يكون فى ألطف حالاته ويمكنه التحدث يقول: إن ما يراه ليس سوى شبح (بوكينز).. ومن ثم فإنها عينة علمية فذة ونادرة وتستحق عناء الإمساك بها!

كنـز الغابـة

الزورق يقترب الآن من اليابسة.. والخليج انفتح.. وتعمل ثغرة فى الأمواج البيضاء المتكسرة على صخور الشاطئ، كعلامة على مصب النهر الصغير فى البحر.. وتصاحب الأشجار الخضراء الكثيفة بالغابة مسار النهر حتى منحدر التلال البعيدة.. وهنا تقترب الغابة كثيرًا من الشاطئ.. وبعيدًا وراء ذلك المشهد ترتفع الجبال الشاهقة المعتمة السابحة خلال السحاب كأمواج تجمدت فجأة فى مكانها.. أما البحر فيمتد ساكنًا كالبساط، باستثناء بعض الأمواج المتوسطة نسبيًا والتى لا يكاد المرء ينتبه إليها.. وأما السماء فكانت تتقد حرارة.

توقف الرجل الذى بيده المجداف المقوَّس.. وقال: "لا بد أنها فى مكان ما هنا".. وترك المجداف وفرد ذراعيه أمامه فى خط مستقيم.. أما الرجل الآخر فكان فى مقدمة الزورق يتفحص الأرض بدقة شديدة.. وكان يضع على ركبته رقعة من الورق الأصفر.. ولم يلبث أن قال "(إيفانز)! تعال وانظر إلى هذا..".

تحدث الرجلان بعضهما إلى بعض بصوت هامس.. وكانت شفاهما متصلبة وجافة.. وجاء الرجل الذى يدعى (إيفانز) وهو

يتمايل بامتداد الزورق حتى نظر من فوق كتف رفيقه.. وكان للورقة مظهر خريطة متينة.. وعند فروعها يظهر للمرء أنها متغضنة ومتآكلة إلى حد الانفصال تقريبًا.. وأمسك الرجل الثانى بالأجزاء التى تغير لونها بجوار بعضها البعض فى مكان انفصالها.. ويمكن للمرء أن يتبين بصعوبة من تلك الخريطة، من خلال خطوطها المطموسة، معالم الخليج.

قال (إيفانز): "هنا صخور الشاطئ.. وهذه هى الفجوة".. ومر بظفر إبهامه على جزء من الخريطة.. وأردف: "هذا الخط المنحنى والمتعرج هو النهر.. يا إله السماوات!.. لم أعد بحاجة للشراب الآن.. وهذه النجمة هى المكان".

قال الرجل الذى معه الخريطة: "انظر إلى هذا الخط المتقطع.. إنه خط مستقيم يمتد من فتحة فى صخور الشاطئ إلى مجموعة من أشجار النخيل.. والنجمة هى نقطة تقاطع هذا الخط مع النهر.. يجب أن نحدد المكان بعلامة عندما نذهب إلى البحيرة".

قال (إيفانز) بعد فترة من الصمت: "إننى لا أفهم معنى لتلك العلامة الصغيرة هنا.. ويبدو أنها مسقط أفقى لمنزل أو شىء من هذا القبيل.. لكن ما هى كل تلك الشرطات الصغيرة التى تتجه إلى هذا الاتجاه.. وذاك الاتجاه.. إنها تحيرنى هى الأخرى.. وما هى هذه الكتابة الغريبة؟".

قال الرجل صاحب الخريطة: "إنها حروف صينية" فهتف (إيفانز): "نعم بالطبع.. إنه كان صينيًا".

قال الرجل صاحب الخريطة: "لقد كانوا كلهم صينيين حسب ما أعلم".

جلس الرجلان بضع دقائق يحدقان فى الأرض التى أمامهما.. فى حين آخذ الزورق ينزاح ببطء.. ثم نظر (إيفانز) إلى المجداف وقال: "جاء دورك الآن لكى تجدف يا (هووكر)".. وعندما طوى رفيقه خريطته ووضعها فى جيبه وتخطى (إيفانز) بحذر.. ثم بدأ فى التجديف.. وكانت حركاته ضعيفة كرجل خارت قواه تقريبًا.

جلس (إيفانز) بعينين نصف مغلقتين يراقب حاجز الأمواج المرجانى الذى يحيط به الزبد والرغاوى، من جراء ارتطام الأمواج، وهو يقترب أكثر وأكثر منهما..والآن أصبحت السماء كفرنٍ متقد حيث اقتربت الشمس من سمت الرأس.. وعلى الرغم من اقترابهما من مكان الكنز الذى يبحثان عنه.. فإنه لم يشعر بالفرحة والإثارة اللتين توقعهما.. ذلك أن الإثارة الشديدة التى صاحبت الصراع من أجل الخريطة، والرحلة البحرية الليلية الطويلة من البر الرئيسى فى زورق غير مجهز بالإمكانيات والمؤن. أديا - حسب تعبيره هو شخصيًا - إلى "الإجهاز عليه تمامًا"، وحاول أن ينبه نفسه بالتفكير فى السبائك التى تحدث عنها الصينيون.. لكن عقله عاد بسرعة إلى التفكير فى أمواج الماء العذب فى النهر وفى جفاف حلقه وشفتيه الذى لم يعد يطيقه الآن. ثم أصبح إيقاع ارتطام أمواج البحر بصخور الشاطئ مسموعًا، وشعر فى أذنيه بوقع موسيقى لها.. وانجرفت الأمواج إلى الداخل من جانب الزورق.. وأخذ المجداف يقطر ماء بين كل ضربة وأخرى.. عندئذ بدأ ينام نومًا خفيفًا.

كان لا يزال واعيًا إلى حد ما بالجزيرة.. لكن حلمًا غريبًا بدأ ينسج خيوطه فى فراغ شعوره.. ومرة أخرى أسدل الليل أستاره عليهما فى حين كان هو و(هووكر) قد اكتشفا بالصدفة سر الصينيين.. إذ إنه رأى الأشجار المضاءة بنور القمر.. والنار الصغيرة تتقد.. والأجسام السوداء للصينيين الثلاثة ـ التى تتألق من أحد جوانبها بنور القمر الفضى.. ومن الجانب الآخر تتوهج فى ضوء النار ـ وسمعهم يتحدثون بعضهم إلى بعض بلغة إنجليزية تجارية مبسطة، لأنهم جاءوا جميعًا من أقاليم مختلفة.. الذى تنبه إلى فحوى حوارهم أولاً هو (هووكر) الذى أومأ إليه لكى ينصت إليهم.. لكن كانت أجزاء من المحادثة غير مسموعة وأجزاء أخرى منها غير مفهومة بالمرة.. وخلاصة ما فهمه أن غليونًا[1] إسبانيًا من الفليبين جنح وتحطم ودُفن الكنز الذى كان على متنه، وكانوا يأملون فى العثور عليه واستخراجه.. وتنص هذه القصة أو الأسطورة على أن طاقم السفينة المنكوبة تعرضوا لمرض خطير أضعفهم وأصابهم بالوهن علاوة على تقاتلهم بعضهم مع بعض وعدم وجود نظام.. وفى النهاية ركبوا قواربهم وانطلقوا لحال سبيلهم ولم يسمع أحد عنهم شيئًا منذ ذلك الوقت.. وأثناء تجول (شانج هاى) ـ بعد مرور سنة ـ بالقرب من الشاطئ عثر بالصدفة على سبائك مخبأة منذ مائتى عامًا.. ومن ثم هجر سفينته الشراعية وأعاد دفنها بمفرده بجهد خارق ولكن بأمان تام.. وقد اهتم للغاية بتأمين السبائك.. وكان ذلك سره الخاص الذى لم يعرفه أحد.. والآن أراد العودة إلى

---

(١) سفينة شراعية اسبانية كبيرة (المترجم).

هذا المكان لكى يستخرج كنزه!.. وسرعان ما نشر الرجلان الخريطة الصغيرة التى بحوزتهما، وخفتت أصواتهما.. إنها قصة رائعة حقًا تلك التى أتيح لاثنين من المتشردين الإنجليز الهائمين على وجهيهما أن يسمعاها!!

ثم تحوّل حلم (إيفانز) إلى اللحظة التى أصبح فيها قابضًا على ضفيرة رأس (شانج هاى).. وحياة أى رجل صينى نادرًا ما تكون مقدسة كحياة رجل أوروبى!.. الوجه الصغير الماكر لـ (شانج هاى).. كان فى البداية متحمسًا ومهتاجًا كحية روعها شىء مفاجئ.. ثم أصبح مخيفًا وغادرًا وحقيرًا.. أصبح وجهه واضحًا تمامًا فى الحلم.. وفى النهاية افتر ثغر (شانج هاى) عن ابتسامة غامضة مرعبة.. وفجأة أصبح كل شئ غير سار، مثلما يحدث أحيانًا فى الأحلام، (شانج هاى) بدأ يثرثر ويهدده.. ورأى فى حلمه أكوامًا من الذهب.. و(شانج هاى) يتدخل ويكافح لكى يمنعه من الوصول إليها.. أمسك (إيفانز) بضفيرة شعر (شانج هاى).. ولكن الوغد الصينى كان ضخمًا وقاوم بقوة وكان يبتسم ابتسامة غريبة.. ثم أخذ الرجل يزداد فى الحجم..وتحولت أكوام الذهب اللامعة إلى فرن لافح، أمامه شيطان هائل يشبه (شانج هاى) إلى درجة كبيرة.. ولكن له ذيل أسود ضخم.. وبدأ يغذيه بالفحم فتأجج بشكل رهيب، وثمة شيطان آخر يصيح باسمه "(إيفانز)! (إيفانز)! أيها الأبله النائم!" أو لعله كان (هووكر)!

استيقظ من نومه ليجد أنهما أصبحا فى مدخل البركة الضحلة.. وقال رفيقه: "إنها أشجار النخيل الثلاث لابد أنها على استقامة مجموعة الشجيرات تلك".

وأردف: "علِّم هذه.. وإذا ذهبنا إلى تلك الشجيرات ثم خضنا فى الغابة فى خط مستقيم من هنا.. فسوف نصل إلى المكان بالقرب من الجدول".

الآن أمكنهما أن يريا أين يوجد مصب الجدول.. وبمجرد رؤيته، ابتهج (إيفانز) وصاح: "هيا.. أسرع يا رجل.. وإلا فاعلم أننى سوف أُضطَر لشرب ماء البحر!" وعض يده ثم حدّق فى الضياء الفضى بين الصخور والطحالب الخضراء.. وآنذاك استدار وهو حانق جدًا على (هووكر) وقال له بحدة: "هلا أعطيتنى المجداف يا رجل".

وهكذا وصل الرجلان إلى مصب النهر.. وقبل المصب بمسافة قصيرة غرف (هووكر) بعض الماء من النهر براحة يده، ثم تذوقه وسرعان ما بصقه.. ثم ابتعد أكثر عن المصب وأعاد الكرة. وبعد أن ذاق الماء قال: "لا بأس".. وعندئذ أخذ الرفيقان يشربان بنهم حتى ارتويا.

وفجأة قال (إيفانز) "اللعنة!.. إنه بطىء جدًا" ثم مال بشدة تتسم بالمخاطرة من على مقدمة الزورق.. وبدأ يشرب الماء بشفتيه مباشرة. الآن انتهيا من الشرب.. ثم تحركا بالزورق إلى جدول صغير.. وأوشكا على النزول على بر تنمو فيه نباتات كثيفة تعلو فوق الماء.. وقال (إيفانز): "أظن أن علينا أن نخترق تلك الأشجار لكى نصل إلى الشاطئ للعثور على الشجيرات، وتحديد الخط الذى يفضى إلى مكان الكنز".. فقال (هووكر): "يفضل أن نتحرك بالقارب من حولها".

انطلق الرجلان فى النهر مرة أخرى بزورقهما، وآخذا يجدفان فى اتجاه المصب والبحر الهادئ. ثم بمحاذاة الشاطئ حتى المكان الذى تنمو فيه مجموعة الشجيرات.. وهنا هبطا.. وجرا الزورق الخفيف إلى الشاطئ.. وأمكنهما رؤية فتحة الصخور المرجانية والأشجار التى تصطف فى خط مستقيم بعضهما مع بعض. وكان مع (إيفانز) أداة محلية أخذها من الزورق.. وهى على شكل حرف L ومسلحة بحجر مصقول..وأمسك (هووكر) بالمجداف.. ثم قال "عن الخط المستقيم الآن فى هذا الاتجاه.. ويجب علينا أن نستمر فى التقدم حتى نصل إلى الجدول.. وعندئذ علينا أن نبحث بالطريقة الصحيحة".

وتقدم الرجلان مخترقين كومة كثيفة من البوص والأوراق العريضة والأشجار الفضية.فى البداية كان ذلك السعى مضنيًا.. لكن سرعان ما ازدادت الأشجار طولاً وبدأت الأرض تتسع أمامها. واختفت حرارة الشمس اللافحة وحل محلها درجات من الظلال الباردة.. الأشجار أصبحت أخيرًا أعمدة ضخمة، ترتفع لتكوّن مظلة من الأغصان والأوراق الخضراء العالية.. وتدلت من أغصانها زهور بيضاء باهتة اللون.. وتأرجحت النباتات المتسلقة والزاحفة التى تشبه الحبال من شجرة إلى أخرى.. وازداد عمق الظلال.. وعلى الأرض انتشرت فى كل مكان بقع الفطريات والقشور ذات اللون البنى الضارب إلى الحمرة..

ارتعد (إيفانز) وقال: "يبدو أن الجو هنا بارد فى حين أنه فى الخارج دافئ بفضل أشعة الشمس".

وعندئذ شاهدا بعيدًا فى الأمام فجوة فى الظلام الدامس، حيث تتخلل أشعة الشمس الدافئة الغابة محدثة بصيصًا من النور.. كذلك كانت هناك نباتات خضراء صغيرة، وزهور ملونة بين الأشجار وتحتها.. ثم سمعا صوت انسياب للماء.. وقال (هووكر): "هاهو صوت النهر.. لا بد أننا قريبون جدًا منه".

كانت النباتات كثيفة على ضفة النهر.. حيث ينمو عدد هائل منها، غير معروف اسمها، بين جذور الأشجار الكبيرة وتطلق وردات على شكل مراوح خضراء ضخمة تجاه السماء.. وعلق الكثير من الزهور والنباتات المعترشة ذات الأوراق الزاهية، بسيقان تلك النباتات والأشجار المكشوفة.. وعلى المياه الهادئة للبركة العريضة، التى يتجاهلها الآن الباحثون عن الكنز، تطفو أوراق بيضاوية كبيرة وزهور ملساء لامعة شمعية الملمس وذات لون أبيض قرنفلى، لكنها لا تشبه زنابق الماء البيضاء.. وفى الأمام عند انحناء النهر مبتعدًا عنهما، كثر الزبد والرغاوى المائية فجأة.. وارتفع الصخب فى المنحدر النهرى.. قال (إيفانز) "حسنٌ، وماذا بعد؟".. فأجاب (هووكر): "لقد تزحزحنا قليلاً عن الخط المستقيم.. هذا كل ما فى الأمر.. وعلينا أن نتوقع ذلك من وقت لآخر".. واستدار وحدّق فى الظلال الباردة الباهتة للغابة الساكنة خلفهما.. واستطرد: "أظن أننا لو تجولنا قليلاً إلى أعلى الجدول وإلى أسفله فلا شك أننا سنصل إلى شىء ما".

بدأ (إيفانز) قوله: "أنت قلت....." فقاطعه (هووكر): "بل هو الذى قال: إن هناك كومًا من الأحجار".. ونظر الرجلان أحدهما

إلى الآخر للحظة دون أن يتكلم أحدهما.. ثم قال (إيفانز): "دعنا نجرب أولاً السير قليلاً فى اتجاه مجرى النهر أى إلى مصبه".. وفعلاً تقدم الرجلان ببطء وهما يحترسان من كل شىء حولهما.. وفجأة توقف (إيفانز) وصاح: "ما هذا بحق الشيطان؟".

تتبع (هووكر) الاتجاه الذى يشير إليه بسبابته.. وقال: "إنه شىء ما أزرق اللون".. وبدأ هذا الشىء فى الظهور لهما بعدما اعتليا مرتفعًا أرضيًا بسيطًا.. وعندئذ بدأ بسبر غور هذا الشئ.. وتقدم فجأة بخطى مسرعة حتى أصبح ذلك الجسم الذى ينتمى إلى عالم الأموات واضحًا للعيان.. وتراخت قبضته على الأداة التى يحملها.. لم يكن ذلك الشىء سوى جسم رجل صينى ممدد على وجهه.. وعدم تصنع هذا الوضع كان شيئًا ظاهرًا ولا تخطئه العين..

اقترب الرجلان أكثر وأكثر.. ووقفا يحدقان فى صمت فى تلك الجثة المنذرة بالسوء! كانت الجثة ممددة فى مكان خال بين الأشجار.. وبالقرب منها يوجد جاروف من النمط الصينى.. وعلى بُعْد من الجاروف تنتشر أكوام من الحجارة بجوار حفرة حفرها بعضهم حديثًا.

قال (هووكر) بعد أن تنحنح مجليًا حنجرته "كان بعضهم هنا قبلنا".. وفجأة بدأ (إيفانز) يسب ويلعن ويهذى ويضرب الأرض بقدميه.. وشحب وجه (هووكر) لكنه لم يقل شيئًا.. وإنما تقدم تجاه الجسد الممدد على الأرض.. ولاحظ أن عنقه منتفخ وأرجوانى اللون.. ويداه وكاحلاه متورمان.. وهتف "يا إلهى!".. ثم استدار فجأة وذهب باتجاه الحفرة القريبة.. وأطلق صيحة تنم عن الدهشة

والهلع.. وصاح لـ (إيفانز) الذى كان يسير خلفه ببطء وحذر.. "أيها الأبله.. إن كل شىء على ما يرام.. إن الكنز ما زال هنا".. ثم استدار مرة آخرى ونظر إلى الرجل الصينى الميت ثم تطلع من جديد إلى الحفرة..

أسرع (إيفانز) إلى الحفرة.. ووجد بها عددًا من القضبان الصفراء الباهتة والتى أخفاها ذلك القتيل البائس سيئ الحظ الملقى بجوارها.. وانحنى الرجل فوق الحفرة، ونبش فى التربة بيديه المجردتين.. وبسرعة تمكن من إخراج إحدى الكتل الثقيلة..وعندما فعل ذلك اخترقت شوكة ما يده.. وعلى الفور أخرج الشوكة الدقيقة من يده بأصابعه.. ثم رفع السبيكة.. وقال بفخر وزهو :"لا يكون بهذا الوزن إلا الذهب أو الرصاص"..

كان (هووكر) ما زال ينظر إلى الصينى الميت، وهو سارح مع أفكاره والحيرة تستبد به وأخيرًا قال: "لقد تقدم هذا الرجل على أصدقائه بأن سبقهم إلى هنا خلسة..لقد جاء إلى هنا بمفرده..لكن الواضح لى أن حية سامة هاجمته وقتلته.. لكننى أعجب كيف عرف هذا المكان؟".

وقف (إيفانز) وهو ممسك بالسبيكة فى يديه.. لكن ما الذى يعنيه وجود رجل صينى ميت؟.. وقال: "علينا أن نأخذ السبائك إلى البر الرئيسى تدريجيًا.. ولكن كيف سننقلها إلى الزورق؟".. ثم خلع سترته وبسطها على الأرض ووضع عليها اثنين أو ثلاثة من السبائك.. وعندئذ وجد أن شوكة صغيرة أخرى اخترقت جلده.. ثم لم يلبث أن قال: "هذا هو أقصى ما يمكننا حمله".. ثم فجأة صاح

بغضب شديد: "ما الذى تحدق فيه هكذا يا رجل؟".. استدار (هووكر) إليه وقال: "لا أستطيع أن أتحمل.. إنه....".... وأومأ برأسه تجاه الجثة وقال: "إنه يشبه..." فقاطعه (إيفانز) "النفاية.. أليس كذلك؟.. كل الصينيين متشابهون".. ونظر (هووكر) إلى وجهه وقال: "الشيء الذى أنا متأكد منه هو أننى سوف أدفن هذا الصينى قبل أن أساعدك فى نقل هذا الشيء".

قال (إيفانز): "لا تكن أبله يا (هووكر).. واترك تلك الكتلة الفانية وشأنها.. وتعال إلى هنا".. وتردد (هووكر) برهة ثم تفحص بعينيه التربة البنية التى حولهما بعناية وقال: "هناك شيء ما يخيفنى يا (إيفانز)".. فقال (إيفانز): "الموضوع المهم هو ما الذى سنفعله بالسبائك.. هل سندفنها مرة أخرى هنا.. أو نأخذها معنا عبر البوغاز فى زورقنا؟".

استغرق (هووكر) فى التفكير.. وتجوّل بصره الحائر بين الأشجار الباسقة وإلى أعلى فى المظلة الخضراء العليا التى يسطع عليها نور الشمس.. وارتعد مرة أخرى عندما استقرت عيناه على جثة الرجل الصينى الزرقاء.. وأخذ يحدق باحثًا عن شيء فى الأعماق الرمادية الغامضة بين الأشجار..

قال (إيفانز): "ما الذى دهاك يا (هووكر)! هل اختل عقلك يا رجل؟" فأجاب (هووكر): "عمومًا، دعنا نأخذ الذهب بعيدًا عن هذا المكان اللعين، ثم بعد ذلك ليكن ما يكون".. وأمسك بطرفى ياقة السترة، فى حين أمسك (إيفانز) بالركنين المقابلين منها، ثم رفعا السترة والسبائك عن الأرض.. وقال (إيفانز) "إلى أين؟.. إلى

الزورق." ولكن بعدما تقدما بضع خطوات أردف: "إن هذا غريب حقًا. لكن ذراعاى تؤلمانى من شدة التجديف.. اللعنة!.. نعم إنهما تؤلمانى جدًا.. سوف أستريح قليلاً"..

تركا السترة تسقط على الأرض. وفى ذلك الوقت كان وجه (إيفانز) شاحبًا تمامًا.. وبعض قطرات من العرق تسيل على جبهته.. وقال بضعف: "إن الجو هنا فى الغابة فاسد الهواء قليلاً".. ثم فى نوبة مفاجئة من الغضب الذى لا مبرر له قال: ما هى فائدة الانتظار هنا طوال اليوم؟.. هيا ساعدنى يا (هووكر)!.. إنك لم تفعل شيئًا سوى الاستسلام لأوهامك منذ أن رأيت ذلك الصينى الميت اللعين!".

نظر (هووكر) بثبات فى وجه رفيقه.. وساعده فى رفع السترة التى تحمل السبائك.. وتحركا إلى الأمام، ربما لنحو مئة متر أو نحو ذلك، فى صمت تام.. لكن (إيفانز) بدأ يتنفس بصعوبة.. وقال له (هووكر): "هلا تكلمت يا (إيفانز).. ماذا دهاك يا رجل بحق السماء؟".. إلا أن (إيفانز) ترنح.. ثم أطلق صيحة مفاجئة ولم تلبث السترة أن أفلتت من بين أصابعه.. ووقف للحظة يحدق فى (هووكر).. ثم تأوه وأمسك بقوة بعنقه، وصاح وهو يتجه إلى إحدى الأشجار ويستند عليها: "لا تقترب منى.. سوف أتحسن بعد دقيقة واحدة وأسترد قوتى".

لكن سرعان ما تراخت قبضته على جذع الشجرة..وبدأ ينزلق ببطء عليه.. حتى أصبح مجرد كومة أسفل الشجرة.. وكانت يداه مطبقتين فى تشنج شديد. ثم اختلج وجهه وتشوه من شدة الألم..

واقترب (هووكر) منه.. لكن (إيفانز) صاح فيه بصوت مخنوق: "لا تقترب منى.. لا تلمسنى!.. وضع الذهب مرة أخرى على سترتى" فقال (هووكر): "هل هناك شىء أستطيع أن أفعله لك؟" قال (إيفانز): "نعم.. ضع الذهب من جديد على سترتى".. بينما كان (هووكر) يتناول السبائك شعر بوخزة بسيطة عند قاعدة إبهام يده.. فنظر إلى يده ورأى شوكة رفيعة يصل طولها إلى خمسة سنتيمترات تقريبًا.. وفى تلك اللحظة أطلق (إيفانز) صيحة مروّعة ثم تدحرج حول نفسه على الأرض. هبط فك (هووكر) إلى أسفل من الذعر.. وحدق فى الشوكة للحظة بعينين متسعتين.. ثم نظر إلى (إيفانز) الذى أصبح الآن منهارًا كلية على الأرض وظهره ينحنى ثم ينفرد فى تشنج واضح.. ثم نظر خلال أعمدة الأشجار والشبكة الهائلة من سيقان النباتات الزاحفة العلوية المتشابكة، حيث ما زال الجسد الأزرق للرجل الصينى واضحًا إلى حد ما بين الظلال الخافتة الكئيبة.. وفكر فى الشرطات الصغيرة التى فى ركن الخريطة، وفى لحظة تمكن من فك طلاسمها.. قال: "فليساعدنى الله".. إذ إن الشوكات كانت تشبه حقن السم.. وعندئذ فهم معنى تأكيد (شانج هاى) على تأمين الكنز.. وكذلك أدرك كنه تلك الابتسامة الغامضة.. ثم هتف: "(إيفانز)!"..

لكن (ايفانز) أصبح صامتًا وساكنًا تمامًا.. باستثناء اختلاجة تشنجية رهيبة فى أطرافه كلها.. وساد الغابة صمت ثقيل..

بدأ (هووكر) يشفط بجنون من البقعة القرنفلية الصغيرة فى قاعدة إبهامه.. لكى يبقى على حياته.. والآن بدأ يشعر بألم غريب

فى ذراعيه وكتفيه.. وشعر بصعوبة ثنى أصابعه.. وعندئذ أدرك أن شفط السم لن يحقق له أى فائدة..

وتوقف فجأة، وجلس بجوار كومة السبائك، وأراح ذقنه على يديه ومرفقيه على ركبتيه.. وحدق بلا معنى فى جسد زميله المتشنج الذى ما زالت تدب فيه الروح.. ثم رأى فى مخيلته ابتسامة (شانج هاى) مرة أخرى.. وبدأ الألم يمتد إلى حلقه وأخذ يزداد شدة وقوة.. ومن فوقه هبت لفحة رقيقة من الهواء حركت أوراق المظلة الخضراء العلوية.. وسقطت بتلات بيضاء لبعض الزهور المجهولة، وطارت بحرية وسط القتامة الممتلئة بالإحباط والكآبة!!.

قصة السيد (بلاتنر)

سوف تظل قصة (جوتفريد بلاتنر)، من حيث إمكان تصديقها أو لا، سؤالاً حائرًا فى ظل الأدلة والشواهد المتاحة. فمن ناحية لدينا سبعة شهود، ولكى نكون أكثر دقة لدينا ستة شهود وعين واحدة! هذه حقيقة مؤكدة لا يمكن تجاهلها، ومن ناحية أخرى لدينا التحيز والهوى والمنطق العادى الذى نفسر به الأمور وقصور الرأى، لم يتوافق قط من قبل سبعة شهود تبدو عليهم الأمانة، ولا دليل مؤكد أكثر من انعكاس التركيب التشريحى لـ (جوتفريد بلاتنر)، ولا قصة أكثر غرابة من تلك التى يرويها أولئك!

أكثر أجزاء القصة غرابة المشاركة القيمة لـ (جوتفريد) ـ الذى اعتبره أحد الشهود السبعة ـ ومعاذ الله أن أجد نفسى مندفعًا لتشجيع الخرافات من خلال التعاطف الشديد مع التجرد أو اللا تحيز، هكذا أشارك أنصار (إيوسابيو)[1] نفس المصير الذى لاقوه! وبصراحة أعترف بوجود شىء خاطئ ملتو فى موضوع (جوتفريد

(١) (إيوسابيو بالادينو) (١٨٥٤ ـ ١٩١٨) وسيطة روحية شهيرة من نابولى (إيطاليا) ويقال إنها كانت لها قوى خارقة غير طبيعية (المترجم).

بلاتنر)، ولكن ما هو هذا الشئ الخاطئ أو الملتوى، فهذا ما لا أعرفه. ولقد أدهشنى تصديق هذه القصة فى الأوساط الرسمية ذات الشأن. ولكننى أرى أن من حق القارئ علىّ أن أروى له تلك القصة دون المزيد من تعليقاتى عليها.

(جوتفريد بلاتنر)، بالرغم من اسمه، رجل إنجليزى حر الولادة.. وكان أبوه إلزاشيًا (من حى إلزاشيا بلندن) وقدم إلى إنجلترا فى الستينيات، وتزوج من فتاة إنجليزية محترمة ذات حسب ونسب غير عادى، ثم توفى بعد حياة هادئة ووادعة، كرس أساسًا (حسب ما أعلم) لتركيب خشب الباركيه فى الأرضيات. وفى عام ١٨٨٧ بلغ عمر (جوتفريد) ٢٧ عامًا. وأصبح بفضل إجادته لثلاث لغات أستاذًا للغات المعاصرة فى مدرسة خاصة صغيرة فى جنوب إنجلترا. أما عن ملابسه فهى ليست غالية جدًا، ولا رخيصة جدًا.. أما لون بشرته وطوله ومشيته فهى كلها أمور عادية لا تلفت نظر أحد.

ومع ذلك فبوسعك أن تلاحظ، مثل معظم الناس، أن وجهه ليس متماثلاً تمامًا!.. فعينه اليمنى أكبر قليلاً من اليسرى.. كما أن الجهة اليمنى لفكه أضخم قليلاً من اليسرى. ولو حاولت، مثل أى إنسان عادى، أن تعرى صدره وتتحسس نبضات قلبه، لربما وجدته مثل قلب أى إنسان آخر. ولكن هنا فى هذه النقطة سوف تختلف مع الملاحظ المدرب الخبير. فأنت ستجد قلبه عاديًا تمامًا، أما الخبير المدرب فسوف يجده غير ذلك. وبمجرد أن يتم إخبارك بهذا الشئ، فسوف تدرك هذه الحالة الفريدة بسهولة. إن قلب

(جوتفريد) ينبض فى الجهة اليمنى من جسمه. وهذا الشذوذ فى تكوين جسم (جوتفريد)، رغم أنه يروق للإنسان غير المدرب ويشد انتباهه، ليس الوحيد!.. إذ إن الفرق الدقيق لأحشاء (جوتفريد) الداخلية بمعرفة جراح متخصص يبدو أنه يُفضى إلى حقيقة غريبة، هى أن كل الأعضاء غير المتماثلة فى الجسم موجودة فى الأماكن غير الصحيحة لها. فمثلاً الفص الأيمن للكبد موجود فى الناحية اليسرى، والفص الأيسر فى الناحية اليمنى.. فى حين أن الرئتين معكوستان أيضًا. أما الشىء الأكثر غرابة من كل ذلك، مهما يكن (جوتفريد) ممثلاً بارعًا بشكل يفوق الوصف، فهو أننا مضطرون إلى الاعتقاد بأن يده اليمنى قد أصبحت مؤخرًا يده اليسرى!

ومنذ وقوع الحدث الذى سوف نسرده لتونا (بكل ما يمكن من الحيدة وعدم التحيز)، فقد عانى الرجل من صعوبة بالغة فى الكتابة إلا من اليمين إلى اليسار، أى من يمين الورقة إلى يسارها، وبيده اليسرى. وهو لا يمكنه تطويع يده اليمنى، كما أنه يرتبك وقت تناول الطعام ما بين استخدام السكين والشوكة.. وأفكاره عن الطريق ـ باعتباره راكبًا لدراجة ـ ما زالت تسبب له ارتباكًا وتعرضه لمواقف خطرة. والحقيقة أنه ليس هناك دليل من أى نوع يبين أنه قبل هذا الحدث كان (جوتفريد) شخصًا أعسر.

كذلك هناك حقيقة أخرى فى هذا الموضوع العجيب؛ إذ إن (جوتفريد) لديه ثلاث صور فوتوغرافية لنفسه. فأنت تراه فى إحداها فى الخامسة أو السادسة من عمره عابس الوجه ويرتدى

عباءة ذات مربعات وتخرج من تحتها ساقاه البدينتان فى وجهك مباشرة، وترى فى تلك الصورة أن عينه اليسرى أكبر قليلاً من اليمنى، وفكه أضخم قليلاً فى جانبه الأيمن. وهذه الخصائص عكس خصائصه التى يعيش بها حاليًا! وتبدو صورة (جوتفريد) وهو فى الرابعة عشرة من عمره مناقضة لكل تلك الحقائق.. لكن يبدو أن ذلك لأنها واحدة من تلك الصور السريعة التى كانت شائعة فى ذلك الوقت التى كانت تؤخذ على المعدن مباشرة. ومن ثم تعكس الأشياء مثل المرآة تمامًا. والصورة الثالثة له تمثله وهو فى الحادية والعشرين من عمره، وتؤيد بقية الصور. وهنا يبدو أن لدينا دليلاً دامغًا على أن (جوتفريد) بادل جانبيه الأيمن والأيسر بعضهما ببعض! لكن كيف يمكن لإنسان أن يحدث لنفسه هذا التغيير، دون معجزة حمقاء خارقة، هذا شىء عجيب حقًا ويصعب على المرء فهمه.

ومن ناحية ما، يمكن بالطبع تفسير تلك الحقائق بافتراض أن (بلاتنر) قام بتعمية بارعة بسبب إزاحة قلبه. فالصور الفوتوغرافية يمكن تزويرها، والإعسار يمكن تقليده. لكن طبيعة الإنسان ذاتها لا يمكن تقليدها. فالرجل هادئ وعملىّ ولا يتدخل فيما لا يعنيه وفى كامل قواه العقلية.. وهو يحب الجعة ويدخن فى حدود المعقول، ويمارس رياضة المشى يوميًا، وهو مخلص للتدريس الذى يقوم به ويقدر قيمته تمامًا. وهو ذو صوت صادح جيد ولكن غير مدرب على الغناء، ويسره أن يتغنى بنغمات موسيقية بهيجة شائعة بين الناس. وهو يحب القراءة، ولكنه ليس مولعًا للغاية بها.. وخصوصًا الروايات الخيالية التى تتسم بالتفاؤل المشوب بطابع دينى.. كما أنه ينام

جيدًا، ونادرًا ما يحلم. وهو أبعد ما يكون عن فرض قصته على العالم، بل إنه كتوم للغاية فى هذا الموضوع. وهو يواجه الأسئلة والاستفسارات التى تُطرح عليه بشكل جذاب ومريح - ولو أن "الخجل" هى أقرب كلمة للتعبير عن ذلك - يبدد أى شك فى نفس السائل. وهو يبدو خجلاً للغاية من أن شيئًا كهذا وقع له.

ومما يؤسف له أن نفور (بلاتنر) من فكرة تشريح الجثة بعد الوفاة قد يؤجل - ربما إلى الأبد - الدليل الحاسم على أن كل أحشاء جسمه وأعضاءه تبادلت مواقعها من اليمين إلى اليسار وبالعكس. إذ إن مصداقية قصته تظل عالقة على هذه الحقيقة بشكل أساسى. ولا توجد أى طريقة ممكنة لأخذ إنسان ما وتحريكه فى الفضاء، كما يعرف الإنسان العادى الفضاء، بحيث يترتب عليها تغيير أو تبادل أحد جانبى جسده بالآخر فمهما تفعل فإن جانبه الأيمن سوف يظل هكذا وجانبه الأيسر هكذا. ولكن يمكنك أن تفعل ذلك لأى جسم مادى رفيع ومسطح كما نعلم جميعًا. فمثلاً يمكنك أن تقص شكلاً ما من جريدة، وبالطبع لا بد أن يكون له جانب أيمن وجانب أيسر، ثم يمكنك تغيير جانبيه ببساطة برفعه ثم تدويره (بزاوية ١٨٠ درجة). ولكنك لا تستطيع أن تفعل ذلك لجسم مصمت ثلاثى الأبعاد، لأن النظريات الرياضية تدلنا على أن الطريقة الوحيدة لتبديل الجانبين الأيمن والأيسر لجسم مصمت هى تحريك هذا الجسم إلى خارج الفضاء الذى نعرفه، أى نأخذه بعيدًا عن الوجود العادى له فى عالمنا إلى مكان ما خارج الفضاء. وبلا شك فإن ذلك أمر يشوبه الغموض للإنسان العادى، بيد أن أى شخص لديه معرفة بسيطة بالنظريات الرياضية سوف يؤكد للقارئ صحة

هذا الكلام. ولوضع هذا الأمر فى لغة علمية فإننا نقول: إن الانعكاس العجيب لجانبى (بلاتنر) الأيمن والأيسر أحدهما بالآخر دليل على أنه خرج من "فضائنا" ودخل فيما يُسمى "البعد الرابع" ثم رجع مرة أخرى إلى عالمنا. وما لم نكن ضحايا لتزوير بارع جداً ولا مبرر له، فإننا مضطرون إلى أن نسلم بأن هذا ما حدث. ولعلنا توسعنا قليلاً فى سرد الحقائق الملموسة. والآن ننتقل إلى تفسير ظاهرة اختفائه المؤقت من الوجود. يبدو أن مدرسة (ساكس فيل) الخاصة لم تشغّل (بلاتنر) أستاذًا للغات الحديثة فقط، فقد كان يعمل أيضًا بتدريس الكيمياء والجغرافيا التجارية وإمساك الدفاتر والاختزال والرسم وأى موضوع دراسى آخر يؤدى إلى تغير رغبات أولياء أمور الطلبة وأذواقهم تجاهه إلى اهتمام المدرسة مباشرة به.

لم يكن (بلاتنر) يعرف الكثير، بل الحقيقة أنه لم يكن يعرف شيئًا تقريبًا عن بعض تلك المقررات، لكن فى المرحلة الثانوية - التى تختلف تمامًا عن المدارس الداخلية أو الابتدائية - فإن إحاطة المدرب بالمعلومات الكثيرة ليست مطلقًا فى نفس أهمية شخصيته وأسلوبه المهذب فى الحوار. ففى الكيمياء مثلاً، لم يكن يعرف شيئًا على وجه التحديد أكثر من الغازات الثلاثة (مهما كانت هذه الغازات الثلاثة!). ولأن تلامذته بدأوا معه من الجهل المطبق، وحصلوا على كل معلوماتهم منه، فإن ذلك لم يسبب له (أو لأى أحد) سوى القليل من الارتباك فى شرح الكثير من المصطلحات.

ثم التحق بالمدرسة صبى صغير يُدعى (ويبل)، ويبدو أنه كان متعلمًا، على يد قريب شرير له، ولديه عادة التفكير وطرح الأسئلة.

وتابع الصبى الصغير دروس (بلاتنر) باهتمام متواصل وملحوظ، ولكى يظهر له حماسه وشغفه بالكيمياء فقد كان كثيرًا ما يحضر لـ (بلاتنر) موضوعات لكى يقرأها ويعبر له عن رأيه فيها. وشعر (بلاتنر) بالفخر لأنه تمكّن من إيقاظ الاهتمام والجدية لدى هذا الصبى الجاهل. وعكف على قراءة تلك الموضوعات وتحليلها ثم إبداء رأيه عنها بشكل عام. ودفعه حماس تلميذه هذا إلى الحصول على كتاب عن الكيمياء التحليلية ودراسته فى أثناء إشرافه على الطلبة وهم يؤدون واجباتهم المسائية. وأدهشه أن يجد الكيمياء موضوعًا جميلاً ومثيرًا.

حتى الآن لا شىء غير عادى فى قصة (بلاتنر). وعندئذ يأتى المسحوق الأخضر إلى مسرح الأحداث، ومن سوء الحظ أننا لا نعلم على وجه اليقين مصدر هذا المسحوق. ويقول (ويبل) قصة معقدة وغريبة تتلخص فى أنه عثر عليه مُلقى فى لفافة بساحة قمين ناء لحرق الجير بالقرب من (داونز). ولعله كان يصبح شيئًا رائعًا لـ (بلاتنر)، وربما لأسرة (ويبل)، لو كان تم إشعال عود ثقاب فى هذا المسحوق فى ذلك الوقت. ومن الواضح أن الشاب المهذب لم يحضر المسحوق إلى المدرسة فى لفافة كهذه، ولكن فى زجاجة طبية صغيرة مدرجة ومسدودة بقطعة مبرومة من ورقة صحيفة، ثم أعطاه لـ (بلاتنر) فى نهاية اليوم الدراسى عند العصر.

فى ذلك الوقت كان أربعة من الطلاب محجوزين عقب أداء الصلاة المدرسية لإكمال بعض واجباتهم التى أهملوها.. وكان (بلاتنر) يشرف على أولئك الطلبة فى فصل صغير كان يُعطى فيه

دروس الكيمياء. وتتميز أجهزة الدروس العملية وأدواتها فى الكيمياء فى مدرسة (ساكس فيل) الخاصة - مثلها مثل أى مدرسة خاصة فى البلاد - بالبساطة الشديدة، إذ يتم حفظها فى دولاب داخل تجويف بالحائط، ويمكنه أن يتسع لنفس الأشياء التى توضع فى حقيبة سفر عادية. ولما كان (بلاتنر) يشعر بملل من الإشراف السلبى الذى يقوم به، فيبدو أنه رحب بكسر (ويبل) له بتقديمه المسحوق الأخضر لإنعاشه وإثارة اهتمامه.. وسرعان ما فتح الدولاب وبدأ على الفور فى مباشرة تجاربه التحليلية للمسحوق الغريب. ومن حسن حظ (ويبل) أنه جلس على مسافة آمنة وأخذ يرمقه باهتمام. وعلى حسب ما أعلم فإنه حتى فى حدود الغازات الثلاثة فقط، فإن تجارب الكيمياء العملية التى كان يجريها (بلاتنر) كانت متهورة إلى حد كبير.

وهؤلاء الشهود متفقون من الوجهة العملية فى روايتهم لما حدث لـ (بلاتنر)، فقد صب قليلاً من المسحوق الأخضر فى أنبوب اختبار، ثم عالج المسحوق ببعض الماء وحامض الهيدروكلوريك وحامض النتريك، وحامض الكبريتيك على التوالى. لكنه لم يحصل على أى نتيجة، ولذلك أفرغ كومة صغيرة - تبلغ فى الحقيقة نحو نصف عبوة الزجاجة - على لوحة من الإردواز وأشعل عود ثقاب لكى يختبرها، وأمسك بزجاجة الدواء بيده اليسرى، وبدأت المادة تدخن وتنصهر ثم لم تلبث أن انفجرت مصدرة دويًا يصم الآذان وضياءً هائلاً يعمى الأبصار.

رأى التلاميذ الخمسة الوهج وكانوا مستعدين لأى كارثة، فبادروا بالنزول تحت مكاتبهم لحماية أنفسهم، ولم يصب أى منهم بأذى

يُذكر. وما حدث هو أن النافذة انخلعت وطارت إلى ساعة المدرسة، كما انقلبت السبورة على حاملها.. أما لوحة الإردواز فقد تحطمت إلى ذرات.. وسقط بعض الحصى من سقف الفصل.. ولم تحدث أى أضرار أخرى لمبنى المدرسة وأجهزتها. وفى البداية لم ير الطلبة (بلاتنر)، واعتقدوا أنه انقذف من جراء الانفجار وسقط فى مكان ما لا يرونه من الفصل تحت المكاتب. وهُرِع التلاميذ من أماكنهم إليه لنجدته، وأدهشهم للغاية أن يجدوا المكان خاليًا.

كان الطلبة مرتبكين من جراء الانفجار المفاجئ والدوى والوهج المصاحبين له، وهُرعوا ناحية الباب المفتوح معتقدين أن أستاذهم لا بد قد تعرض لأذى وأنه اندفع خارجًا من الفصل. إلا أن أولهم - وهو (كارسون) - كاد أن يصطدم عند مدخل الباب بمدير المدرسة السيد (ليدجيت). وكان السيد (ليدجيت) رجلاً بدينًا سريع الاهتياج، وذا عين واحدة. ويصفه التلاميذ بأنه اقتحم الغرفة وهو يتمتم ببعض الكلمات البذيئة التى يستخدمها أحيانًا بعض المدرسين سريعى الغضب خشية حدوث الأسوأ. وقال الرجل ساخطًا: "أيها اللعين! أين الأستاذ (بلاتنر)؟". واتفق التلاميذ كلهم على نفس تلك الكلمات.

أين الأستاذ (بلاتنر)؟ ذلك سؤال تردد كثيرًا فى الأيام التى تلت الحدث، والذى احتاج إلى إجابة ما. وبدا لأول وهلة أن المبالغة المتشنجة "لقد تحطم إلى ذرات" هى الإجابة الصحيحة!.. إذ لم تكن هناك ذرة واحدة من (بلاتنر) يمكن رؤيتها ولا نقطة دم واحدة ولا فتلة واحدة من ثيابه يمكن العثور عليها. والواضح أنه أُطيح به تمامًا من عالم الوجود الذى نعيش فيه إلى مكان آخر، دون أن يترك

وراءه أى آثار أو بقايا.. إن دليل اختفائه المطلق إثر هذا الانفجار مؤكد ولا مجال للشك فيه.

وليس من الضرورى أن نتوسع هنا فى ذكر الفوضى التى اجتاحت مدرسة (ساكس فيل) الخاصة، بل ومدينة (ساكس فيل) وما يجاورها من جراء هذا الحادث. ولعل بعض قراء هذه الصفحات يتذكرون سماع قصص محرفة عن هذا الحدث المميز خلال عطلات الصيف الماضى. ويبدو أن (ليدجيت) فعل كل ما فى وسعه للتكتم على تلك القصة وتقليل حجمها إلى أقل حد ممكن. وفرض عقوبة حفظ ٢٥ سطرًا وكتابتها لقاء ذكر اسم (بلاتنر) على الطلبة.. وفى نفس الوقت قال فى المدرسة إنه يعرف بالضبط مكان مساعده الأستاذ (بلاتنر). وأعرب عن خوفه من أن احتمال حدوث انفجار بالرغم من كل تدابير السلامة المتخذة لتقليل الحصص العلمية فى الكيمياء إلى أقل حد ممكن ربما يضر بسمعة المدرسة، تمامًا مثل الظاهرة الغامضة لاختفاء (بلاتنر). والحقيقة أنه فعل كل ما يمكنه لكى يبدو الحادث طبيعيًا بقدر الإمكان. وقام باستجواب الشهود الخمسة للحادث بشكل صارم ودقيق لدرجة أنهم بدأوا يشكون فى سلامة حواسهم. لكن بالرغم من تلك الجهود، فإن القصة انتشرت بشكل موسع ومشوه طوال تسعة أيام فى أرجاء المنطقة بأسرها، حتى إن بعض أولياء الأمور أخرجوا أولادهم من المدرسة بحجج زائفة.

ومن الأشياء التى تستحق الذكر بهذا الصدد حقيقة أن عددًا كبيرًا من الناس فى المنطقة المحيطة حلموا أحلامًا واضحة وغريبة عن (بلاتنر) فى أثناء فترة الإثارة التى سبقت عودته، وأن تلك

الأحلام كانت متطابقة بشكل غريب. وفى كل تلك الأحلام تقريبًا كان (بلاتنر) يُرى بمفرده أو مع آخرين يهيم وسط ضياء متلألئ من ألوان قوس قزح. وفى كل الأحلام كان وجهه شاحبًا ومهمومًا.. وفى بعضها كان يومئ أو يشير إلى الحالم نفسه. وتخيل واحد أو اثنان من الطلبة - بلا شك بتأثير كابوس تعرضا له - أن (بلاتنر) يقترب منهما بسرعة كبيرة وينظر باهتمام فى عيونهما. وآخرون حلموا بأنهم يهربون مع (بلاتنر) من مطاردة حيوانات عجيبة وغامضة وذات شكل كروى.. لكن كل تلك الأوهام والتخيلات نُسيت تمامًا فى ظل الأسئلة والتخمينات التى انشغلوا بها جميعًا عندما عاد (بلاتنر) فى يوم الأربعاء من الأسبوع التالى لاختفائه فى يوم الاثنين الذى حدث فيه الانفجار.

وكانت ظروف عودته وملابساتها لا تقل غرابة وتفردًا عن تلك التى لاختفائه.. وحتى الآن لدينا أقوال السيد (ليدجيت) العامة المضطربة إلى حد ما، ويمكن ملء ثغراتها بأقوال السيد (بلاتنر) المضطربة. وهكذا يتضح لنا أنه فى مساء يوم الأربعاء قبيل وقت الغروب، كان السيد السابق - الذى صرف حصة أداء الواجبات المسائية - مشغولاً فى حديقته بقطف الفراولة وأكلها، وهى فاكهة يهفو إليها دائمًا بشدة.. وهى حديقة قديمة الطراز ومحجوبة عن الأنظار تمامًا من حسن الحظ بواسطة جدار من الطوب الأحمر المكسو بنباتات (اللبلاب). وفى اللحظة التى كان ينحنى فيها على أحد نباتات الفراولة كثير الثمار، سطع وميض مفاجئ فى الهواء وسمع صوت سقوط مكتوم، وقبل أن ينظر حوله ليرى ما هذا، اصطدم جسم ثقيل بظهره.

مال الرجل إلى الأمام وهرس حبات الفراولة بيده.. وبنفس القوة اندفعت، قبعته الحريرية ـ حيث إن السيد (ليدجيت) يتمسك بالأفكار القديمة للزى المدرسى ـ فوق جبهته وغطت إحدى عينيه. ولم تكن تلك "القذيفة" التى انقضت عليه من جانب إلى آخر ، ثم جثمت فى هيئة الجلوس بين نباتات الفراولة، سوى الشخص الذى طال غيابه السيد (جوتفريد بلاتنر)، ولكن فى هيئة رثة ومزرية للغاية. كان دون ياقة ولا قبعة، وملابسه الداخلية متسخة وعلى يديه بعض الدماء.

شعر السيد (ليدجيت) بالغضب والدهشة لدرجة أنه ظل مستندًا على أطرافه الأربعة، وقبعته قافشة على عينيه.. فى حين أخذ يعنف (بلاتنر) وينتقد أسلوبه غير المهذب وغير المبرر.. ولكن أحب أن أنبه القارئ إلى أن هذا المشهد الخارجى يكمل ما يمكننى تسميته الرواية الخارجية لقصة (بلاتنر).. أى جانبها الخارجى. وأظن أنه من المناسب عدم الدخول هنا فى تفاصيل طرد السيد (ليدجيت) له، لأن كل تلك التفاصيل وكل الأسماء والتواريخ والمراجع سوف يتضمنها التقرير الضخم عن تلك الأحداث الذى سوف يوضع أمام جمعية استقصاء الظواهر الخارقة.

التحول أو التبديل العجيب لجانبى (بلاتنر) الأيمن والأيسر لوحظ بصعوبة فى اليوم الأول أو نحو ذلك، ثم أولاً فيما يتعلق بطريقة كتابته من يمين السبورة إلى يسارها. وأخفى هذه الصفة المؤكدة بدلاً من كشفها، لأنه كان يعتبر أنها قد تضر بمستقبله المهنى فى أى موقف جديد. وتم اكتشاف إزاحة قلبه بعد عدة أشهر

عندما كان محتاجًا لخلع أحد أسنانه تحت تأثير المخدر. وعندئذ سمح - على مضض - بعمل فحص جراحى سريع له، بهدف تسجيل حالته فى "مجلة التشريح". ويكفى الآن ما ذكرناه من حقائق مادية.. وعلينا أن ننظر الآن فى رواية (بلاتنر) نفسه عن الحادث العجيب.

لكن دعونا نفرق أولاً بوضوح بين الجزء السابق من هذه القصة والجزء التالى. فكل ما قلته حتى الآن مؤكد بالأدلة التى يقرها حتى المحامى الجنائى. وكل الشهود ما زالوا أحياء الآن، وبوسع القارئ، إذا توفر له ما يكفى من الوقت أن يقابل أولئك الصبية غدًا مثلاً، أو أن يقابل (ليدجيت) الرهيب، إذا كان يستطيع أن يتحمل ازعاجاته بالطبع.. وأن يسأل ويبحث كما يشاء بالنحو الذى يرضيه أو يقنعه. وعمومًا فإن (جوتفريد بلاتنر) نفسه وقلبه المنحرف عن مكانه الطبيعى وصوره الفوتوغرافية الثلاث متوفرة! ومن الثابت لنا جميعًا أن (بلاتنر) اختفى لمدة تسعة أيام بسبب حدوث انفجار، وأنه عاد بنفس العنف تقريبًا وفى ظروف كانت ذات طبيعة مؤلمة للسيد (ليدجيت) أيًا كانت تلك الظروف.. وأنه عاد "معكوسًا"! مثلما تنعكس صورة المرء فى المرآة.

ومن تلك الحقيقة الأخيرة، وكما ذكرت من قبل، نستنتج بالضرورة أن (بلاتنر) فى تلك الأيام التسعة لابد أنه كان يعيش فى حالة من الوجود فى عالم آخر بعيدًا تمامًا عن عالمنا هذا (أى فى البعد الرابع) . والأدلة على هذا الكلام أقوى فى الحقيقة من الأدلة التى يتم بموجبها شنق أكثر القتلة! ولكن بالنسبة لروايته ذاتها عن المكان الذى كان فيه، فهى تقدم لنا تفسيرات غامضة ومبهمة بل

وتفاصيل متناقضة مع نفسها. وأنا لا أريد هنا أن أشكك فيها، ولكننى أريد أن أوضح - وهذا ما يغفل عنه أكثر الكتّاب الذين يتناولون الظواهر النفسية الغامضة - أننا ننتقل الآن من الحياة العملية التى نلمسها جميعًا إلى ظروف وأجواء يحق لكل إنسان عاقل أن يقبلها أو يرفضها حسبما يراه صوابًا. والكلام السابق يجعله قابلاً للتصديق، ولو أن تعارضه مع حياتنا المألوفة يجعله أقرب إلى الخيال الذى لا يمكن تصديقه. وأنا لا أحب أن أؤثر على حكم القارئ أو تقديره فى أى من الاتجاهين، وأفضل أن أروى ببساطة القصة كما رواها (بلاتنر) لى.

لقد قصَّ علىّ حكايته بمنزلى بـ (شيزل هيرست)، وبمجرد انصرافه فى هذا المساء، ذهبت إلى حجرة مكتبى وأخذت أدون كل شىء قاله كما أتذكره. وبعد ذلك تكرم الرجل بمراجعة النسخة التى طبعتها حتى لا يكون هناك أى شك فى صحة تفاصيلها.

قال إنه فى اللحظة التى وقع فيها الانفجار اعتقد أنه قُتل.. وشعر بقدميه ترتفعان عن الأرض وبقوة هائلة تدفعه إلى الوراء. ومن الحقائق الغريبة لعلماء النفس أنه كان يفكر بوضوح فى أثناء طيرانه إلى الخلف ويتساءل: هل سوف يصطدم بدولاب أجهزة الكيمياء أو حامل السبورة. اصطدم كعباه بالأرض وترنح ثم سقط بقوة فى الوضع جالسًا على جسم ثابت وطرى. أصعقته الصدمة للحظة.. ثم بدأ على الفور يدرى بمشهد واضح من الشعر الذى يشيط.. وبدا أنه يسمع صوت (ليدجيت) وهو يسأل عنه.. لا بد أنك تفهم يا عزيزى القارئ أن عقله كان مرتبكًا جدًا لبعض الوقت.

فى البداية كان واقفًا تحت تأثير أنه ما زال موجودًا فى الفصل.. وتبين بوضوح تام اندهاش التلاميذ من دخول السيد (ليدجيت)، وهو متأكد تمامًا من هذه النقطة. لكنه لم يسمع ملاحظاتهم. وعزا ذلك إلى الانفجار الذى صم الآذان فى أثناء التجربة العلمية البائسة. وبدا أن كل الأشياء التى حوله معتمة وباهتة، لكن عقله فسر ذلك على أساس واضح لكنه خاطئ، وهو أن الانفجار أنتج سحابة هائلة من الدخان الأسود. وخلال هذا الظلام أمكنه تمييز أجسام كل من (ليدجيت) والأولاد وهى تتحرك ولكن بشكل باهت وساكن كالأشباح. وكان وجه (بلاتنر) ما زال يوخزه من حرارة الوميض اللافحة. وشعر بأنه "منهك ومشوّش" تمامًا. ويبدو أن أول أفكار محددة له كانت بخصوص سلامته الشخصية. واعتقد أنه ربما يكون قد أصيب بالعمى والصمم. وتحسس أطرافه ووجهه بحذر شديد. ثم ازداد إدراكه وأدهشه أن يفتقد مكاتب الفصل القديمة وغيرها من أثاث الفصل.. وبدلاً من تلك الأشياء لم ير سوى أشكال معتمة باهتة غير واضحة المعالم.

ثم حدث شىء جعله يصرخ وأيقظ كل قدراته المذهولة وأعادها إلى نشاطها.. اثنان من التلاميذ يُشيران تجاهه وهما يقتربان منه واحدًا بعد الآخر!.. لكن لم يُظهر واحد منهما أدنى إدراك لوجوده.. ومن الصعب أن نتصور ما شعر به من إحساس وقتئذ.. فهو يقول: إنهما مرا من جانبه كما لو أنهما مجرد كتلة من الضباب!

أول ما فكر فيه (بلاتنر) عندئذ أنه مات.. ولكن لأنه كانت لديه أفكار صحيحة فى تلك الموضوعات، فإنه لم يندهش إلا قليلاً

عندما وجد جسده ما زال حوله. وكان استنتاجه الثانى أنه ليس ميتًا وإنما الآخرون هم الموتى، أى أن الانفجار دمر مدرسة (ساكس فيل) الخاصة وكل من فيها فيما عداه. لكن حتى هذا الاستنتاج لم يكن مرضيًا تمامًا. وبدأ يعود إلى الملاحظات المدهشة. كان كل شىء حوله معتمًا للغاية. فى البداية شعر بأنه وسط ظلام حالك. ومن فوقه قبة سماوية سوداء. الضوء الوحيد فى هذا المشهد كان وهجًا أخضر خافتًا بحافة السماء من اتجاه واحد كشف الستار عن وجود مجموعة من التلال السوداء المتموجة. وأعتقد أن هذا كان انطباعه الأول. وعندما اعتادت عيناه على الظلام بدأ يميز بين درجات متقاربة من اللون الأخضر فى الليل المحيط به. وبدا له وسط تلك الخلفية أن أثاث الفصل والأشخاص الموجودين به تقف منتصبة كأشباح وماضة بضوء خافت جدًا وغير محسوس.. مد يده ودفعها دون أى جهد خلال حائط الغرفة بجوار المدفأة. وهو يصف نفسه باعتباره يبذل جهدًا عنيفًا لكى يجذب الاهتمام إليه.. وصاح فى (ليدجيت) وحاول الإمساك بالتلاميذ وهو يتحرك جيئة وذهابًا.. ولم يتوقف عن تلك المحاولات إلا عندما دخل السيد (ليدجيت)، الذى يكرهه طبيعيًا لأنه كان أستاذًا مساعدًا له، الغرفة. وقال إن الاحساس بوجودك فى العالم وفى نفس الوقت كونك لست جزءًا منه هو إحساس فظيع وغير مقبول بالمرة. وقارن بين أحاسيسه (بشكل غير بعيد عن الصواب) بإحساس القط الذى يراقب فأرًا من وراء زجاج النافذة. فكلما قام بحركة للاتصال أو التواصل بالعالم المعتم المألوف من حوله، وجد حاجزًا غير مرئى له وغير مفهوم بالمرة يحول دون هذا الاتصال.

عندئذ حول اهتمامه إلى البيئة أو الأجسام الصلبة التى تحيط به. وجد أن زجاجة الدواء ما زالت سليمة فى يده، وبها بقية المسحوق الاحضر. وضع الزجاجة الصغيرة فى جيبه، ثم بدأ يتحسس كل ما حوله. اتضح له أنه جالس على صخرة مغطاة بطحالب ناعمة الملمس. لم يكن قادرًا على رؤية المدينة المعتمة من حوله، إذ كانت تحجبها الصورة الضبابية الباهتة للفصل، لكنه كان يشعر (لعل ذلك بسبب الرياح الباردة) بأنه قريب من قمة التل، وأن هناك واديًا منحدرًا سحيقًا من تحت قدميه. وبدا له أن الوهج الأخضر الممتد بطول حافة السماء يزداد فى المساحة والشدة.. ووقف وهو يفرك عينيه. ويبدو أنه خطا بضع خطوات هابطًا على الجانب الوعر للتل، ثم تعثر وكاد أن يسقط لكنه تمكن من الجلوس مرة أخرى على حجر حاد الأحرف لكى يراقب الفجر.

أدرك بسهولة أن العالم حوله ساكن تمامًا.. وبتعبير آخر كان ساكنًا بقدر ما كان معتمًا.. وعلى الرغم من أن رياحًا باردة كانت تهب على جانب التل صاعدة إلى أعلى، فإنه لم يسمع قط حفيف أوراق الشجر ولا أغصان الأشجار التى كان من المفروض أن تصاحب تلك الرياح. وكان بمقدوره أن يسمع وأن يفهم من ثم، إن لم يكن يستطيع أن يرى، أن جانب التل الذى يقف عليه صخرى ومقفر من أى حياة. وفى كل لحظة كان الضياء الأخضر الخافت يزداد شدة ورقعة، وأثناء حدوث ذلك اختلط به لون أحمر قان شفاف خافت.. لكن ذلك لم يخفف من ظلمة السماء من فوقه ولا الصخور الجرداء من حوله. وفيما يتعلق بالألوان، فإننى أميل إلى الاعتقاد أن

الحمرة لعلها كانت تأثيرًا بصريًا بسبب تباين الألوان. ثم خفق شىء أسود اللون لحظى أمام خلفية من لون آخضر ضارب إلى الصفرة زاه للسماء الدنيا، وبعده انطلق صوت ضعيف حاد لجرس ما من أعماق الهاوية التى أسفل.. وصاحب الوهج المتزايد توقع كئيب لما يمكن أن يحدث بعد ذلك.

لعله قضى ساعة أو أكثر حين هو جالس هكذا. وفى كل لحظة يزداد الوهج الأخضر شدة وينتشر ببطء فى مسارات متوهجة تشبه الأصابع، إلى أعلى تجاه كبد السماء. وعندما ازداد الضياء أصبحت الرؤية الطيفية لعالمنا أضعف نسبيًا.. لأن الوقت لا بد أنه كان حوالى وقت غروب الشمس فى الأرض. وعندما اختفت من ناظريه رؤية عالمنا تمامًا، خطا (بلاتنر) بضع خطوات إلى أسفل التل.. واخترق أرضية الفصل، ويبدو أنه أصبح الآن جالسًا فى تيار هوائى على درجات السلم الكبير للمدرسة. ورأى الطلبة الداخلين بوضوح ولكن بشكل أكثر خفوتًا من صورة (ليدجيت) التى شاهدها من قبل. كانوا يُحضّرون واجباتهم المسائية.. ولاحظ باهتمام أن كثيرًا منهم كانوا يغشون فى مسائل الهندسة المستوية بواسطة قصاصة صغيرة يتناولونها فيما بينهم.. وهو تطور خطير لم يره قط من قبل. ومع مرور الوقت أخذت صورهم تتضاءل باستمرار بنفس معدل زيادة ضياء الفجر الأخضر.

نظر إلى الوادى أسفل منه ورأى أن الضياء قد زحف إلى أسفل الجوانب الصخرية، وأن الظلام الحالك فى الهوة السحيقة بدأت تنكسر حدته الآن بوهج أخضر خفيف، يشبه توهج حشرة

(الحباحب)[٢] أو سراج الليل. وفى الحال صعد طرف الجرم السماوى الضخم ذو اللون الأخضر المتوهج فوق تموجات الهلال البعيدة.. وعندئذ تحولت كتل التلال بشعة المنظر من حوله إلى لون كئيب موحش. يجمع ما بين اللونين الأخضر الفاتح والغامق. وأشباح سوداء ضاربة إلى الحمرة، وتبين له وجود عدد من الأجسام الكروية الشكل المنساقة جميعها مثلما تنساق النباتات الشوكية فوق الأرض المرتفعة وكانت أقرب تلك الأجسام إليه فى الجانب الآخر من الممر الجبلى الضيق.. وبدأ الجرس السفلى يدق أسرع وأسرع، بشىء يشبه الإصرار المتعجل.. وتحركت أنوار كثيرة هنا وهناك.. والتلاميذ العاكفون على عملهم بمكاتبهم فى المدرسة كادوا يختفون تقريبًا عن ناظريه وتتلاشى صورهم.

ويصر (بلاتنر) على نقطة غريبة هى أن تلاشى عالمنا عندما تشرق الشمس الخضراء على هذا العالم الآخر. وأثناء الليل فى هذا الكوكب الآخر، يصعب أن تتحرك إلى أى مكان، وذلك بسبب أن كل الأشياء فى هذا الكوكب مشرقة وزاهية جدًا.. وهناك لغز يصعب تفسيره، إذا كانت هذه هى الحقيقة، هو أننا فى عالمنا الأرضى لا نرى أبدًا هذا العالم الآخر.. ولعل ذلك يرجع إلى الإضاءة القوية أو الزاهية نسبيًا لعالمنا الذى نعيش فيه. ويصف (بلاتنر) ظهر اليوم فى هذا العالم الآخر بأنه أشد إضاءة ولكن ليس فى نفس إشراق عالمنا هذا أو إضاءته وقت الظهيرة.. حين يكون ليلاً حالك السواد. وعلى ذلك فإن كمية الضوء ـ حتى فى

(٢) نوع من الحشرات التى لها أعضاء مضيئة (المترجم).

الغرفة المظلمة العادية ـ يكون غير كاف لرؤية الأشياء فى هذا العالم الآخر، على أساس مبدأ أن الضياء الخافت لا يُرى إلا فى الظلام الحالك تمامًا.

ولقد حاولت، منذ أن روى لى (بلاتنر) حكايته. أن أرى شيئًا من العالم الآخر.. وذلك بالجلوس لفترة طويلة فى الغرفة المظلمة لمصور فوتوغرافى (غرفة تحميض الأفلام)[٢] ليلاً. وبالتأكيد رأيت بشكل غير واضح تلك المنحدرات والصخور الخضراء، ولكننى أعترف بشكل باهت للغاية. ولعل القارئ يكون أكثر نجاحًا فى هذا الصدد.. وقال لى (بلاتنر): إنه منذ عودته رأى وتعرف على بعض الأماكن فى العالم الآخر فى أحلامه.. ولكن لعل ذلك بسبب تذكره لتلك المشاهد. ويبدو أنه من الممكن والسهل للناس الذين يتمتعون ببصر حاد بشكل غير عادى أن يروا من وقت إلى آخر مشاهد ما من ذلك العالم الآخر العجيب والموجود حولنا دون أن نحس به!

لكن كل هذا الكلام يشتتنا عن غرضنا الأساسى!.. فعندما أشرقت الشمس الخضراء، ظهر للعيان شارع من المبانى السوداء، ولكن بشكل باهت جدًا ويكاد لا يُرى.. فى الممر الجبلى الضيق.. وبعد فترة من التردد، بدأ (بلاتنر) هبوطه على المنحدر الجبلى الوعر للغاية تجاهها. وكان الهبوط شاقًا للغاية، كما أنه استغرق وقتًا طويلاً.. وذلك ليس فقط بسبب الانحدار غير العادى للصخور، وإنما أيضًا بسبب تقلقل الصخور التى تغطى وجه التل بأكمله.. وبدا أن ضوضاء هبوطه ـ حيث احتك كعباه من وقت لآخر مطلقين

شررًا من الصخور ـ هو الآن الصوت الوحيد فى هذا العالم أو الكوكب لأن دقات الجرس توقفت هى الأخرى. وعندما اقترب أكثر، أدرك أن كل تلك المبانى تشبه إلى حد كبير المقابر والأضرحة والآثار والمزارات، باستثناء أنها كلها سوداء، وليست بيضاء مثل أضرحة عالمنا هذا.

ثم رأى حشدًا خارجًا من أكبر تلك المبانى، مثلما يخرج جمع من الناس من كنيسة مثلاً ثم ينتشرون فى كل اتجاه.. ولكنهم لم يكونوا بشرًا، وإنما عدد من الأجسام المدورة الشاحبة خضراء اللون.. وتحركت تلك الأجسام فى جميع الاتجاهات.. منتشرين من الشارع الرئيسى لهذا المكان.. واتجه بعضهم إلى ممرات جانبية، ثم ظهروا مرة أخرى على المنحدر الوعر للتل.. فى حين دخل الآخرون بعض المبانى السوداء الصغيرة التى تصطف على الجانبين.

وعندما رأى (بلاتنر) تلك الأشياء تتحرك مندفعة باتجاهه، توقف برهة وحدق فيها بإمعان.. إنها لم تكن تسير مثلنا.. إذ لم يكن لها فى الحقيقة أى أطراف.. وكان لها مظهر رؤوس البشر ولكن يتأرجح تحتها جسم يشبه الضفدع.. واندهش للغاية من شكلها الغريب لدرجة أنه لم يأبه جديًا لها أو يتوقع أى خطر منها.. وتحركت باتجاهه، أمام الرياح القارسة التى تهب إلى أعلى التل.. أقرب ما تكون إلى فقاعات الصابون التى تنساق أمام تيار من الماء. ونظر إلى أقرب تلك الأجسام إليه.. ووجد أنها تشبه فعلاً رأس الإنسان، ولو أن عينيها كبيرتان بشكل غريب، وعلى وجهها تعبير ينم عن الضيق والغم على نحو لم يعهده فى وجوه البشر قط.

وأدهشه أنها حتى لم تلتفت أو تستدير عندما مرت به.. وبدا أنها تلاحظ وتتابع شيئًا متحركًا أمامها وغير مرئى.

اندهش للحظة، ثم خطر على باله أن هذا المخلوق يراقب بعينيه الكبيرتين شيئا ما يحدث فى العالم الأرضى الذى تركه لتوه.. واقترب الجسم أكثر وأكثر.. ودهش (بلاتنر) وصرخ.. وأحدث المخلوق صوتًا خافتًا جدًا عندما اقترب منه تمامًا.. ثم ضرب وجهه بلمسة رقيقة جدًا.. ولكنها باردة للغاية.. ثم تركه ومضى إلى حال سبيله صاعدًا إلى أعلى التل للوصول إلى قمته.

وبرق فى عقل (بلاتنر) خاطر عجيب جدًا بأن هذا الرأس يشبه تمامًا رأس (ليدجيت).. ثم وجه اهتمامه إلى الرؤوس الأخرى التى تحتشد الآن بكثافة متجهة إلى أعلى التل.. ولم يبد أى منها أدنى علامة على تعرفه على (بلاتنر) أو حتى إدراك وجوده. وبالفعل اقترب من رأسه واحد أو اثنان من تلك المخلوقات، لكنهما حذوا حذو المخلوق الأول. وكان (بلاتنر) ينحرف لا إراديًا مبتعدًا عن طريقهما.

وشاهد على وجوه معظمهم نفس تعبير الأسى أو الندم غير المجدى الذى رآه على وجه الأول.. وسمع نفس الأصوات الخافتة التى تدل على الكآبة والشقاء الذى تعانى منه. وسمع بكاء واحد أو اثنين منها، فى حين تدحرج أحدها مسرعًا إلى أعلى التل وعلى وجهه تعبير يتسم بغضب شيطانى!.. لكن الآخرين كانوا هادئين وأكثرهم يبدو فى عينيه بريق الاهتمام السار.. وأحدهما على الأقل كان فى حالة أقرب ما تكون إلى نشوة السعادة. ولا يتذكر (بلاتنر)

أنه أدرك أى تشابهات أخرى بين تلك المخلوقات التى رآها فى ذلك الوقت.

ولعل (بلاتنر) مكث لبضع ساعات يراقب تلك المخلوقات العجيبة التى تنتشر فوق التلال، ولكن ليس طويلاً بعد أن توقفت عن الخروج من مجموعات المبانى السوداء فى الممر الجبلى الضيق.. حيث استأنف هبوطه إلى أسفل التل. وازداد الظلام من حوله لدرجة أنه وجد صعوبة فى إيجاد موقع لقدمه. وكانت السماء وقتئذ خضراء باهتة لامعة.. ولم يشعر بجوع أو ظمأ. وعندما جاع بعد ذلك، وجد جدولاً باردًا جدًا ينساب فى مركز الممر الجبلى والطحالب النادرة التى على الصخور.. وعندما جربها من فرط يأسه وجدها لذيذة المذاق.

تلمس طريقه بين المقابر التى تصطف على جانبى الممر الجبلى، باحثًا عن أى أثر أو دليل يفسر له طبيعة تلك المخلوقات. وبعد وقت طويل وصل إلى مدخل مبنى ضخم يشبه الضريح، كانت الرؤوس قد خرجت منه. وفى هذا المبنى وجد مجموعة من الأضواء الخضراء التى تتقد فوق هيكل يشبه مذبح بازلتى، وحبل جرس متدل من برج الجرس العلوى إلى داخل مركز المكان. وتوجد كتابات على كل الجدران بحروف لامعة لا يدرى معناها.

وبينما كان ما زال مشدوهًا من معانى كل هذه الأشياء، سمع وقع أقدام ثقيلة تبتعد بعيدًا فى الشارع.. خرج يعدو فى الظلام مرة أخرى، لكنه لم يستطع أن يرى شيئًا. وفكر فى جذب حبل الجرس، ثم أخيرًا قرر أن يتتبع آثار الخطوات.. لكن بالرغم من أنه ركض

مسرعًا، فإنه لم يستطع قط اللحاق بهم.. كما أن صياحه لم يجد نفعًا. وبدا أن الممر الجبلى ممتد لمسافة طويلة جدًا. وكان معتمًا كما لو كان مضاءً بنور من النجوم الأرضية بكامل طوله، فى حين جثم اليوم الأخضر المروّع كالشبح بامتداد الحافة العليا لهوته السحيقة. عندئذ لم ير أيًا من الرؤوس بأسفل.. وعندما نظر إلى أعلى رآها تندفع هنا وهناك.. بعضها يحوم فى مكانه، وبعضها يطير بسرعة فى الهواء.. وذكره ذلك المشهد ـ كما يقول ـ بكسف الثلج أو ندفه المتساقطة كبيرة الحجم.. إلا أن تلك التى أمامه هنا ذات لون أخضر معتم وشاحب.

وفى أثناء تتبعه لآثار الأقدام الثابتة المستقيمة التى لم يدركها قط، فى الانضمام إلى مجموعة من مناطق جديدة من هذا الممر الشيطانى اللانهائى، وفى التسلق إلى أعلى والانحدار إلى أسفل خلال ارتفاعات مروعة، وفى التجول بين قمم الجبال والتلال، وفى مراقبة الوجوه المنساقة كالقطيع، يقول (بلاتنر) إنه قضى الشطر الأكبر من سبعة أيام أو تسعة.. ولم يكن يحسب مرور الأيام على حد قوله.. ورغم أنه وجد مرة أو مرتين عيونًا تراقبه، فإنه لم يتكلم كلمة واحدة مع أى مخلوق حى وله روح. وكان ينام على الصخور أو على جوانب التلال. وفى الممر الجبلى الضيق كانت كل الأشياء الأرضية غير مرئية، لأنه من وجهة نظر الأرض كانت تلك الأشياء عميقة جدًا تحت سطح الأرض.

وبمجرد بدء اليوم الأرضى، كان العالم يصبح مرئيًا بالنسبة له. ووجد نفسه أحيانًا يتعثر على الصخور الخضراء الداكنة أو يكبح

نفسه عند حافة الهاوية.. فى حين كانت الأغصان الخضراء بشوارع (ساكس فيل) وحاراتها تتمايل فى كل مكان من حوله.. أو بدا له مرة أخرى أنه يسير فى شوارع (ساكس فيل)، أو يراقب خفية بعض الأمور الخاصة لبعض العائلات. ثم اكتشف فجأة أنه لكل إنسان تقريبًا فى عالمنا، هناك بعض من تلك الرؤوس ترتبط به.. وأن كل شخص فى عالمنا يتم مراقبته على نحو متقطع بمعرفة تلك الكائنات الضعيفة البائسة.

لكن ترى من هى تلك الكائنات.. أو "مراقبو الحياة"؟.. لم يجد (بلاتنر) جوابًا لهذا السؤال.. لكن الاثنين اللذين اكتشف أنهما يتتبعانه كانا يشبهان أمه وأبيه، على الأقل بحسب ما يتذكره وهو طفل، ومن وقت لآخر وقعت عيون من وجوه أخرى عليه.. عيون تشبه عيون الموتى الذين عرفوه وهو صغير أو آذوه أو ساعدوه وهو شاب ورجل.. وكلما نظرت تلك العيون إليه، كان (بلاتنر) يشعر بإحساس غريب بالمسئولية يسيطر عليه.. وتجرأ وتحدث إلى أمه، لكنها لم ترد عليه.. وإنما نظرت إليه بحزن وثبات وحنان.. وبقليل من اللوم والتأنيب أيضًا.. حسبما بدا له من نظرتها إليه.

إنه ببساطة يحكى قصته، وهو لا يحاول أن يشرح أو يفسر أى شىء.. ليترك لنا نحن تخمين من هم "مراقبو الحياة" هؤلاء.. وإذا كانوا فعلاً الموتى، فلماذا يراقبون عن قرب ويبدون عواطف لعالم تركوه إلى الأبد. ويبدو لى أنه عندما تنتهى حياتنا وتتوقف إرادتنا عن اختيار الصواب أو الخطأ، لا يزال علينا أن نشاهد كيف كانت نتائج ما قدمناه من أعمال. فإذا كانت أرواح البشر تستمر فى

الوجود بعد الموت. فبلا شك أن اهتمامات البشر ومصالحهم تستمر بعد الموت، وليس هذا سوى تخميني المتواضع لمعنى الأشياء التي رآها (بلاتنر).. والمرجو أن يفهم القارئ ذلك جيداً.

يوماً بعد يوم أخذ يتجول، ورأسه تعاني من دوار مستمر، في أرجاء هذا العالم المضاء بنور أخضر خارج عالمنا الأرضي تماماً.. وهو مجهد، ثم أخيراً، وهو ضعيف وجائع. وفي النهار - أقصد في نهار يومنا الأرضي - كانت الرؤيا الشبحية للمشاهد التي أصبحت مألوفة له تضايقه وتثير ضجره وتزعجه. ولم يكن يرى أين يضع قدمه.. ومراراً وتكراراً يشعر بلمسة باردة جداً عندما يقترب أحد تلك الأرواح المراقبة وتلمس وجهه. وفي المساء كانت الأعداد الكبيرة لتلك الأوراح المراقبة الهائمة حوله، والحزن الشديد الذي تتسم به، يربكه بشكل يفوق الوصف. وتملكه شوق عارم للعودة إلى الحياة الأرضية التي كانت قريبة جداً منه وفي نفس الوقت بعيدة جداً عنه!.. إن الصفات الخارقة العجيبة للأشياء التي حوله خلقت بالتأكيد غماً وهماً فكرياً مؤلماً له، كان قلقاً بشكل لا يوصف من تلك المخلوقات التي تتتبعه هو بالذات.. وأخذ يصرخ فيها لكي تقلع عن التحديق فيه ويوبخها ويولي فراراً منها.. أما هي فكانت صامتة دائماً ودؤوبة لا تكل.. ومهما جرى على الأرض، فإنها تتابعه باستمرار.

في اليوم التاسع قبيل المساء، سمع (بلاتنر) وقع أقدام غير مرئية تقترب منه من بعيد في الممر الجبلي الضيق.. وكان وقتئذ يتجول على القمة العريضة لنفس التل الذي سقط عليه عندما "زار"

هذا الكوكب الآخر العجيب.. فاستدار لكى يسرع بالهبوط إلى الممر الضيق ومتحسسًا طريقه على عجل.. لكنه وجد نفسه مشدودًا إلى الشىء، الذى تصادف وجوده فى غرفة بالشارع المعتم بالقرب من المدرسة، وتعرف على الفور على الشخصين الموجودين فى الغرفة.. كانت نوافذ الغرفة مفتوحة والستائر الحاجبة للضوء مرفوعة، والشمس الغاربة ترسل أشعتها داخل الغرفة بحيث بدت أولاً زاهية للغاية.. حجرة مستطيلة مضيئة تمتد كصورة مأخوذة بفانوس سحرى للخلفية الطبيعية السوداء والفجر الأخضر الزاهى.. وبالإضافة إلى ضوء الشمس، كانت هناك فى الغرفة شمعة أوقدت حديثًا.

على السرير يرقد رجل هزيل، يبدو وجهه الأبيض الشاحب مروعًا على وسادته غير المرتبة.. ويداه المتشنجتان مرفوعتان فوق رأسه.. وتوجد بجوار السرير منضدة صغيرة تحمل بضع زجاجات من الأدوية وبعض الخبز والماء وكوبًا فارغًا.. وبين فينة وأخرى تنفرج شفتا الرجل النحيل لتعبّرا عن كلمة لا يستطيع النطق بها. لكن المرأة التى معه لم تلاحظ أنه يريد أى شىء، لأنها كانت مشغولة فى إفراغ بعض الأوراق من مكتب قديم فى الركن المقابل من الغرفة. فى البداية كانت الصورة زاهية فعلاً، لكن عندما أخذ الفجر الأخضر الذى خلفها يزداد لمعانًا وضياءً، أخذت تضعف أكثر فأكثر وأصبحت أكثر شفافية.

عندما اقتربت أصداء وقع الأقدام أكثر وأكثر، تلك الخطوات التى لها صوت عال فى هذا العالم الآخر، ولكنها بلا صوت هنا فى

هذا العالم، ميز (بلاتنر) حوله عددًا كبيرًا من الوجوه الكئيبة تتجمع بعضها مع بعض خارجة من الظلام لتبدأ فى مراقبة الشخصين الموجودين بالغرفة. ولم يكن رأى من قبل مثل هذا العدد الكبير من "مراقبى الحياة". بعض تلك الكائنات عكف على مراقبة المريض الموجود بالحجرة.. وبعضها الآخر راقب المرأة بغضب شديد وهى تبحث بعينين شرهتين عن شىء لم تعثر عليه بعد.

احتشدت تلك الكائنات حول (بلاتنر) وحجبت الرؤية عنه ولطمت وجهها.. وسمع ضوضاء تحسراتها التى لا جدوى منها فى كل مكان حوله.. لم يستطع أن يرى جيدًا إلا من وقت لآخر.. وفى أوقات أخرى اهتزت الصور بشكل مضجر من خلال ساتر الانعكاسات الخضراء على تحركاتهم.. وفى الغرفة لابد أن كل شىء كان ساكنًا تمامًا، إذ إن (بلاتنر) يقول: إن الشمعة كان لهبها يطلق خطًا رأسيًا تمامًا من الدخان.. أحدهما وجه امرأة أيضًا.. أبيض وواضح السمات.. وجه لعله كان من قبل صارمًا لكنه أصبح الآن رقيقًا بلمسة من الحكمة الغريبة على أرضنا. الوجه الآخر لعله كان وجه أبى المرأة. كلا الوجهين كان مشغولاً تمامًا فى مراقبة سلوك وضيع ينم عن الكراهية - هذا ما بدا على الأقل - لم يعد بمقدورهما منعه أو الحيلولة دون حدوثه.

فى الخلف كان هناك آخرون، لعلهم أساتذة درسوا لها الأمور السيئة أو أصدقاء فشل تأثيرهم عليها.. وغير الرجل أيضًا يوجد عدد كبير من الأوجه، لكن لا يبدو من بينهم أب أو أم أو مدرسون!.. الوجوه التى لعلها كانت فظة تطهرت الآن بالندم!.. وفى مقدمة الصورة وجه واحد لفتاة صغيرة.. ليس غاضبًا ولا آسفًا ولكنه

صبور فقط ومكتئب.. وفيما يبدو محتاج إلى ما يريحه ويخفف عنه. لكن قدراته على الوصف خانته فى تذكر كل تلك الأعداد من الوجوه الشبحية. اجتمعت كل الوجوه إثر قرع الجرس، ورآهم جميعًا فى ثانية واحدة. ويبدو أنه تأثر من فرط الإثارة لدرجة أن أصابعه المتوترة تحركت لا إراديًا وأخرجت زجاجة المسحوق الأخضر من جيبه وأمسكت بها أمامه.. لكنه لا يتذكر ذلك.

فجأة توقفت الخطوات. وانتظر سماع وقع خطوات أخرى.. لكن ساد سكون طويل.. ثم فجأة انكسرت حدة ذلك السكون غير المتوقع بأول دقة للجرس.. مثلما تقطع شفرة حادة فى الزبد.. وفى الحال تأرجحت الوجوه الكثيرة جيئة وذهابًا.. ثم سمع صوت بكاء عال حوله، لكن المرأة لم تسمعه، إذ كانت الآن تحرق شيئًا ما فى لهب الشمعة، وعند الدقة الثانية للجرس، أظلم كل شىء.. وهبت ريح باردة على حشد المراقبين كلهم.. ودارت الوجوه حوله مثلما تتلوى الأوراق الذابلة وتدور فى دوامة فى فصل الربيع. وعند الدقة الثالثة، امتد شىء من خلالهم إلى السرير. ولا شك أن القارئ سمع عن شعاع الضوء، ولكن هذا الذى امتد كان "شعاع الظلام".. وعندما نظر (بلاتنر) إليه مرة أخرى، رأى (بلاتنر) أنه عبارة عن ذراع ويد مبهمين.

عندئذ كانت الشمس الخضراء مرتفعة عاليًا فوق الأفق وتطل على القفار السوداء، وأصبحت رؤية الغرفة ضعيفة وباهتة جدًا.. ورأى (بلاتنر) أن ملاءة السرير اهتزت وتشنجت.. ثم نظرت المرأة حولها من فوق كتفها إليها.. وكانت مضطربة ومروعة.

ارتفعت سحابة المراقبين إلى أعلى، مثل هدبة من الغبار الأخضر أمام الرياح.. ثم انسابت مسرعة إلى أسفل باتجاه المعبر الموجود بالممر الجبلى الضيق. ثم فهم (بلاتنر) فجأة معنى الذراع السوداء الغامضة التى امتدت بجوار كتفه وأمسكت بفريستها. لكنه لم يجرؤ على لف رأسه لكى يرى الظل الموجود خلف الذراع.

غطى عينيه وبكل قوته أطلق ساقيه للريح.. ولعله ابتعد نحو عشرين خطوة.. ثم انزلق على صخرة ووقع.. سقط إلى الأمام على يديه وانفجرت الزجاجة عندما لمست يداه الأرض وانكسرت وأفرغت محتوياتها.. وبعد لحظة أخرى وجد نفسه مصابًا بدوار وينزف دمًا ويجلس وجهًا لوجه أمام (ليدجيت) بحديقته المسورة بالحائط القديم خلف مبنى المدرسة.

إلى هنا تنتهى تفاصيل رواية (بلاتنر).. وأعتقد أننى تمكنت بنجاح من مقاومة الميل الطبيعى أو الغريزى لدىّ بصفتى كاتبًا للقصص الخيالية لتزويق الأحداث أو تحريفها أو المبالغة فيها. وما قلته حدث بالضبط - بقدر الإمكان طبعًا - بالترتيب الذى رواه (بلاتنر) لى. وتجنبت أى محاولة للتعديل أو التدخل أو التفسير. فمثلاً كان من السهل أن أصور مشهد فراش الموت بحبكة أدبية يكون لـ (بلاتنر) دخل فيها. ولكن بخلاف مبدأ الاعتراض على تزييف قصة حقيقية وخارقة كهذه أو تزويرها، فإن مثل هذه التصرفات المبتذلة تفسد فى رأيى التأثير أو السحر الخاص لهذا العالم الخفى بكل إضاءاته الخضراء الزاهية ومراقبيه للحياة المنساقين جماعات، والذين يوجدون فى كل مكان حولنا، ولكننا لا نراهم ولا نحس بهم.

بقى شىءٌ أحب آن أضيفه.. هو أن الموت حدث بالفعل فى شرفة (فنسنت)، خلف حديقة المدرسة مباشرة، فى نفس اللحظة التى عاد فيها (بلاتنر)، فى الحدود التى يمكن إثباته بها. والمتوفى هو وكيل تأمين ومحصل لأقساط التأمين. وأرملته، التى كانت أصغر منه كثيرًا، تزوجت الشهر الماضى السيد (ويمبر) وهو جراح بيطرى من (البيدنج). ونظرًا لأن نسخة القصة المعطاة هنا أصبحت منتشرة شفويًا بصورها المختلفة فى أرجاء (ساكس فيل)، فقد وافقت على أن أستخدم اسمها.. بشرط أن أبين بوضوح أنها تنفى بكل تأكيد كل التفاصيل التى وردت برواية (بلاتنر) للحظات الأخيرة من عمر زوجها. وهى لم تحرق أى وصية - كما تقول - رغم أن (بلاتنر) لم يتهمها قط بشىء كهذا. وكان زوجها قد حرر وصية واحدة عقب زواجهما مباشرة. وبالنسبة لرجل لم ير الغرفة ولا أثاثها من قبل، فإن رواية (بلاتنر) للأثاث تعتبر بالتأكيد دقيقة بشكل عجيب فعلاً..

بيد أن هناك شيئًا واحدًا باقيًا.. حتى ولو كان تكرارًا مضجرًا.. أحب أن أؤكد عليه، خشيت أن أبدو كشخص يؤمن بالخرافات الساذجة. إن غياب (بلاتنر) عن عالمنا لمدة تسع أيام مؤكد بالأدلة. إلا أن ذلك بالطبع لا يثبت روايته. فمن المعقول أنه حتى فى الفضاء الخارجى يمكن حدوث الهلاوس وحالات الهذيان. وعلى الأقل يجب على القارئ الحصيف أن يضع هذا فى اعتباره.

المغامرون الجويون

شاهد المرء آلة (مونسون) الطائرة من نوافذ القطارات المارة إما بخط السكة الحديدية الجنوبى ـ الغربى أو بالخط الواصل بين (ويمبلدون) وحديقة (وورسستر).. أو بتعبير أكثر دقة شاهد المرء السقالات الضخمة التى تقيد طيران تلك الآلة.. وهى ترتفع فوق قمم الأشجار.. كرة ضخمة عبارة عن شبكة متداخلة من الحديد والأخشاب.. وتركيب هائل متشابك من الحبال والبكرات تمتد لمسافة تقرب من ميلين اثنين..

ومن فرع (ليزرهيد) فإن هذه الكرة تبدو صغيرة، كما أن جزءًا منها يختفى وراء تل ترتفع عليه الفيلات.. لكن من خط السكة الحديدية الرئيسى يمكن للمرء رؤيتها كاملة جانبيًا.. كتلة متقدة من العارضات والقضبان المنحنية.. وهو منظر مثير جدًا للمتنزهين من (بورتسموث) و(ساوثهامبتون) والغرب.. وتسلّم (مونسون) العمل من حيث تركه (ماكسيم).. واتسم فى البداية باحتقار شديد لذكاء الصحافيين والجهل اللذين ضايقا وشتتا جهود سلفه، ويقال: إنه أنفق أكثر من نصف ثروته الهائلة على تلك التجارب.. بيد أن

نتائجها بالنسبة لجيل من الناس القلقين ونافذى الصبر، لم تكن ذات قيمة يعوّل عليها..

وعندما مضى نحو خمس سنوات بعد إقامة "غابات" الإنشاءات الحديدية الهائلة بالقرب من حديقة (وورسستر) . ولم يكن قد حقق (مونسون) نجاحًا واضحًا بميدان الطرف الأغر. حتى جزيرة (وايت)، شعر زوارها بحقهم فى الابتسام ساخرين.. كما أن هؤلاء الأذكياء الذين لم يعتبروا (مونسون) معتوهًا لتفكيره فى هذا الاختراع المجنون، اتهموه بأنه دجال يبحث عن الشهرة، لغير سبب معروف!..

ومع ذلك فمن وقت إلى آخر كان كل ركاب القطارات الذين لديهم اشتراكات يرون وحشًا أبيض اللون ينطلق خلال الأعمدة والإنشاءات الهوائية المزخرفة.. ويسمعون أصوات التوقف وطقطقات الشبكات والارتطامات عند الوقوف، وأصوات الصرير والصفير المقترنة بالاصطدام.. ثم تخرج بامتداد طول القطار وجوه سوداء ذات حواف بيضاء.. غير أن صحف الصباح لم تتضمن أى مناقشات متعمقة بشأن إمكان الطيران (والذى لم يُقل بشأنه شىء جديد).. حتى وصل القطار إلى محطة (ووترلو) وانتشرت حمولته من الركاب الذين بحوزتهم اشتراكات ركوب فى كل أنحاء لندن..

كما أن الآباء والأمهات فى أحد القطارات، التى تزدحم بالمسافرين المجهدين العائدين من رحلاتهم بعد قضاء يوم من الراحة على شاطئ البحر، شاهدوا جسمًا داكنًا ظاهرًا أمام خلفية من سماء الليل يُفيد فى تحويل الطفل المتشائم من الانغلاق على

نفسه، والانبهار بتلك الحركة السريعة لجسم أسود ضخم يضرب الهواء بجناحيه ويصعد إلى أعلى بكل ما يمكنه من قوة على موجِّهاته.. كان ذلك شيئًا رائعًا ومذهلاً بلا جدال، وموضوعًا ممتازًا للحديث فيه.. ومع ذلك فإن هذا لم يكن أكثر من طيران وفقًا لحبال موجِّهة.. حتى إن معظم من شاهدوه لم يكادوا يحسبونه طيرانًا.. وأكثر من شاهدوه حسبوه نوعًا من السكة الحديدية المتعرجة!

كما ذكرنا لم يعبأ (مونسون) كثيرًا بأقاويل الصحافة فى بداية الأمر.. لكن من الممكن أن يكون لديه فكرة ما عن الوقت اللازم لإتقان تكتيكات الطيران الصحيح وشروطه، أو عن الضبط الضرورى السريع للجسم الضخم المحلِّق تبعًا لكل هبة ريح أو حركة للهواء، ولا كانت لديه فكرة واضحة عن المبالغ المالية التى سوف يتكبدها هذا الصراع ضد الجاذبية.. ولم يكن الرجل عديم الشعور كما يبدو لأول وهلة.. فقد كان (روميك) يرسل إليه سرًا حفنة دورية من قصاصات الجرائد.. كما كانت تصله إخطارات دورية من المصرف الذى يتعامل معه.. وإذا كان الرجل لم يعبأ بالسخرية والشك الأوليين، فقد شعر بزيادة اللامبالاة عندما مر شهر وراء آخر وبدأت النقود التى لديه تقل..

وحان الوقت الذى أوقف فيه (مونسون) إلى الصحافى المغامر، الذى كان مهتمًا بكتابة موضوعات يقرأها الناس بشغف، المبالغ التى يدفعها له.. ولكن عندما توقف ذلك الصحافى المغامر عن إزعاجه، بات (مونسون) مرتاحًا تمامًا.. واستمر العمل يتقدم يومًا وراء آخر، وأخذت صعوبات التوجيه الكثيرة والمعقدة تقل شيئًا فشيئًا.. وفى

نفس الوقت آخذ المال يقل شيئًا فشيئًا. فبعد آن كان رصيده بضع مئات من الآلاف، أصبح بضع عشرات من آلاف الجنيهات فقط.. وأخيرًا جاءت الذكرى السنوية، أى مرور عدة أعوام على بدء العمل.

كان (مونسون) جالسًا فى مرسمه الصغير وفجأة لاحظ التاريخ فى التقويم الذى يوجد أمام (وودهاوس).. وعلى الفور قال لـ (وودهاوس): "لقد مر اليوم خمس سنوات منذ آن بدآنا العمل فى المشروع".. فقال (وودهاوس): "أحقًا؟ ياللعجب!". فقال (مونسون) وهو يمسك بدبوس للورق: "إنها لعبة التغييرات التى يلعبها الشيطان معنا"..

بينما كان (مونسون) يتحدث كانت رسومات المراوح الجديدة للولب الخلفى موضوعة على المنضدة أمامه.. وألقى بالدبوس النحاسى التالف فى سلة المهملات وأخذ يقرع بأصابعه على المنضدة.. وقال: "يا لتلك التعديلات اللعينة!".. تُرى هل يكون علماء الرياضيات بالذكاء الكافى لكى يوفروا علينا كل تلك التعديلات والترقيعات والتجارب؟، مر الآن خمس سنوات ونحن نتعلم من التجربة والخطأ.. فى حين كان المرء يعتقد أنه من الممكن حساب كل شىء مقدمًا.. هذا هو الثمن!.. كان يجدر بى أن أوظّف ثلاثة من كبار العلماء مدى الحياة.. ولكنهم كانوا سيضعون فقط بعض النظريات الجميلة فى كيفية استخدام ضغط الهواء.. ولكن دون أى قيمة أو جدوى.. ما أصعب الوقت الذى مر بنا يا (وودهاوس)!".

قال (وودهاوس): "هذه القوالب سوف تحتاج إلى ثلاثة أسابيع، وبأسعار خاصة".. فقال (مونسون): "ثلاثة اسابيع!" ثم جلس وهو

ينقر بأصابعه بإيقاع منتظم.. وقال (وودهاوس) وهو مهندس ممتاز ولكنه ليس بنفس هذا الامتياز فى التشجيع والمؤازرة: "نعم ثلاثة أسابيع بالضبط".. وسحب لوحات الرسم تجاهه وبدأ فى تظليل أحد القضبان.

توقف (مونسون) عن النقر بأصابعه وأخذ يقرض أظافر أصابعه ويحدق للحظة فى رأس (وودهاوس).. ثم قال فجأة: "منذ متى وهم يسمون هذا المشروع حماقة (مونسون)؟".. فقال (وودهاوس) بلا مبالاة وحتى دون أن ينظر إلى (مونسون): "أوه.. منذ عام أو نحو ذلك".. وسحب (مونسون) نفسًا عميقًا من بين أسنانه. ثم سار إلى النافذة.. الأعمدة الحديدية الضخمة، التى تحمل القضبان المرتفعة التى تنطلق من فوقها الآلة، ترتفع عاليًا بالقرب منه.. والآلة الطائرة ذاتها مختفية خلف الحافة العلوية للنافذة.. ومن خلال "الغابات" ذات الأعمدة الحديدية المدهونة باللون الأحمر والمزخرفة بصفوف من المسامير الملولبة، يمكن رؤية المناظر الرائعة باتجاه (إشر)..

مر قطار بلا أى ضجيج عبر المسافة الوسطى.. وغطت أصوات الدق الذى يقوم به العمال بأعلى على صوت دوىّ القطار وصريره.. وتخيل (مونسون) الوجوه المحملقة فى نوافذ عربات القطار.. وأطلق السباب بهمجية وبصوت هامس.. وضرب بوحشية ذبابة طنانة أخذت تطن فجأة على زجاج النافذة.

حدق (وودهاوس) فجأة فى مخدومه وقال له "ما الذى حدث بحق السماء؟" فأجابه: "لقد سئمت من كل ذلك". وحك (وودهاوس) خده وقال: "أوه!" بعد أن تريث لحظة.. ثم أبعد عنه لوحة الرسم.

وقال (مونسون): "ما أحمق هؤلاء الناس.. إننى هنا أجاهد لكى أصارع الطبيعة وأخلق شيئًا جديدًا لم يسمع عنه أحد من قبل بهدف إحداث ثورة فى طريقة حياتنا.. وبدلاً من إظهار الاهتمام الذكى بما أفعله أجدهم يضحكون ويتغامزون ويلقون بالنكات الفجّة السخيفة.. ويشتموننى أنا وأجهزتى هذه".. وهنا قال: (وودهاوس) وهو مازال ناظرًا إلى رسمه: "الأغبياء!".

والغريب أن هذا الوصف جعل (مونسون) يجفل وقال بعد تردد قصير: "لقد سئمت كل ذلك يا (وودهاوس)".. وهز المهندس كتفيه.. وواصل (مونسون) وهو يدخل يده فى جيبه: "أعتقد أنه لا شىء أمامنا سوى الصبر.. والمهم أننا بدأنا.. وسوف أستمر فى العمل بكل جهدى.. لا أستطيع أن أعود من حيث بدأت.. سوف أمضى فى هذا المشروع إلى نهايته، وأنفق كل بنس معى، بل وكل بنس أستطيع اقتراضه!.. ولكن الحقيقة يا (وودهاوس) إننى سئمت للغاية من كل شىء.. ولو كنت أنفقت عُشر ما أنفقته فى المشروع فى أحد المجالات السياسية، لكنت الآن بارونًا بدلاً من هذا الوضع الذى أنا فيه".

توقف (مونسون)، وحدق (وودهاوس) أمامه بنظرة جامدة تخلو من أى تعبير يستخدمها دائمًا للدلالة على تعاطفه ودق بإصبعه على علبة الأقلام الرصاص الموضوعة على الطاولة.. وحدق (مونسون) فيه لدقيقة.. وقال فجأة: "أوه، اللعنة!".. ثم اندفع خارجًا من الغرفة..

واصل (وودهاوس) جموده التعاطفى لنحو نصف دقيقة.. وتنهد ثم استأنف تظليل رسمه.. بلا شك أن هناك شيئًا أقلق (مونسون)..

وهو شاب رقيق وكريم ولكن يصعب مسايرته والتعامل معه.. وكان الهدف لكل هاوٍ ملم بالهندسة أن ينهى كل شىء فورًا.. غير أن (مونسون) كان يُبدى دائمًا صبرًا لا يتوفر إلا للخبير المفكر.. كما أنه من السهل إغضابه ومضايقته.. إن قضيب الألومونيوم هذا، المستدير والجميل يبدو الآن رائعًا!.. وأرجع (وودهاوس) ظهره إلى الوراء، ثم وضعها أولاً فى هذا الجانب ثم بعد ذلك فى ذاك الجانب، لكى يقتنع بسلامة التظليل الذى قام به لتوه!..

قال (هوبر)، وهو ملاحظ العمال وهو يدخل رأسه من الباب: "السيد (وودهاوس)؟" فقال (وودهاوس) دون أن يستدير: "مرحبًا!".. فقال (هوبر): ألم يحدث أى شىء يا سيدى؟".. فقال: "يحدث؟ ماذا تعنى؟". فقال الملاحظ "إن المدير ذهب إلى القضبان وهو يرغى ويزبد كالإعصار".. فقال (وودهاوس): "أوه!".. قال الرجل: "إن هذه ليست أساليبه يا سيدى".. فقال (وودهاوس): "ليست أساليبه؟" فقال الرجل: "وظننت أنه ربما.....".. فقال (وودهاوس) وهو ما زال ينظر بإعجاب إلى الرسومات: "لا.. لا تظن ذلك".

كان (هوبر) يعرف (وودهاوس) جيدًا.. وصفق الباب وراءه فجأة بقوة.. وحدق (وودهاوس) وراءه فى لا شىء لبعض الوقت.. ثم قام بجهد غير ناجح فى تخليل أسنانه بالقلم الرصاص!..ثم ما لبث أن توقف، وقذف بالقلم القصير القديم المتهالك عبر الغرفة.. وقام وفرد جسده ثم تبع (هوبر).

كان يبدو منزعجًا.. إذ كان ذلك واضحًا لكل عامل قابله.. فعندما ينفق مليونير الآلاف على التجارب التى تحتاج إلى عدد

قليل من الناس، ثم يبدأ يسأم من العمل، فهناك بالتأكيد قدر معين من القلق ينتشر بين جيش العاملين الصغير لديه.. وحتى قبل أن يُعلن عن نواياه، تكون هناك تخمينات وهمهمات ونغط وتفحص للأوجه ودراسة للأحوال والاتجاهات.. وقبل أن ينتهى هذا اليوم عرف مئات من الناس أن (مونسون) منزعج وقلق وأن (وودهاوس) و(هوبر) كذلك أيضًا.

وقررت زوجة أحد العمال (لم يرها مونسون قط من قبل) أن تحتفظ بأموالها فى مصرف توفير بدلاً من شراء ثوب من المخمل.. وهذه هى المساوئ العرضية بعيدة المدى التى تعترض طريق المليونير.. ووجد (مونسون) بعض الرضا والارتياح فى الذهاب لمعاينة الأعمال ونهر أكبر عدد ممكن من العمال وانتقادهم.. وبعد فترة من الوقت مل من ذلك، وركب عربته وابتعد عن منطقة العمل.. وارتاح الجميع لذلك. وانطلق هو فى الاتجاه الجنوب شرقى إلى منزله فى (شيام)..

كان السبب المباشر لكل ذلك.. حبة القلق الصغيرة التى أحدثت فجأة كل هذه الاستياء بمنظومة العمل.. كل تلك الأشياء التافهة التى توجه قراراتنا الكبرى!.. ست ملاحظات خرقاء طرحتها فتاة جميلة ترتدى ملابس أنيقة وصوتها ساحر.. وفى عينيها الرماديتين الرقيقتين ما هو أكثر من مجرد الجمال!.. ومن ضمن تلك الملاحظات الست، كانت أشدها وقعًا كلمتان بصفة خاصة "حماقة (مونسون)".

وشعرت الفتاة أنها تتصرف بسحر ودلال بالنسبة لـ (مونسون).. وأظهرت فى اليوم التالى كيف أنها كانت مؤثرة للغاية.. وكيف أن

أحداً لم يكن أكثر انبهاراً منها.. وأنها تعرف مقدار التأثير الذى تركته على عقل (مونسون).. ومع أخذ كل شىء فى الاعتبار، فإننى أتمنى ألا تكون عرفت ذلك قط..

سألته الفتاة: "كيف تسير الأمور لآلتك الطائرة؟" (وقال عندئذ (مونسون) لنفسه: "إننى أتساءل هل يمكن أن أقابل يوماً شخصاً لا يسألنى هذا السؤال).سوف تكون تلك الآلة خطيرة جداً فى البداية. أليس كذلك؟ (أى أعتقد أننى خائفة).. (إننى أهتم كثيراً بولعى أو هوسى هذا.. والآن نتحول إلى المحادثة العقلانية).. وهدوء تدريجى للحوار ينتهى بـ "يجب أن تخبرنى عند انتهاء العمل فى آلتك الطائرة يا سيد (مونسون).. وعندئذ فإننى سأفكر فى مدى وجاهة فكرة شراء تذكرة للطيران بها (لعل المرء يعتقد أننى مازلت ألعب حيلاً فى دار الحضانة)..

غير أن أكثر ما قالته مرارة لأحد أصدقائها: "لقد تحدثت طويلاً مع السيد (مونسون)، وهو لا يفكر فى أى شىء إيجابى قط سوى آلته الطائرة.. هل تعلم أن كل عماله يسمون موقع العمل "حماقة (مونسون)".. إنه رجل غير معقول.. إن هذا شىء محزن للغاية.. إننى أراه دائماً فى ضوء الكنز الغارق فى صورة المليونير المفقود أو التائه"..

كانت فتاة حسناء وراقية التعليم.. والحقيقة أنها كتبت رواية قصيرة ساخرة.. والشىء اللاذع حقاً هنا هو أنها نموذجية.. فقد لخصت ما يراه الناس من الرجل الذى يعمل بدأب وصمت لتحقيق إنجاز يُعدّ ثورة هائلة فى وسائل الحضارة وأدواتها.. تطوير واسع

المدى فى أساليب الحياة البشرية لم يره الناس من قبل منذ فجر التاريخ.. بل إنهم لم يأخذوا ما يفعله مأخذ الجد..وفى فترة قصيرة سوف يصبح مشهورًا ويُضرب به المثل وقال وهو فى طريقه إلى منزله وهو فى أشد حالات الضيق والألم من فشله الاجتماعى المحتوم: "يجب أن أطير الآن.. لابد أن أطير فى أقرب وقت ممكن.. فإذا لم يحدث ذلك سريعًا.. يا إلهى!.. فسوف أجن"..

قال ذلك قبل أن يراجع دفتر حسابه المصرفى ومجموعة أوراقه المبعثرة.. ولم يكن ذلك كافيًا على ما يبدو.. وإنما كان صوت الفتاة وتعبير عينيها هما اللذان أحدثا الاستياء لديه..لكن بلا شك أن اكتشاف أنه لم يعد لديه حتى ما يساوى مئة ألف جنيه من الممتلكات المادية، كان هو السم الذى جعل جرحه مميتا.

فى اليوم التالى لذلك اليوم انفجر غاضبًا على (وودهاوس) وعماله.. وظل مكتئبًا بعد ذلك لمدة ثلاثة أسابيع متصلة.. وخيم التوتر والقلق على كل من (شيام) و(إويل) و(مالدين) و(موردين) وحديقة (وورسستر).. وهى كلها أماكن ازدهرت بشدة بسبب تجاربه.. وبعد أربعة أسابيع من ذلك السباب، وقف مع (وودهاوس) بجوار الآلة التى أعادا إنشاءها، والممتدة عبر السكة الحديدية العالية التى حصلت بواسطتها على قوتها الدافعة الأولية. ولمعت المروحة الجديدة بلون أبيض ساطع بالنسبة لبقية أجزاء الآلة.. كما أن الطلاء الذهبى اللامع الذى كان (مونسون) يتوق إليه كان يميز قضبان الألومنيوم المذهبة..

ومن ينظر فى الطريق الطويل، الذى تحفه الأشجار من الجانبين بين الجبال (التى أصبحت ذهبية اللون الآن بعدما سقط عليها ضوء الشمس)، يمكنه أن يرى إشارات حمراء.. وعلى مسافة ميلين عشرات من العمال المنكبين ـ مثل تل من النمل ـ على العمل فى تحويل المنحدر الأخير من المسار إلى منحدر صاعد.. وقال (وودهاوس): "إن ذلك تهور غير مقبول بالمرة.. فقط لو أمكنك التريث لسنة أخرى....".

قال (مونسون): "إننى أقول لك: لا أستطيع.. أقول لك: إن العمل يسير بنجاح وفق الخطة.. لقد مرت سنوات كافية...".

قال (وودهاوس): "ليس الأمر كما فهمت.. إن كل شىء يسير على ما يرام بالنسبة للآلة.. لكن المشكلة فى التوجيه...".

قال (مونسون): "ألم أبذل كل جهد ممكن ليلاً ونهارًا يمينًا ويسارًا.. فى هذا المكان الضيق كقفص السنجاب؟.. وإذا كانت تلك الآلة يتم توجيهها جيدًا هنا، فإنه سوف يتم توجيهها جيدًا فى أى مكان بإنجلترا.. إنها مجرد حالة من الخوف لا أكثر يا (وودهاوس).. كان بمقدورنا إنجاز هذا العمل منذ عام مضى.. وعلاوة على ذلك....".

قال (وودهاوس): "حسنٌ، هات ما عندك".. فقال (مونسون) بصوت لاذع: "النقود يا عزيزى".. فقال (وودهاوس): "اللعنة!". ثم أردف بلهجة تختلف تمامًا عن تلك التى نطق بها نفس الكلمات من قبل ومكررًا إياها: "سوف أفعل كل ما تريد.. ثق بى".. ثم استدار (مونسون) فجأة ورأى كل ما لم يتمكن (وودهاوس) من قوله واضحًا

على وجهه المضاء بنور الشمس.. وحدق فيه للحظة ثم مد يده دون تريث وقال "شكرًا لله".. فقال (وودهاوس) وهو يضغط على يده وملامحه بدأت ترق وتلين: "لا بأس!.. ثق بى دائمًا

ثم استدار الرجلان إلى الآلة الضخمة الجاثمة التى يمتد جناحاها المسطحان على الحامل.. وحدقا فيها بإمعان.. ولعل (مونسون) كان مستندًا إلى دراسة دقيقة لطيران "الطيور ومحيطًا بأساليب العلماء الذين سبقوه.. وتحول تدريجيًا من الأشكال النمطية إلى أشكال الطيور مرة أخرى.. إلا أن ذلك "الشىء" كان يُدار بواسطة مروحة ضخمة فى الخلف.. ولذلك أصبح التحليق ـ الذى يحتاج إلى ضبط رأسى تقريبًا لذيل مسطح ـ مستحيلاً.. وكان جسم الآلة صغيرًا، فى معظمه أسطوانى الشكل، ومدببًا..

وفى الأمام والخلف بالطرفين المدببين يوجد محركا بنزين صغيران للمروحة، ويجلس الملاحان فى تجويف عميق يشبه تجويف الزورق.. المحرك الأمامى للتوجيه ويحميه حاجز منخفض به نوافذ تتكون كل منها من لوحى زجاج، للحماية من اندفاع الهواء العنيف.. وبكلا الجانبين يوجد هيكل مسطح ضخم جدًا بحافة أمامية منحنية يمكن ضبطه إما أفقيًا أو بميل إلى أعلى أو إلى أسفل.. ويعمل هذان الجناحان بصلابة بعضهما مع بعض.. أو بواسطة تحرير تيلة معينة أو إصبع معين يمكن إمالة أحدهما بزاوية صغيرة منفصلاً تمامًا عن الآخر.. كذلك يمكن زحزحة الحافة الأمامية لأى جناح، ويمكن زحزحة الحافة الأمامية لأى من الجناحين إلى الخلف لتقليل مساحة الجناح بحوالى السدس. ولم تكن الآلة فقط تفتقر

إلى التصميم الذى يمكنها من الطيران، بل وأيضًا القدرة على رفرفة جناحيها. وكانت فكرة (مونسون) هى الانطلاق فى الهواء بالدفعة المبدئية للآلة.. ثم الانزلاق فى الهواء مثلما تنزلق ورقة اللعب فى الهواء.. مع الحفاظ على قوة الدفع بواسطة مروحة المؤخرة.. وبهذه الطريقة تطير طيور (الغداديف) و(النورس) لمسافات هائلة دون تحريك أجنحتها أى حركة ملحوظة.

والحقيقة أن الطائر يندفع إلى الأمام فوق خطوط هوائية متعرجة.. وهو ينزلق أو ينساب بميل إلى أسفل لمسافة ما ثم يغير زاوية ميل جناحيه ولا يلبث أن ينساب صاعدًا إلى أعلى إلى نفس ارتفاعه الأصلى تقريبًا.. وأى مواطن من سكان (لندن) لاحظ الطيور فى أقفاص الطيور بحديقة "ريجنت" يعرف ذلك.

إلا أن الطائر يمارس هذا "الفن" منذ اللحظة التى يغادر فيها عشه.. وهو ليس لديه فقط الجهاز المثالى لذلك، ولكن أيضًا الغريزة المثالية لاستخدام هذا الجهاز.. والإنسان الجالس أو الممدد لديه قدرة ضئيلة على ضبط توازنه.. وحتى خدعة الدراجة البسيطة تحتاج منه إلى ساعات من التدريب عليها.. وعلى الإنسان أن يتمكن من الضبط الفورى لجناحين يثبتهما بجسمه.. ويستجيب بسرعة إلى أى تيار هوائى مار.. ويستعيد توازنه بسرعة.. ويؤدى جيدًا الحركات الدورانية السريعة والدوامية التى تحتاج إلى دقة وتحكم فائقين، نعم عليه أن يتعلم كل هذا بالتدريب الشاق والتعرّض اللانهائى للمخاطر.. إذا كان يريد أن يتمكن حقيقة من الطيران!

والآلة الطائرة التى سوف تنطلق فى أحد الأيام الرائعة، وتديرها بعض "الأذرع الصغيرة الأنيقة"، وذات سطح مكشوف جميل مثل السفينة الضخمة عابرة المحيطات، المحملة كلها بالقنابل والمدافع.. هى بلا شك حلم الكتاب والمفكرين، ومن المؤكد أن تكلفة الانتصار على مملكة الجو سوف تزيد على كل النفقات التى تكبدها الإنسان لكى ينتصر على مملكة البحر.. ومن المؤكد أنها سوف تتجاوز نفقات الحرب العظمى التى روعت العالم وخرّبته.

لم يعرف أحد تلك الأشياء أفضل من هذين الرجلين العمليين، اللذين أدركا أنهما فى مقدمة الركب أو الجيش الذى سوف يلحق بهما.. ومع ذلك فهناك دائمًا أمل مهما كان ضئيلاً ومهما كانت المهمة ميئوسًا منها.. فالناس يُقتلون دون تحفظ فى القوات الاحتياطية أحيانًا.. فى حين أن الآخرين الذين اعتقد أنهم موتى فى الزوايا والأركان المختفية لا يلبثون أن يزحفوا خارجين منها ويعيشون.

قال (وودهاوس) عندئذ بنبراته البطيئة: "لو فاتتنا تلك المروج".. فقال (مونسون) بعد أن ارتفعت معنوياته تدريجيًا فى الأيام القليلة الماضية: "يا صديقى العزيز.. لا يجب أن تفوتنا تلك المروج.. هناك ربع ميل مربع لكى نهبط فيه.. ولا توجد أى أسوار، كما أن الحفر والخنادق مسواة.. وسوف نهبط على كل حال.. لذا أطمئن وأرتاح.. أما إذا لم...".

قال (وودهاوس): "آه!.. إننى أخاف من أما إذا لم هذه!".

وقبل يوم البدء، أحاط الصحافيون بأخبار التعديلات التى تمت للجانب الشمالى من إطار الإنشاءات.. وتم إبلاغ (مونسون)

بالتغيير الذى تقرر فى الملاحظات التى أرسلها (روميك) إليه.. وتقول الجرائد: "إنه سوف يطير يوما ما.. إنه سوف يطير يومًا ما".. هذا ما قاله أصحاب الاشتراكات الموسمية بقطارات الجنوب - الغربى بعضهم إلى بعض.. والمتنزهون على شاطئ البحر والمسافرون من السبت إلى الإثنين من (سوزكس) و(هامبشاير) و(دورست) وديفون والأدباء والمفكرون الأجلاء من (هاسلير).. كلهم كانوا يتحدثون بعضهم مع بعض ويقولون: "إنه سوف يطير يومًا ما" عندما ظهرت لهم السقالات المألوفة لهم.

وبالفعل ذات صباح مشرق وضاء وعلى مرأى من كل ركاب قطار العاشرة والنصف القادم من (بازينجزتوك)، بدأت آلة (مونسون) الطائرة رحلتها.. ورأوا الحامل يجرى مسرعًا على القضبان، والمروحة البيضاء الذهبية تدور فى الهواء. وسمعوا القرقعة السريعة للعجلات ثم صوت اصطدام مكتوم عندما وصل الحامل إلى ماصات الصدمات عند آخر شوطة، ثم صوت أزيز أو طنين عندما اندفعت الآلة الطائرة إلى داخل الشبكة..

كل ذلك رآه وسمعه أكثرهم من قبل. واندفعت الآلة هابطة إلى أسفل خلال القفص الحديدى ثم ارتفعت مرة أخرى.. وهتف كل المشاهدين أو لعلهم صرخوا أو شىء من هذا القبيل..وبدلاً من الاصطدام المعتاد تم التوقف، انطلقت الآلة الطائرة من أسر قفصها الحديدى الذى عمره خمس سنوات مثل صاعقة قذيفة من مدفع حربى.. ولم تلبث أن ارتفعت بميل فى الهواء واندفعت فى خط منحن قليلاً بحيث تعبر الخط.. وحلقت فى اتجاه (ويمبلدون

كومون). وبدا أنها تتوقف لحظيًا فى الهواء ثم يصغر حجمها.. ثم غطست وانطلقت بسرعة فوق قمم الأشجار الزرقاء الكثيفة إلى الشرق من(كومب هيل).. ولم يتوقف أحد ليحدق فى المساء ويشهق إلا بعد أن اختفت بمدة طويلة.

كان هذا ما شاهده ركاب قطار (بازينجزتوك).. ولو رسمت خطًا فى منتصف القطار، من القاطرة إلى عربة الحارس، لما كنت ستجد إنسانًا واحدًا فى الجانب المقابل للآلة الطائرة.. فقد كان الناس يتدافعون كالمجانين من نافذة إلى أخرى كلما عبرت الآلة هذا الخط.. بل إن سائق القاطرة والوقاد لم يرفعا عيونهم قط عن التلال المنخفضة المحيطة بويمبلدون.. ولم يلاحظا أنهما لم يتوقفا بالمرة بمحطات (كومب) و(مالدن) و(رينزبارك) إلا بعد أن عاد إليهما تركيزهما ووجدا نفسيهما ينطلقان بسرعة كبيرة غير مسموح بها داخلين فى محطة (ويمبلدون).

ومنذ اللحظة الأولى التى بدأ فيها (مونسون) تحريك الحامل وهو يصيح "الآن!"، لم يقل لا هو ولا (وودهاوس) أى كلمة.. وإنما جلس الرجلان يصران على أسنانهما.. كان (مونسون) عبر الخط فى منحنى حاد جدًا، فى حين فتح (وودهاوس) شفتيه البيضاويتين ثم أغلقهما وتنفس بحدة من بين أسنانه وهو يلاحظ الريف الأزرق إلى الغرب وهو يندفع إلى أسفل بعيدًا عنه.

جثا (مونسون) فى مقعده إلى الأمام، وارتعشت يداه على العجلة ذات البرامق التى تحرّك الجناحين.. ولم يكن بمقدوره أن يرى شيئًا أمامه عدا كتلة ضخمة من السحب البيضاء فى السماء.

آخذت الآلة ترتفع بميل إلى أعلى.. وأحكم (مونسون) بجهد شديد قبضته على العجلة وغيّر زاوية الجناحين.. وبدا أن الآلة علقت مكانها فى السماء بلا حراك لمدة نصف دقيقة.. ثم رأى تلال (كيلبورن) و(هامبستيد) الزرقاء الضبابية التى تغطى قممها المنازل وهى تقفز إلى أعلا أمام عينيه وترتفع بثبات.. حتى ظهرت من نوافذ الآلة قبة قاعة (ألبرت هول) الصغيرة المتألقة بضياء الشمس.. وللحظة أدرك بصعوبة معنى اندفاع الأفق إلى أعلى.. ولكن عندما اقتربت أشكال المنازل أكثر، فهم عندئذ ما فعله.. لقد أمال الجناحين كثيرًا جدًا ومن ثم أخذت الآلة الطائرة تنقض مسرعة إلى أسفل فوق نهر (التيمز).

لم يستغرق هذا التفكير والتساؤل والإدراك سوى ثانية واحدة من الزمن، بعدها هتف (وودهاوس) قائلاً: "هذا كثير جدًا!".. وفى الحال أرجع (مونسون) العجلة نصف المسافة التى حركها من قبل بهزة عنيفة.. وعندها هبطت (كيلبورن) و(هامبستيد) مرة أخرى إلى الحافة السفلى للنوافذ.. كانا الآن على ارتفاع ألف قدم فوق محطة (كومب ومالبن).. بعد خمسين ثانية من انطلاقهما.. وأخذا ينطلقان بسرعة مخيفة.. بمسافة لا تتعدى ٨٠ قدمًا فوق محطة (إيست بوتنى) بخط مقاطعة (متروبوليتان).. والناس الذين يملأون أرصفة المحطة يصرخون من فرط الدهشة.

دفع (مونسون) ريش المروحة إلى أعلى ضد الهواء، وفوق (فولهام) استدارا عائدين بميل شديد فى الجو.. وأخذت الحافلات تنحرف وتتخبط فى طريق (فولهام) وبدأ الناس يصرخون.

ثم هبطا مرة أخرى وبزاوية حادة أيضًا.. وما زالت الأشجار والمنازل البعيدة حول تلال (بريمورس) تقفز عبر نوافذ (مونسون).. ثم فجأة رأى أمامه النباتات الخضراء فى حدائق (كينسجتون) وأبراج المعهد الملكى.. كانا يقودان الآلة إلى أسفل فوق (ساوث كينسينجتون).. ثم بدأت أبراج متحف التاريخ الوطنى تظهر فى المشهد.. ثم جاءت ثانية مميتة من التفكير الخاطف.. لحظة من التردد.. تُرى هل يجب عليه أن يحاول الطيران بعيدًا عن الأبراج، أو ينحرف شرقًا؟

وقام بمحاولة مترددة لتحرير الجناح الأيمن.. وجعل السقاطة نصف حرة.. وقبض باهتياج على عجلة القيادة.. وبدت مقدمة الآلة الطائرة تقفز لأعلى أمام ناظريه.. وضغطت العجلة على يده بقوة هائلة، ولم يلبث أن فقد السيطرة عليها.

كان (وودهاوس) جالسًا وهو منحن، ثم صاح بصوت أجش واندفع تجاه (مونسون) وقال: "لقد ابتعدنا كثيرًا!".. وصرخ ثم تشبث بالحافة العليا من أجل حياته.. فى حين اندفع (مونسون) بقوة أطاحت به إلى أعلى ثم سقط فوقه.

حدث كل ذلك بسرعة لدرجة أن ربع الناس فقط الذين يتحركون هنا وهناك فى (هايد بارك) وطريق (برومبتون) وطريق المتحف رأوا تلك الكارثة الجوية.. وظهر هناك جسم مجنح بعيد فوق مجموعات المنازل إلى الجنوب، يسقط ويزداد حجمًا وينقض بسرعة باتجاه المعهد الملكى.. جناحان طائران يمتدان لمسافة كبيرة ويدوران ربع دائرة وينطلقان بسرعة شرقًا ثم يقفزان رأسيًا فى الهواء.. ثم

انقذف منها جسم أسود وسقط وهو يدور فى دوائر. ياللعجب! إنهما رجلان يمسكان بقوة بعضهما ببعض! وأخذا يدوران وهما يهبطان، حتى انفصلا بعضهما عن بعض إثر اصطدامهما بسقف نادى الطلبة.. وارتدا من قوة الاصطدام وسقطا فى الأشجار الخضراء فى اتجاه الجنوب منها.

لمدة نصف دقيقة تقريبًا استمر الهيكل المدبب للآلة الضخمة منطلقًا رأسيًا إلى أعلى.. والمروحة تدور تلقائيًا..ثم مرت لحظة قصيرة، لكنها بدت عمرًا بالنسبة لكل من لاحظ الكارثة، ظلت فيها الآلة جاثمة ساكنة فى الهواء.. ثم اندلع لهب أصفر بكامل طولها بدءًا من محرك المؤخرة.. وبسرعة متزايدة مثل صاروخ مشتعل سقطت على كتلة صلبة من المبانى التى كانت من قبل كلية العلوم الملكية.

أمسكت المروحة الضخمة البيضاء والذهبية بسور المبنى ثم تكومت على نفسها مثل ملاءة مبتلة.. وعلى الفور تحطمت الآلة مغزلية الشكل المتقدة بالنيران وتطايرت شظاياها.. واستمر ذلك التحطم وتطاير الشظايا خلال سقوطها على الزاوية الشمالية الغربية من المبنى.

غير أن التحطم والنيران المندلعة من (البارافين) المشتعل الذى تطاير باتجاه السماء من المحركات المحطمة لآلة الطيران البائسة.. والشظايا المنفصلة التى عُثر عليها فى الحديقة التى وراء نادى الطلبة..وكتل السور الأصفر والطوب الأحمر الذى سقط مباشرة فى الطريق.. وهرولة الناس هنا وهناك مثل مجموعة من النمل

وسط تل نمل محطم.. وانطلاق سيارات الإطفاء.. وحشود الناس.. كل تلك الأشياء التى تنتمى إلى قصتنا هذه، التى كُتبت فقط لكى تُخبرك كيف تمت أول المحاولات الناجحة للآلات الطائرة وكيف تم إطلاقها وطيرانها.

وعلى الرغم من أن (مونسون) فشل فى آخر الأمر بشكل مأساوى، فإن سجل إنجازه ما زال أثرًا تذكاريًا كافيًا لتوجيه الشخص التالى له من تلك الحفنة من التجريبيين العظماء، الذين سيتمكنون إن عاجلاً وإن آجلاً من السيطرة على قضية الطيران الهامة هذه وإيجاد الحلول الناجعة لها. وما زال هناك بين حديقة (وورسستر) و(مالدن) الطريق الحديدى الرائع، الذى أصبح صدئًا الآن بل وخطيرًا فى بعض أجزائه هنا وهناك، لكى يشهد على أول صراع يائس للدفاع عن حق الإنسان فى اختراق الهواء.

المؤلف فى سطور :

هـ. ج ويلز (١٨٦٦ - ١٩٤٩)

- ولد (ويلز) فى (برروملى) بمقاطعة (كنت) بإنجلترا.
- عمل بالتدريس والصحافة.
- يعد من الرواد الحقيقيين لأدب الخيال العلمى، كما أنه كاتب ذو مواهب متعددة، تكاد تتنافس بعضها مع بعض، فهو مؤلف لقصص الخيال العلمى، وروائى اجتماعى، وإنسان مجادل قوى الحجة، وشخص يجيد التنبؤ بالمستقبل والتحذير من العوائق المحتملة، كما أنه مؤرخ للبشرية.
- من أشهر رواياته (آلة الزمن) عام ١٨٩٥، و(جزيرة د، مورو) عام ١٨٩٦ و(الرجل الخفى) عام ١٨٩٧ و(حرب العوالم) عام ١٨٩٨ و(أول بشر على القمر) عام ١٩٠١. وكان تأثير الكاتب فوريا، إذ سرعان ما حصل على التهنئة والثناء بوصفه مفكرًا عبقريًا وتعكس معظم هذه الروايات آراء (ويلز) فى الثورة العلمية والتصدى للنفاق الاجتماعى والبحث عن العدالة الاجتماعية.

- تحولت أفكار (ويلز) إلى الجوانب الاجتماعية والسياسية فى الحياة، واتضح ذلك فى سلسلة كتبه الطويلة، التى بدأت بكتاب (توقعات) عام ١٩٠١ و(اكتشاف المستقبل) عام ١٩٢٢ و(مدينة فاضلة حديثة)، ونجده فى هذه الكتب ـ إلى جانب تصويره المبدع للمستقبل ـ يضمنها بعض النبوءات الاجتماعية ووجهة نظره الشاملة المريدة للمجتمع الإنجليزى فى ذلك الوقت.
- وبعد عام ١٩٠١، كانت وسيلة (ويلز) الرئيسية هى رواية الأفكار، وهى خلاصة من رواية شبه سيرة ذاتية والظروف المتغيرة للعلاقات بين الرجل والمرأة وتعد (مكيافللى الجديد) أول رواية له والأفضل فى هذا المجال، تليها فى الشهرة (السيد بريتلنج ثاقب البصر) التى نشرت فى ذروة الحرب العالمية الأولى، وابتكر (ويلز) شعار «الحرب التى سوف تنهى الحرب». وأصبح مهتمًا للغاية بصنع السلام، وإنشاء سلطة عالمية لتجنب الصراعات المستقبلية بين الدول. وعندئذ عاد ببساطة إلى دور المعلم والمربى، وكتب سلسلة من الكتب التعليمية الموسوعية، حيث بدأها بكتاب (ملخص تاريخ العالم) الذى يعد من أشهر كتبه. وبصدور هذا الكتاب وصل (ويلز) إلى قمة شهرته ومجده.

المترجم فى سطور :

رؤوف وصفى صبحى

- ولد فى القاهرة.
- عمل بالتدريس بجامعات مصر والعراق والكويت.
- نال جائزة تبسيط العلوم ـ أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا.
  وجائزة الثقافة العلمية ـ أكاديمية البحث العلمى والتكنولوجيا.
- عضو اتحاد الكتاب.
- عضو لجنة الثقافة العلمية ـ المجلس الأعلى للثقافة.
- ترجم العديد من الكتب العلمية، وفى مجال الخيال العلمى منها :
  «الروبوت» و«الحاسب الآلى» و«كوكب الأرض» و«مذنب هالى» (مؤسسة الكويت للتقدم العلمى) ومسرحيات من الخيال العلمى (وزارة الإعلام ـ الكويت). وقام بترجمة «ثلاث رؤى للمستقبل»، و«حرب العوالم» و«الرجل الخفى» للمركز القومى للترجمة، كذلك ترجمة مقالات علمية بمجلة الثقافة العالمية.

- شارك فى العديد من الندوات منها «ندوة الخيال العلمى» وقام بإعداد البرنامج التليفزيونى «سؤال وجواب» وتقديمه بتليفزيون الكويت و«الخيال العلمى» (إذاعة الكويت).
- نشرت مقالات وقصصه فى عدد كبير من الصحف والمجلات العربية، منها جريدة الأهرام وجريدة الأخبار ومجلة العلم (مصر)، ومجلة العربى الكويتية ومجلة «التقدم العلمى» مؤسسة الكويت للتقدم العلمى، ومجلة «دبى الثقافية» الإمارات.
- أحد رواد أدب الخيال العلمى والثقافة العلمية بالوطن العربى،
- المنسق العام لرابطة كتاب الخيال العلمى العرب.
- حاصل على شهادة تقدير من نقابة العلميين.

التصحيح اللغوى : **وليد خير الله**

الإشراف الفنى : **حسن كامل**

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب



إن الرؤى والمفاجآت التى تكشف عنها قصص (ويلز) القصيرة، تترك للقارئ مدى واسعا فى تفسيرها؛ إذ يستطيع أن يفسرها بشكل أسطورى أو نفسى أو اجتماعى أو غير ذلك، ولكننا نلاحظ أن (ويلز)، فى أواخر مسيرته الأدبية، يترك لنا لهذا التفسير مساحة أقل، والحقيقة أن ويلز رغم كل ذلك، يستخدم

- بوضوح - رموزاً وإشارات تختلف تماماً عن تلك التى شاعت فى الأدب الغربى طوال القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حيث يخلق معانى غير عقلانية بالمرة للعالم الآلى الذى تفرضه النظريات العلمية، وبينما يبدو لنا فى البداية أن (ويلز) يعرض تضاربا بين الواقع والرمز، فإن الخيالات والتصورات الغريبة، التى يفاجئنا بها ليس المقصود أن تكون بديلاً للواقع، وإنما امتداد خيالى له، ولعله يُفهم ضمنياً من ذلك، أنه فى آخر الأمر سوف يتمكن العلم من استيعاب الأشياء الخيالية الحالية، داخل نسيج عالمه المبنى من الحقائق.

وقصص (ويلز) قوية فى كشفها عن العجائب والغرائب، ولا تطرح علينا سوى إحساس رمزى وغامض بالأمور الغيبية أو التى فوق طاقة البشر.

التصميم الأساسى للغلاف: عبد الحكيم صالح
تصميم الغلاف: إيناس الهندى